الياقوت



شهد قربان

مركز الأدب العربي
للنشر والتوزيع

t.me/twinkling4



الياقوت

ⓒ مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع ، ١٤٤٨هـ

قريان ، شهد
الياقوت. / شهد قربان - ط١ . .- الرياض ، ١٤٤٨هـ
٥٩٦ ص ؛ .سم

رقم الإيداع: ١٤٤٨/٢٨٥٠
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٦٢٢-٠٩-٤

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :

Www.Adab-Book.Com

مركز الأدب العربي

@Services_Book

@ServicesBook1

مركز الأدب العربي

adabarabic7

aladab@subeie.com

لطلبات النشر

+966582533504

+966590358100

المبيعات

+966561212210

دولة الإمارات العربية المتحدة +971569767989

جمهورية مصر العربية +201120102172

جمهورية سوريا العربية المبيعات +963959307770 النشر +963959306669

للطلب من المتجر الالكتروني

تنفيذ الطباعة
مطبعة الكتاب العربي - الرياض

الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر .

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف دون ادنى مسؤولية على الناشر .



الياقوت

رواية

الكتاب الرابع من سلسلة 005

شهد قربان


Shahdqurban


shahdqurban


SHAHDQURBAN

الطبعة الأولى

1448 هـ - 2026 م

تم تجهيز هده النسخة بواسطة:

• أشرف غالب •

جميـع الحقوق محفوظة ©

مكتبة ضَـــاد الإلكترونية

t.me/twinkling4

أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد

https://t.me/twinkling4



أعزّائي القرّاء،

تتضمّن هذه الرواية مشاهدَ وأحداثًا لا تُعبّر عن قناعاتي الشخصيّة، ولا عـــن قيمنا الدينيّة والأخلاقيّة، ولا تهدف إلى تجميل الخطأ أو تبريره أو الدعوة إليه.

وكلّ ما يرد فيها إنّما يخدم السياق الدراميّ، لذا أرجو قراءتها بوعيٍ ونضج، والتمييز فيهـــــــــــــا بين الخيال والواقع، وبين الخـطأ والصواب.



إلى الذين يمضون قُدُمًا رغم كلّ ما فقدوه.. هذا الكتاب لكم.

1: مقدمة

أتعس حقيقة عن الخيانة أنّها لا تأتي من الأعداء؛ فهم لا يظهرون الحبّ، ولا يخفون الكراهية، ولا يتظاهرون بالاهتمام، ولا يطعنون من الخلف.

تأتي الخيانة من أولئك الذين منحناهم ثقتنا، وفتحنا لهم قلوبنا قبل منازلنا، وتشاركنا معهم الطعام والشراب، والأحاديث والدموع والضحكات،



وصنعنا معهم ذكريات لا تُنسى.

كلّ شيء يمكن أن يتغيّر في ثانية واحدة فقط، وهذه الليلة هي الدليل القاطع على ذلك.

حفلة الخطوبة التي احتضنت الضحكات والرقصات تحوّلت إلى مأساة مفجعة، ولم يكن ذلك بسبب ظهور رجل من الماضي، بل بسبب رسالة واحدة كانت كالصفعة؛ أخرست الجميع للحظة قبل أن تفجّر الفوضى.

انطفأت الموسيقى، وتناثرت الكؤوس، وتفرّق الضيوف، وعلا صوت أندرياس الغاضب وهو ينادي بنيتو ويأمر الجميع بالبحث عنه، بينما وضعت لورينا يدًا على قلبها، تحدق في الفراغ حيث كان يقف ابنها قبل لحظات، وتشعر بقلبها ينقبض شيئًا فشيئًا.



انتشر الرّجال في كل اتجاه، ولم تمضِ لحظات حتّى تعالت صرخات النساء من جهة الحمّامات، فهرع الجميع، وفي مقدّمتهم الدون فيرناندو، ليروا الرجال يحملون جثّة بنيتو ويضعونها برفق على الرمال.

أطلقت لورينا صرخة مختنقة قبل أن تسقط على الأرض إلى جوار أندرياس الذي لم يتحرك، وكأنه عالق في عالم آخر. كان يسمع كل شيء حوله، لكنه لم يستطع الحراك بعد؛ لم يكن يرى سوى طيف ابنه وهو يتلاشى في الهواء.

أعادته صفعة خفيفة من الدون إلى الواقع، وقال بنبرة حازمة:

«أندرياس! عُد إلى رشدك وركز معي».

قبض على هاتفه وقد اسودّت عيناه بالحقد، وقال:

«لقد أخذوا ابني».

«أرني الرسالة التي أُرسلت إليك».

ناوله أندرياس الهاتف قائلًا:

«قامت بمشاركة موقعها المباشر بعد دقيقة من الرسالة الأولى، لكنه لم يعد مستمرًا الآن... لقد حدث شيء ما بالتأكيد».

أعاد فيرناندو توجيه الرسالة إلى لورينزو، ثُمّ هتف بجميع رجاله:

«فلينتشر جميع الرجال للبحث عن السيارة، وأغلقوا كل مداخل ڤيراكروز ومخارجها فورًا! لا أحد يدخل أو يخرج!».

انتفض المكان بأكمله، وهرع أندرياس للاطمئنان على لورينا التي ما تزال تنتحب. مسح على وجهها برفق، بينما كانت تردد:

«لقد أخذوا ابننا... لقد أخذوه».



«سنعثر عليه، لذا تماسكي. أحتاجكِ أن تكوني قوية يا لوري».

هزت رأسها بخوف، وشدت على يده بقوة.

«ماذا لو آذوه؟».

اضطرب أندرياس لمجرد التفكير فيما قد يفعله الخاطفون بابنه، لكنه تمالك نفسه أمام لورينا وقال بصوت مرتجف:

«سنجده... سنجدهم جميعًا».

التفت، مثل الجميع، عندما سمعوا صوت مكابح حاد عند المدخل، ثُمّ شاهدوا مارسيل يترجل من السيارة بخطوات سريعة، بعد مكالمة هاتفية من والده بعثرت أفكاره وأثارت اضطرابه، لكنه لم يُظهر ذلك على ملامحه.

رمقه أندرياس بامتعاض.

«ما الذي تفعله هنا؟».

اقترب منه مارسيل وقال بنبرة حادة:

«أرني الرسالة التي أُرسلت إليك».

«لن أريك شيئًا، فاغرب عن هنا!».

قبض مارسيل على قميصه وجذبه نحوه بعنف.

«لست هنا للعب معك. أرني الرسالة اللعينة وحسب، وإلا...».

صفع أندرياس يده وقال بازدراء:

«وإلا ماذا؟».

تأهب آل غارسيا للتدخل، لكن الدون فيرناندو صاح بغضب:



«كفى، كلاكما!».

ثُمّ أردف بنبرة صارمة:

«ابنك، وابنتك ووالدتها في خطر، وأنتما تتشاجران كالأطفال! أره الرسالة يا أندرياس، ولنتحرك».

تبادلا نظرات حادة حملت الكره والمنافسة في آن واحد، ثُمّ أطلق أندرياس تنهيدة مختنقة وناوله الهاتف أخيرًا.

تصفح مارسيل الرسالة، ثُمّ اتجه نحو سيارته دون أن ينبس بكلمة، وانطلق إلى الموقع.



2: خيانة

كان الظلام دامسًا عندما استيقظت روبي أخيرًا، وكأنَّه التصق بعينيها. كان الهواء ثقيلًا، مشبعًا برائحة الحديد والصدأ التي تخنقها مع كلِّ نفسٍ تأخذه، وصوت اهتزازٍ غريبٍ يتردَّد صداه حولها ويزيد من ذعرها.

لم تعلم أين هي، لكنّها شعرت أنَّها داخل تابوتٍ حديديٍّ، باردٍ وموحشٍ.

تساءلت إن كانت ميتةً، حتّى سقطت قطرة ماءٍ ملوَّثٍ على وجهها من العدم، فأدركت حينها أنَّها حيَّةٌ، وعالقةٌ بعيدًا عن ابنتها!

تحسَّست ما حولها بارتجافٍ حتّى لمست الجدار المعدني. علقت صرختها في حنجرتها لثوانٍ، لكنّها أجبرتها على الخروج، وصرخت تنادي ابنتها، وميا، وأندريه.

راحت تضرب على الجدار بكفَّيها المرتجفتين حتّى دوَّى صوتٌ قريبٌ من الخارج، وكأنَّ أحدهم ركل الجدار بقدمه.

ألصقت أذنها بالجدار وحاولت الإنصات. كانت هناك أصواتٌ كثيرةٌ... هدير محرِّكٍ بعيدٍ، وهمهمة رجالٍ، ووقع أقدامٍ ثقيلةٍ، وصوت صفير الرياح يمتزج بالأمواج.

أدركت أنَّها في البحر، لكنّها لم تملك وقتًا للذعر؛ فخوفها على الصغار كان أعظم من ذلك. صرخت بأسمائهم حتّى ركل أحدهم الجدار مجدَّدًا،



وعلت أصواتٌ رجوليَّةٌ تتبادل الضحك والسِّباب، ثُمّ انفتح الباب المعدني فجأةً!

تسلَّل الضوء إلى الداخل، فأضاء الحاوية بضوءٍ أصفرَ باهتٍ. رفعت يدها لتحمي عينيها من وهج المصباح الذي سُلِّط عليها، ثُمّ استرقت نظرةً حولها، وتأكدت أنَّها في البحر، على متن باخرةٍ، وداخل حاوية شحنٍ.

«لقد استيقظتِ أخيرًا».

جالت عيناها على وجوه الرجال بذعرٍ، وميَّزت السائق الذي اختطفهم على الفور، فهتفت بصوتٍ مرتجفٍ:

«أين أطفالي؟».

ضحك الرجال فيما بينهم وكأنَّها ألقت نكتةً. قبضت على فستانها ونهضت لتندفع بكلِّ ما تملك من قوَّةٍ نحو الباب. ضربت وصرخت، وحاولت أن تشقَّ طريقها من بينهم وتهرب، لكنَّ اثنين منهم أمسكا بها ودفعاها إلى الخلف بعنفٍ، فارتطم ظهرها بالأرضية المعدنية.

تحمَّلت الألم وجلست بثقلٍ، ثُمّ صرخت في وجوههم:

«أين أطفالي؟ ماذا فعلتم بهم؟».

ردَّ أحدهم بنبرةٍ ساخرةٍ:

«أعلم مكانهم، ولكنِّي لن أخبرك».

تسارعت أنفاس روبي عندما ضحكوا مجدَّدًا، ثُمّ شقَّ صوتٌ هادئٌ ضحكاتهم وأخرسهم تمامًا:

«ابتعدوا...».

أفسحوا المجال قليلًا، فعبر روبن من بينهم وتوقَّف ليتأمَّل روبي.



هتفت باسمه كأمٍّ مذعورةٍ على صغيرها، قبل أن يستوعب عقلها ما تراه جيِّدًا.

تجمَّد جسدها الذي همَّ بالاندفاع نحوه وإبعاده عنهم، بعدما أوقفته وقفته الثابتة، وملامحه الساكنة، ونظراته الباردة، وملابسه المختلفة.

كانت هالته مختلفةً، لكنَّ قلبها المرتجف أنكر ما تراه، ومنع عقلها من التفكير أكثر.

همست:

«روبن...».

«دعونا وحدنا».

رمقه الرجال بازدراءٍ قبل أن يتفرَّقوا، فإذا بروبي تنطق مجدَّدًا:

«روبن... ما الذي...».

قاطعها بجفاءٍ:

«اسمي ليس روبن، ولا حتّى شارلتز موجيل...».

ثُمّ رمقها ببرودٍ.

«لقبي هو البارون، وأنا العضو السادس في مشروع النبلاء».

أجفلت روبي وهزَّت رأسها بعدم فهمٍ.

«ما... ما الذي تتحدَّث عنه؟».

أجابها بنبرةٍ متَّزنةٍ:



«رئيسي هو تشرشل بيلز، الرئيس السابق لمنظَّمة باترو التي تعرفينها جيِّدًا. نحن مشروعٌ سرِّيٌّ كان يعمل عليه منذ سنواتٍ. مُنحنا ألقابًا نبيلةً، وربَّونا لنكون أدوات القتل التالية التي تتخطَّى 005».

زفر ضحكةً خفيفةً، ثُمّ تابع بتكبُّرٍ:

«ثرثروا عنه كثيرًا في مقرِّنا، ووصفوه بالأسطورة التي لن تتكرَّر، ولكنِّي وجدت كلامهم مبالغًا فيه. شعرت بالتحدِّي كذلك، لذا بحثت عنه، وجمعت بعض المعلومات حتّى علمت بقصَّتك أيضًا».

رسم ابتسامةً خبيثةً وأضاف:

«أنتِ الهدف الذي تركه حيًّا، وبسببك عمَّت الفوضى في كلِّ مكانٍ».

ثُمّ أردف:

«سيدفع جوناثان والش الكثير عندما يعلم أنَّكِ بحوزتنا».

كانت روبي تحدِّق به بعينين متَّسعتين، لكنّها لم تكن تراه، بل كانت ترى الخيانة ووجعها القديم ينهضان من الرماد. كانت ترى قلبها يتحطَّم وروحها تحترق.

لقد أخطأت مجدَّدًا... وثقت، وصدَّقت، وتأذَّى بسببها أعزُّ من تملك!

ظلَّت صرخة القهر عالقةً في صدرها، وضاقت غصَّة الندم حول عنقها حتّى اختنقت أنفاسها. شعرت بالعالم ينهار فوقها... وكلُّ ذلك بسبب صبيٍّ صغيرٍ أحبَّته كأمٍّ، لكنَّه انضمَّ إلى قائمة الذين طعنوها.

انمحت ابتسامة روبن عندما تساقطت الدموع من عينيها. شعر أنَّها لا تنظر إليه، بل إلى الكارثة التي جلبها.

لم يتوقَّع ردَّة فعلها التالية؛ توقَّع أن تصرخ، أو تشتمه، وربما تحاول ضربه أو حتّى قتله، لكنّها قالت بصوتٍ مبحوحٍ خرج من أعماق ألمها ولمس قلبه:

«أين ميا وأندريه؟ أعدهما إليَّ...».

حافظ على هدوئه وقال:

«لا».

هزَّت رأسها باضطرابٍ وأشارت إلى نفسها.

«أخبر رئيسك أنَّني بحوزتك. لا علاقة لابنتي وأندريه بي، لذا أطلق سراحهما وأبقني هنا».

«لا... نحن نحتاج إليهما. فالرئيس يدير تجارةً للأطفال، وهما يرتقيان إلى المعايير المطلوبة».

اتَّسعت عيناها رعبًا، وتمتمت بيأسٍ:

«لا... لا... أرجوك لا يا روبن».

همَّت بالاقتراب منه، فشعر بالخطر وقال بانفعالٍ:

«لا تقتربي! ولا تظنّي أنَّ التوسُّل، أو الأحضان واللمسات، ستنفع معي».

رفع ذقنه ونظر إليها باستعلاءٍ.

«أنتِ طيِّبةٌ جدًّا يا روبي، إلى درجة الغباء، ولهذا يتمُّ خداعك بسهولةٍ. لم تشكّي بي أبدًا، حتّى بعدما أخبرتك بقصَّتي التي، بالمناسبة، فيها الكثير من الثغرات والحقائق الناقصة، لكنَّك لم تسألي؛ لأنَّك كنتِ تستمعين بقلبك الرقيق، لا بعقلك».

تراجع خطوةً إلى الخلف وأضاف ببرودٍ:

«هذا العالم وحشيٌّ، ولا يمكن لأمثالك النجاة فيه».

لم تكن كلماته مجرَّد إهانةٍ، بل كانت طعنةً أخرى في جرحٍ لم يلتئم يومًا.

نظرت إليه بانكسارٍ، ثُمّ زحفت عندما أغلق الباب، وضربت الجدار المعدني وصرخت بصوتٍ مخنوقٍ:

«لا، لا، لا! روبن، عُد أرجوك! أبقني هنا وأعدهما إلى المنزل. سأفعل ما تريد وما يريده رئيسك، لذا أطلق سراحهما!».

صرخت ونادت بأعلى ما في صدرها من وجعٍ، لكن بلا فائدةٍ تُذكر... فلا أحد في قلبه ذرَّة رحمةٍ في هذا المكان المظلم.



في الطّابق السّفلي من السفينة، حيث التهمت الرطوبة الهواء وفاحت رائحة الزيت، اصطَّفت أقفاص حيواناتٍ ضخمةٌ إلى جانب بعضها. كان بداخلها أطفالٌ في عمر الزهور؛ يجهش بعضهم بالبكاء، ويرتجف آخرون خوفًا، فيما جلس آخرون في صمتٍ مروِّعٍ، كأنَّهم فقدوا القدرة على الكلام، يراقبون الفراغ وينصتون إلى صرير الأقفاص حين تهتزُّ مع حركة السفينة.

وفي إحدى الزوايا، جلست ميا الباكية بجوار أندريه، الذي ضمَّها إليه بإصرار طفلٍ يرفض الانهيار. كان يمسح دموعه بسرعةٍ كي لا تراها، ويحاول التماسك من أجلها ومن أجل نفسه.

رفع رأسه حين سمع وقع خطواتٍ ثقيلةٍ تقترب، ورأى رجالًا مسلَّحين يتفقَّدون الأقفاص، وفي مقدِّمتهم رجلٌ حادُّ الملامح، يحمل عنقه وشـم



أفعى مخيفةٍ، وكانوا ينادونه بـ«هوك».

«هل جميعهم على قيد الحياة؟».

«أجل، وهناك من قاوم، لكنَّنا تعاملنا معهم».

«ممتاز».

التفت هوك عندما ظهر روبن، وقال بنبرةٍ ساخرةٍ:

«انظروا من أتى... هل جئت لتتأكَّد من جودة بضاعتنا يا ولد؟».

تجاهله روبن، وراح يتفقَّد الزنازين واحدةً تلو الأخرى، حتّى توقَّف عند زنزانة أندريه وميا.

نهضت ميا ما إن رأته، وركضت نحو القضبان بخوفٍ وأملٍ في آنٍ واحدٍ.

قالت بصوتٍ اختلط فيه الفرح بالذعر:

«روبن! أين كنت؟ كنت قلقةً جدًّا، وظننت أنَّني خسرتك!...».

اقترب أندريه بخطواتٍ حذرةٍ، وحاول سحب ميا بعيدًا عن القضبان. التقط شيئًا غريبًا في ملامح روبن ونظراته، وكأنَّه لم يعد الصبي ذاته الذي كان معهم قبل ساعاتٍ.

همس، وعيناه تراقبانه بحدَّةٍ:

«ميا... تراجعي إلى الخلف. هناك خطبٌ ما».

قال روبن ببرودٍ:

«استمعي إليه، وعودي إلى مكانك يا ميا».

هزَّت رأسها بارتباكٍ.



«ما الذي تقوله؟ ولماذا أنت في الخارج؟ أين نحن يا روبن؟».

ردَّ بنبرةٍ ساخرةٍ، كأنَّه يتحدَّث عن أمرٍ تافهٍ:

«ألا ترين ما حولك؟ أنتِ في سجنٍ».

شدَّ أندريه قبضته وقال بغضبٍ:

«ما الذي يحدث؟ إلى أين تأخذوننا؟».

رمقه روبن بابتسامةٍ متغطرسةٍ.

«ستعرف كلَّ شيءٍ قريبًا، فلا تستعجل».

ذرفت ميا الدموع وهمست بارتجافٍ:

«ما الذي يحصل؟ هل أنت... هل أنت مع الأشرار؟».

ضحك ضحكةً قصيرةً وباردةً.

«أشرار؟ يا لكِ من طفلةٍ... لكن نعم، أنا مع الأشرار. كانت لديَّ مهمَّةٌ، ونجحت فيها».

صرخت وهي تهزُّ القضبان:

«ما الذي تقوله؟ أنت تكذب، صحيح؟ هذا مستحيل!...».

نظر إليه أندريه بذهولٍ، ثُمّ قال بصوتٍ يرتعش من الغضب:

«كنت تكذب كلَّ هذا الوقت! ولكن كيف؟ ولماذا؟ ما الذي تريده؟».

«كيف ومتى ولماذا... أسئلةٌ لا شأن لك بها، ولن أشرح خططي لطفلين».

ردَّ أندريه بحدَّةٍ:



«أنت طفلٌ مثلنا!».

اقترب روبن خطوةً، ورمقه بنظراتٍ خاليةٍ من أيِّ دفءٍ.

«لا... أنا مختلفٌ عنكما، والآن اجلسا، وإلَّا ستتمُّ معاقبتكما».

شهقت ميا من بين دموعها.

«أين ماما؟ أين أخذتها؟».

«إنَّها محبوسةٌ، ولن تريها مجدَّدًا أبدًا يا ميا».

مدَّت يدها الصغيرة من بين القضبان.

«لا، لا! سأضربك أيُّها الكاذب. أخرجنا من هنا، ودعني أرى ماما!...».

نظر إلى يدها التي تحاول الوصول إليه بيأسٍ، ثُمّ قال:

«لن يخرجك أحدٌ من هنا... لا والدتك، ولا حتّى والدك الذي تخلَّى عنك. فهو ليس من النوع الذي ينقذ، بل يقتل!...».

أجفلت ميا دون أن تفهم ما قاله، فيما انحنى روبن نحوها قليلًا، وكأنَّه يهمس بسرٍّ خبيثٍ:

«أتعلمين من هو والدك يا ميا؟ هل أخبرك بما تجهلينه، وبما أخفاه عنك الجميع؟».

صرخ أندريه:

«أيُّ شيءٍ ستقوله كذب!».

تجاهله روبن وتابع ببرودٍ:

«والدك قاتلٌ مأجورٌ يُعرف في العالم باسم 005. يدفعون له المال ليقتل الآخرين، وكانت والدتك أحد أهدافه، لكنّها نجت. هـــل تفهمين؟

أنتِ ابنة قاتلٍ!».

تسارعت أنفاس ميا وانكمش كتفاها، ثُمّ انفجرت باكيةً:

«أنت كاذب! كاذب!».

ضمَّها أندريه إليه، وكأنَّه يحاول حمايتها من الكلمات التي فطرت قلبها الرقيق، ثُمّ صرخ في وجه روبن:

«ستدفع الثمن أيُّها الوغد!».

اقترب روبن بهدوءٍ، ثُمّ سحب جهازًا صاعقًا من جيبه، ومدَّه سريعًا من بين القضبان ليصعق أندريه صعقةً جعلته يصرخ ويسقط على الأرض، مثيرًا بذلك هلع ميا وبقيَّة الأطفال الذين راحوا يصرخون ويبكون.

ارتجف جسد أندريه، لكنَّه لم يفقد وعيه، بل ظلَّ يرمق روبن بحقدٍ، بينما كانت ميا تبكي حزنًا وخوفًا عليه.

«لماذا يا روبن؟ لماذا، أيُّها الشرير؟».

هزَّ روبن كتفيه بلا مبالاةٍ.

«إنَّه مستفزٌّ».

في ڤيراكروز... تمَّ تمشيط المنطقة، وتحديد آخر موقعٍ لهاتف روبي،

كما استُخرجت جميع المشاهد من كاميرات المراقبة لتتبُّع أثر السيارة، بمساعدة خبيرٍ تقنيٍّ من آل كورتيز.

كانت الشاشات تعرض تسجيلات ما حدث من كلِّ الزوايا، مثيرةً أعصاب مارسيل وغضب أندرياس، الذي أشار إلى إحدى الشاشات وقال:



«لقد توقَّفت في ذلك الزقاق. لا توجد كاميرات هناك، يمكننا رؤية المدخل والمخرج فقط».

سرَّع الخبير التقني التسجيل حتّى غادرت السيارة السوداء، وحينها قال مارسيل ولورينزو في الوقت ذاته:

«تابعوا مراقبة الزقاق».

التفت الجميع إليهما، فتبادلا النظرات لثانيةٍ، قبل أن يقول لورينزو:

«أعلموني إن غادرت منه سيارةٌ أخرى أو ظهر أيُّ شيءٍ. وتابعوا مراقبة السيارة الأولى. إذا مرَّت أيُّ سيارةٍ عامَّةٍ من الموقع ذاته، فأريد الوصول إلى صاحبها ومعرفة إن كان يملك كاميرا التقطت المدخل أو المخرج».

استمرَّ الانتظار يلتهم أعصاب الجميع، وخاصَّة مارسيل الذي كان يحسب الدقائق والثواني التي تضيع منه.

«لقد غادرت سيارةٌ بيضاء الزقاق بعد ستِّ دقائق».

أمرهم لورينزو بهدوءٍ:

«اتبعوها».

تتبَّعوا السيارتين.

توقَّفت سيارة بنيتو داخل ورشةٍ وبقيت هناك، أمَّا السيارة البيضاء فقد وصلت إلى الميناء، واختفت في زاويةٍ خارج نطاق تغطية الكاميرات.

التقط أندرياس معطفه من فوق المقعد وقال بنبرةٍ صارمةٍ:

«دانتي، خذ بضعة رجالٍ معك واذهبوا إلى الورشة. ابحثوا عن السيارة واستجوبوا الجميع. أمَّا البقيَّة فستتَّجه إلى الميناء».



امتثل دانتي للأوامر، وانطلق أندرياس ورجاله، وكذلك مارسيل، يفتِّشون الأرصفة ويستجوبون العمَّال، ويزرعون الذعر في قلوبهم حتّى يحصلوا على إجاباتٍ.

ناولهم أحد الموظَّفين قائمة السفن بيدٍ مرتجفةٍ.

«هذه قائمةٌ بالسفن التي غادرت اليوم».

تصفَّحها أندرياس بنظراتٍ حادَّةٍ.

«هل هناك معلومةٌ أخرى قد تفيدنا؟».

ازدرد الموظَّف ريقه بتوتُّرٍ.

«هذا كلُّ ما لدينا».

نادى خوليو باسم أندرياس، ثُمّ اقترب وهو يجرُّ معه عاملًا نحيلًا وصغير السنِّ.

«هذا يقول إنَّ العدد لا يتطابق مع التقرير».

نظر مارسيل إلى الشاب وسأله:

«اشرح».

أومأ الشاب بتوتُّرٍ وأجاب:

«أنا أعدُّ السفن عندما أنظِّف... تذكر القائمة خمسًا وعشرين سفينةً، لكنَّني عددت ستًّا وعشرين. كانت هناك سفينةٌ وصلت قبل الدفعة الأخيرة بساعتين، ثُمّ غادرت معهم ليلًا من الرصيف الثالث».

التفت أندرياس إلى الموظَّف الأوَّل، وأخرج سلاحه وأشهره في وجهه.

«قلت إنَّ القائمة دقيقة!».

هتف الرجل بذعرٍ:

«أقسم لك أنَّ هذا كلُّ ما أعرفه! إنَّه تقرير المدير!...».

سأله أندرياس بصرامةٍ:

«ما اسمه؟».

«ت... تافيو راموس، يا سيدي».

أشار أندرياس إلى خوليو، الذي غادر فورًا لجلبه، بينما ظلَّ مارسيل يتأمَّل الميناء والرافعات لثوانٍ قبل أن يلتفت إلى العامل الذي عدَّ السفن.

«هل كاميرات الرافعات تعمل؟».

«ليست بتلك الجودة، لكنّها تعمل».

«أرشدني إلى غرفة التسجيلات والمراقبة».

«حاضر».

تبع مارسيل العامل إلى الغرفة المقصودة، ولحق بهما أندرياس دون أن ينبس بكلمةٍ، آملًا أن يجدوا شيئًا مفيدًا يقرّبه من الوصول إلى ابنه، وروبي، وميا.

«هذه هي الغرفة يا سيدي».

أمسك العامل بمقبض الباب وحرَّكه، ولم يسمع مارسيل صوت انزلاق لسان القفل المعتاد، بل سمع نقرةً خافتةً ومألوفةً جعلته يصرخ:

«ابتعدا!...».

ابتعد أندرياس دون تفكيرٍ وانبطح على الأرض، لكنَّ العامل المسكين لم يستوعب التحذير، فقُذف بعيدًا كالدمية عندما انفجرت الغرفة واندفع



اللهب منها!

انحبس نفس أندرياس وهو ينظر إلى النيران بفزعٍ، وسرعان ما تعالت أصوات رجاله الذين هرعوا إليه مذعورين.

«أنا بخير! الشاب مصابٌ، فاحملوه وخذوه إلى أقرب مشفى، ولنحاول إخماد النيران».

حينها جاءهم صوت مارسيل، الذي وقف محدِّقًا بالنيران:

«لا فائدة».

ألقى بهذه الكلمات فقط، وغادر كمن يرفض إضاعة ثانيةٍ أخرى على مجرَّد انفجارٍ.

نهض أندرياس ولحق به، ليجده يتأمَّل الأفق.

سأله بغضبٍ:

«ما الذي تنوي فعله؟».

أجاب مارسيل دون أن يلتفت:

«لا شأن لك».

اعترض أندرياس طريقه وقال بامتعاضٍ:

«بل لي شأنٌ، فكلُّنا نسعى إلى الهدف ذاته!».

ردَّ مارسيل بجمودٍ:

«لا... أنت تسعى للعثور على ابنك الذي لم تنفكَّ تصرخ باسمه، والبقيَّة يسعون للعثور على الصغيرة. لا أحدٌ منكم ذكر اسم روبي».

صفعه بكلماته وأخرسه للحظةٍ.



كان مارسيل محقًّا ومخطئًا في الوقت ذاته؛ فأندرياس، وإن لم يذكر اسم روبي، كان يفكّر بها ويقلق عليها أيضًا، وحتّى على ميا التي يعدُّها ابنةً له.

«كلُّنا قلقون عليهم».

«وكلُّكم لديكم أولويَّات... وأولويَّتي هي العثور على روبي».

مضى في طريقه، فصاح أندرياس بغضبٍ، وكأنَّه يذكّره:

«وميا أولويَّتك أيضًا، لذا يجب عليك إيجادها أيُّها اللعين!».

ثُمّ زفر بغيظٍ وأردف:

«لماذا أتعب نفسي بالحديث إليك وأنت السبب في كلِّ شيءٍ؟ حللت على حياتنا كاللعنة، ودمَّرت روبي، وآذيت مشاعر ابنتك التي لا تعلم حتّى كيف تبدو!».

تباطأت خطوات مارسيل حتّى توقَّف.

ظنَّ أندرياس أنَّ كلماته اخترقت شيئًا فيه وأيقظت ضميره الميت. أراده أن يشعر بالذنب، أن ينكسر للحظةٍ، وأن يرى ما خسره...

لكنَّه لم يكن يعلم أنَّ مارسيل يدرك الألم الذي سبَّبه، والنيران التي أشعلها في قلب روبي.

قال بصوتٍ منخفضٍ خالٍ من الانفعال:

«أعرف كيف تبدو الصغيرة...».

ثُمّ استطرد، وقد استعاد بروده:

«اتصل بابن عمِّك. على الأرجح أنَّ المدير مقتولٌ في منزله، وقد يتفجَّر



المنزل مثل الغرفة».

ارتبك أندرياس وتشوش، ثُمّ سأله:

«وكيف تعرف ذلك؟».

«قد يكون تشرشل بيلز العقل المدبِّر وراء ما يحدث، فهذا أسلوبه».

صعد مارسيل إلى إحدى سيارات النقل الصغيرة، وقادها حتّى الرصيف الثالث، باحثًا عن أيِّ شيءٍ قد يفيده؛ أيَّ كاميرا غير متضرِّرةٍ ربما التقطت شكل السفينة، حتّى لو كانت في الضفَّة الأخرى.

كان لديه خيطٌ واحدٌ يبدأ من الميناء والوقت النادر، وعليه أن يجد المزيد، لكنَّه لم يملك وقتًا طويلًا؛ فكلُّ ثانيةٍ تمرُّ تباعد بينه وبين روبي، وتقرِّبها من مصيرٍ مجهولٍ...

سحب هاتفه بهدوءٍ، واتَّصل بتشرشل، الذي ردَّ بمرحٍ وتهكُّمٍ:

«ظننت أنَّني أتوهم، لكنَّه رقمك بالفعل يا 005... ما الذي قد يدفعك إلى الاتِّصال بي بعد كلِّ هذا الوقت؟».

سأل مارسيل بغضبٍ مكبوتٍ:

«أين هي؟».

«من تقصد؟».

«روبي سميث».

ضحك تشرشل ببرودٍ فاضحٍ.

«اتصلت لتسألني عن حبيبتك الصغيرة؟ وأنا الذي ظننتك تبحث عن شريك عملٍ... على كلِّ حالٍ، لا أعلم مكانها».



«لا أصدِّقك».

ردَّ تشرشل باستهزاءٍ:

«وما الذي يدفعك للشكِّ بي؟».

«أنت المشتبه الأوَّل في قائمتي، وتملك الدافع، فقل لي: ماذا تريد؟ المال؟ لديَّ الكثير منه، فحدِّد سعرك».

صمت تشرشل قليلًا، ثُمّ أطلق ضحكةً ماكرةً وقال:

«مالك سأصرفه للاختباء منك، فأنا أعلم أنَّك ستلاحقني وتنتقم. لذا ما أريده هو أن تسحب سلاحك وتطلق النار على رأسك... عندها سأدلُّك على مكانها».

أثارت جملته الأخيرة مارسيل، وجعلت الغضب يحتقن في عينيه، فهمس بنبرةٍ حملت تهديدًا قاتلًا:

«أين هي؟».

ردَّ تشرشل بسخريةٍ:

«لا أعلم».

«إذًا اختبئ جيِّدًا يا تشرشل... لأنَّني لن أرحمك حين أجدك».

«لا تهدِّد يا 005، فكلمةٌ واحدةٌ منِّي وستصبح روبي سميث وابنتك الصغيرة من الماضي».

ضحك بخفوتٍ.

«من كان يظنُّ أنَّني سأستطيع ترويضك بعد جاريد؟ يبدو أنَّ المعجزات تحدث فعلًا!».



ثُمّ قال بنبرةٍ مغرورةٍ:

«حاول العثور عليَّ. أنا في مكانٍ آمنٍ... ومعي البوصلة التي تساعدك على تحديد مواقع أهدافك».

رمش مارسيل، واشتدَّت قبضته على الهاتف، ثُمّ سأل بحذرٍ خفيٍّ:

«وكيف...؟».

«استعملت 013 لإخراجه من جحره. كلاهما بحوزتي الآن. حظًّا موفَّقًا في العثور على جرذٍ آخر قد يساعدك!».

أغمض مارسيل عينيه لثانيةٍ وتماسك أعصابه، ثُمّ حاول المماطلة وسحب أكبر قدرٍ ممكنٍ من المعلومات؛ أيَّ شيءٍ، أيَّ زلَّة لسانٍ أو ثغرةٍ قد تفيده.

قال بهدوءٍ:

«دعني أتحدَّث إلى ميكي».

ردَّ تشرشل بسخريةٍ:

«هل تريد ذلك حقًّا؟ إنَّه ثرثارٌ ومزعجٌ، لم يتوقَّف عن الصراخ وشتمك».

«دعني أتحدَّث إليه لأصدِّق أنَّه بحوزتك».

«لماذا ينتابني شعورٌ بأنَّك تستدرجني لأنفِّذ هذا الأمر؟ أظنُّ أنَّها حيلةٌ من حيلك».

ثُمّ ضحك ضحكةً خافتةً وقال بمكرٍ:

«على كلٍّ حالٍ، سأجعلك تسمع صوته فقط لتتأكَّد... لـــــن تتحدَّث

معه».

سمع مارسيل وقع خطواته عبر الهاتف، تلاها صرير فتح أحد الأبواب، ثُمّ عاد صوته أخيرًا:

«إنَّ 005 معي على الخطّ. صوته مكتومٌ، لكنَّه يريد سماع صوتك ليتأكَّد أنَّك هنا».

ثُمّ أضاف مهدِّدًا:

«أيُّ كلمةٍ سرِّيَّةٍ أو ثرثرةٍ بلا فائدةٍ، وسأطلق النار عليك».

ارتدَّ صوت ميكي الغاضب عبر الهاتف، وتحدَّث بسرعةٍ:

«ماذا يريد ذلك اللعين منِّي؟ هل هو على الهاتف؟ أخبره أنَّني أكرهه! سيل؟ إن كنت تسمعني، فاعلم أنَّني أكرهك بشدَّةٍ، ولو متُّ هنا بسببك، فآمل أن أكون شمسًا بأعينٍ تطلق الليزر في حياتي القادمة كي أنظر إليك وأحرقك! هل سمعت؟ أكره الشمس، لكنّها قويَّةٌ وحارقةٌ، وسأشويك مثل اللحم!».

سمع مارسيل صوت ركلةٍ، تبعتها صرخة ميكي المتألّمة، ثُمّ عاد صوت تشرشل مجدَّدًا:

«هل صدَّقت الآن؟».

ردَّ مارسيل بعد لحظة صمتٍ قصيرةٍ:

«هل حياتي هي المقابل كي تحرِّر روبي؟».

«أجل، ولكن لا أظنُّ أنَّ كبرياءك سيسمح لك بالتضحية. فأنا أعرفك جيِّدًا يا 005، ولكنِّي، مع ذلك، متلهِّفٌ لأيِّ مفاجأةٍ منك خلال وقتٍ قصيرٍ، فأنا لا أنوي الإبقاء على حياة روبي سميث مدَّةً طويلةً... الوداع!».



3: دموع أب

كانت السَّماء تمطر بغزارة، وكأنها تبكي على ما فُقِد، وانزلقت القطرات الثقيلة على زجاج سياراتٍ عادت إلى المجمع بعد يومٍ آخر من البحث العقيم..

جَرَّ أندرياس جسده جَرًّا حتّى المجمع، وكأنه يحمل الهزيمة وخيبة الأمل على كتفيه، وجهه شاحب ومرهق، وخلفه رجال عائلته، مُنْهَكون وصامتون.

قصد المكتب حيث جلس الدون فيرناندو وجدته نينا منتظرين عودتهم بأخبارٍ جديدة.. ولكن لا شيء!

كل ما اكتشفوه حتّى الآن هو أن روبي والأطفال قد تم اختطافهم في سفينةٍ مجهولةٍ وغير مسجلةٍ على الأنظمة عمدًا، وأن لتشرشل بيلز يدًا في الأمر؛ فقد فَجَّرَ غرفة التسجيلات وقتل المدير الذي ساعده كما خَمَّنَ مارسيل.

أطلقت الجدّة نينا تنهيدةً قصيرة، ثُمّ قالت بنبرةٍ صارمة: «اذهب وارتح قليلًا، أخبر الرجال أن يرتاحوا أيضًا، وغدًا سنبحث مجددًا».

لم يملك أندرياس طاقةً للرد، فأومأ بتعبٍ وانصرف فقط، ثُمّ نظرت الجدّة إلى فيرناندو الذي يراقب المطر من خلف الزجاج بعيونٍ ساكنةٍ لا توحي بشيء.

«فما الذي تفكر فيه يا ابن العم؟».

نقر فيرناندو بإبهامه على الطاولة، ثُمّ أجاب بهدوء: «أحاول فهم مـا

حدث وتحديد خطئنا.. كيف تَمَكَّنوا من التّسلل إلينا؟ لماذا المدعو تشرشل بيلز اختار أولئك الأطفال بالتحديد؟ أخذوا حفيدتي لإيذائي، ولكن ما علاقة أندريه والطفل الآخر؟ هل يعقل أن آل بيرو وريفيرا مُتَواطِئون بالأمر وهم من استعانوا به؟ أم أنه يعلن الحرب علينا فقط؟ وإن كان كذلك، فما دافعه ضدنا؟».

زفرت الجدّة نينا نفسًا عميقًا: «ربَّما لا يملك دافعًا، فأنا وأنت أكثر من يعلم أنك لا تحتاج أن تؤذي أحدهم ليؤذيك في المقابل، وربَّما هذه الحادثة مجرد حظٍّ سيئٍ للأطفال وأراد روبي سميث فقط، وربَّما هناك عقلٌ مُدَبِّر أكبر من تشرشل». تابعت بنظرةٍ حادة: «وإن كانوا آل بيرو أو ريفيرا فلن يمر الأمر بسلام».

أومأ محدقًا بالنافذة مجددًا: «لن يمر...».

تَبِعَتْ أنظاره بهدوء، كان يحدق نحو المستودع، وفي وجهه قلقٌ دفين يختبئ خلف ملامحه الصلبة، فسألت: «هل لدى ابنك أي مستجدات؟».

«لم أَتَفَقَّدْهُ بعد.. ما يزال يحبس نفسه في المستودع».

تأملته قليلًا، ثُمّ قالت بنبرةٍ لينة: «قد أكون متأخرةً في قول ذلك.. ولكني سعيدة باستعادتك لابنك».

زفر فيرناندو تنهيدةً طويلةً مُحَمَّلةً بالكثير من ألم الماضي، ثُمّ نظر إليها وقال: «هل سوف تصدقينني لو قلت لك إنني لست سعيدًا؟ لم أشعر بالسعادة ولا حتّى بالراحة عندما اكتشفت أنه حيٌّ واستعدته من الإيطاليين.. دفنته مع والدته في قبرٍ فارغٍ وتقبلت الواقع. لم أدرك أنه كان يتعذب طوال هذه السنوات التي ظَننتُ فيها أنه مجرد ذكرى».

«لستُ المُذْنِب».

هزّ رأسه نفيًا مرّة واحدة: «بل مُذْنِبٌ.. فأنا من كان عليه أن يحميه، لو أني بحثت أكثر، لو أني بَذَلْتُ جهدي في البحث عن جاريد أكثر لكنت

توصلت إلى أي خيط». صمت قليلًا، ثُمّ قال: «منذ وجدته وأنا أغمض عيني كل يوم، وأحاول تخيل الحياة التي عاشها حتّى يصبح هكذا، أنظر إليه وأرى طفلي يلومني على كل شيء، أسمعه يتكلم ولكنه يبكي ويصرخ في عقلي، تمامًا كيوم ولادته».

«وتتمنى لو أنه ظل ميتًا»، أردفت عندما أغمض عينيه للحظةٍ وكأنه يعترف. «لن أواسيك بكلماتٍ كاذبةٍ ووعودٍ تافهةٍ، لن يكون الأمر طبيعيًّا، ولن تكون علاقتكما مثل علاقتك بالتوأم، ولن تستطيع إعادة كتابة الماضي.. ولكن يمكنك أن تكون الأب الذي يحاول إنشاء علاقةٍ بابنه، وهذا سيجعل قلبك يرتاح قليلًا».



دفع أندرياس باب شقته بضعف، ودخل ليرى والدته تمسح على رأس لورينا الغارقة في الحمى والبكاء، شعرها مبعثر، وشفتاها جافتان، ترتجفان وتكرران اسم أندريه دون توقف، لكنّها ما إن وقع بصرها على أندرياس حتّى انتفضت من مكانها رغم وهنها، وأسرعت إليه، تشبثت بقميصه بكلتا يديها، وهزته بيأس.

«هل وجدتموه؟ هل هناك خبرٌ عنه؟» صرخت بصوتٍ متحشرج: «قل شيئًا!..».

لمس كتفيها وهمس: «أنتِ مُتْعَبة، فعودي إلى الفراش وارتاحي».

هزت رأسها بعناد، ثُمّ صرخت: «كيف أرتاح وابننا مفقود؟ مضت ثلاثة أيامٍ ولم نسمع خبرًا عنه! كيف لك أن تَبْقى هادئًا هكذا؟».

زفر أنفاسه بتعبٍ واضح، ثُمّ قال: «اهدئي.. أرجوك».

«لا تقل لي اهدئي! سوف تخرج مجددًا وتبحث عن ابني يا أندرياس، وسوف أذهب معك هذه المرة، لن نعود حتّى نجده».

همس برجاء: «لوري».

صرخت والدموع تنهمر من عينيها: «هذا ابني!..».

أغمض عينيه للحظةٍ بعد أن اخترقت صرختها صدره، ثُمّ أومأ مرارًا وهو يهمس بانكسار: «أعلم وسأجده».

«هذا كل ما تقوله ثُمّ تعود خالي الوفاض! لم تستطع إيجاده بعد ولا معرفة أي شيءٍ عنه. لا أعلم إن كان حيًّا أم ميتًا، جائعًا أم خائفًا، لا أعلم أي شيءٍ، ولكني أعلم أنه ينتظرنا ونحن هنا لا نفعل شيئًا!..».

انفجرت مشاعر أندرياس المكبوتة، وصرخ بصوتٍ يتأرجح بين الغضب والانهيار: «إنه ابني أيضًا! هل تظنين أنني لا أدرك كل ما تقولينه؟ أني لا أشعر بما تشعرين به؟ هل تظنين أني متماسك؟ خاطئة! أنا على حافة الجنون يا لورينا، لذا اخرسي، وابتعدي عني».

تقدمت والدته راكيل ووقفت بينهما: «هذا يكفي، تَوَقَّفا عن الشجار!..».

قامت باصطحاب لورينا وإجبارها على العودة إلى الغرفة والفراش، ثُمّ عادت إلى ابنها الذي جلس على الأريكة، مُطَأْطِئ الرأس، ويداه تغطيان أذنيه كطفلٍ يحاول إخراس العالم القاسي حوله.

أطلقت تنهيدةً حزينةً عندما تذكرت المرات التي اتخذ فيها هذه الوضعية كلما شعر بالخوف أو العجز، ثُمّ اقتربت منه، وحالما لمست كتفه حتّى نَشَجَ وهمس: «أمي.. أنا.. خائف».

جلست بجواره وضمته إلى صدرها، وكأنها تحتضن طفلها الذي لم يكبر أبدًا، فاستسلم وبكى بلا حرج، بلا مقاومة، عَلَّ الحمل يخف عن كاهله.

همس من بين شهقاته المتقطعة: «أخبرته أن يذهب.. أرسلته بنفسي.. أنا السبب».

مسحت على رأسه بحنان: «لا تقل هذا يا بني».

هزّ رأسه بيأس وهمس: «ماذا لو خسرته أيضًا؟ ماذا أفعل؟ أنا أَضْعَفُ

من أن أفقد فردًا آخر، وهو ابني.. ابني».

انهمرت دموع والدته، لكنّها ظلت متماسكةً من أجله، وقالت: «سنجده يا بني، لذا لا تفقد الأمل.. يجـــــب أن تستريح الآن وتستعيد طاقتك لتحاول غدًا مجددًا مع الجميع».

«لا يمكنني النوم....».

«أعلم، ولكن يجب عليك ذلك». أجبرته على الاستلقاء برفق، ثُمّ وضعت رأسه في حجرها ومررت أصابعها على شعره المبتل: «أغلق عينيك فقط. سأكون بجانبك فلا تقلق يا بني».

أغمض أندرياس عينيه، وبدأت أنفاسه المضطربة بالهدوء تدريجيًّا حتّى غرق في النوم على صوت همسات والدته.

رفعت رأسها عندما ظهرت لورينا واقتربت منهما بهدوء، ثُمّ همست بانكسار: «أنا آسفة يا راكيل».

ردت بصوتٍ رقيقٍ منهك: «لا بأس يا عزيزتي... أنتِ مُتْعَبة، لذا ادخلي إلى الغرفة ونامي قليلًا.. سأبقى مع أندرياس».

تأملتها راكيل للحظة، ثُمّ نهضت بحذر خشية إيقاظه وبكيتها، لكن أندرياس المُرْهَق لم يشعر بشيءٍ، ولا حتّى عندما غطته لورينا ووضعت الوسادة تحت رأسه.

جلست على الأرض بجانبه، تتأمل وجهه وتمسح على رأسه بدموعٍ تغمر عينيها، ثُمّ انحنت وطبعت قبلةً خفيفةً على جبينه، وهمست: «أنا آسفة...».

توقف المطر أخيرًا.. وبدا كل شيءٍ ساكنًا أكثر مما ينبغي، وكأنّ ڤيراكروز أخذت نفسًا عميقًا بعد لَيالٍ من الصراخ والنحيب، ودخلت في حدادٍ صامتٍ على المفقودين.

قصد الدون فيرناندو المستودع بخطواتٍ بطيئة، توقف أمام الباب للحظة، ثُمّ دفعه ووَلَجَ إلى الداخل. تجاوز الصناديق المرتبة بعناية، حتّى وصل إلى الجزء الذي اتخذه مارسيل لنسج خططه.

جالت عيناه على الجدران الثلاثة التي ملأها ابنه بالخرائط، والصور، والملاحظات الحمراء المتداخلة، حتّى شعر أنه لا ينظر إلى جدرانٍ عاديةٍ بل إلى عقلٍ مفتوح!

ثُمّ انتقلت عيناه إلى الأوراق المتناثرة على الطاولة، والمحارم الملطخة بالدماء في سلة المهملات الصغيرة، وأخيرًا إلى ابنه الذي يقف أمام أحد الجدران، يتحدث عبر سماعته اللاسلكية بلغةٍ لم يفهمها.

رَكَّزَ نظره عليه.. لاحظ جسده المشدود، ووجهه المنهك، والهالات السوداء تحت عينيه، ولم يستطع ألّا يشعر بالشفقة، والذنب مجددًا.

انتظره حتّى أنهى المكالمة، ثُمّ اقترب قليلًا بينما مارسيل يضع إشاراتٍ بالقلم الأحمر على إحدى الخرائط.

قال بنبرةٍ هادئة: «هَلَّا شرحت لي ما كل هذا؟ ولماذا جعلتني أتصل بمورينو للدعم؟».

تنقل مارسيل بين الجدران الثلاثة ليكتب ملاحظاته ويشرح في الوقت ذاته: «هذه خرائط كل الموانئ والمطارات التي قد يرسون أو يهبطون فيها.. رجالك لا يكفون لتغطية كل هذه المواقع، ولكن مورينو يملك العدد، لذا وزعت الإيطاليين على هذه المناطق، ووكلت خبراء تقنيين لمراقبة كل الكاميرات على مدار الساعة».

«ولماذا ضممت المطارات؟».

«لأن هناك احتمالًا أن يغيروا خطتهم وينقلوها جَوًّا».

تأمل الصور المعلقة، وسأل: «والصور؟».

«زبائن مميزون يتعاملون مع تشرشل، وسيبقون تحت المراقبة لكشف أي شيء».



زفر مارسيل أنفاسه بتعب، لكنه لم يتوقف عن الكتابة، وكأنه سينهار لو فعل ذلك.

«تبدو خطةً محكمة».

هزّ مارسيل رأسه مرّة واحدة، ثُمّ قال بنبرةٍ مشدودة: «كذلك، ولكن بها الكثير من الثغرات التي قد تجعلها تفشل وتعيدنا إلى نقطة البداية.. يمكنني إيجادها ولكن أحتاج إلى وقتٍ أطول، لا يمكنني التواجد في كل المواقع وحدي، والخبراء الذين يراقبون ليسوا جميعهم بالمستوى المطلوب، أيُّ أحدٍ منهم يمكن أن يغفو، أو يخون، أو يخضع ويضلل، ويكلّفني المزيد من الوقت...».

شتم بهمس عندما تقطرت الدماء من أنفه، ثُمّ تنهد بغضبٍ مكتوم ومسحها بسرعة وكأن شيئًا لم يكن، بينما اقترب فيرناندو أكثر، وقال بصرامةٍ تخفي قلقه الحقيقي: «ما بك؟».

أجابه بلا مبالاة: «هذا يحدث عندما لا أنام لوقتٍ طويلٍ وأرهق عقلي بالتفكير».

قال فيرناندو بحزم: «نَمْ إذًا، فأنت متعب وستنهار في أي لحظة».

رد مارسيل بنبرةٍ جافة: «أنا بخير».

تنهد فيرناندو بهدوء، ثُمّ حاول تليين نبرته قليلًا: «أعلم أنك قلق، ولكن إن انهرت فسينتهي كل شيء، وستفسد خطتك».

استند مارسيل إلى الجدار خلفه بخفةٍ لا يبدي فيها أنه يستند عليه كي لا ينهار، ثُمّ قال بنبرةٍ ثابتة: «هناك خطتان أخريان، إحداهما أن أنفذ طلب تشرشل وأنهي حياتي.. يمكنني فعل ذلك، ولكن يجب أن أُؤَمِّنَ لها حياةً ومكان عيشٍ آمنين أولًا، وأن أتأكد أنها ستبقى بخير، وأنه سيطلق سراحها».

قاطعه فيرناندو بنظرةٍ حادة: «انس الأمر، لن تضحي بحياتك».

التفت مارسيل نحوه أخيرًا، وبادله النظرة نفسها: «أنا لا أطلب إذنك،

إن كانت حياتي هي المقابل لإنقاذها فلن أفكر مرتين».

«ماذا عن الخطة الأخرى؟».

نظر مارسيل إلى هاتفه فوق الطاولة، يتذكر ثرثرة ميكي الأخيرة، والكلمات الخفية. لم يرشح أحدًا آخر، مما يعني أن الأمر معقد، خطير، ويتطلب عبقريًّا يضاهيه، مثل الشمس التي يكرهها.. بيتروفا!

قد تكون هناك أسبابٌ أخرى لاختياره، ولكن مارسيل لم يهتم لمعرفة ذلك حاليًّا، ولم يكن قادرًا على التواصل مع نيل والوصول إليه، لكنه تمكن من إرسال رسالةٍ مشفرةٍ إلى شركته التي يديرها باسم نايجل والش، أخبره فيها عما حدث لروبي، وطلب مساعدته في مقابل أن يعطيه أي معلوماتٍ تخص الإيطاليين وحكومة العالم. كان مستعدًّا لتقديم كل شيءٍ مقابل خدمته التي يأمل أن تكون مفيدة، ولكنه لم يتلق ردًّا منه بعد.. والوقت لا يتوقف!

«الخطة الأخرى سرٌّ لا يمكن الإفصاح عنه».

رن هاتفه فجأة، فالتقطه وأجاب على الفور ليسمع أحد الخبراء الذين وظفهم: «لقد كنت محقًّا، الأبراج التي ذكرتها بها كاميراتٌ مطلةٌ على الميناء.. التقطت السفن المغادرة من زوايا مختلفة، وسوف أرسل لك صور السفن التي ذكرتها وفق الوقت الذي طلبته».

نقر مارسيل على حاسوبه بسرعة، واستقبل المقاطع والصور. لم تكن واضحةً كثيرًا، ولكنه تمكَّن أخيرًا من معرفة شكل السفينة.

اقترب والده وتأمل شاشة الحاسوب: «هل هذه هي؟».

أجاب مارسيل بتركيزٍ مطلق: «أجل، سأرسلها للجميع.. ولكنّها قابلةٌ للتغيير، يمكنهم نقلها إلى سفينةٍ أخرى، هناك الكثير من الخيارات والتفاصيل التي يجب أن نحيط بها، والكثير من الفوضى التي يجب التحكم بها».

«ويجب أن تهدأ....».



«أنا هادئ».

«لســـت كذلك، هناك بركانٌ يثور داخلك، وأنت تؤذي نفسك، لقد توصلت إلى معلوماتٍ مفيدةٍ لذا ارتح قليلًا قبل أن تنهار».

وقف مارسيل بثباتٍ مُتَصَنَّع: «أنا بخير، وقادر على المتابعة. لن أنهار تحت أي ظرفٍ حتّى أجد روبي، لذا ارحل من فضلك ودعني أتابع».

رمقا بعضهما لبرهة، حتّى تنهد الدون تنهيدةً قصيرة: «يبدو أنك ورثت العناد مني على ما يبدو».

تجاهله مارسيل وقام بتدوين بعض النقاط على أحد الجدران بجانب الصور، فيما همَّ والده بالمغادرة، لكنه توقف قليلًا وقال: «ستجد روبي سميث، وابنتك أيضًا.. هذا أقل ما تستطيع فعله من أجلها، فلا تملك أدنى فكرةٍ كم تمنت لقاءك».

أغلق فيرناندو الباب فزفر مارسيل نفسًا مرتعشًا وجلس على الأرض، ثُمّ أسند رأسه إلى الجدار خلفه وحاول التنفس، وإيقاف رجفة يده البسيطة.

«اهدأ.. ستجدها.. ستجدها.. ستجدها.. ستجدهما».

ترددت همساته داخل رأسه المليء بالأفكار والأصوات، حتّى تسلَّل من بينها صوت همسٍ خبيثٍ وباردٍ عمل بجد ليدفنه ويبقيه مدفونًا، لكنه عاد الآن، وطيفه المشوَّه يقف في زاوية الغرفة، يحاول أن يغزو مساحته مجددًا.

«تعلم ما يجدر بك فعله يا 005...».

ضغط على جفنيه وهمس بصرامةٍ واهنة: «لست هنا.. لست حيًّا.. ارحل يا جاريد».

«أنت تخسر الوقت.. لو كنت يقظًا منذ البداية، لو كنت تنظر إلى اللوحة لكنت سبقت الجميع بخطوة، ولكنك لم تفعل».

كرر مارسيل أمره بتركيزٍ هذه المرّة حتّى خَرِسَتْ كل الأصوات داخل عقله، واختفى طيف جاريد من الغرفة..

زفر نفسًا عميقًا، ثُمّ مسح الدماء عن أنفه وتأمل اللون الأحمر لبرهةٍ طويلة، وجالت عيناه على الجدران، والصور، وكل التفاصيل، حتّى عقد قراره أخيرًا. سحب هاتفه من جيبه واتصل بـ ماتيو مايورانو.

رد ماتيو بنبرةٍ خاليةٍ من المرح على غير عادته: «أي أوامر جديدة ترسلها عن طريق والدي يا تُرى؟ لقد أرسل جميع رجالي وأكاد أموت من الملل وحدي!». هدَّأ من روعه قليلًا: «لكن لا بأس، طالما أنّ الأمر متعلق بإيجاد روبي، سأتحلى بالصبر، لذا قل لي ماذا تريد؟».

حملق مارسيل بالخريطة أمامه، ثُمّ قال بجمود: «أريد فيلق الظل، كم سيستغرقون للوصول إلى ڤيراكروز؟».

ساد صمتٌ قصير، قبل أن يضحك ماتيو بذهول: «هل أنت جاد؟ لم أتوقع أن تطلبهم قط! أمهلني يومًا وسنكون هناك، ولن أسأل ما الذي سنفعله!..».

رد بنبرةٍ حادة: «فقط هم يا ماتيو.. أنت ستبقى مكانك، فلا أريد أي مشاكل مع والدك، وليس لدي وقت لمجالستك».

تذمّر ماتيو كطفلٍ محروم: «أريد المشاركة! سوف أموت من الملل حقًّا، لذا أرجوك يا سيل!..».

«لن أكرر كلامي».

تأفف ماتيو بضيق، ثُمّ قال: «حسنًا، ولكني أريد شيئًا في المقابل، وتعرفه جيدًا، لن أستعجلك فيه، ولكنك ستعطيني إيّاه بعد انتهاء المهمة، وأريده طازجًا وليس مجمدًا، كيسٌ واحدٌ لا يكفيني بالمناسبة، لذا سأتحلى بالصبر من أجل اثنين».

رد مارسيل بازدراء: «حسنًا أيها المختل».

«سأتظاهر أني لم أسمعك.. وداعًا!».



4: أحمر، أسود، أخضر

علا صوت الجرس المعدني الصاخب في أرجاء السفينة، وارتد صداه في الممرات الضيقة، ليوقظ الأطفال الذين ترتجف أجسادهم على الأرضية الباردة، ليعيشوا يومًا آخر في هذا الكابوس.

كانت ميا ما تزال منكمشة بين ذراعي أندريه، ترتجف من البرد حتّى بعد أن أعطاها سترته، عيناها متورمتان من البكاء، جسدها واهن، وروحها مكسورة.

دخل الحراس بخطوات ثقيلة، وقاموا بتوزيع خبز بارد وجبن رخيص، وتفاحة صغيرة على الجميع، مع تهديد صامت باتوا يعرفون عقوبته؛ إذ تقيأ أحد الصغار مرّة من شدة الخوف بعد لقمة واحدة فقط، فاقترب الحارس وجرَّه بعنف إلى الخارج، ولم يروه بعدها، لكن صرخات بكائه ظلت مسموعة حتّى بعد أن خيَّم الصمت على المكان.

همس أندريه لميا برجاء: «أنهي طعامك يا ميا وإلا أخذوك بعيدًا عني. لا تدعيهم يفرقونا».

هزت رأسها بضعف: «لا أستطيع، طعمه مقرف وقد أتقيأ».

لم يجادلها أندريه أكثر، غيَّر مكانه كي لا يلاحظه الحراس، ثُمّ أجبر نفسه على إنهاء حصته وحصتها بسرعة، بينما ميا تراقبه بوجه حزين.

نظرت إلى الرجال المخيفين، ثُمّ همست بانكسار: «لقد أخذ الأشرار ماما.. لقد ماتت».

حاول أندريه مواساتها: «لسنا متأكدين بعد، قد تكون حية وفي مكان ما في هذا السجن».

نطقت بصوت متقطع: «أنا ابنة سيئة. لقد قلت لها إني أكرهها. لقد كذبت.. كذبت.. أنا أحبها!». ثُمّ علا صوتها المتحشرج وصرخت: «أريد ماما!».

ترقرقت عينا أندريه بالدموع عندما ارتجف الأطفال وبدأوا جميعًا بالبكاء والنحيب، وكأنهم أصيبوا بالعدوى معًا، ينادون آباءهم وأمهاتهم بوجع، ويتوسلون ويصرخون، ولكن لا أحد يستمع!

حتّى روبي كانت تبكي في سجنها، وتنادي ابنتها وأندريه في الظلام المُشْبَع برائحة الصدأ الخانقة، حتّى فقدت صوتها، وتضرب على الجدران المعدنية حتّى تورمت يداها.. ولا مُجيب بعد.

وبعد لحظات، فتح الباب فجأة، وأعمى ضوء الشمس عينيها، ثُمّ ظهر هوك وجالت عيناه عليها بطريقة لم تُوحِ بخير أبدًا، وبجانبه رجل آخر يحمل سلاحه ويعبث برباط شعر وردي، يبدو ملكًا لفتاة ما.

نظر إلى الطعام المهترئ الذي لم تمسه، ثُمّ سأل: «لماذا لا تأكلين طعامك؟».

ازدردت ريقها بصعوبة، ثُمّ قالت بصوت مبحوح: «أريد طفليَّ».

زفر هوك بضجر: «ألا تملين من تكرار هذه الأسطوانة؟».

ركَّزت نظراتها نحوه، وقالت: «دعني أتحدث إلى تشرشل، أخبره أنّي أحمل معلومات قد تهمه».

عقد هوك ذراعيه بسخرية: «عن مَنْ؟».



ترددت روبي للحظة، ثُمّ قالت بصوت مضطرب: «أخبره.. أني أعرف هويّة بيتروفا الحقيقية، وأنا مستعدة لإخباره لو أطلق سراحنا».

اقترب هوك منها، ثُمّ جثا ونظر إليها بابتسامة خبيثة: «إما أنك غبية، أو تظنين أننا أغبياء! يمكنك أن تكذبي علينا وتعطينا اسمًا مزيفًا، ويمكننا تعذيب طفليكِ أمامك حتّى تنطقي بالحقيقة، وفي كل الأحوال أنت المتضررة».

اندفعت روبي حينها وهاجمته، وفي يدها كعب حذائها الذي خلعته واتخذته سلاحًا، ضربته بعشوائية يائسة، وخدشت وجهه بأظافرها، ثُمّ ركضت نحو الرجل الآخر، وقذفت حذاءها نحو وجهه، ودفعته بكل ما تملك من قوة.

خطت خارج سجنها لأوَّل مرّة، ورأت الشمس وشعرت بدفئها، ورأت الأمل الذي دفعها للتقدم أكثر، لكن ذراعًا متينة أطبقت بخصرها وسحبتها إلى الظلام مجددًا!

«ثبِّتوها جيدًا». ثُمّ قبض هوك على فكها بعنف حتّى صرَّت أسنانها، وقال بنظرات مخيفة: «اشكري ربك أن تشرشل أمرنا ألّا نلمسك بسوء». لمس عنقها وقلادة الياقوت، ثُمّ تابع بابتسامة مجنونة: «لأني سأجعلكِ تندمين أشد الندم!..».

صرخت وهي تحاول التملص من قبضتهما: «أخرجوني من هنا، وخذوني إلى طفلي!..».

أشار هوك إلى صديقه الذي دفعها على الأرض بقسوة جعلت رأسها يرتطم بالمعدن، فشعرت بالدوار ولم تَقْوَ على الحركة، وكل ما استطاعت فعله هو مشاهدتهما يغلقان الباب، ويغرقانها في الظلام مجددًا، حتّى سمعت صوت روبن الغاضب فجأة.



«ألم أخبركم ألّا تأتوا إلى هنا؟».

رد هوك بامتعاض: «لا أتلقى الأوامر منك يا ولد!».

رمقه روبن ببرود: «بل تتلقاها.. والآن تحرك واستعد لتقسيم الأطفال».

قلَّب هوك ناظريه وشتم بهمس قبل التحرك، فيما راحت روبي تضرب على الجدار وتنادي روبن بيأس، وتتوسله أن يطلق سراح ميا وأندريه، لكنه لم يجبها، وتمنى لو أنه يغلق فمها بشريط لاصق ويخرسها؛ فصرخاتها وتوسلاتها تحرك فيه شيئًا يجهله ويزعجه.

ضغط على فكه بقوة، ثُمّ همس لنفسه باضطراب: «اصمتي.. اصمتي».

رن هاتفه الخاص فجأة، فابتعد عن المكان وأجاب الاتصال: «سيدي؟».

جاءه صوت تشرشل عبر السماعة: «هل كل شيء على ما يرام أيها البارون؟ هل أنتم جاهزون لاستقبال ضيفنا؟».

«أجل يا سيدي».

«ممتاز. ستصل ثلاث سفن خلال يومين إلى موقعكم، فاحرص على إنهاء المهمة».

قال روبن باندفاع: «لن أُخَيِّب ظنك يا سيدي»، ثُمّ خفض صوته وهمس: «وآمل أنك فخور بي».

رد تشرشل ببرود: «أنا فخور بك، ولدي أمر آخر.. سيصل كينغ مع السفن، ويساعدك بالإشراف، لذا ابق معه».

تبدلت ملامحه إلى الغضب وقال: «لا حاجة لوجوده، يمكنني تولي كل شيء بمفردي».

«هل ترفض أمري أيها البارون؟».

شعر روبن بانقباض في صدره، فقال بهدوء: «أعتذر».

«ستنفذ ما أقوله دون نقاش».

أومأ بخضوع رغم أنّه لا يراه: «أمرك».



في ڤيراكروز.. كانت السَّماء ملبدة بالغيوم الرمادية، لكنّها لم تمطر بعد، وكانت رائحة العشب الرطب تعبق في أرجاء المقبرة، حيث أندرياس الذي يقف أمام قبرين متجاورين، والده وشقيقه، ومعه والدته التي تجلس إلى جوار شاهد قبر ابنها، تمسح عليه بحزن واشتياق؛ ففي مثل هذا اليوم قبل سنوات عديدة، قُتِلَ أندريه غارسيا على يد إحدى العصابات.

لا يستطيع أندرياس نسيان ذلك اليوم، ولا شكل جثة شقيقه عندما جلبوها. كان فقدانه بالنسبة إليه أقسى من فقدان والده؛ كانا مُقَرَّبين من بعضهما كثيرًا، خططا للمستقبل، وسعيا لتحقيق أحلامهما معًا.. إلى أن انهار كل شيء.

«أمي؟».

مسحت راكيل دموعها، ثُمّ نظرت إلى ابنها المهموم وقالت: «نعم؟».

«هل تظنين أني اقترفت خطأ عندما سميت ابني باسمه؟ ماذا لو كان الاسم ملعونًا ولقي ابني المصير ذاته؟».

«ما الذي تقوله يا بني؟».

تنهد أندرياس بتعب وفرك وجهه: «لا أعلم يا أمي.. لا أعلم».

قاطعهما خوليو وهو يقترب بخطوات سريعة: «إنّه يغادر المجمع ومعه أولئك الرجال الغرباء».

تبدلت ملامح أندرياس على الفور، وتأرجحت بين الغضب والقلق، ثُمّ تحرَّك بسرعة وعاد إلى المبنى، ليرى الرجال الذين وصلوا البارحة يقفون في صف وينتظرون الأوامر.

تخطاهم بخطوات غاضبة وقصد المستودع، حيث مارسيل الذي ارتدى معطفًا عسكريًا أسود اللون، وحزم أغراضه.

سأل بحدة: «إلى أين أنت ذاهب؟ هل عرفت شيئًا جديدًا عنهم؟».

أغلق مارسيل حقيبته وحملها على كتفه دون إجابة، فإذا بأندرياس يرفع صوته أكثر: «قل شيئًا! لقد كنت تحبس نفسك هنا، والآن تغادر مع مرتزقة، فما الذي حدث؟ هل هناك مستجدات؟ هل وجدتهم ولم تخبرنا؟».

التفت مارسيل ونظر إليه بهدوء: «لا شيء جديد.. ولكني قررت الإبحار والبحث عنها، وسيحاول الخبراء تحديد مواقع كل السفن عبر الأقمار الصناعية».

«أخبرت الدون فيرناندو أن هذه الخطة سوف تستغرق وقتًا أطول. المحيط واسع، والأقمار اللعينة التي تتحدث عنها ليست كافية، وأنت تدرك ذلك!».

رد مارسيل ببرود: «أعرف، ولكني لن أضيع المزيد من الوقت في الانتظار. أنت ابق هنا وراقب البر، فقد يظهرون في أي لحظة في المواقع التي حددتها».



ارتجفت قبضا أندرياس وهتف بانفعال: «هل هذا كل ما تستطيع فعله حقًا؟ ألم تتدرب على تحدي الوقت؟ أليست هناك خيارات أخرى؟».

رمقه مارسيل بحدة: «اعتدت القتل وليس الإنقاذ». ثُمّ تنهد تنهيدة قصيرة: «لن أهدر المزيد من الوقت في الجدال معك، لذا ابتعد عن طريقي واستمر في البحث عوضًا عن النحيب والشجار مع الجميع».

دخل قريبهما دانتي إلى المستودع، ثُمّ رفع ظرفًا أبيض اللون: «لقد أوصله صبي إلى المجمع قبل قليل، وقال إن أحدهم طلب منه تسليمه إلى 005».

حدق مارسيل بالظرف مليًّا، ثُمّ انتشله منه وفتحه بحذر، ليُخرج ورقة ذات ملمس غريب، كُتِبَ فيها بخط أنيق:

«العطاء لا يجب أن يكون بمقابل.. آمل أن تدرك ذلك يومًا ما».

وتحت الرسالة الغامضة، رمز ماسة حمراء صغيرة، جعله يحبس أنفاسه لوهلة، ويمرّر أصابعه على سطح الورقة، ثُمّ سحب ولاعته من جيبه، وأشعل اللهب وقرَّبه أسفل الورقة بحذر حتّى بدأت الرموز والأرقام تنكشف بفعل الحرارة.

سأل أندرياس باستغراب: «ما هذا؟».

«إنها إحداثيات موقع روبي».

اتسعت عينا أندرياس وانتشل الورقة من يده ليتفحصها: «أحقًّا ما تقول؟ من أرسلها؟».

أجاب مارسيل وهو يتجه نحو الباب: «لا يهم، يجب أن أسرع».

صاح أندرياس: «لن تذهب بمفردك!».

«ولن أنتظر أحدًا».

«ستفعل ذلك أيها اللعين، فهدفنا واحد!».



انتشر الحراس حول زنزانات الأطفال على نحو مريب، يتبادلون أوامر مكتومة، وكأنهم يستعدون لشيء مريع، ومن بينهم وقف روبن بوجه ساكن كالتمثال، بجوار طبيب أصلع يجلس في المنتصف وأمامه طاولة فوقها بعض الأدوات الطبية، جعلت الأطفال يتهامسون بينهم بخوف.

بدأوا بالزنزانة الأولى. فتح الحارس الباب بعنف، وأشار إلى أول طفل أمامه، وعندما لم يتحرَّك، قام بجرِّه قسرًا، بينما رفع صديقه سلاحه وصرخ: «لا تُحدِثوا أي صوت أو حركة وإلا قتلتكم!..».

وقف الطفل أمام الطبيب الذي قال بنبرة رسمية: «اخلع ملابسك، وأبقِ لباسك الداخلي».

ارتجف الطفل ذو الستة أعوام وانهمرت دموعه، لكن لم يتعاطف معه أحد، بل هددوه بالسلاح حتّى خلعها، وترك الطبيب يفحصه.

دوَّن الطبيب ملاحظاته، ثُمّ قال بنبرة خالية من المشاعر: «آخر».

أمسك الحارس الطفل من ذراعه، ودفعه باتجاه رفاق آخرين سلَّموه زيًّا أحمر برقم مطبوع عليه، ثُمّ أعادوه إلى زنزانته، واستقبل الطبيب الطفل التالي والذي يليه، يفحص بعناية وينطق باللون وكأنه يحكم بالإعدام.. أحمر، أسود، أخضر.

لم يفهم الأطفال المعنى من ذلك، وكان روبن يراقب بجمود، حتّى حان دور ميا التي تشبثت بأندريه، وصرخت عندما حاولوا سحبها بعيدًا عنه.



«لا تتركني يا أندريه!».

لم يستطع أندريه الصغير التصدي للرجال، لكنه حاول طمأنتها: «لا بأس يا ميا، سنكون بخير لذا لا تقلقي! أنا هنا!..».

قام الحارس بجر ميا وإلقاء جسدها بعنف أمام الطبيب، ليرمقه روبن بغضب مكتوم قبل أن ينقل نظراته نحوها.

«اخلعي فستانك يا فتاة».

مسحت ميا دموعها، ثُمّ نظرت إلى روبن بحزن ورجاء، تتأمل أن تحدث معجزة ويخرجهما من هذا الكابوس!

«ألا تسمعين؟».

ردت بصوت مرتجف: «لا يمكنني.. الوصول.. للسحّاب».

زفر الطبيب بضجر وأشار إلى الحارس الذي انحنى خلفها وسحب السحّاب إلى الأسفل، ثُمّ نزع عنها الفستان، لتقف عارية إلا من ملابسها الداخلية الوردية.

فحص الطبيب جسدها المرتجف، بحثًا عن أي عيوب، ثُمّ قال: «أسود».

رفع روبن نظره نحوه، وكأن الكلمة هزته، ثُمّ سأل بهدوء يخفي خلفه استنكاره: «أسود؟».

أومأ الطبيب: «وبامتياز أيضًا».

أمرهم بإحضار الطفل الأخير، بينما تَبِعَتْ أنظار روبن ميا حتّى استلمت زيها وارتدته. تأمل وجهها، ولون زيها لبرهة طويلة حتّى تملكه شعور غريب، مزيج من الغضب والمسؤولية.. والاكتراث.



لكنه حاول تجاهله وقمعه، لذا التفت إلى أندريه الذي خلع ملابسه على مضض، ووقف بثبات، يرمق الطبيب بنظرات غاضبة حتّى انتهى من فحصه.

«أحمر».

علَّق هوك بنبرة ساخرة: «يا للأسف، يمكنه أن ينتمي للون الأخضر.. فلديه وجه جميل».

تقدم أندريه بضع خطوات لاستلام زيه، ثُمّ غيَّر وجهته، وانقض على روبن الذي تجمد مكانه وتركه يطرحه أرضًا.

«سأقتلك أيها الوغد الخائن!». انهال عليه بالضرب، ثُمّ صرخ: «وثقنا بك وخنتنا!..».

زادت قوة الشعور الذي تملك روبن، فتحرك بسرعة، وألصق ظهر أندريه بالأرض، وضغط على عنقه بيد، بينما الأخرى تحمل سكينًا يوشك على غرسها في رأسه، لكن الطبيب صاح بقلق: «توقف! إنه ينتمي لفئة الأحمر، ونحن نحتاج إليه».

صرخت ميا من خلف القضبان: «لا يا روبن! أرجوك لا تقتله!..».

حملق روبن بوجه أندريه، وكل ذرة فيه تخبره أن ينهي حياته، وأنه إن فعل ذلك فسيختفي أيًّا كان الذي يشعر به.

قبض على سكينه بقوّة وزفر نفسًا قصيرًا، ثُمّ نهض عنه وعاد للوقوف بجوار الطبيب حتّى انتهوا من تقسيم الأطفال إلى فئات لم ولن يعرفوا معناها؛ فاللون الأسود يرمز لأولئك الذين سيتم تحضيرهم وبيع لحومهم، والأخضر للذين سيتم بيعهم لمن طلب أطفالًا بمواصفاتهم، أما الأحمر فلأولئك الذين سيتم انتزاع أعضائهم وبيعها لأعلى مشترٍ.

تفحص روبن القائمة بتمعن، ثُمّ نظر إلى هوك وقال ببرود قاتل: «من المفترض أن يكونوا مئتين.. هناك مئة وتسعة وتسعون، فأين الأخير؟».

زفر هوك بضجر: «الأطفال وإزعاجهم.....».

ضحك من حوله، ليكرّر روبن سؤاله بنبرة أَحَدَّ، فنظر هوك إلى أحد رجاله، طويل وبدين يُدعى رامزي، هزّ كتفيه وقال بسخرية: «لا أعلم أين هو!».

ضحكوا مجددًا، فسحب روبن مسدسه وأطلق رصاصة فوق رأس رامزي مباشرة، ليصرخ الأطفال في الزنزانات برعب.

«قلت: أين الأخير؟».

امتعض وجه رامزي وكذلك هوك وبقية الرجال، ثُمّ أجابه: «في قاع المحيط».

«سأخبر سيدي بذلك، ولن يسعد حين يعلم أنك أضعت بضاعة ثمينة.. والآن أعيدوا توزيع الأطفال وفقًا للون، لا أريد أي مشاكل أو حوادث أخرى». أشار نحو هوك: «خذ بضعة رجال واستعدوا لاستقبال ضيفنا، فسوف يصل قريبًا».



انتفض المجمّع على وقع الأخبار، واجتمع الرجال في الفناء؛ استعدادًا للمغادرة. وجوههم مرهقة من السهر والبحث، لكنّها لا تزال ترفض الانكسار والاستسلام، بعضهم يربت على كتف الآخر، وآخرون يعانقون أقاربهم بصمت طويل...

ودع أندرياس والدته بعناق سريع، ثُمّ نظر إلى لورينا التي تقف خلفها، ورأى في عينيها الحمراوين الخوف والرجاء، وما إن خطا نحوها حتّى

اندفعت إليه، وألقت نفسها بين ذراعيه فضمها بشدة، خشية أن تكون هذه آخر مرّة يراها فيها.

لمست وجهه، ثُمّ همست: «تعلم أني أحبك، صحيح؟».

مسح دموعها وهمس: «أجل».

شدت على يده وقالت برجاء: «أنت وأندريه كل ما تبقى لي في هذه الحياة، لذا عودا إلي».

طبع أندرياس قبلة طويلة على جبينها، ثُمّ قال: «أعدك بأني سأعود ومعي ابننا».

انطلق الرجال بعد الوداع إلى الميناء، حيث رست السفينة التي جهزها لورينزو في وقت قياسي، وبانتظارهم الدون فيرناندو.

«مهما كان الذي ستواجهونه، فواجهوه معًا، فنحن عائلة والعائلة تقاتل مع بعضها.. عودوا سالمين».

رد الرجال بصوت واحد جهوري: «حاضر!».

صعدوا إلى السفينة وأبحروا نحو أفق غامض، لا يعلمون إن كانوا سيصلون في الوقت المناسب أم سيفوتهم الأوان. لم يُرِدْ أحد منهم، ولا حتّى مارسيل، أن يفكر في ذلك، لكنهم كانوا يدركون أن عليهم الإسراع.



كانت روبي منكمشة في ركن الحاوية، تضم جسدها الضعيف، وتتنفس بصعوبة، وتحارب البرد والإعياء، وتهمس باسم ابنتها وسيبقيها حيَّة.

وبعد لحظات انفتح الباب ببطء مريب، واندفعت أضواء الكشافات لتعميها مجدّدًا، ثُمّ رأت هوك يقف وعلى وجهه ابتسامته المعتادة، وروبن



الذي لم تستطع ألّا تتألم لرؤيته.

فتحت فمها لتصرخ وتطالب بصغيريها، لكن الصوت علق في حنجرتها عندما تحرَّكا جانبًا، ومرَّ من بينهما رجل، حالما رأته حتّى ارتعد قلبها، وتجمد الهواء في صدرها؛ تذكرت الصرخات، وصوت العيار الناري، وجثة والدتها، وصرير الفرامل، والكثير من الدماء!

هذا الرجل الذي بدأ الدمار.. الرجل الذي أرسل 005 لقتلها.. جوناثان والش!

5: وحش من الماضي

حدّقت روبي بجوناثان والش مطولًا حتّى فقدت الإحساس بالزمن، لم تستطع قول كلمة، ولا التفكير إلا بأنه سيقتلها هنا، ولن يتسنى لها رؤية ابنتها مجددًا ولا إنقاذها، هذه هي النهاية.

«مؤسف يا بياتريس.. البذرة القذرة التي لا تزال على قيد الحياة وترفض الموت!».

صوته الخشن جعل القشعريرة تسري في جسدها، وانكمش جسدها هلعًا لا إراديًا عندما تقدم نحوها.

«تعلمين من أكون، صحيح؟ أم أنك نسيت؟».

لم تنبس روبي بكلمة، لكن خوفها المتصاعد مع كل خطوة خطاها أثبت له أنها لم تنسَ!

حام فوقها مثل وحش على وشك الانقضاض، وكان روبن يراقب لحظاتها الأخيرة بضيق ثقيل، موقنًا أن كل شيء سينتهي بعد دقائق. ستصبح روبي جزءًا من الماضي.. ومع ذلك، لم يستطع أن يشعر بالراحة أو الانتصار؛ كان هناك شعور غامض يُطْبِق على قلبه. لم يعرف إن كان حزنًا، أو شفقة، أو ذنبًا، لذا استمر بالمراقبة من خلف قناع الجمود.

تأمّل جوناثان وجهها بازدراء، ثُمّ قال: «تشبهين والدتك قليلًا، ولكن عيناك البشعتان مثل والدك». ابتسم كمن يسترجع لحظة يعتز بها: «أذكر سعادتي عندما أطلقت النار بين عينيه، وشاهدت الحياة تغادرهما».



ترقرقت عيناها بالدموع رغمًا عنها، ففَرَّتْ ضحكة ساخرة منه، وقال: «لا يزال الوقت مبكرًا على البكاء يا بياتريس، أو ما اسمك الآن؟ آه، روبي سميث!».

انحنى ولمس ذقنها بيده الباردة فارتعشت أكثر، ثُمّ حملق فيها بغضب: «دفعت الملايين من أجل إيجادك والتخلص منك، وأتمنى لو توليت زمام الأمور بنفسي، أن أجدك وأحبسك في زنزانة، ثم.....».

أجفل روبن وكأن شيئًا بداخله انتفض رغمًا عنه عندما وجَّه إليها جوناثان صفعة قوية جعلت رأسها يرتد، لكنه سرعان ما تمالك نفسه وحافظ على قناعه.

تابع جوناثان كلامه بحنق: «أصفعك هكذا! وأضربك لكل السنين التي عشتها!..».

ركل بطنها بقوّة جعلتها تطلق صرخة مكتومة شعر بأنها الإشارة التي كان ينتظرها ليفجر غضبه، فاستمر بتعنيفها حتّى بكلماته أمام هوك الذي تلذذ بسماع صرخاتها المتألمة، وكأنها مقطوعة موسيقية فريدة، وروبن الذي كان يصرّ على أسنانه حتّى كاد يشعر أنها ستتفتت.

لم تعرف كم دقيقة مرت، لكن جوناثان لم يتعب، ولم يتوقف إلا عندما تحولت صرخاتها إلى أنفاس متقطعة، أو عندما فقدت الوعي لوقت قصير بعد أن حاول سحق رأسها بالجدار مجددًا، ولا حتّى عندما انهارت أسفل قدميه.

لمست حذاءه وتمتمت بانكسار: «توقف.. لا يمكنني.. التحمل».

داس على وجهها وأبقى قدمه هناك، وحينها التقت عيناها بروبن لثانية كانت كفيلة بتحطيم قناعه، حتّى بـــات من الصعب عليه الحفاظ على

هدوئه بعد الآن!

«يجب أن تتحمليني يا بياتريس، هذا أقل ما يمكنك فعله من أجلي!».

نطقت روبي بصوت متقطع: «كنتُ ابنتك.. لأول سنين حياتي.. اعتبرتك أبي».

«اعتبرتك ابنتي أيضًا، رغم أنك لم تشبهيني، ولكني كنت مسحورًا بوالدتك لدرجة أني قتلت كل ذرة شك في أن تكوني ابنتي فعلًا، وأحببتك. حاولت أن أكون أبًا ناجحًا إلى أن هربت والدتك مع حبيبها وأطلقت وحشًا كان نائمًا لسنوات، وكلاهما...».

نظر إلى مفاصل يديه الملوثة، ومسحها بملل، ثُمّ قال: «أتعلمين؟ قتلك الآن لن يكون ممتعًا، ولا أشعر أني راضٍ، ولدي أعمال أخرى أهم منك». أدار وجهه إلى هوك وسأل: «لو تركتها لكم، فماذا ستفعلون بها؟».

اتسعت ابتسامة هوك وأجاب بغموض: «سننهي ما بدأته بطريقة أكثر متعة».

تقدم روبن حينها وازدرد بخفة كي يخرج صوته متزنًا قدر الإمكان: «من المفترض أن نسلّمها إليك وتأخذها معك، أو تقتلها هنا».

رمقه جوناثان باستصغار وتجاهله، مخاطبًا هوك فقط: «أخبرتني عندما وصلت أن ابنتها بحوزتكم».

«صحيح يا سيدي».

«حسنًا إذًا، أريدكم أن تدمروا هذه المرأة، دعوها تأكل من لحم ابنتها وتتمنى الموت، ثُمّ أرسلوا لي رأسها، مفهوم؟».

«مفهوم».



رفع روبن صوته وقال بنبرة حادة: «لم يكن هذا اتفاقنا!».

«وما شأنك أيها الطفل؟».

أضاف هوك بنبرة ساخرة: «هذا ما يريده، ولن يسعد تشرشل عندما يعلم أنك أثرت استياءه».

اشتعلت عينا روبن بالغضب، ثُمّ التفتوا إلى روبي التي زحفت حتّى لامست حذاء جوناثان، وترجته: «لا.. تدمر ابنتي.. أرجوك.. أرجوك».

أبعدها عنه بقسوة، ولم تستطع الحراك بعدها، لكنّها نظرت إلى روبن وكأنه يحمل الأمل الأخير، وقالت بصوت مبحوح وضعيف: «أرجوك يا روبن، لا تدعهم يؤذونها.. أرجوك».

اضطربت ملامح روبن للحظة، فيما غادر جوناثان برفقة أحد الرجال دون النظر خلفه، أما هوك، فقد تقدم وجثا قرب روبي، يتأملها بابتسامة عريضة.

لمس وجهها: «أحب علامات الضرب كثيرًا».

دفعت يده بتقزز: «ابتعد عني!».

ثبّت ذراعيها، ثُمّ ضحك بانبهار عندما حاولت مقاومته: «لا تزالين تملكين بعض الطاقة بعد كل هذا الضرب؟ أنت مذهلة!». نظر إلى صديقه: «تعال وثبّتها معي يا رامزي».

صاح روبن: «ما الذي تفعله؟».

رد هوك بنبرة مرحة: «ما طلبه العميل».

«يجب أن نخبر سيدي أولًا!».

«أمرنا تشرشل أن ننفّذ ما يريده العميل، ونحن نفعل ذلك الآن».

ثبّتها رامزي بضحكة باردة، ثُمّ انحنى هوك إلى أذنها وهمس بشيء جعلها تصرخ بصوت مختنق.

«لا، لا.. توقّف، توقّف!».

التفت إلى روبن بابتسامة: «أتود البقاء يا عصفور؟».

تجمّد روبن مكانه، كأن الفزع باغته فشلّه لوهلة، لكن صرخة روبي التالية هزت شيئًا عميقًا في داخله، وانتزعته من ذلك الجمود.

كانت صرخة مثقلة بالقهر، متشبثة بآخر أمل لديها: «ارحل! أنقذ ميا وأندريه. أتوسل إليك!».

شد روبن على قبضته، ولم يعلم كيف وجد القوة ليلتفت ويرحل تاركًا روبي خلفه. كانت صرخاتها تنغرس في ظهره كالسكاكين التي لم يخف وجعها حتّى بعدما هرب إلى أبعد زاوية في السفينة وسدّ أذنيه، وكأن صوتها سكن رأسه ورفض أن يغادر.

احتضنه الهلع، وقبض على قلبه، وسلب الهواء من صدره حتّى شعر بالحياة تغادره. حاول الهدوء، لكن جسده لم يستجب، وتسرّب انهياره الداخلي من شروخه المظلمة حتّى سالت الدموع على وجنتيه.

رن هاتفه فجأة، فسحبه بارتعاش وأجاب المكالمة بصوت مضطرب: «سيدي!».

لم يكن صوت تشرشل ما سمعه، بل صوت هادئ ببحة رقيقة همس له:

«اهرب».

ازدرد روبن بصعوبة وحاول التركيز: «نايت..؟ هل هذا أنت سيدي؟



كيف اتصلت؟».

«اهرب أيها الغبي، فتشرشل يرغب بموتك».

اتسعت عينا روبن كمن تلقى صفعة قاسية: «كاذب، لن يفعل سيدي ذلك».

«لقد سمعته. قال إنك فشلت بالمهمة، وتعلقت عاطفيًا بأهدافك».

«لم أفشل! لا بد أن كوين كذبت في تقاريرها». ثُمّ تمالك أعصابه وقال: «سأتحدث إليه و...».

قاطعه نايت: «لا فائدة.. لقد أمر كينغ بقتلك عندما يصل».

بكى روبن مردداً: «ولكني لم أفشل. قال إنه فخور بي.. لم أفشل، لم أفشل!».

امتد الصمت بينهما حتّى ظنّ روبن أن المكالمة قد انتهت، لكن نايت قال: «الظلام الذي نراه قد يكون النور الذي نبحث عنه، وأحيانًا، النور الذي نطارده قد يقودنا إلى الظلام الذي يجب أن نهرب منه.. لذا اهرب».

6: بداية الفوضى

جلس روبن فوق إحدى حاويات الشحن الصدئة التي تسلقها دون تفكير. ضم ركبتيه إلى صدره، وأسند رأسه عليهما، يتأمل المحيط الذي عكس نور الغروب، فيما بعثرت الرياح شعره، وتلامس وجهه المتعب ببرودة خفيفة، تذكّره أنه ما يزال حيًّا، أو ربَّما تعذبه بهذه الحقيقة.

كان العالم حوله ساكنًا، لكن رأسه لم يكن كذلك؛ تزاحمت الأصوات داخله، ومنعته من النوم، وعذبته بلا رحمة. كان يسمع صرخات روبي، وصوت سيده، وهمس نايت، وأصواتًا أخرى من ماضيه.

لم يعرف ماذا يجب أن يفعل، فكل شيء بدا خاطئًا، وكل ما تعلمه عن هذا العالم كان كذبة متقنة، انهارت فوقه دفعة واحدة، مزّقته بقسوة ثُمّ نبذته في الظلام، حيث لا يوجد أحد ليمسك بيده، أو يقوده، أو يخبره ما الصواب وما الخطأ، حتّى سيده الذي عمل بجد ليجعله فخورًا به، قد تخلى عنه، ولم يعد هناك سبب أو هدف يسعى إليه، ولم تعد هناك فائدة من حياته!

«اهرب».

كان أمر نايت بسيطًا في ظاهره، لكنه كان كالسهم الذي اخترق صدر روبن؛ فليس لديه مهرب، لا بيت، لا عائلة، لا شيء سوى الموت، وكان على بعد خطوة واحدة فقط.



قفزة واحدة إلى البحر الأسود، رصاصة واحدة إلى القلب، حركة واحدة وتنتهي القصة..

لكنه لم يستطع فعلها؛ كان هناك شعور يقيده ويسحبه كلما اقترب من الحافة، يأمره بالبقاء دون أن يخبره بالسبب، وكان هذا مرهقًا جدًا بالنسبة إليه..

علا صوت الجرس في السفينة، وتردّد صداه في أذنه كما تردد في أذن الأطفال المساجين الذين يراقبون الباب بذعر مألوف، حتّى دخل الحراس ومعهم وجبات الطعام، وكانت مختلفة هذه المرة؛ لا يوجد حساء بارد أو خبز جاف وجبن رخيص، بل شطيرة جبن مشوي، ومشروب دافئ، ولوح شوكولا.

أثارهم الشك قبل الجوع، وأغلبهم بدأ بتناول لوح الشوكولا الذي رسم ابتسامة على وجوههم لأول مرّة منذ أيام، أما ميا، فلم تكترث للطعام أبدًا، وظلت تراقب الأطفال المساكين معها حتّى همس أندريه باسمها.

لمست القضبان ونظرت إلى زنزانته، ولم تتجاوز المسافة بينهما مترًا، ولكنّها بدت كألف ميل بالنسبة إليهما، مثل عصفورين تم عزل كل منهما في قفص خاص.

تأمل أندريه وجهها الشاحب، ثُمّ ابتسم ابتسامة صغيرة رغم قلقه، وقال: «يجب أن تأكلي، فنحن نحتاج إلى الطاقة كي نصمد».

حاولت أن تردّ، لكن الغصة منعتها من قول شيء، فاكتفت بالإيماء فقط. نظرت إلى طعامها، ثُمّ إليه، فابتسم لها مجددًا وقال: «لنأكل معًا».

عدلت جلستها لتقابله، وبدآ يتناولان شطيرة الجبن بهدوء. كانت لذيذة، لكنّها علقت في حلقها كالحجر، فلم تصمد كثيرًا وتقيأت فـــجأة،

مثيرة خوف أندريه، خاصة عندما رأى الحراس يتجهون نحوها.

سد أحدهم أنفه وقال باستهجان: «هناك طفلة قد تقيأت».

رد آخر: «وهنا اثنان لديهما حساسية، فاستدعوا الطبيب».

ضرب الحارس القضبان بعصاه، فارتعد الأطفال وابتعدوا عن ميا التي نظرت إلى أندريه نظرة استنجاد، قبل أن يتم جرها خارج الزنزانة.

أمسك بالقضبان وصرخ: «لا بأس! سأكون بانتظارك هنا. كوني قوية، ولا تبكي!».

أومأت بدموع منهمرة، وتعثّرت خطواتها القصيرة خلف الحارس الذي جرّها حتّى وصلا إلى الحمامات.

أشار إلى إحدى الحجرات وقال بنبرة صارمة: «اخلعي ملابسك القذرة واغسلي فمك ووجهك بسرعة».

فعلت ميا ذلك، ثُمّ اتجهت إلى المغسلة ووقفت على أطراف أصابعها لتصل إلى الصنبور، بينما الحارس يتأملها على نحو مريب.

نظرت إليه بتوجس، ثُمّ سألت وهي تلمس طرف قميصها: «هل يمكنني استعمال الحمام؟».

أسرعت إلى حجرة المياه عندما منحها الإذن، وقضت حاجتها، ثُمّ خرجت لتجده يقف أمامها مباشرة، فتراجعت خطوة إلى الخلف دون وعي.

ابتسم لها ابتسامة عريضة، ثُمّ انحنى ليصبح بمستواها، وسأل بهدوء: «ما اسمك يا صغيرة؟».

أجابت بتردد: «ميا كورتيز».

«آه، أنت ابنة روبي سميث، صحيح؟».



اندفعت ميا وسألته على الفور: «هل تعرف ماما؟».

أومأ بابتسامة: «بالطبع، وأعرف مكانها أيضًا». أردف بصوت ناعم يخفي خلفه الشر: «يمكنني أخذك إليها لو أردت ذلك.. بشرط».

«وما هو؟».

«سنلعب لعبة، وإن فزت فيها فسأجعلك ترينها. القواعد بسيطة جدًا. ستبقين هادئة، وستنفذين ما أقول فقط».

«ثُمّ تأخذني إلى ماما؟».

أمسك يدها الصغيرة: «أجل.. هل نبدأ لعبتنا؟».

«هل يمكنني الانضمام إلى اللعبة؟».

قضى صوت روبن البارد على المرح وأفكار الحارس، فالتفت وحدق في وجهه الجامد وعينيه الخاليتين من الحياة، ثُمّ رمقه بضيق: «أخشى أنها لعبة ثنائية فقط».

أومأ روبن ببرود دون أن يزحزح عينيه عنه: «فهمت».

ثُمّ أضاف بنبرة لا تحتمل الجدال: «خذي الملابس وادخلي إلى الحجرة يا ميا».

اضطربت ميا وتنقلت نظراتها بينهما، ثُمّ أجفلت عندما كرّر روبن أمره بنبرة حادة، وفعلت ما طلبه.

تنهد الحارس بضجر: «يا لك من قاتل للمتعة يا ولد». ثُمّ تابع بابتسامة خبيثة: «ولكن لا بأس، سأحظى أنا والآخرون بحصتنا من والدتها قريبًا».

انقبض فك روبن بعنف، وارتجفت أصابعه على سكينه؛ حارب رغبته

في غرسها في عنق الحارس قدر المستطاع، ثُمّ أجبر نفسه على تركه يرحل.

ما إن خرج، حتّى أطلق تنهيدة طويلة وتمالك أعصابه، ثُمّ اقترب من حجرة ميا، وقال: «هل انتهيت من ارتداء ثيابك؟».

همست بتردد: «أجل».

«حسنًا.. هيا بنا».

فتحت ميا الباب وغادرت الحجرة، ثُمّ تلفتت في الأرجاء، وسألت: «إلى أين ذهب الرجل؟».

«لقد رحل».

«ولكنه قال إنه سيأخذني إلى ماما لو لعبت معه!».

رد روبن بحدة: «لقد كان يكذب!».

فرّت شهقة من ميا، تلتها الدموع التي أبت أن تتوقف: «أريد رؤية ماما!».

مسح على وجهه بإرهاق، وبدا صوته مضطربًا وهو يقول: «لا فائدة من رؤيتها».

اتسعت عيناها رعبًا، وارتجف صوتها: «لماذا تقول ذلك؟ هل آذيتم ماما؟ ماذا فعلتم بها؟».

اندفعت نحوه، وضربته بقبضتيها الصغيرتين، سمح لها بفعل ذلك لبضع ثوان، قبل أن يوقفها.

قالت من بين شهقاتها: «لماذا خنتنا يا روبن؟».

«اسمي ليس روبن، ولم أخنكم، بل كنتم مهمة فقط، لم أحبكم قــط.



ألم تفهمي؟».

هزت رأسها ونظرت إليه بحزن: «ولكننا أحببناك.. كنت ستصبح أخي الأكبر للأبد».

صفعته بجملتها الأخيرة، واتسعت عيناه، وهمس: «ما الذي تقولينه؟».

بكت ميا قائلة: «سألتني ماما إن كنت سعيدة بوجودك وإن كنت أريد بقاءك معنا، وأنا وافقت! كنا سنقيم لك حفلة مذهلة ونخبرك بقرارنا. كنت ستصبح من عائلتنا، ولكنك خنتنا!».

تحطم شيء داخل قلب روبن، وكان الألم فادحًا إلى درجة أنه أراد الصراخ، لكنه لم يفعل، واكتفى بالنظر إلى ميا طويلًا، حتّى سالت الدموع الصغيرة من عينيه.

«هل.. أردتني أن أصبح أخاك حقًا؟».

مسحت دموعها مجيبة: «أجل».

«لماذا؟».

أجابت ببراءة: «لأن هذا ما يجب أن تكونه، لا أن تكون شريرًا مع الأشرار، ولأنك تحبنا أيضًا مثلما نحبك».

«تحبنا».. كانت هذه هي الحلقة المفقودة، الشعور الذي لم يعرف اسمه، والسر الذي يفسر كل ما عجز عن تفسيره.

فهم لماذا انتابته لحظات التردّد عندما كان معهما في ڤيراكروز، ولماذا لم يوقف روبي عندما أرسلت موقعها بسرعة إلى أندرياس رغم قدرته على ذلك، ولماذا ترك أندريه يضربه، ولماذا انهار، ولماذا أتى هنا وأوقف الحارس

من إيذاء ميا.. وجد كنزًا لا يقدر بثمن، وأحرقه بيده.

ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة: «لا أستحق حبكم، ولكن شكرًا على منحه لي، وأنا آسف».

لم تفهم ميا التغير المفاجئ، ولم يسمح لها بقول شيء آخر، فأعادها إلى الزنزانة، ثُمّ صعد إلى السطح، فإذا بالمسؤول عن الملاحة يستدعيه.

اتجه إلى مقصورة الملاحة، فقال الملاح فور رؤيته: «سفننا على وشك الوصول كما هو مخطط».

«وما المشكلة؟».

«كنت أراقب الشاشة، وظهرت إشارة ضعيفة فجأة، ثُمّ اختفت بسرعة. كانت فوقنا، وكأن شيئًا مر بالسَّماء. قد تكون طائرة درون».

لمع شيء في عيني روبن، ولكنه أخفاه وقال بلا مبالاة مصطنعة: «وقد تكون إنذارًا كاذبًا بسبب مصادر راديوية أخرى، مثل سفننا القادمة، أو محطات البث وما شابه».

أومأ الملاح بتردد: «محق، ولكن ألا يجب أن نبلغ أحدهم للاحتياط؟».

«سأعلم كينغ بالأمر، وهو من سيقرّر».

«حسنًا، سأذهب الآن، فهوك يريدني».

لم يزحزح روبن عينيه عن الشاشة، ثُمّ قال بنبرة مثّلت الهدوء قبل العاصفة: «احذر عند النزول، فالسطح زلق الليلة».

رد الملاح باستخفاف: «أنا أكبر من أن أنزلق يا صغير».

فتح الباب وغادر المقصورة. تأمل السَّماء وارتعش من البرد قليلًا، ثُـمّ



تابع طريقه، دون الشعور بروبن خلفه، يتحرك بخطوات خفيفة، وكأنه شبح.

كان الظلام يغطي السطح، لا رجال، لا شهود، كل ما فعله روبن هو انتظار اللحظة المناسبة فقط، لكن الملاح توقف فجأة وأخرج الجهاز اللاسلكي.

«هوك؟ أنا في طريقي إليكم».

خطا أول خطوة على الدرج المعدني المطل على البحر مباشرة وهو يثرثر عبر الجهاز. لم يكترث للأرض الرطبة، ولم يشعر بروبن الذي مد يده ولمس كتفه فقط.

التفت الملاح بخوف، وحدث كل شيء بسرعة؛ انزاحت قدمه عن الدرجة الرطبة، وفقد توازنه، وتدحرج جسده نحو الحافة المفتوحة بجانب الدرج.

فرّت صرخة قصيرة منه، تبعها صوت ارتطام، ثُمّ الصمت الذي تلذذ به روبن للحظة قبل العودة إلى المقصورة ومراقبة شاشة الرادار.. ثلاث نقاط حمراء، ثلاث سفن على وشك الوصول إلى مواقعها، وبدء المرحلة التالية.

لكن كان هناك أمل صغير داخل قلبه، شعور يخبره أن الإشارة التي رآها الملاح لم تكن كاذبة، وأن هناك من يتربص لهم في الظلام. لم يهتم من يكونون وكيف وجدوهم، أرادهم أن يصلوا في الوقت المناسب فقط، فهو لا يستطيع فعل الكثير بمفرده، ولكنه سيحاول.

آن الأوان ليكون صاحب القرار، ولو كان الموت قدره، فسيرحب به، لكنه سيحرص على سحب الجميع معه!

كانت تلك الفكرة التي دارت في رأسه وهو يفتح الخزانة المعدنية الصغيرة، ويسحب مسدس الإشارات الضوئية.

غادر المقصورة، وواجه الرياح الباردة، ثُمّ رفع ذراعه ولم ينتظر، ولم يتردد؛ أطلق القذيفة التي شقت السَّماء بضوء أحمر صارخ، ثُمّ تنفس الصعداء، وكأنه ولد من جديد.

وحيث لا ضوء، ولا دفء، كانت روبي ممددة على الأرض مثل جثة لم تُدفن بعد، تغطي الكدمات جسدها مثل طبقة جلد ثانية، وينهش البرد عظامها حتّى شعرت أنها لم تعد إنسانة، بل دمية محطمة، ملقاة في مكب نفايات.

ومع ذلك، كان قلب الأم فيها يرفض الموت، ويتشبث بصورة ميا، وابتسامتها، وضحكتها، وحتّى بكائها، ويتمسك بكل الذكريات ليبقيها



حية، ويمنعها من السقوط إلى الهاوية.

صدر صرير قوي عندما فتح أحدهم الباب، فسقط الضوء الباهت على وجهها، ورأت هوك يقف وعلى وجهه ابتسامة عريضة كالمعتاد.

«تبدين في أفضل حال يا روبي».

تعالت ضحكات الرجال خلفه، كأنهم جمهور يستمتع بمشهد على المسرح، ثُمّ قال: «لقد أحضرت لك مفاجأة. هل يمكنك أن تحزري ما هي؟».

لم تبدِ روبي ردة فعل؛ كانت أضعف من أن تفعل ذلك. بالكاد تفتح عينيها، وبالكاد تتنفس!

قال هوك بنبرة متحمسة: «أحضرت لك ابنتك!».

سقطت كلماته كالمطرقة على رأسها، ففتحت فمها المرتجف وهمست: «ميا؟».

دفعت الأرض بيديها وجلست بصعوبة، كل عظمة فيها تصرخ من الألم، وكل جرح ينبض بوجع ثقيل، لكنّها لم تكترث، فابنتها هنا أخيرًا.

بحثت بعينيها خلفه وانتظرت ظهور ابنتها بلهفة محزنة، إلى أن ألقى هوك بكيس بلاستيكي شفاف أمامها.

حدقت فيه دون فهم، ثُمّ أدركت أن بداخله قطعة لحم حمراء طرية تغرق في عصارة داكنة.

«هذه ميا الصغيرة، أو بالأحرى قطعة منها». ضحك بنشوة، ثُمّ أضاف: «لم نستغرق وقتًا في سلخها وتقطيع لحمها، فلحم الأطفال طري وسهل القص».

تجمد عقل روبي تمامًا، وانحبست أنفاسها في صدرها، ومدت يدها المرتجفة ولمست الكيس، فسرت قشعريرة مرعبة عبر ذراعها، ثُمّ انفجر كل شيء داخلها في لحظة واحدة فقط!

أطلقت صرخة وجع لم تشعر به قط في كل حياتها، صرخة خرجت من أعمق نقطة في روح أم فقدت طفلها.

«ميـــــــــــــــا!»

صرخت وصرخت حتّى لم يعد صوتها يشبه صوت إنسان، وهزت رأسها، وبكت، وضمت الكيس إلى قلبها المفطور وكأنها تحتضن طفلتها، بينما هوك يضحك مع رجاله، حتّى جذب انتباههم الضوء الأحمر في السَّماء، فسأله أحد الرجال: «ما هذا؟ من أطلقه؟».



هزّ كتفه: «لا بد أنها إشارة للسفن. هيا بنا نستعد».

نظر إلى روبي نظرة أخيرة، ثُمّ قال: «سننتهي من نقل الشحنات، ثُمّ سيأتي أصدقائي ونبدأ المرحلة الأخيرة من تدميرك يا عزيزتي. إلى اللقاء!».

صفع هوك الباب بقوة، فعاد الظلام ليلتهم روبي ويحبسها داخل تابوت معدني قذر، لتموت بقهر، ودون رحمة..



7: النار و التضحية

اجتمع بعض رجال آل كورتيز وغارسيا داخل قمرّة القيادة، يراقبون مارسيل الذي فرد خريطة فوق الطاولة، وتحرك قلمه فوقها بخفة ودقة. نقطة حمراء كبيرة في المنتصف مثّلت السفينة الرئيسية، وثلاث نقاط سوداء مثّلت السفن الثلاث التي توزعت حولها على شكل مثلث محكم ومدروس بدقة تسهّل عمليتهم، وتمنع وقوع الحوادث.

ضغط على السماعة في أذنه وقال بنبرة منخفضة، مخاطبًا أحد أفراد فيلق الظل: «إم 1-، أعد طائرة الدرون، حصلنا على ما يكفي من المعلومات».

تابع الرسم على الخريطة، فيما عقد لورينزو ذراعيه متأملًا الشاشة أمامه، وقال بنبرة هادئة: «هناك الكثير من النقاط الحرارية التي التقطتها طائرتك، ما لا يقل عن ثلاثمائة رجل في السفينة الرئيسية فقط، وآخرون في السفن الثلاث، إنهم يفوقوننا عددًا».

تقدم أندرياس وقال بنبرة مشحونة: «يمكننا التصدي لهم. نحن هنا، وجاهزون، فما الذي ننتظره؟ لماذا نضيع الوقت؟ لنهاجم السفينة الرئيسية ونبحث عنهم!».

رد لورينزو: «هذا انتحار يا أندرياس».

التفتوا إلى مارسيل حينما تحدث عبر جهازه وأمر فيلق الظل بالاستعداد، ليزفر أندرياس بامتعاض، يكاد يفقد صوابه: «هل ستموت إن

شاركت خطتك ولو لمرة؟ ما خطبك؟ لماذا تحتفظ بكل شيء لنفسك؟».

رفع مارسيل رأسه أخيرًا ونظر إليه ببرود: «لا تصرخ».

اندفع أندرياس نحوه قائلًا: «بل سأفعل! فأنت تمنعنا من التحرك وتأبى إخبارنا بأي شيء! ما أزال أنتظر الإجابات.. لماذا انطلق الضوء الأحمر، ولماذا توجد ثلاث سفن تنتظر، ولماذا نحن نقف هنا الآن وأنت توشك على المغادرة مجددًا؟ ما الخطة؟».

نقر مارسيل على الخريطة بقوة أكثر من اللازم: «هذه الخطة!». ثُمّ تابع بهدوء: «قد يكون الضوء الأحمر إشارة للسفن الثلاث، لذا سأنطلق الآن مع سبعة من فيلق الظل لمهاجمة السفينة الرئيسية، والستة الباقون سيهاجمون السفن الثلاث».

اشتط أندرياس غضبًا، لكنه لم ينفجر هذه المرة، بل نظر إلى لورينزو مشيرًا إلى مارسيل، وكأنه يريده أن يشهد ما يجري ولا يلومه لو قتله بعد قليل: «هل ترى ما أتحمله؟».

ولأوّل مرة، وافقه لورينزو الرأي، لكنه لم يبدأ بمحاضرة مارسيل، بل سأل بنبرة مستنكرة: «سبعة ضد مئتي رجل؟».

أطلق مارسيل تنهيدة قصيرة، ثُمّ قال: «النقاط الحرارية العديدة التي رأيتها لا تعود إلى رجال وحسب، بل أطفال».

شحبت وجوههم جميعًا، عدا لورينزو الذي أمال رأسه: «أطفال؟».

شرح مارسيل على الخريطة: «هذه تجارة تشرشل. السفينة الرئيسية التي خطفت روبي والبقية محملة بأطفال، ووجود السفن الثلاث يعني أنهم ينوون القيام بعملية نقل لكل سفينة». نظر إليهم نظرة واثقة: «يستطيع الفيلق تولي الأمر مهما كان العدد، فأنا من درّبهم».



زفر أندرياس أنفاسه بصعوبة: «يجب أن ننطلق.. ابني.. والآخرون».

رد مارسيل بصرامة: «لستم مدربين على التعامل مع هذه المواقف، ستقودون أنفسكم إلى حتفكم».

فتح أندرياس فمه، لكن لورينزو سبقه: «قد تكون أنت وفيلقك أمهر منّا، ولكن هذا لا يعني أننا لسنا قادرين على فعل شيء. إياك والاستهانة بنا».

استرق نظرة واحدة إلى الخريطة، ثُمّ قال: «سيتولى آل غارسيا السفينة الغربية، وآل كورتيز الشرقية، وبعد السيطرة عليهما، ستنطلق مجموعة مشتركة للثالثة، بينما أنت وفيلقك تسيطرون على السفينة الرئيسية.. هذه الخطة».

جالت عينا مارسيل على وجوههم جميعًا، ولم ير التردد أو الخوف، لذا استسلم ولم يجادل، ثُمّ انطلق صوت أحد أفراد الفيلق عبر اللاسلكي:

«السفن الثلاث ترسل زوارق تحميل نحو السفينة الرئيسية، والرافعة الكبيرة تتحرك».

«يجب أن ننطلق».

لم يحتاجوا إلى سماع كلمة أخرى؛ نظرة واحدة كانت كفيلة بتحريك كل شيء في سفينتهم. كانوا جنودًا على وشك الاشتباك مع العدو، في معركة الحياة أو الموت، في معركة الانتقام وتمزيق من مسهم بسوء!

انطلق مارسيل مع فيلقه أولًا، وانزلقوا نحو القوارب النفاثة مثل الأشباح السوداء، لرسم خط البداية، وبعدهم أندرياس وعائلته إلى الغرب، وقلبه يخفق بسرعة؛ نبضة تخبره بأن ابنه على قيد الحياة وينتظره، وأخرى تخبره أن الأوان قد فات!

همس بتوتر وهو يشرد بنظره نحو العتمة: «خوليو؟».

«أجل؟».

«إن مت فاحرص على إنقاذ ابني، وإن مات كلانا، فاحرص على إعادتنا إلى الوطن. تعرف مكان وصيتي».

تنهد خوليو، ثُمّ أومأ: «حاضر».

«ولا أريدك أن تموت، لا أريد لأي أحد من عائلتنا أن يموت».

ابتسم خوليو ابتسامة مُرّة، وزيّف نبرة ساخرة: «هل نسيت؟ الموت بعد قتال حامٍ مع إخوتك أمر ممتع!..».

وقف روبن على السطح العلوي بثبات، جسده ساكن، ملامحه جامدة كالصخر. بدا وكأنه يراقب الزورق الأول وهو يقترب من السفينة ويتخذ



موقعه، لكنه كان يراقب البحر الذي اتحد مع السَّماء في لوحة مظلمة ومخيفة.

كان هادئًا من الخارج، لكن أعصابه كانت تحترق مع كل دقيقة تمر، ومع كل مستجدات وأوامر يصرخ بها الرجال حوله..

«تم تخدير الأطفال وتوزيعهم في الحاويات».

«الحاويات جاهزة للنقل».

«الزورق يقترب، سننقل الحاوية الحمراء أولًا، فليتخذ الجميع مواقعهم!».

بدأ صوت أزيز محرّك الرافعة العملاقة يملأ الهواء، ويتردد في صـــدر

روبن أكثر من أذنيه، لكنه تحمل ثقله، وظل يراقب، ويأمل ويدعو، وينتظر المعجزة، الأمل أو الوحش.. لا يهم، سوى أن يصلوا قبل أن تختفي الحاويات إلى الأبد، ويختفي معها.

زفر نفسًا عميقًا عندما سمع وقع خطوات خلفه، وارتعشت أصابعه قليلًا، لكنه صمد وقال بنبرة خالية من التعاطف أو المرح: «أهلًا بك يا كينغ».

وقف كينغ إلى جانبه دون قول شيء. كان صبيًا في الخامسة عشرة من عمره، لكن حضوره لم يشبه حضور طفل أبدًا؛ كان الأكبر، والأمهر، وفخر تشرشل الذي يخشاه الجميع.

نظر إلى روبن نظرة جانبية، ثُمّ سأل ببرود خالص: «من أطلق الضوء الأحمر؟».

زفر روبن بضجر، وزيّف نبرة لا مبالية: «لا بد أنه أحد هؤلاء الحمقى، لا يكفون عن التصرف كالأطفال. أستحق جائزة لتحملهم كل هذه الأيام».

هزّ كينغ رأسه فقط، ثُمّ نقل عينيه إلى الحاوية الحمراء التي ارتفعت عاليًا في الهواء، تحمل أطفالًا أبرياء من ضمنهم أندريه، لنقلهم إلى حتفهم.

ضحك أحد الرجال بصوت عال، وخاطب من يحرك الرافعة: «احذر، فلا نريد أن تقع في البحر مثل آخر مرة! فقدنا الكثير من السلع وخسرنا المال».

تعالت الضحكات، وظل روبن يراقب الحاوية حتّى هبطت على سطح الزورق القوي بسلام، وانطلقت إلى السفينة التي ستحملها وتبحر في طريقها.

وعندما بدأوا بنقل الحاوية الخضراء، قال كينغ: «قاربي في الخلـــف،



فتحرك».

رد روبن بصوت ثابت عمدًا: «سأنتظر حتّى يحملوا الحاوية الأخيرة».

«لن يكون ذلك ضروريًا يا بارون، فلقد انتهى عملك هنا».

لم يجادله روبن؛ كان يعرف أن هذا هو حكم الموت، وأنه سيسير إلى منصة إعدامه، لكنه مع ذلك مشى نحو مؤخرة السفينة، بخطوات ثابتة، لا تردد ولا خوف فيها.

لم يكن هناك عدّ، ولا مقدمات، سحب كلاهما سلاحه في الوقت ذاته وأطلقا النار، لم يُصب أحدهما الآخر، لكنهما أشعلا فتيل معركة الحياة أو الموت بينهما.

ارتمى روبن خلف إحدى الحاويات وصوت الرصاص يطن في رأسه. أطلق النار بسرعة، لكن كينغ تمكن من النجاة منها، والاقتراب كالسفاح.

اضطر روبن إلى الانتقال من مخبئه، وخلال ذلك أطلق رصاصته الأخيرة وهو يدعو أن تصيب هدفها، فخدشت ذراع كينغ، لكنّها لم توقفه!

سحب سكينه ولاحقه بوحشية بين صفوف الحاويات، حتّى وصل روبن إلى طريق مسدود لا مهرب بعده.

التقط أنفاسه المتسارعة، وقال بسخط: «هل أمرك سيدي بذلك؟».

رد كينغ ببرود: «نعم. فأنت فشلت في المهمة، وتعلقت بأهدافك».

«لم أفعل!».

«أثبت ذلك إذًا».

علا صوت تراشق رصاص بعيد، تلاه صراخ هوك عبر اللاسلكي معلنًا عن هجوم مفاجئ، لكن كينغ لم يزحزح عينيه عن روبن الذي قاوم بشراسة



لإبقاء تعابيره ساكنة رغم الأمل الذي تبرعم داخل قلبه؛ يدرك أن كينغ يحلله، وأن أي حركة غير محسوبة قد تشي بستره وتنهي كل شيء بسرعة، وهو يحتاج إلى كسب كل ثانية.

«نحن نتعرض لهجوم، نحتاج أن نرى ما يجري».

«هل ترغب في الهرب؟».

«لا، بل أريد أن أثبت لك ولائي، أخبرني كيف وسأفعل ما تطلبه».

حدق به كينغ بتركيز، ثُمّ قال: «حسنًا إذًا، لا تزال روبي سميث داخل الحاوية. اقتلها بيديك، أثبت أنك لا تزال البارون، وسأخبر سيدي أن يعفو عنك».

تجمدت ملامح روبن، رفع ذقنه وارتدى قناع البارون مجددًا، ثُمّ قال: «حسنًا، سأحضّر لك رأسها».

تراجع كينغ خطوة، تاركًا له الطريق، لكن ما إن تجاوز روبن كتفه حتّى انخفض بسرعة، وطعن ساقه؛ لم تكن الطعنة قاتلة، بل كافية لعرقلته فقط، لكن كينغ تصرف بسرعة، حرك سكينه ومرت فوق خاصرة روبن.

أطلق صرخة متألمة، لكنه لم يتوقف، هاجم بقبضات وركلات عنيفة، غريزية، حتّى ارتد كينغ إلى الخلف، وحينها دوى صوت انفجار تبعه إطلاق النار، وصرخات بعيدة تردد صداها عبر البحر.

اتسعت عينا روبن، أعماه الأمل وجعله يفقد تركيزه للحظة، استغلها كينغ في سحب السكين من ساقه متحملًا الألم، وتوجيه طعنة مميتة إليه.

تفادى روبن الطعنة في اللحظة الأخيرة، ثُمّ ضرب ذراع كينغ بقوة واندفع مبتعدًا، ساقاه ترتجفان وأنفاسه متقطعة.



زفر كينغ بغضب، ومزق كم قميصه ليضغط على جرح ساقه ويؤخر النزيف، ثُمّ تبع آثار دماء روبن حتّى وصل إلى حاوية بابها مفتوح، وبدا أنه اختبأ داخلها.

قال بتهكم: «هل تحاول استدراجي إلى الداخل يا بارون؟». أردف ببرود: «ليس لديك خبرة في الظلام بعد، فأنا الأكبر والأفضل».

كانت كلماته حقيقة موجعة، فروبن الأصغر، ليس الأفضل في القتال ولا يزال يتدرب؛ لكنه الأسرع من بينهم جميعًا، والأفضل في رياضة الباركور.

ترك آثار دمائه على أرض الحاوية ليقود كينغ إلى الداخل، بينما هو يستلقي فوقها، يكتم أنفاسه ويضغط على جرحه، ينتظر اللحظة المناسبة.

ما إن دخل كينغ، حتّى قفز روبن كنمر جريح وأغلق الباب بسرعة ليحبسه.

عاشت لحظة صمت قصيرة، ثُمّ قال كينغ بنبرة لا مبالية: «تعلم أنني أستطيع الخروج من هنا، وعندما أفعل ذلك فستكون ميتًا».

لهث روبن أنفاسه وتمتم بصوت مبحوح: «أعلم.. لكنك سوف تستغرق وقتًا، وهذا كل ما أحتاج إليه».

ترك المكان وأسرع إلى روبي بخطوات غير متزنة. جسده يرتعش، دماؤه تسيل، ونظره مشوّش، لكنه قاوم؛ فلديه دقائق معدودة فقط ليصل إليها ويخرجها من هنا، قبل فقدان وعيه أو الموت.



وقع الانفجار الكبير الذي سمعه روبن في السفينة الغربية بعد هجوم شرس من آل غارسيا، أوّل من قرع طبول الحرب وأعلنوا بداية المعركة الحامية!

تسلّقوا السلالم المعدنية، وهاجموا ككيان واحد، يغطون بعضهم ويطلقون النار على الأعداء، وفي مقدمتهم أندرياس، يصرخ بالأوامر، يقاتل بشجاعة، ويبحث عن أي أثر لابنه.

هتف خوليو عبر الجهاز اللاسلكي: «سيطرنا على الزورق والحاوية الحمراء».

سكنت أنفاس الجميع للحظة، ومرت دقيقة كاملة، ثُمّ جاء صوت آخر: «الأطفال مخدّرون ولكنهم بخير!».

انقضت دقيقة أخرى، ثُمّ صاح خوليو بنبرة مضطربة: «وجدنا أندريه، أكرر وجدنا أندريه. لا أثر لميا أو روبي والطفل الآخر».

عاد النفس التالي الذي سحبه أندرياس إلى صدره كالحياة، وكأنه كان غارقًا لأيام، ثُمّ طفا إلى السطح ورأى النور.

لكن ذلك النور اختفى في لحظة؛ أطلق عدوّ خفي ومجهول رصاصة لم يعرفوا مصدرها، ارتطمت بصندوق معدني ضخم كان موجودًا بجانب القمرّة الخلفية، يحوي أسطوانات أوكسجين مضغوطة.

مرت ثانية واحدة فقط، ثُمّ اندفعت أسطوانة مثل الصاروخ، وارتطمت بسور السفينة محطمة الحديد.

علا صوت رجل من آل غارسيا، صرخ بكل قوته وأمرهم بالاحتماء، لكن صوت صراخه ضاع وسط هدير الانفجار، والنيران التي التهمت المكان في لحظة!

نهض أندرياس مترنحًا، وصدى الانفجار يطن في رأسه وأذنيه، ثُمّ جالت عيناه بين النيران والدخان الكثيف، باحثًا عن أي وجه مألوف.

ضغط على الجهاز اللاسلكي بيد مرتجفة، ونادى بأسماء رجاله، سقط الاسم الأول، ولا ردّ، والثاني والثالث، حتّى انقبض قلبه.

ثُمّ جاءه صوت دانتي، يسعل ويقول بصوت واهن... صرخ: «دانتي؟ أين أنت؟ أجبني!».

هتف خوليو عبر جهازه بتوتر: «أندرياس! هل أنتم بخير؟ يجب عليكم مغادرة السفينة الآن!».

«لن أغادر بدون دانتي والآخرين!».

في الجهة الأخرى، اقتحم مارسيل السفينة مع الفيلق. لا صوت، لا صراخ، لا إنذار مسبق، يتحركون كشخص واحد، يطلقون النار بدقة مرعبة، يطعنون بصمت، ينقضون من فوق الحاويات كمفترسين،



ويُسقطون أعداءهم كالدمى دون رحمة.

ومع اشتعال المعركة في كل اتجاه، تعاقبت الأصوات عبر اللاسلكي:

«وجدنا أندريه. لا أثر لروبي أو ميا والطفل الآخر».

«نواجه صعوبة في السيطرة على السفينة الشرقية!».

«السفينة الغربية تحترق وما يزال رجالنا هناك».

تزاحمت الأصوات في قنوات الاتصال، لكن جملة واحدة ترددت داخل رأس مارسيل:



لا أثر لروبي..

لا أثر لروبي..

لا أثر لروبي!

أثارت الكلمات دماءه، وأطلقت الوحش المكبوت داخله. صار يقتل بسرعة وشراسة أي شخص يظهر أمامه، يسأل عن مكانها، ولا يرحم إن تأخر أحد بالإجابة.

أطلق الرعب على سطح السفينة، حتّى تراجع هوك مع من بقي من رجاله وقفزوا إلى زورق النقل، ليأخذهم إلى السفينة الأخيرة التي لم يصل إليها آل غارسيا، وآل كورتيز بعد.

وفي لحظة جنونية، لمع الشر والخبث في عيني هوك، فصرخ عبر جهازه مخاطبًا مشغل الرافعة: «أفلت الحاوية السوداء. سيشتتهم إنقاذ الأطفال، وستكون فرصتنا للهرب!».

دفع المشغل ذراع الرافعة نحو الأسفل فاهتزت، وانخفضت الحبال الفولاذية بسرعة، ثُمّ ضغط زرًا آخر وفتح الأقفال التي تمسكها، لتهوي الحاوية السوداء نحو البحر.

ارتطمت بسطح الماء بعنف، فتناثر الرذاذ عاليًا من حولها، قبل أن تتقاذفها الأمواج. طفت لوهلة، ثُمّ بدأت المياه تتسرب إلى داخلها، وتشدّها للأسفل.

انفجرت الأصوات عبر اللاسلكي مجددًا:

«الحاوية!»

«الأطفال!»

«نحتاج إلى الدعم!»

عمت الفوضى في كل مكان، وارتفع الهلع كالدخان، لكن مارسيل لم يهتز، لم يتردد، أصدر أمرًا واحدًا لفيلق الظل، أمرًا لم يعهدوه في معاركهم من قبل:

«اتركوا القتال وانسحبوا. انقسموا وقدموا الدعم للسفينتين فورًا».

تبادل أفراد الفيلق النظرات الصامتة، لكن لم يعترض أحدهم. انتشروا على الفور، ثُمّ هتف مارسيل: « إم 5-، توجه إلى مقصورة التحكم وأنزل ذراع الرافعة!».

امتثل إم 5- للأوامر وانطلق كالرصاصة، فيما هتف مارسيل بالرجال القادمين للمساعدة وقام بتوجيههم للخطوة التالية.

علا صوت صرير الرافعة، وأخذ الرجال يصرخون بصوت واحد: «لليسار، لليسار!».

«أمسك الزاويتين العلويتين أولًا، فالوقت ينفد. ارفعها عند إشارتي!».

انخفض إطار الرفع الحديدي فوق الحاوية المائلة، ضغط إم 5- زر الإطباق، وانغلق قفلان بإحكام، فهتف الرجال في القوارب بصوت واحد مع مارسيل: «ارفع!».

بدأت الرافعة تشدّ الحاوية الغارقة بضجيج مرعب، حتّى تدفقت المياه من الجهة المغمورة، وعادت لوضعها الأفقي.

«أنزلها مجددًا، أمسك بالزاويتين الأخريين الآن».

انخفض الإطار مجددًا ولامس الزاويتين اللتين كانتا غارقتين منذ لحظة، وأغلقت الأقفال الأربعة أخيرًا، ثُمّ ارتفعت الحاوية عاليًا، يقـــطر



منها الماء وكأنها تنزف، لكنّها هبطت على سطح السفينة بسلام..

وخلال تلك الفوضى، كان روبن المنهك قد اندفع داخل الحاوية التي حبسوا بها روبي، ليراها منكمشة في الزاوية مثل طائر كسرت أجنحته، تحتضن كيس اللحم كما لو أنها تحتضن رضيعًا. عينها السليمة زائغة، تحدّق في الفراغ، وفمها يتمتم لحنًا مهشمًا يشبه تهويدة أم فقدت روحها.

هوى على ركبتيه قربها: «روبي! يجب أن تخرجي من هنا!».

لم تنظر إليه روبي، واستمرت بهزّ كيس اللحم برفق، فلمس كتفها وتوسل: «آل كورتيز هنا. لقد أتوا لإنقاذكم، لذا أرجوك اخرجي بسرعة».

هم بسحب ذراعها، فصرخت ودفعته بوحشية: «لا تلمس ابنتي!».

تأوه روبن بألم عندما ارتد للخلف، لكنه اقترب مجددًا وصاح بصوت مبحوح: «هذه ليست ميا! إنها داخل إحدى الحاويات. إنها بخير وتنتظرك، لذا اخرجي بسرعة قبل أن يأتي!».

هزت روبي رأسها بعناد يائس وهمست: «أنت كاذب.. كلكم كاذبون.. ارحل واتركني مع ابنتي».

ضمت الكيس بقوة أكبر وكأنها تخشى أن ينتزعه منها، وحينها شعر روبن بقلبه يتهشم، فبكى بحرقة، وهزّ ذراعها بيديه الملطختين بدمائه: «أنا آسف حقًّا! لكن صدقيني، ميا حية وتنتظرك، لذا أتوسل إليك أن تخرجي من هنا. أرجوكِ دعيني أنقذك، دعيني أفعل الصواب! لا أريد أن تموتي هنا يا روبي، لذا..».

انكسر صوته في منتصف الجملة، وانزلقت يده إلى جرحه فضغط عليه وتأوه بألم فظيع.

وفجأة، سمع محرك عربة ذات رافعة شوكية، وارتطم شيء قوي بجدار



الحاوية التي ارتجت وتزحزحت عن مكانها بدفعة عنيفة، ثُمّ دفعة أخرى نحو حافة السفينة، حتّى بات نصف الحاوية فوق سطح البحر.

تمتم روبن بفزع: «لا.. لا.. لا..».

لكن روبي لم تتأثر، ما تزال تحتضن ابنتها وتغني لها، ثُمّ نظر روبن إلى الأعلى عندما سمع وقع خطوات على سطح الحاوية، ولم تلبث لحظات حتّى تأرجح كينغ ودخلها بمهارة.

«لا مهرب لك الآن».

صرخ روبن: «نحن نتعرض لهجوم، سيقتلونك ولن تستطيع التصدي لهم، لذا ارحل من هنا!».

«لدي مهمة، ولن أغادر حتّى أنفذها كما طلب سيدي. سأهتم بالأعداء بعد التخلص منك ومنها».

مد روبن ذراعيه أمام روبي كدرع جسدي صغير: «لن أسمح لك!».

تقدم كينغ بخطوات بطيئة، كأنه يستمتع بكل ثانية، فأسند روبن ظهره على الجدار ودفع جسده بساقيه المرتعشتين حتّى نهض، يتدفق الأدرينالين في دمه وكأنه يعطيه جرعة أخيرة من القوة، من أجل روبي فقط!

زفر نفسًا مرتجفًا، ثُمّ ركض نحو كينغ في محاولة لدفعه نحو البحر والسقوط معًا، لكن كينغ كان أسرع منه هذه المرة؛ التقطه بحركة محسوبة، ثُمّ ضرب بطنه بركبته، فانهار روبن على الأرض، وقبل أن يتسنّى له التفكير، شعر بذراعه تلتف حول عنقه بإحكام، وكأنه يحاول سحقها.

قاوم روبن مثلما درّبوه في المقرّ، لكنه لم يملك القوة الكافية. بدأ الهواء يغادر رئتيه، والظلام يغزو عينيه، وروحه تهجر جسده.



انهمرت دموعه الحارة؛ لم يستطع إنقاذ روبي، لم يتسن له التكفير عن ذنبه، لم يتسن له الاعتذار، أو حتّى شكرها.

«هل أخبرك بسر؟ لطالما أردت سحق رأسك والتخلص منك للأبد، فأنت متعجرف، فاشل وضعيف، نجوت بيننا لأنّ الحظ كان حليفك فقط! لا تستحق رتبتك ولا خدمة سيدي، لا تستحق الحياة أو الهواء الذي أسلبه منك الآن أيها النكرة. لا تقاوم، بل مت! مت!».

ارتطم شيء قاسٍ برأس كينغ في لحظة مفاجئة، فحلّ قبضته الميتة عن روبن الذي شهق بصوت عال، وقبل أن يستعيد كينغ تركيزه أفلتت روبي كيس اللحم وطوقت ذراعيها حوله بقوة أم غاضبة، ثُمّ دفعت بجسديهما معًا نحو الخلاص الوحيد..

نحو الموت..

نحو النهاية...

نحو البحر الأسود الذي ابتلعهما!



8: الياقوت

«لاااااا!»

انفجرت صرخة روبن بعنف حتّى صمّت أذنيه وكادت تمزق صدره. زحف نحو المخرج، وصرخ باسم روبي كطفل فقد أمه، حتّى تشقق صوته وتقطعت أنفاسه.

لم يستطع تقبل الحقيقة، جالت عيناه على البحر الأسود بهلع؛ فلا بد أن هناك ما يمكن فعله.

عاد صوت ميا الرقيق إلى رأسه فجأة وهي تحدثه بحماس طفولي عن فيلمها المفضّل، وعن المعجزة التي أنقذت مملكة الأميرة، لكن روبن كان يعلم أن المعجزات لا تأتي بسهولة، يجب أن يسعى لها المرء، ويناضل حتّى آخر رمق، لذا مسح دموعه بظهر يده، ودفع الأرض بقوة حتّى وقف على قدميه.

زفر نفسًا مرتعشًا، ثُمّ اندفع للأمام وقفز ليتشبث بمقبض باب الحاوية الخارجي بكلتا يديه، وتدلّى جسده فوق البحر الذي بدا كوحش جائع ينتظر سقوطه.

شد على أسنانه، وحاول رفع نفسه، لكن يده انزلقت. حاول مجددًا ولم ينجح؛ فلم يملك الطاقة للتسلق، ويوشك على فقدان وعيه.

شعر بالعجز، فهمس لأول مرّة في حياته: «أرجوك يا إلهي، امنحني القليل من القوة من أجلها. القليل فقط، ثُمّ أرسلني للجحيم. أستحقه،

ولكن امنحني القوة الآن».

أغمض عينيه، ثُمّ أطلق أنينًا يشبه صرخة مكتومة، وحشد كل ما تبقى لديه في تلك اللحظة حتّى سحب نفسه للأعلى، ووصل إلى السطح.

لم يمنح جسده ثانيةً للراحة، لأنه سينهار لو فعل ذلك، وتحتم عليه استغلال كل ذرة طاقة تبقت له، لكنه بعد أن انزلق من الحاوية إلى سطح السفينة خانته ساقاه، فلم يستطع الوقوف.

زحف بارتجاف نحو الرافعة الشوكية، جرّ جسده داخلها، ثُمّ مد ذراعه، وضغط على الزامور لنداء أخير..

أسرع مارسيل وفتح باب الحاوية السوداء دفعة واحدة، فانهمرت المياه الباردة من الداخل، وارتفع صوت بكاء الأطفال الذين ارتجفت أجسادهم من الخوف والبرد.

رفع كشافه وتنقل بين وجوههم البريئة، يبحث عن روبي، وينادي باسمها، ولكن لا مجيب.

«ماما..؟».

توقف الكشاف على وجه ميا التي نهضت بصعوبة، ونظرت نحوه بخوف، فإذا بأنفاسه تتجمد فجأة، وقبضته تشتد حول كشافه أكثر.

قالت بصوت مبحوح: «من أنت؟ ولماذا تنادي ماما؟ أين هي؟».

اقتربت خطوة صغيرة منه، لكنه شعر بها كخطر وتراجع خطوة كبيرة إلى الخلف، وحينها هتف رجل من آل كورتيز: «مارسيل! هل ميا وروبي في الداخل؟».

لم يجب مارسيل النداء، ولم يلتفت للرجل، بل ركز على ميا التي تغيّرت



ملامحها عندما أدركت من يقف أمامها؛ اتسعت عيناها، وارتعشت شفتاها، ثُمّ صرخت بصوت يفطر القلب:

«بابا!».

ركضت نحوه دون انتظار ثانية أخرى، وارتطمت بساقه وتمسكت به، ثُمّ انتحبت ورددت كلمات غير مفهومة بينما هو متجمد مكانه؛ لم يعرف ماذا يقول، أو ماذا يفعل.

«لقد جئت من أجلي!».

خلع نظارته وكشف وجهه، ثُمّ لمسها بأصابع ارتجفت قليلًا. أبعدها عنه، وانحنى لمستواها، وتفقدها بسرعة، وسأل: «أين روبي؟».

هزت رأسها وهي تبكي: «لا أعلم! لقد أخذها الأشرار، وأخذوا أندريه أيضًا، وروبن.. روبن شرير وهو معهم! حاولت إقناعه بالعودة إلينا، ولكنه لم يستمع إلي!».

وفي تلك اللحظة، شق صوت الزامور الفوضى، ثلاث مرات قصيرة، ثُمّ ثلاث مرات طويلة، ثُمّ ثلاثًا قصيرة أخرى؛ استغاثة واضحة بشفرة مورس جذبت انتباههم جميعًا، واخترقت قلب مارسيل الذي همس باسم روبي دون وعي، وهم بالمغادرة بسرعة.

تمسكت ميا بثيابه: «إلى أين تذهب؟».

«للعثور على روبي».

«خذني معك إذًا، لا تتركني مجددًا يا بابا!».

وللمرّة الأولى، وجد مارسيل الشجاعة ليضع يده على رأسها، ويحاول طمأنتها: «سأعود».

نشجت قائلة: «أتعدني؟».

«أعدك».

وبعد تلك الكلمة، انطلق مارسيل بأقصى سرعته إلى مصدر الصوت، حتّى وصل إلى الرافعة، ورأى روبن طريح الأرض، يده على جرحه، وصدره يعلو وينخفض بوهن؛ كان على حافة الموت، لكنّ مارسيل لم يهتم لحالته أو أي شيء آخر في تلك اللحظة، جذبه من قميصه بعنف وسأل بنبرة حادة: «أين هي؟».

همس روبن: «ال.. بحر.. أسرع».

لم يحتج مارسيل إلى أكثر من ذلك. نظر إلى الحاوية، ثُمّ ترك روبن يلفظ أنفاسه الأخيرة واتجه إلى حافة السفينة، يحدق بالظلمة التي ابتلعت روبي.

هتف عبر جهازه بصوت منفعل: «إم 5-، أريدك أن توجه كل كشافات السفينة اللعينة نحو اليمين الآن».

لم يسمع روبن أوامر مارسيل الأخيرة، فقد كان صوته بعيدًا جدًا، ولكنه كان يأمل أن يستطيع إنقاذها، وكان يأمل أن يبقى صامدًا حتّى يسمع أنها بخير، ولكن وقته قد نفد.

نظر إلى السَّماء التي سطعت بضوء أبيض قوي، وسمع صوت نايت داخل رأسه، يردّد حكمته الغريبة:

«الظلام الذي نراه، قد يكون النور الذي نبحث عنه...».

وكان محقًا؛ فالظلام الذي أحاط مهمته، كان النور الذي لم يعتقد يومًا أنه سيجده، أو يحتاجه. كان ذلك النور دافئًا، احتضنه، وآواه وجعله يعرف معنى الانتماء، والحب.. نعم، لم يستحقها، ولكنه ممتن لأنها منحت له.

تمسك بالذكريات الجميلة معهما، ثُمّ أغلق عينيه الدامعتين، وتوقف عن المقاومة، واستقبل الموت.

أما مارسيل، فقد جال المحيط بنظارته الحرارية وهو بين الجنون والانهيار، حتّى رأى ظلًا حراريًا باهتًا، على عمق ثلاثة أمتار تقريبًا، يخفت تدريجيًا ويهبط نحو العتمة.

أخفض نظارته، ولمح وميضًا أحمر خفيفًا، ظهر واختفى بسرعة، وكأنه شرارة من البحر، أو وهم، لكنه علم على الفور أنه انعكاس عقد الياقوت الذي كانت ترتديه في الحفلة.

لم يتردد، لم يفكر، لم يتنفس حتّى، خلع كل ما قد يعيقه، ثُمّ قفز إلى الماء وهو عازم على إنقاذها، سبح عكس التيار بكل قوته، بكل غضبه والمشاعر التي أبقاها محبوسة طوال هذه السنوات، فهذه المرّة مختلفة؛ لن يسمح للبحر أن يسرقها منه، لن يسمح بموتها مهما حدث.

في النور، في الظلام، في عمق البحر أو على سطح اليابسة، سيصل مارسيل هذه المرة، سيمد يده ويمسك يدها، سينقذها مثلما أنقذته عدة مرات، ولن يتركها أبدًا.

غاص إلى العمق، واندفع نحوها بقوة. مد يده، لكن البحر سحبها بعيدًا عنه، فشدّ على أسنانه، وتحمل الحرارة التي تتصاعد في رئتيه ولحق بها مجددًا حتّى أمسك بها أخيرًا، وسحبها إليه، ثُمّ شق طريقه نحو الأعلى بصعوبة، رافضًا إفلاتها، كأنه ينتزعها من جوف البحر انتزاعًا.

وصل أحد الرجال بالقارب النفاث، وحدق في المياه بتوتر، حتّى طفا مارسيل للسطح وشهق شهيقًا قويًا كاد يمزق صدره، ثُمّ اقترب الرجل أكثر وساعده في سحب روبي إلى القارب.



اتسعت عيناه بفزع وهو يحدق بها، وليس بسبب الكدمات وآثار التعذيب على جسدها فقط، بل لون بشرتها الأزرق.

«لقد.. ماتت!».

نزع مارسيل عقد الياقوت وبدأ بإنعاش قلبها: «لم تمت، بل انخفضت درجة حرارة جسدها فقط. خذنا إلى لورينزو فورًا!».

انطلق القارب كالسهم، وضرب الأمواج بقسوة، لكن ذلك لم يمنع مارسيل من المتابعة، استمر بالضغط وقطرات الماء تتساقط من شعره على وجهها الساكن، تختلط بدموع لم يدرك أنها تهرب من عينيه.

وكان يهمس برجاء مع كل محاولة: «تنفسي يا روبي.. تنفسي.. عودي إلي، أرجوك».

وصلوا إلى السفينة في الوقت ذاته الذي وصل فيه خوليو وهرع بأندرياس المصاب إلى الداخل، طالبًا المساعدة قبل أن يفقدوه.

عم الهلع المكان، رجال يصرخون، وآخرون مصابون، وتم نقل روبي وأندرياس إلى الغرفة التي أعدها لورينزو مسبقًا كغرفة عمليات ميدانية، ورغم كل ذلك، لم يتركها مارسيل أبدًا ولم يتوقف، حتّى لمس لورينزو كتفه بحزم، وأمره بالابتعاد كي لا يعيقهم.

نظر إليها لثانية، ثُمّ أصدر أوامر للطاقم الطبي بهدوء:

«أدخلوا الأنبوب الهوائي. ارفعوا الأكسجين إلى 100%. ابدؤوا محاليل وريدية دافئة، وراقبوا حرارتها».

تحرك الطاقم في لحظة، ثُمّ انتقل لورينزو إلى أندرياس الذي وُضِعَ على الفراش، بالكاد يفتح عينيه ويصارع الموت بعد رصاصة قريبة جدًا من قلبه.

نقل عينيه إلى وجه لورينزو وبالكاد استطاع الحديث:

«أنقذني.. يجب.. أن أعيش.. من أجل ابني».

رد لورينزو بتهكم: «لم أسمعك، توسّل مجددًا».

هم أندرياس بشتمه فرمقه ببرود: «لا تشتم، فمصيرك بين يدي. اخرس واستعد لأشق صدرك، لطالما أردت فعل ذلك ولكن لقتلك». ثُمّ التفت لأخصائي التخدير: «زد الجرعة ودعه ينام».

اغتاظ أندرياس، وانطفأ وعيه قبل أن ينهي شتيمته، ثُمّ بدأ لورينزو عملية استخراج الرصاصة بخطوات دقيقة وحذرة..

وبعد ساعة، مسحت جوانا العرق عن جبينها بيد مرتجفة ثُمّ نظرت باتجاه لورينزو، وقالت: «لقد مرت ساعة، ولم ترتفع الحرارة كثيرًا. لا يوجد نبض، ولا حركة. لا شيء!».

هتف مارسيل بغضب: «لن تتوقفوا!».

«لقد ماتت! لا يمكننا فعل شيء آخر».

سحب سلاحه وهددهم بنظرات حادة: «لن يتوقف أحد!».

تجمد الجميع في أماكنهم، عدا لورينزو الذي لم يرفع بصره عن صدر أندرياس، وقال بهدوء: «سنقوم بعملية مجازة قلبية رئوية، لذا حضروا لها».

التفتت جوانا إليه بصدمة: «هنا؟».

«أجل».

«ولكن..».



ارتفعت نبرة لورينزو درجة فقط، ولكنّها بدت أحدّ من السكين: «لم أحضرك إلى هنا لتجادليني. نفذي ما أقول فقط».

باشر الفريق بالتحضيرات على الفور، ووقف مارسيل مكانه، ينهار بصمت مع كل دقيقة تمر دون استجابة أو أي ردة فعل من روبي.

وفجأة، بدأت الأصوات بالتلاشي تدريجيًا حتّى عم الصمت الغرفة، وباتت ضيقة وباردة، يغزو الظلام زواياها ويمتد عبر جدرانها.

تقلص صدره واضطربت أنفاسه، وارتعش جسده، وتسارعت ضربات قلبه إلى حد مؤلم لم يستطع تحمله.

كانت هذه أوّل مرّة يتعرض فيها لنوبة هلع، أول مرّة يدرك فيها أن الخوف الذي يحطم الصدر، ويشل العقل، ليس من الموت أو العذاب، أو حتّى جاريد.. بل من فقدان روبي!

نظر إليها، ثُمّ إلى الطاقم حولها حتّى رأى جاريد يقف بجانب رأسها، يمد يده ليلمسها، فصرخ: «لا!».

أطلق النار مباشرة دون تفكير، ومن حسن الحظ، لم تُصب الرصاصة أحدًا وارتطمت بالجدار، لكنّها أفزعت الجميع.

صرخت جوانا بغضب: «هل جننت؟».

أخفض ذراعه وظل يحدق في الأرض دون أن يرمش. توقف عقله عن التفكير والتركيز، لدرجة أنه لم يشعر باقتراب لورينزو حتّى غرس إبرة مخدر في عنقه.

استند على الجدار وحاول المقاومة، نظر إليه بحقد وهم بتمزيق وجهه، لكن قواه خارت بسرعة، ووقع على الأرض فاقدًا الوعي.



«هذا ما تستحقه يا مغفل». ثُمّ نظر إلى خوليو المتفاجئ وقال ببرود: «احمله بعيدًا عن هنا، وإن تحرّك فأخبرني حتّى أحقنه مجددًا. لا أريد أيًّا من هذين المغفلين أن يستيقظا حتّى نصل إلى المكسيك. أريد القليل من الهدوء».

ابتلع خوليو ريقه بخوف وحمل مارسيل خارجًا، فعاد لورينزو إلى روبي وتأملها للحظة، ثُمّ قال: «لنكمل..».



9: ميزان الجمجمة

فتح مارسيل عينيه بثقل، واستقر بصره على سقف الغرفة لثوانٍ، قبل أن ينظر إلى والده الجالس قرب فراشه، ظهره مستقيم، وعيناه مرهقتان وكأنه لم ينم، لكنه لا يظهر تعبه، ويتحمل كل شيء.

«كيف تشعر؟».

لم يرد مارسيل في البداية؛ كان هناك سؤال واحد فقط يشغل باله، وكان خائفًا من سؤاله. ارتعشت شفتاه للحظة، ثُمّ همس: «هل ماتت؟».

«لقد أنعشوا قلبها، ولكنّها في غيبوبة، ولا يعلمون إن كانت ستستيقظ منها».

أغمض عينيه وهمس: «أريد رؤيتها».

نزع ما يقيده بالفراش ونهض، وترنحت خطواته قليلًا، لكنّه استعاد توازنه بسرعة قبل أن يقترب والده القلق ويساعده.

كان الحراس منتشرين في كل ممر وزاوية من طابق المشفى الخاص، خفضوا رؤوسهم باحترام عندما مر الدون من بينهم، وخلفه مارسيل الذي يشعر بنبض قلبه يتسارع كلّما اقتربوا من غرفة روبي.. حتّى دخل ورآها.

بدت روبي مثل قطعة زجاج هشة، قد تتشظى في أي لحظة، طريحة الفراش، تحيط بها أجهزة وأسلاك كثيرة، لا تنتمي للحياة أو للموت، بل عالقة بينهما!

اقترب بخطوات ثقيلة، وجلس على المقعد بجوارها، وحدق بوجهها المغطى بالكدمات، وبأنبوب الأكسجين الذي يرغم الهواء إلى رئتيها لأنها أضعف من أن تتنفس بمفردها.

مارسيل.. الرجل الذي لم ينحنِ يومًا، الذي واجه شتى أنواع العذاب والرعب، انكسر ظهره، وانحنى إلى الأمام بلا مقاومة، لمجرد رؤيتها هكذا.

دخل لورينزو إلى الغرفة، وألقى نظرة عليها، ثُمّ أدخل يدًا في جيبه وقال بهدوء: «لا تزال حالتها حرجة، ولا يمكننا فعل شيء آخر سوى الانتظار».

أصغى الدون إليه حين بدأ يسرد إصاباتها واحدة تلو الأخرى، أما مارسيل فلم يزحزح عينيه عنها، ساكنًا مكانه حتّى ظنا أنه لم يسمع شيئًا، ولكنه حفر كل كلمة في رأسه.

وبعد مغادرتهما، كشف الغطاء قليلًا وأمسك بيدها؛ كانت باردة، خلاف ما عهدها، فاحتضنها بين كفيه، وحاول أن يبث فيهما الدفء.

همس وكأنه يحتضر: «أنا آسف. استيقظي رجاء. لا يمكنك أن تستسلمي. يجب أن تستيقظي. لدي الكثير لأقوله، لا أستطيع أن أخسرك الآن.. لا أستطيع أن أخسرك أبدًا».

نظر إلى وجهها مجددًا، ولمسه برفق، ثُمّ مرر أصابعه على الكدمات حتّى تبدد الأسى الذي يشعر به، وحلّ مكانه شعور سوداوي، أسوأ وأكثر إخافة من القتل.

شعور رجل قرّر أن العالم سيدفع ثمن ما حدث لها.. بالدّم!



وفي الجهة الأخرى من الطابق ذاته، هرعت لورينا وراكيل إلى غرفة أندرياس فور سماعهما بإفاقته أخيرًا.



اقتربت والدته وتفقدته، تتحسس وجهه الشاحب وكأنها تتأكد من وجوده، فيما وقفت لورينا قرب الباب، عاجزة عن الاقتراب والدموع لا تتوقف عن الانهمار من عينيها.

تنقلت نظرات أندرياس بينهما باضطراب وخوف، ثُمّ همس: «أندريه؟».

أجابت لورينا: «إنّه مع خوليو».

هم بالنهوض قائلًا بصوت متحشرج: «لا تتركوه وحده».

ضغطت والدته كتفه بقوة كي تمنعه من الحركة: «لا تتحرك! إنه بخير، المشفى بأكمله تحت حراسة مشدّدة، وخصوصًا هذا الطابق».

«أريد رؤيته».

«لا تزال متعبًا يا بني».

همس بتوسل: «أرجوكما».

نظرت والدته إلى لورينا، فبادلتها الأخيرة إيماءة صغيرة، ثُمّ خرجت لتحضر أندريه، وما إن رآه أندرياس حتّى جر جسده ونهض رغم الألم.

وقع على ركبتيه بقوة، فأمسكته راكيل بذعر: «جرحك لم يلتئم بعد!».

أسرعت لورينا مع ابنها وأمسكا به أيضًا، يحاولان إعادته إلى الفراش، لكنّ أندرياس لم يكترث، فتح ذراعيه وسحب ابنه إلى حضنه، ثُمّ قال بنبرة مضطربة: «هل أنت بخير؟».

أجهش أندريه بالبكاء مجيبًا: «أنا بخير يا أبي. بقيت قويًا مثلما علمتني وحاولت حماية عائلتي، حاولت حماية ميا، ولكني كنت خائفًا جدًا!».

ضمه والده أقوى: «لا بأس.. أنت بطل يا بني».



ارتخى رأس أندرياس فجأة، وسقط على كتف ابنه بلا وعي، فصرخت لورينا ونادت خوليو الذي اقتحم الغرفة بسرعة: «لقد فقد وعيه! أعده إلى الفراش ونادِ لورينزو».

«الأحمق! هناك نزيف بسيط».

سألت راكيل بقلق: «هل سيكون بخير؟».

«لا تقلقي يا سيدة غارسيا». ابتسم بأدب: «تبدين متعبة، فاذهبي وارتاحي».

تنهدت بتعب ومسحت على رأس أندرياس: «سوف أزورك لاحقًا يا بني، حسنًا؟». ثُمّ نظرت إلى لورينا وقالت: «سأصطحب أندريه معي، يمكنك البقاء معه».

مسح أندريه دموعه وودع والده بابتسامة صغيرة، فابتسم أندرياس له ونظر إلى خوليو الذي أومأ بفهم وقال: «لن أتركهما يا ابن العم، فلا تقلق».

تنهد أندرياس بعد رحيلهم، ثُمّ صفعه لورينزو على رأسه، فهتفت لورينا: «هل جننت؟ إنه مصاب!».

تجاهلها وحدق به بنظرة مرعبة: «اسمع أيها المغفل، إن تحركت مجددًا، فسيكون ذلك آخر شيء تفعله، مفهوم؟».

قطب حاجبيه بانزعاج وهمس: «مفهوم».

وما إن غادر حتّى أطلق أندرياس عدة شتائم خففت من توتره قليلًا، ثُمّ تنفس بصعوبة، ونظر إلى لورينا بنظرات مرهقة.

أشار إلى جانبه: «تعالي».



جلست على الفراش بحذر، ثُمّ مسحت على رأسه ووجهه بطلب، فأغمض عينيه للحظة، وكأنه يستسلم للمستها.

«لقد عدت، وأعدت ابننا أيضًا».

«قطعت وعدًا».

أمسكت يده وشدّت عليها، ثُمّ قالت بصوت متحشرج: «شعرت أن قلبي سيتوقف عندما أخبروني أنك أصبت. ظننت أننا خسرناك للأبد».

مسح بإبهامه على يدها وهمس: «أنا بخير، لذا لا تبكي وامسحي دموعك».

فعلت لورينا ذلك وأخذت نفسًا عميقًا، ثُمّ نظرت إلى ضمادته وسألت باهتمام: «ما الذي حدث؟».

حدق أندرياس بالفراغ، وبدا وكأنه يحدق بالنيران مجددًا، ثُمّ بدأ يقص على مسامعها ما حدث منذ البداية، حتّى الانفجار..

«ذهبت للبحث عن دانتي والآخرين، ثُمّ رأيت فتاة صغيرة، تقف قرب جثة أحد رجالي ظننتها ضائعة، لذا اقتربت لأساعدها، لكنّها التفتت وأطلقت النار علي في لحظة سريعة...».

أغمض عينيه وحاول تمالك صوته: «كانت ستطعنني مجددًا وتنهي حياتي، ولكن أحد رجال مارسيل قتلها أمامي مباشرة.. كانت فتاة صغيرة يا لوري!»

«ما الذي دفعها لفعل ذلك؟ من كانت؟»

«لا أعلم..»

أومأت بفهم، ثُمّ مسحت على يده: «لا تشغل بالك بالأمر الآن. سيتضح كل شيء لاحقًا، والمهم هو أن تتماثل للشفاء.»



نقر مارسيل على الطاولة بهدوء بعد أن استمع لكل ما توصلوا إليه من اعترافات الرهائن، ثُمّ نظر إلى لورينزو ببرود وقال: «متى استيقظ؟»

«ليلة البارحة. لم نتوقع نجاته بعد كمية الدماء التي فقدها، ولكنه فاجأنا. سيتم نقله إلى مكان آخر بعد أن يتماثل للشفاء.»

قال مارسيل بنبرة جادة: «خذني إليه.»

قاده لورينزو نحو طابقٍ خاص يعلوهم، شديد الحراسة إلى حد خانق؛ الرجال المسلحون ينتشرون في كل الزوايا، أمام الأبواب وفي الممرات.

«لماذا كل هؤلاء الحراس؟»

«تحسبًا لمحاولته الهرب، كما أن آل غارسيا يريدون رأسه، لذا يمكنك القول إننا نحميه إلى إشعار آخر.»

دخل مارسيل إلى الغرفة، ونظر إلى روبن فوق الفراش، نصف جالس، مقيّد اليدين والقدمين، معصوب العينين ومرهق، وإلى جواره ممرضة تحمل الملعقة في الهواء لتطعمه، لكنه لا يفتح فمه.

أخفضت يدها عندما لمحت لورينزو، ثُمّ وقفت باحترام:

«ما يزال يرفض تناول الطعام.»

أومأ بفهم: «حسنًا..»

حرّك روبن رأسه نحو الصوت، وارتعشت شفتاه الجافتان قليلًا، ثُمّ قال بصوت مبحوح: «أنت لورينزو، صحيح؟»



تبادل لورينزو نظرة سريعة مع مارسيل قبل أن يجيب: «أجل.»

«هل روبي بخير؟»

جاءه الجواب من مارسيل بنبرة حادة: «لا تذكر اسمها على لسانك.»

تجمّد روبن لثانية، وحرّك رأسه باتجاه صوت مارسيل، الذي وقف أمام الفراش، ثُمّ أمر الممرضة بخلع قناع عينيه.

آلمه الضوء في الوهلة الأولى، لكنه رمش حتّى تكيّف، ورفع بصره إلى الرجل الذي سمع عنه الكثير؛ الرجل الذي استخف به وتجرأ على تحديه.

أدرك روبن في تلك اللحظة أن هذه هي النهاية. لم يخف؛ فقد كان مستعدًا للموت منذ السفينة، ولكنه يرغب بسماع خبر عنها على الأقل قبل ذلك.

قال لورينزو: «سنترككما وحدكما.»

أشار للممرضة التي تبعته بهدوء، بينما مارسيل ما يزال ينظر إلى روبن.

«إن كنت هنا لقتلي فلا بأس، ولكن أجبني أولًا، هل هي بخير؟ هل نجت؟»

«ليس لديك حق في السؤال.»

رد روبن بنظرات مضطربة: «أعي ذلك، ولكن أريد أن أعرف.»

قال مارسيل ببرود: «إنها في غيبوبة خطيرة.. ولست هنا لقتلك بعد.»

اتسعت عينا روبن، ثُمّ خفض بصره والتزم الصمت، حتّى استأنف مارسيل الحديث:

«ستخبرني بكل مـــا حدث في تلك السفينة، ولا أريد الاعترافات التي

اعترفت بها عندما استيقظت، بل أريد تفاصيل كل شيء يخص روبي، وسترودّني بأسماء كل الرجال الذين لمسوها وألحقوا بها الأذى.»

قبض روبن على طرف فراشه بقوة؛ إذ عادت صرخات روبي إلى رأسه، ومزقه الذنب من جديد. أطلق تنهيدة عميقة، ثُمّ بدأ يسرد ما حدث في السفينة المشؤومة، وكانت كل كلمة تغادر فمه مثل الوقود الذي يغذي الوحش داخل مارسيل، ويوقد نارًا لو أطلقها لأحرق العالم حوله.

لكنه كبح كل شيء؛ لن يحرّر الوحش المتعطش للانتقام والدماء هنا، بل على الأسماء التي زوده بها روبن كما طلب، وسيواجهون مصيرًا أسوأ من الموت!

«هل تعرف مكان تشرشل؟»

«اشترى عدة جزر خاصة. لا أعرف مواقعها، لكنه على الأرجح يختبئ في إحداها.»

همّ مارسيل بالرحيل دون كلمة أخرى، فاستوقفه روبن بتردد:

«أعلم أني لست في موضع يسمح لي بطلب أي شيء. أعلم أني لا أستحق العيش، وأنك ستقتلني في أي لحظة.» اضطرب صوته قليلًا: «ولكن هناك صبي قد يكون مع تشرشل، لقبه نايت.. أرجوك لا تقتله، فقد أنقذ حياتي.»

التفت مارسيل نحوه ورمقه بنظرة قتلت كل أمل لديه:

«سأقتل كل من يقف في طريقي.»

غادر الغرفة واجتمع بوالده ولورينزو مجددًا، وأطلعهما على الأسماء دون ذكر تفاصيل ما حدث لروبي، فسأله والده بنبرة جادة: «ما الذي ستفعله الآن؟»



أجابه مارسيل بنظرات قاتمة: «سأصطادهم جميعًا، وأريد فعل ذلك في أسرع وقت، لذا سأستعمل ميزان الجمجمة.»

عمّت لحظة صمت قصيرة، ثُمّ سأل الدون: «وبأي اسم؟»

«لا يهم.»

رد الدون بصرامة: «بل يهم، فهي واحدة منا أيضًا، ولا أحد يؤذي نساءنا وينجو، لذا اختر الاسم الذي ستعلنه للعالم الآن.»

أخرج لورينزو هاتفه، ثُمّ نظر إلى مارسيل: «بانتظار قرارك.»

نظر مارسيل عبر النافذة إلى السَّماء الممطرة، والبرق الذي شق الغيوم. نطق اسمه تزامنًا مع صوت الرعد، فنقر لورينزو على لوحة المفاتيح بسرعة، ثُمّ ضغط على زر الإرسال، وحبس أنفاسه لثوانٍ، وكأنه لا يصدق أنه فعل ذلك للتو.

من المكسيك إلى إيطاليا، اليابان، روسيا وأمريكا، وعلى كل جهاز مرتبط بشبكة آكليس الخاصة، لمع رمز ميزان الجمجمة الذي لم يظهر سوى مرّة واحدة قبل عشرات السنين، ولكنه إلى هذا اليوم يبث الرعب في قلوب الجميع مهما كانوا!

جمجمة تتوسط ميزانًا حديديًا متوازنًا، لا تحمل كفتاه شيئًا؛ رمز يعلن بداية القصاص في عالمهم، ورسالة واضحة وصريحة من المقتص أن العدالة لن تكون في المحاكم، وأن الأسماء ملك له فقط، وأي شخص يقف بينه وبينهم سيكون مصيره الدمار، وليس الموت فقط.

ذكر روبن ثلاثة وعشرين اسمًا عذّبوا روبي؛ قُتل بعضهم في السفينة، وآخرون هربوا مع هوك.. ستة عشر اسمًا ذُكروا في القائمة، باستثناء تشرشل بيلز.

والمقتص: فيرناندو مينديز، بيدرو كورتيز.. المعروف سابقًا بـ005.

انتشرت القائمة كالنار في الهشيم عبر الشبكة؛ بعضهم تساءل وشعر بالفضول، وآخرون شعروا بالخوف والقلق وتمتموا بالدعوات، وكأن مذبحة على وشك أن تقع.

في اليابان، أوقفت يوكيكو اجتماعها على الفور وأمرت رجالها برفع كافة إجراءات السلامة، وحذرتهم ونهتهم عن التدخل في أي شيء:

«لو وطأت أقدام أحد هذه الأسماء داخل أراضينا بسلام فسيُقضى علينا. لا تسمحوا لهم بالدخول، وإن رأيتم أي أحد، فقيدوه واشحنوه إلى 005.»

وفي إيطاليا، أرسل مورينو تعليمات واضحة إلى كل العوائل التي يترأسها، أما ابنه ماتيو فقد قام بالاتصال بمارسيل على الفور، وترجاه كالطفل أن يشارك فقط، ووعده ألا يقتل أحدًا، وعندما سمح له، قفز في أرجاء قصره وهو يضحك بجنون، ثُمّ هتف برجاله:

«فلنبدأ الصيد!»

كان الأمر كما لو أن العالم السفلي قد انتفض. لقد أطلق مارسيل نيرانه دون صوت أو دخان، وأغلق كل الأبواب في وجوه الهاربين، حتّى وجدوا أنفسهم منبوذين ومطرودين من كل مخبأ، مهما حاولوا أو من قصدوا.

جرّدهم من الأمان، وزرع في قلوبهم الخوف، وضيّق الخناق عليهم حتّى لم يعد هناك مجال للتنفس دون لفت الأنظار إليهم، ولسعهم بالحقيقة المرعبة..

الموت قادم..

آل كورتيز قادمون!



005 قادم، ولن ينجو أحد!

وقبل التغلغل في الفوضى وخوض حرب أخرى، زار روبي، ولمس وجنتها بنفس اليد التي ستتلطخ بالدماء قريبًا، ثُمّ انحنى وقبّل الندبة على جبينها، وهمس:

«سأبيدهم جميعًا وأعود إليك. سنتجاوز هذا معًا، وستعودين إلي. أنت أقوى امرأة عرفتها يا روبي سميث.. والموت ليس خيارًا لك.»

10: الفارس

كانت ليلة جامحة وصاخبة على جزيرة تشرشل الخاصة؛ علا فيها صوت الموسيقى، وهزّت الجدران التي شهدت الضحكات الممتلئة بالمال والسلطة، والبكاء المختنق بالقهر..

كان تشرشل الملك الذي امتلك شعبه الخاص؛ أغلبهم من القاصرين الذين حُكم عليهم بالسجن هنا، تحت أقدام الأثرياء الذين يمرحون بلا ضوابط، بلا ضمير، غارقين في النشوة والملذات، دون قلق؛ وكأن وجود الحراس المسلحين في كل مكان، والتقنيين الذين يراقبون شاشات الرادار كل ثانية، ضمانة كافية بأن لا أحد يمكنه الاقتراب منهم.

ومع اقتراب الفجر، هدأت الموسيقى، وتبعثرت الأضواء، وترامت الأجساد على الأرض؛ بعضهم فاقد للوعي، وبعضهم ميت فعلًا، وآخرون تسللوا إلى غرف خاصة ليمارسوا فسادهم بلا رحمة.

أما تشرشل، فقد جلس في شرفته المطلة على البحر، يدخن سيجارته، ويتنعم بنسيم الليل والسكون بعد الجنون الذي استمر لساعات وساعات.

نفث سحابة من الدخان، ثُمّ رفع يده بكسل وقال: «استدعوا نايت.»

لم تمض لحظات حتّى ظهر نايت ودخل إلى الشرفة. كان نصف عارٍ، جسده النحيل خريطة من آثار التعنيف، وهناك لطخات أحمر شفاه على وجهه، وبصمات أيدٍ بدت وكأنها غُمست بالدم ثُمّ طُبعت على جلده.



تأمل تشرشل حاله، وعيناه الرماديتان الخاليتان من الحياة، بلا بريق طفولة، ثُمّ قال: «بما أن كوين وكينغ وبارون فشلوا وماتوا، فقد قررت إرسالك إلى المقر مجددًا لتبدأ تدريبات جديدة مع الآخرين. لن نقع في الأخطاء ذاتها. مفهوم؟»

أومأ نايت بخضوع: «متى سأذهب؟»

«اليوم.»

أومأ مجددًا: «حاضر. أي أوامر أخرى يا سيدي؟»

«لا، عد إلى الداخل.»

رد نايت بنبرة جامدة مثل ملامحه: «أمرك.»

استرخى تشرشل في مقعده أكثر بعد مغادرة نايت، وأنهى سيجارته الفاخرة، ثُمّ رفع كأسه الفارغة، ليتقدم الساقي ويسكب له المزيد من الشراب.

تجرعه بمتعة، ثُمّ قال: «شكرًا يا جوني، هذا العصير منعش ويعيد لي الحياة.»

انحنى جوني خلفه: «هل ترغب بشيء آخر يا زعيم؟»

لم يكن ذلك صوت الساقي، بل صوت تجمّد تشرشل للحظة قبل أن تشتعل فيه غريزة الهرب، لكن يد مارسيل ثبتت كتفه وألقته على الكرسي.

«ليس بهذه السرعة، فلم تنه عصيرك بعد.»

فتح تشرشل فمه ليصرخ ويلفت انتباه رجاله، لكن مارسيل وجه ضربة قوية إلى عنقه، فاختنق وسعل بشدة، وخلال لحظات اندلعت الفوضى، وتعالت الصرخات وأصوات طلقات فيلق الظل.

لهث تشرشل، ورمق مارسيل بحنق، فقابله مارسيل بنظرة متعالية وقال بنبرة ثلجية: «ما بك غاضب؟ ألم تكن متلهفًا لمفاجآتي؟ لم أذكر اسمك في القائمة، وتركتك حرًّا طليقًا لشهرين عن قصد. أردتك أن تكون مسترخيًا، متنعمًا بكل شيء في مملكتك قبل أن أدمرها.. ولدي المزيد في جعبتي لك.»

أشار مارسيل إلى أحد أفراد فيلق الظل الذي اقتحم الشرفة، وهو مغطى بالدم بعد ذبحه الحراس خارجًا، وأمره بتقييد تشرشل بالكرسي، فامتثل لذلك على الفور.

صرّ تشرشل على أسنانه وسأل بغيظ: «كيف وجدت هذا المكان؟»

زفر مارسيل ضحكة خافتة ومرعبة: «بعد كل السنوات التي عملنا بها معًا، لا تزال تستهين بي؟ لم يكن الأمر صعبًا. أتعلم لماذا؟»

انحنى وجذبه من شعره بعنف، رافعًا رأسه قسرًا، ثُمّ قال: «لأنك جرذ يا تشرشل، وأينما هرب الجرذ، فهو يترك فضلاته خلفه ويفضح مكانه.»

كشّر تشرشل عن أنيابه وشتمه، فصفعه بقوة، ثُمّ ترك المكان قائلًا: «إم ٩، راقبه ريثما أدمر عالمه.»

أشرقت الشمس على الجزيرة التي تحولت ضحكاتها إلى عويل وتوسلات بالرحمة دون فائدة؛ ففيلق الظل لم يكترثوا، ولم يرحموا، ولم يستمعوا، بل ذبحوا جميع أصحاب السلطة كالحيوانات!

مشى مارسيل بخطوات هادئة فوق الأرضية اللزجة بالدم، حتّى دخل غرفة رأى فيها القاصرين، الإناث والذكور، الأحياء والأموات، مختلف الأجناس والأعمار، يحدقون في الفراغ فقط. لم يصرخوا، ولم يبكوا، وكأن عقولهم المرهقة لم تعد تتفاجأ بالرعب؛ فما عانوه هنا كـــان أكثر قسوة



ورعبًا.

لم يلفت نظره أحد سوى نايت؛ كان يجلس في منتصف فراش كبير تشرب اللون الأحمر، محاطًا بجثث النساء والرجال، ينظر إليه بنظرات خاوية.. لكن كان هناك شيء آخر في عينيه شدّ مارسيل، شيء بدا مألوفًا إلى حد ما، ولكنه لم يستطع تحديده بسرعة، فاختار أن يبدأ محادثة معه، علّه يتوصل إلى ما قد يفيده.

«هل أنت نايت؟»

اكتفى بإيماءة قصيرة، فأضاف مارسيل: «لقد أخبرني البارون عنك.»

رمش نايت مرّة واحدة، وأظهر ردّة فعل في عينيه لثانية استغلها مارسيل وهمّ بالضغط أكثر، لولا أن صدّه ببرود:

«معلومة مقابل معلومة يا 005.. هل البارون حي؟»

حدق به مارسيل مليًا، ثُمّ أجاب: «في الوقت الراهن.»

اكتفى نايت بإيماءة خفيفة، ثُمّ قال: «هناك تمثال فارس في الساحة الخارجية، حرّك معصمه الأيسر، وسيفتح لك مدخلًا يقودك تحت القصر، ستجد صديقيك هناك.»

التفت مارسيل بعد إعطاء أوامره للفيلق، ثُمّ خرج إلى الساحة وسلاحه في يده، متأهبًا لأي خطر. حرّك معصم الفارس وسمع صوت طقطقة، ثُمّ ارتفعت قطعة من البلاط قليلًا، فدفعها جانبًا، لينكشف درج يؤدي إلى الأسفل.

هبط بحذر حتّى وصل إلى سجن صنعه تشرشل، فانكمش أنفه من الرائحة النفاذة، ورأى جثة لرجل في إحدى الزنزانات بدا أنه مات من الجوع

والعطش، وزنزانة أخرى بها هيكل عظمي، وأخرى فارغة، حتّى فتح الزنزانة الأخيرة ورأى ميكي 013 في حالة يُرثى لها!

كانت 013 مقيّدة على فراش خشبي، وفوقها ثريا تتدلى منها سكاكين حادة، قد تقع عليها في أي لحظة، لكن الحبل المثبت بها ممتد إلى الأرض، حيث ميكي الذي يتشبث به بقوة وكأنه يحتضنه، يستخدم وزنه كي يمنعه من الهبوط وقتلها.

لم يعلم مارسيل كم بقي على هذه الحالة بالضبط، لكنه لا يتوقع أن المدة قصيرة؛ إذ بدا ميكي أنحف من المعتاد، وجسده مرهق ويتصبب عرقًا، وملابسه متسخة بفضلاته.

اتسعت عينا 013، ثُمّ هتفت بصوت مبحوح: «005!»

رفع ميكي رأسه بصعوبة ونظر إليه، وضفائر شعره الطويل المجعد تلتصق بوجهه، ولم يستطع سوى أن يتمتم: «أنقذ.. شارلوت.»

ارتعش جسده، فارتج الحبل والثريا معًا، وكأن عضلاته الضعيفة تصرخ وتتوسله أن يترك كل شيء ويستسلم، لكنه لم يترك الحبل حتّى حرّر مارسيل شارلوت وأبعدها.

انهار ميكي، وسقطت الثريا محطمة الفراش. زفرت شارلوت بغضب، ثُمّ نظرت إليه وهتفت بصوت عالٍ: «أنت أغبى رجل قابلته في حياتي كلها!»

علّق مارسيل ببرود: «لقد أنقذ حياتك.»

ساعد ميكي على النهوض، ثُمّ أسنده على كتفه، وحينها قالت شارلوت: «أين تشرشل؟ سوف يدفع ثمن ما فعله بنا!»

تحرك مارسيل قائلًا: «إنه مقيّد، ولن يقتله أحد سواي.»



اعترضت وهي تلحق به: «لا، بل أنا من سيقتله، سأذيقه الويل!»

تعثّر ميكي وقال بصوت مرهق: «لا يمكنني المتابعة يا سبيل.»

اضطربت شارلوت وهمّت بالاقتراب منه، لكنه رفع يده وابتسم بسذاجة: «أنا نتن، لذا لا تقتربي. انتظريني حتّى أستحم وأصبح راقيًا من أجل جلالتك.»

تبدلت ملامحها للغضب مجددًا وسبقتهما، فيما سحبه مارسيل بقوة أكبر حتّى نهاية الدرج، ثُمّ تركه يستلقي على الأرض.

وقفت شارلوت لتواجهه، ورفعت رأسها ورمقته بنظرة عنيدة وهي تعقد ذراعيها، فبادلها مارسيل نظرة باردة ومتضجرة في الوقت ذاته.

«أين تشرشل؟»

«لن تقتليه، واخفضي رأسك قبل أن ينكسر عنقك.»

ردت بنظرة تحدٍّ: «سوف أقتله، وارفع أنت رأسك قبل أن ينكسر عنقك يا فزاعة.»

«هذه الطريقة الوحيدة لأنظر إليك يا قزمة.»

صرخت مع ميكي في آن واحد؛ يعترضان على الكلمة التي وصفها بها، فلقد كانت شارلوت في العقد الرابع من العمر، طولها مائة وأربعون سنتيمترًا، آسيوية الأصل، بشعر مصبوغ باللون الأصفر الصارخ كي تبدو مثل دمى الأطفال.

«ليس لدي وقت لكما، كونا ممتنين، اصمتا وتحركا.»

«أعدك أن موته سيكون مؤلمًا، لكن دعني أقتله!»

في وســـط محادثتهما، تحدث أحد أفراد الفيلق عبر السماعة، وأعلم

مارسيل بوجود مشكلة تتعلق بتشرشل.

أسرع مع شارلوت إلى موقعه ليجدا إم 9- مقتولًا، وكذلك تشرشل؛ رأسه مائل للخلف، وعيناه مفتوحتان، وهناك شق عميق في عنقه.

حدق مارسيل في جثته باستياء، ثُمّ نظر إلى إم 2- وقال: «من فعل هذا؟»

«لا نعلم، ولكن الصبي المدعو نايت، الذي تحدثت إليه، شوهد بالقرب من هنا، وهرب على متن إحدى القوارب النفاثة بينما كنا منشغلين بإجلاء الضحايا. قد يكون الفاعل.»

تأملت شارلوت الجثة عن قرب حتّى اشمأزت وبصقت عليه، ثُمّ قالت: «يستحق ما هو أسوأ من ذلك.. ولكن هذا غريب.»

«ماذا تقصدين؟»

«لم يظهر نايت هذا السلوك من قبل. كان ملاصقًا لتشرشل طوال الوقت، يبجّله وينفذ كل أوامره، فلماذا يقتله؟»

حدق مارسيل بالجثة، ثُمّ نظر إلى شارلوت: «هل يجب أن أقلق بشأنه؟ لقد استطاع قتل واحد من رجالي.»

«لا أظن أنه يشكل خطرًا عليك.»

«حققي في خلفيته أكثر.»

«لماذا؟»

تأمل مارسيل الأفق وارتعشت قبضته للحظة، ثُمّ قال: «لن يشكل خطرًا علي، ولكن لدي شكوك حوله.»

«مثل ماذا؟»

«افعلي ما أقول وحسب.»

احتجت: «لست رئيسي!»

«هذا دينك لي.»

تقدم إم 2- خطوة: «هل نلاحقه يا سيدي؟»

هزّ رأسه وألقى نظرة أخيرة على تشرشل، الذي خطط لمعاقبته أشد العقوبة، ثُمّ قال: «لا. فلنذهب.»

انطلق يخت مارسيل بعد تدمير الجزيرة وإجلاء ضحايا تشرشل الذين



ما يزالون عاجزين عن الحديث أو التفاعل؛ بعضهم يتأمل الشمس فقط وكأنهم لم يروها منذ دهر، وآخرون يراقبون الحريق الذي يلتهم الجزيرة ويلتهم ذكرياتهم معها.

أما شارلوت وميكي، فقد اغتسلا وبدلا ملابسهما وتناولا الطعام، ثُمّ اتجها إلى مقدمة السفينة، حيث كان مارسيل يتحدث إلى قائد فيلق الظل، بينما عيناه تراقبان هاتفه، وكأنه ينتظر شيئًا ما..

عقدت ذراعيها وقالت بانزعاج: «أليس لديك ملابس أفضل من ملابس العمال هذه؟»

أشار مارسيل للقائد بالانصراف، ثُمّ رمقها ببرود: «لا.»

ابتسم ميكي ببلادة: «تبدين جميلة يا ملكتي.»

قلّبت ناظريها والتفتت إلى مارسيل لتخفي خجلها: «ما الذي أخرك عن المجيء إلى هنا كل هذا الوقت؟»



«أسباب.»

زفرت بضيق: «وماذا سنفعل الآن؟»

عقد ذراعيه ونظر إليهما مليًا: «ستجيبان على بعض الأسئلة. أولًا، كيف أمسك بكما تشرشل؟»

جلست شارلوت وأجابت بضيق: «خدعني، ثُمّ استعملني لجذب هذا الغبي.»

نظر إليها ميكي بحنان: «لم أكن لأسمح له بإيذائك يا شارلوت.»

«كنت سأتصرف! لم يكن يجدر بك الخروج وكشف نفسك.»

«ما الذي تتحدثين عنه؟ سأموت لو حدث لك مكروه، وتيقني أني سأضحي بنفسي من أجلك دائمًا.»

تأملت وجهه المبتسم لبرهة طويلة، ثُمّ همّت بقول شيء، لكن مارسيل قاطعهما: «هل انتهيتما؟»

عادت شارلوت للتحفظ بسرعة: «انتهينا.»

نظر مارسيل إلى ميكي وسأل بملامح جادة: «ما الذي يجري بينك وبين بيتروفا؟ لماذا اخترته؟»

أطلق ميكي تنهيدة طويلة، ثُمّ أجاب وهو يتلاعب بضفائر شعره بين أصابعه: «لقد كان يحاول اختراق آكليس خلال السنوات الماضية، ولكني كنت له بالمرصاد، وعلى الأرجح تمكن من الولوج إليها بينما كنت سجينًا هنا.. على أي حال، حاولت اختراق دفاعاته أيضًا، وخضنا معركة إلكترونية، وتوصلت إلى اكتشاف خطير.»

«أكمل.»



«لديه شيء ما، تطبيق أو اختراع، لا أستطيع أن أجزم بعد، ولكنه يمكنه من اختراق الإنترنت، وكل الأجهزة والكاميرات لرصد أي أحد يريده. أصبح مثل الشمس بالفعل!» أردف بنبرة منزعجة: «رشحته لك لهذا السبب، كنا نخسر الوقت، وأرغمني تشرشل على استعمال مهاراتي لإبقائنا مخفيين عن الرادارات وكل شيء، كما أنني أردت الخروج من هنا بسرعة مع شارلوت قبل أن يقرر قتلنا فجأة.»

علّقت شارلوت بغضب: «وتأخر على أي حال!»

نظر إليه ميكي بتمعن: «ألم تطلب مساعدته؟»

رمقه مارسيل ببرود: «وكيف لي أن أطلب مساعدته وأنا لا أعرف من يكون؟»

«ألم تساعدك حبيبتك؟»

عض ميكي على شفتيه عندما فضح نفسه دون قصد، ثُمّ رفع يديه باستسلام عندما احتدت نظرات مارسيل نحوه: «اكتشفت خلال تحقيقاتي العميقة أن روبي سميث كانت من أنصاره، لذا ظننت أنها تعرف طريقة للوصول إليه.»

«لم تعد لها أي علاقة بهم منذ زمن، وقد اختطفها تشرشل مثلكم.»

سألت شارلوت بفضول: «هل ماتت؟»

«ليس من شأنك.»

سادت لحظة صمت قصيرة بينهم، ثُمّ قال ميكي بإيماءة خفيفة: «على كل، شكرًا على قدومك وإنقاذنا. هذا ما يهم.»

التفتوا عندما اقترب قائد فيلق الظل مجددًا، وبجانبه هذه المرّة فتاة

شابة، شاحبة ومكسورة، وكأنها عادت من رحلة رأت فيها الأهوال التي لا تُروى.

«تود الحديث مع المسؤول.»

نظرت إلى مارسيل الهادئ بتوجس: «ما الذي سيحدث لنا؟»

رد بهدوء: «سيتم إجلاؤكم إلى المكسيك، حيث سيتم الاعتناء بكم.» أضاف بنبرة لينة: «لن يؤذيكم أحد، فلا تقلقي.»

انهمرت دموعها على الفور، وهمّت بشكره، لكنه أمر القائد أن يعيدها إلى الآخرين، ثُمّ نظر إلى شارلوت وميكي المتفاجئين.

«ماذا؟»

«لقد قلت لفتاة غريبة ألا تقلق وكأنك تهتم، لذا من أنت وماذا فعلت بـ005؟»

أجاب بنبرة متضجرة وهو يتأمل المحيط: «استقلت.»

حدقت به شارلوت مليًا: «هل تخليت عن لقب 005 نهائيًا؟» هزت رأسها في حيرة: «هل تدرك أنك تلقي بتاريخ كبير خلفك؟ أكرهك، ولكن هذه الحقيقة. أنت أسطورة واسمك وحده مخيف يا فزاعة.»

نظر إلى هاتفه لبرهة طويلة، ثُمّ قال: «لا أهتم، فهناك أمور أخرى أهم من التاريخ الذي تتحدثين عنه.»

سأل ميكي بصوت خافت: «هل هذه نهاية 005 إذًا؟»

أجاب مارسيل: «ليس كليًا، فهناك بعض الأمور التي يجب تسويتها أولًا.»



11: الشمس

في ليلة ظلماء غاب فيها البدر، كانت السَّماء تمطر بغزارة، تضرب الأرض كطلقات متتابعة، وتُغرق منزل آل والش في ضجيج يخفي الخطر..

كان الحراس الذين استأجرهم جوناثان يشغلون كل زاوية في أرضه، أصابعهم مشدودة على الزناد، متأهبين لأي هجوم قد يأتي من آل كورتيز، لكنهم لم يعلموا أن رجلًا واحدًا فقط كان كافيًا!

تسلل مارسيل بينهم كالظل، خطواته محسوبة، يعرف أين يختبئ ومن أين يضرب؛ درس خريطة الأرض والمنزل، وكل الزوايا التي لا تصل إليها الكاميرات، وأحصى عدد الرجال، وحفظ أوقات تنقلاتهم ليختار من سيصطاد منهم.

انزلق عبر ممر خلفي، ولم يشعر به الحارس الذي فارق الحياة بطلقة مكتومة واحدة، قبل أن يسحبه إلى غرفة قريبة ويغلق بابها بإحكام؛ لا يرغب باندلاع الفوضى الصاخبة هذه المرة، بل يريدها أن تكون باردة، صامتة، ومميتة.

جاء من أجل الرجل الذي بدأ منه كل شيء؛ الرجل الذي لولاه لما التقى بروبي، ولولاه لما خسرها أيضًا...

شق طريقه بحذر، حتّى وصل إلى المكتب، ثُمّ دفع الباب ودخل ليرى جوناثان والش، ولكن ليس كما توقع.

كانت الغرفة نصف معتمة، لكن الصورة الكاملة انكشفت عندما دوّى الرعد وشق البرق السَّماء. كان جوناثان يجلس خلف مكتبه، رأسه مائل،

عيناه مغمضتان، وهناك بقعة داكنة تلوّن قميصه الأبيض، بعد رصاصة استقرت في قلبه!

«لقد تأخرت.»

حرّك السلاح غريزيًا نحو الصوت، ثُمّ أضاء المكان بكشافه الصغير، ليكشف نيل جالسًا على الأريكة البعيدة، وجهه شاحب، كتفاه مرتخيان، عيناه تحدّقان بجثة والده، وبدا وكأن الحياة احترقت أمامه ولم يعد هناك شيء سوى الرماد.

أخفض سلاحه، ثُمّ سأل بنبرة هادئة: «هل أنت من قتله؟»

لم يزحزح نيل عينيه عن والده: «ولا أزال أحدق بجثته وكأنه قد يستيقظ في أي لحظة.»

نظر مارسيل إلى الجثة، ثُمّ قال بصوت مشحون بالتحذير: «كان على قائمتي، ولا يُسمح لأي أحد بأخذ حياته غيري.»

ازدرد نيل بصعوبة، وشعر بوزن ثقيل يطبق على صدره ويمنع عنه الهواء، ثُمّ قال بصوت خافت: «انتظرتك أن تأخذ حياته، ولكنك تأخرت. جئت إلى هنا لأرى إن كان خائفًا أو مختبئًا، لأرى إن كان الخوف من الموت سيجعله يطلب الرحمة أو المغفرة من أي أحد.» أردف بمرارة: «ولكن أبي كان الرجل ذاته الذي عذّب وقتل ونهب، ثُمّ عاش حياته وكأن أي شيء لم يكن.»

زمجر الرعد في الخارج، وزادت شدة المطر، وطال الصمت بينهما، ثُمّ تأمل مارسيل الدماء التي تزحف من تحت المكتب، وقال: «لدي سؤال يراودني.. استطعت الإطاحة بمن هو أخطر من والدك، فلماذا تركته كل هذا الوقت؟»



رمش نيل عدة مرات، وكأن مارسيل وجه إليه صفعة أيقظته، ونقل عينيه أخيرًا إليه، ثُمّ قال بعد تردد: «أظن أنه كان لدي أمل في أن يتغير، وأن يشعر بالذنب، ويعتذر عما فعله بي وبأمي.» نظر إلى والده مجددًا: «ولكنه لم يفعل.»

مسح على وجهه عندما اضطربت أنفاسه، وحاول تمالك أعصابه أمام مارسيل، ثُمّ أخفض رأسه وهمس: «ظننت أني سأشعر بشيء ما بعد إطلاق النار، ظننت أني سأبكي، أو أخاف، أو أهرب، ولكني أشعر بأني فارغ فقط.»

«أهذه أول مرّة تقتل فيها؟»

اتخذ صمته كإجابة، ثُمّ نظر إلى جثة جوناثان مجددًا وأضاف: «عندما يقتل المرء إنسانًا، فإنه يفقد روحه، وأنت فقدت روحك، ولهذا تشعر بالفراغ.»

همس نيل وارتجف صوته للحظة: «وكيف أستعيدها؟»

«لا تستطيع، فهذا هو ثمن القتل.»

تنهد نيل ولم يقل شيئًا لبضع ثوانٍ، حتّى اهتز هاتفه: «يجدر بك الرحيل، ودعنا لا نتقابل مجددًا.»

«سأرحل، ولكني أود شكرك على مساعدتك في إيجاد روبي.»

«هل ما تزال في غيبوبة؟»

أجاب مارسيل وقلبه يعتصر ألمًا: «أجل.»

أومأ نيل بحزن: «إذا استيقظت، فاحرص على حمايتها وجعلها تعيش في عالم لا يوجد فيه أمثال أبي.»



«يمكنني حمايتها.. ولكني لا أستطيع تغيير العالم، ولا حتّى أنت يا بيتروفا.» أضاف عندما نظر إليه نيل: «يمكنك العيش كالبطل المقتص، ويمكنك إنقاذ أرواح الملايين، ولكن هذا العالم لن يصبح باللون الأبيض مهما سطعت شمسك، فلا وجود لخير بلا ظل خلفه، ويمكنني أن أثبت لك ذلك.»

تبادلا النظرات الساكنة لبرهة قصيرة، ثُمّ استطرد مارسيل: «قلت في رسالتك لي إن العطاء لا يجب أن يكون بمقابل، ولكنك لا تؤمن بهذا المبدأ.»

«وما الذي يدفعك لهذا القول؟»

«أرسلت لي العنوان وأنت تأمل أن يتقاطع طريقي مع والدك، وأخبرتني للتو أني تأخرت وكنت تنتظرني. أردتني أن أقتله نيابة عنك، ولكنك لم تستطع التحمل، وفعلتها بنفسك.. لديك ظل ملتوٍ.»

رمقه نيل بحدة، لكنه التزم الصمت بينما همّ مارسيل بالمغادرة، وعند فتحه الباب، التفت إليه وأضاف: «شيء آخر.. صديقك جيم؟ إن كنت ما تزال تبحث عنه فتوقف. لقد قتلته قبل أربع سنوات عندما هاجمني.»

أغلق الباب وغادر منزل جوناثان والش كالظل مثلما دخله، وتم شطب أول اسم من القائمة، أما البقية فقد حان الوقت ليلاقوا مصيرهم الأسوأ.

في المكان الذي وُلد فيه 005، حيث لا تُغفر الزلات، ولا ينجو الضعيف، ولا خيار سوى النجاة. المكان الذي لا يُرحم فيه أحد.. قصر باترو إيفان.



12: المهمة الأخيرة

تتعالى أصوات الأنين والصرخات والتوسلات، ويتردد صداها عبر أروقة القصر المسكون بأرواح قديمة لا تصرخ، بل تراقب بصمت...

كانت الرياح باردة وجافة، تخترق العظام، وتضيف إلى كآبة قصر باترو إيفان هالة خانقة ترفض الحياة وترحب بالموت فقط.

لكن ذلك لم يخفِ رجال ماتيو، الذي كان يتنقل في الأرجاء، يشرف على عمليات التعذيب ويستمتع بما يراه، حتّى وصل مارسيل لإنهاء المهمة الأخيرة.

بدأ الرجال بإخلاء المكان، بينما وقف ماتيو في الفناء، يتأمل القصر وعلى وجهه ابتسامة لا تنتمي إلا لمختل، يمسح الدماء عن يديه.

«فعلت ما طلبته يا سبيل، كسرت معنوياتهم جزاءً لما فعلوه بعزيزتنا روبي. كدت أقتلهم بالطبع، ولكني احترمت اتفاقنا.»

رمقه مارسيل ببرود بعد كلمة «عزيزتنا»؛ إذ لم ترق له فكرة أنه ينسبها إليه أيضًا.

نقل ماتيو نظراته إليه وسأل بابتسامة متحمسة: «هل أحضرت مقابل أتعابي؟ جهزت وسائل تعذيب ثمينة جدًا في وقت قياسي!»

وضع مارسيل حافظة سوداء خاصة أمامه، فانحنى ماتيو وفتحها ليرى ثلاثة أكياس دم محفوظة بين الثلج بعناية.

«أحدها لي، والآخر للورينزو، أما الأخير فتعرف لمن.»

لمس ماتيو الكيس بحذر وانبهار، وكأنه يلمس ماسة نادرة: «وكيف أعطاك لورينزو دمه طواعية؟»

«لم يفعل. خدّرته كعقاب.»

ضحك ماتيو وألقى نظرة أخيرة على الأكياس قبل أن يغلق الحافظة ويقف.

«شكرًا جزيلًا، سأستعملها بحكمة!»

اكتفى مارسيل بإيماءة والتفت إلى القصر، فيما همّ ماتيو بالرحيل.

«بالمناسبة، القصر كئيب جدًا، وأكاد أجزم أنه مسكون أيضًا، ولكن استمتع، كل الغرف جاهزة.»

علت أصوات السيارات وانطلقت مغادرة القصر، حتّى سكن المكان عدا صوت الرياح التي داعبت خصلات شعر مارسيل وهو يحدق في الأرض، حيث كانت جثة جاريد، ثُمّ أخذ نفسًا عميقًا، ودخل بخطوات هادئة، ليطلق العنان لوحش 005، للمرّة الأخيرة..

حبس كل اثنين من الرجال الأربعة عشر في غرفة، وترك الأخير ليكون



ختام جحيمه. دخل إلى أول غرفة ليرى أن ماتيو حضّر كل شيء كما أمره بالفعل؛ اثنان من الرجال معلّقان في الهواء بسلاسل حديدية، وتحت كل منهما برميل مليء بالحمض الحارق.

كانت الكدمات والندبات تغطيهما، فكلاهما تذوق القليل من ألم روبي، وهذه البداية فقط.



ما إن وقعت أعينهما على مارسيل حتّى توسلا بالرحمة، وألقيا باللوم على هوك، وأحدهما أقسم أنه لم يمس روبي، بل راقب لا أكثر، لكن مارسيل لم يتأثر البتة، ونظراته الثلجية نحوهما أثبتت ذلك.

ارتدى القناع الواقي، ثُمّ حرّك العجلة الحديدية، وبدأ بالهبوط ببطء حتّى تحولت صرخات الاستنجاد إلى عويل يمزق الصدر، حالما لامست أقدامهما العارية سطح الحمض.

لم يكن مارسيل يهدف إلى نهاية سريعة، لذا أدار العجلة كل دقيقتين، وراقبهما يذوبان في ألم عظيم حتّى انقطعت صرخاتهما، ولم يبق سوى صوت الغليان.

أغلق الباب، وانتقل إلى الغرفة التالية. رجلان مكسوران جالسان، وأيديهما مقيّدة خلف ظهورهما، ورأساهما على الطاولة، ولا يستطيعان الحركة بسبب الخوذة المعدنية التي تقيّد رأس كل واحد منهما وتثبته، وفوق الخوذة مسمار لولبي مصمم لضغطها نحو الأسفل.

تمتم أحدهما وهو يرتجف: «لقد تعلمنا درسنا. نحن نادمون، لذا أطلق سراحنا أرجوك!»

ارتدى مارسيل قفازيه بهدوء مستفز قائلًا: «لم تتعلما شيئًا بعد، وستدفعان الثمن غاليًا.»

صرخ الرجل بذعر: «أنا لم أعذبها مثلهم، أقسم لك!»

وقف مارسيل عند رأسه، ثُمّ قال ببرود مرعب: «لا تكذب. كنت تطفئ سجائرك النتنة على جسدها.»

دوت صرخة الرجل عندما اخترقت سكين مارسيل عينه، ثُمّ بدأ العذاب الحقيقي؛ أدار المسمار اللولبي، وضيّق الخناق على رأسه حتّى سمع صوت

تحطم الأسنان والفك.

تسارعت أنفاس الرجل الآخر وهو يراقب صديقه يتعذب، ثُمّ صرخ عندما خرجت عيناه من محجريهما بسبب الضغط وتحطمت جمجمته. توسل إلى مارسيل عدة مرات، وأجهش بالبكاء كالطفل، ولكنه لحق بصديقه في النهاية..



استند مارسيل لاحقًا إلى الجدار، وزفر نفسًا عميقًا، ثُمّ أغمض عينيه واستمع إلى صرخات أولئك الذين حُكم عليهم بالعذاب لساعات قبل الموت...

حُكم على من في الغرفة الثالثة بالموت داخل تابوت حديدي مبطّن من الداخل بمسامير حادة وطويلة، تخترق الجسد من دون أن تسبب الموت الفوري، لتبقى الضحية في حالة من النزيف والألم لأطول وقت ممكن.

أما الرجلان في الغرفة الرابعة، فقد كانا يصرخان بلا توقف؛ إذ كان عقابهما يعتمد على فئران جائعة وُضعت فوق بطنيهما، وحاولت الهرب من حرارة القفص بحفر طريقها عبر اللحم والأحشاء.

وفي الغرفتين الخامسة والسادسة، كان رجال قد اعترفوا بما فعلوه بروبي تحت تعذيب ماتيو، وكانت عقوبتهم قاسية أيضًا؛ إذ أخذ وقته في سلخ جلودهم، حتّى هزّت صرخاتهم الجدران المتهالكة، قبل أن يفارقوا الحياة.



وأخيرًا وليس آخرًا، كانت الغرفة السابعة. دخلها مارسيل بعد أن التقط أنفاسه، واستمع إلى الأسطوانة ذاتها من التوسلات والاعتذارات، ورأى النظرة المذعورة نفسها التي زادت تعطشه إلى المزيد والمزيد من العنف.

كان الرجلان مقيدين بفراشين معدنيين، موصولين بأسلاك امتدت إلى مولد كهربائي ضخم، ينظران إلى مارسيل وكأنهما ينظران إلى وحش خرج من أسوأ كوابيسهما!

عذّب الأول بصدمات متقطعة، جعلت جسده يتلوى ويقفز رغم القيود، ولم يتوقف حتّى بعد أن فارق الحياة، وكأن موته لم يكن كافيًا.

ثُمّ اقترب من الرجل الثاني، فصاح وهو يبكي: «أرجوك! أولئك الرجال انتهكونا، وضربونا، وجعلونا نأكل قذارتنا. أليس هذا كافيًا؟»

أجابه مارسيل ببساطة: «لا.»

صرخ الرجل: «سأعتذر إليها، سأكفّر عن ذنبي، لذا لا تقتلني، فأنا لم أؤذها مثل هوك!»

أجهش بالبكاء عندما وقف مارسيل عند رأسه ورمقه ببرود، ثُمّ قال: «سأفعل أي شيء تريده.»

«وهل تعلم ماذا أريد منك؟» لمس عنق الرجل وقال: «أرغب في أن أكون قادرًا على تعذيبك وقتلك، ثُمّ إعادة روحك إلى جسدك لأبدأ من جديد، لكنني لا أملك هذه القدرة، لذا سأكتفي بما هو متاح.»

«أرجوك، لا تقتلني مثلهم!»

«لم أقتلهم، بل آذيتهم فقط، وهم من ماتوا.»

همّ الرجل بقول شيء آخر، لكن مارسيل أخرسه وبــدأ بصعقه مرارًا

وتكرارًا، حتّى تمزقت أنسجته من الداخل، ولقي مصرعه...

غادر الغرفة بهدوء، ثُمّ سار عبر الممرات الضيقة التي يحفظها جيدًا، وهبط إلى السرداب الذي فقد فيه الكثيرون أرواحهم بسبب جاريد وتعاريكه.

وضع كشافه في زاوية مناسبة، ثُمّ حدّق في هوك المقيد. كان جسده خاليًا من الكدمات والضربات؛ إذ لم يتعرض للتعذيب بأمر منه، فالعقاب الذي يخبئه له لا يهدف إلى جعله يصرخ ويتألم فحسب، بل سيجعله يتمنى لو أن أمه لم تلده ولم تحضره إلى الحياة.

«هل أنا الأخير يا ترى؟» قال هوك بنبرة متهكمة، يخفي خلفها توتره.

«أجل، فما زلت أفكر في عقاب مناسب.»

ابتلع هوك ريقه بخفة، وتشبث بقناع التكبر: «وإلى ماذا توصلت؟»

حام مارسيل حوله كأنّه مفترس يدرس فريسته: «وضعت يدك على روبي دون حق، واستخدمتها كدمية عرض لرجالك، ومكّنتهم منها، لذا يجب أن أحوّل موتك إلى عرض مسرحي مؤلم، جزاءً لما اقترفته.»

ابتسم هوك بوقاحة: «لقد كانت دمية جميلة وممتعة. أتذكر ملمس بشرتها تحت يدي، وكيف كانت تتوسل إليّ أن أتوقف عن ضربها... اشتقت إليها بشدة.»

وقف مارسيل أمامه وقال ببرود: «لن تنجح في استفزازي لقتلك بسرعة، مهما بلغت دناءة وصفك. سأعذبك أشد العذاب، وأنت من سيختار الطريقة.»

ضيّق هوك عينيه: «ماذا تقصد؟»



رفع مارسيل إصبعيه: «الخيار الأول: حبسك داخل ثور نحاسي وإشعال النار تحته. الخيار الثاني: أن تفترسك كلاب شرسة لم تأكل منذ أسبوع.»

تهشّم قناع هوك، ورمق مارسيل بنظرة حادة: «ألا يوجد خيار ثالث؟»

«لا.»

«ماذا عن التفاوض؟»

«لا.»

شتم هوك بهمس، ثُمّ قال بعد لحظة من التفكير: «الكلاب.»

ارتسمت على وجه مارسيل ابتسامة أثارت قشعريرة في بدن هوك: «سيكون عقابك الثور إذًا.»

اعترض بانفعال: «لقد خيّرتني!»

رد مارسيل وهو يجره بقسوة نحو الثور النحاسي: «ولم أقل أبدًا إنني سأستمع إليك. كنت أعرف أنك ستختار الكلاب، فعضة واحدة في عنقك قد تنهي الأمر بسرعة، ولن أمنحك هذه الرفاهية.»

أجبره على الدخول إلى الثور المجوّف، وأوصد الباب بإحكام، ثُمّ سكب الزيت على الحطب تحته، بينما كان هوك يضرب المعدن بيأس وقد تمكن منه الخوف.

«دعنا نتحدث، لدي معلومات عن تشرشل وشخصيات أخرى مهمة.»

«لست مهتمًا.»

«دعني أراها إذًا لأقدم اعتذاري. لماذا لا تكون هي من ينتقم مني؟»

«لا أريدك أن تراها، ولا أن تتنفس الهواء الذي تتنفسه.»

صرخ هوك: «هذا ليس عدلًا!»

رد مارسيل بنبرة ساخطة: «بل هذه هي العدالة! حبستها في الظلام، وأحرقت روحها، وسأفعل بك المثل، أيها الوغد.»

همس هوك بصوت مرتجف: «أرجوك... أنا...»

«اخرس! لا مزيد من التوسل.»

أخرج هاتفه، وسجّل دخوله إلى شبكة آكليس، ثُمّ بدأ البث المباشر، ليشهد العالم الإعدام الأخير. أشعل النار وتراجع بضع خطوات إلى الخلف، وراقب الثور النحاسي حتّى توهج بفعل الحرارة.

صرخ هوك بكل قوته، لكن الصوت الذي خرج من الثور كان خوارًا هائجًا وعاليًا، ظل يتردد لعدة دقائق، حتّى اندفع الدخان من منخريه، في عرض خفف من سخط مارسيل قليلًا، وذكّر الجميع بأنه، وإن تخلى عن اسم 005، فلا ينبغي لأحدٍ منهم أن ينسى من يكون.



جال الأروقة للمرّة الأخيرة، وهو يمهّد الطريق للنار التي ستأكل كل شيء. حملت كل غرفة ذكريات لا يستطيع نسيانها، لكنه سيتركها هنا، ولن يسمح لهذا القصر بأن يقيده بعد الآن.

وقف في الخارج، وتنفس هواء الليل الذي امتزج برائحة الوقود. تأمل المكان للحظات، ثُمّ أخرج ولاعة جاريد من جيبه وأشعلها، وما إن رفع بصره حتّى رأى طيفه أمامه.

حدّق في عينيه الرماديتين، حتّى شاهد شريط حياته المرير؛ كل تمرين



شاق، وكل مرّة اقترب فيها من الهلاك، وكل عقوبة، وكل صرخة، وكل هدف اغتاله، وكلاب جودي، وتعذيب نيكولو، وأخيرًا لوحة «ليلة النجوم» التي كانت مرآته للعالم.

تنهد تنهيدة خرجت من أعماق قلبه المثقل، ثُمّ قال بصوت هادئ: «هذه نهايتنا يا جاريد.»

قذف الولاعة المشتعلة، فاخترقت طيف جاريد، ثُمّ استقرت فوق الوقود، وسرعان ما انفجر اللهب الجائع والتهم المكان، حتّى بدأ بالانهيار من الداخل.

راقب البرج الذي تربى فيه وهو يحترق، حتّى تسللت إلى صدره سكينة غريبة، وكأنه سجين ذاق الحرية لأول مرّة بعد عقود من العذاب.

ثُمّ أغمض عينيه حدادًا صامتًا على كل الأرواح البريئة التي مرت من هذا القصر، وتمنى أن ترقد بسلام.

اختفى شعار ميزان الجمجمة...

تحققت العدالة...

طوى مارسيل آخر صفحة...

وكتب نهاية قصة كان عنوانها.. 005.



13: تعويذة

«ناوليني اللون الأزرق، من فضلك...»

«تفضّل.»

جلست ميا إلى جانب أندريه حول الطاولة الصغيرة في جناح والدتها، تحيط بهما الألعاب والألوان التي أحضرتها معها بإصرار طفولي، لتقضي بها الوقت.

كانت قد فزعت عندما رأت والدتها لأول مرّة منذ الحادثة. أجهشت بالبكاء وأربكت الجميع، ولم تتوقف حتّى تدخل أندرياس وخفف من ذعرها، لكن الحزن ما زال يستوطن عينيها كلما نظرت إلى والدتها النائمة.

قالت وهي تلوّن بعناية: «تحسن تلوينك كثيرًا.»

احمر وجه أندريه: «لأنك معلمة ممتازة.»

ضحكت ميا ضحكة قصيرة، ثُمّ نظرت إلى الرجل الذي عيّنه جدها حارسًا شخصيًا لها، وقالت: «عم مارتن؟ هل ترغب بالتلوين معنا؟»

أجابها بنبرة مهنية: «في المرّة القادمة يا آنسة كورتيز.»

زفرت بإحباط: «أنت تقول هذا دائمًا.»

همس أندريه: «يجب أن تتوقفي عن طلب ذلك، فلديه وظيفة تتطلب منه أن يكون جادًا وحازمًا.»

«لكنه لطيف. دعوته إلى حفلة شاي الدمى بالأمس ولعب معي.»



تنهد أندريه مستسلمًا، ثُمّ سكنت ملامحه عندما نظر إلى روبي لبرهة طويلة، وقال: «إلى متى ستبقين هنا؟»

«إلى أن تستيقظ ماما.»

«ألم تشتاقي إلى الروضة وأصدقائك؟»

عبست ملامحها وقالت بصوت حزين: «بلى، اشتقت إليهم كثيرًا، لكن ماما أهم، وليس لديها أحد ليبقى بجانبها، وبابا خرج للقضاء على الأشرار، كما قال جدي.»

قبض أندريه يده دون وعي، وقال بصوت منخفض: «كل ما حدث لنا كان بسبب روبن. آمل أن والدك قضى عليه، وآمل أنه مات في الهجوم... أكرهه.»

همست ميا: «وأنا أكرهه أيضًا... لقد تأذت ماما بسببه. لن أسامحه أبدًا.»

طرقت لورينا الباب ودخلت بهدوء، ونظرت إلى روبي أولًا، ثُمّ إلى ابنها وقالت: «لقد حان وقت الرحيل.»

«سنعود غدًا مجددًا، صحيح يا أمي؟»

ابتسمت لهما: «بالطبع.»

جمعت ميا ألوانها بمساعدة أندريه، ثُمّ ودعته ولعبت بألعابها قليلًا، حتّى قاطعها مارتن: «حان وقت النوم يا آنسة كورتيز.»

«ألا يمكنني اللعب قليلًا بعد؟»

«سيغضب جدك، ولن يسمح لك بالبقاء هنا مجددًا.»

تنهدت: «حسنًا...»



دخلت ميا إلى دورة المياه لترتدي ثياب النوم، بينما حضّر مارتن الأريكة لتنام عليها، ثُمّ تجمد فجأة ونظر إلى روبي؛ كاد يقسم إنها حركت يدها!

اقترب من الفراش وتأمل وجهها الشاحب، ثُمّ ضغط على يدها برفق وقال: «سيدة سميث؟ إن كنت تسمعينني، فاضغطي على يدي.»

لم يجد استجابة، فترك يدها والتفت نحو الباب ليرى مارسيل والدون فيرناندو يدخلان الجناح.

«يمكنك الانصراف يا مارتن، فسيبقى ابني هنا.»

«أمرك. سوف أتفقد الحراسة خارج الجناح قبل انصرافي.»

أومأ الدون مرّة واحدة، ثُمّ نظر إلى ابنه: «هل ستكون بخير؟»

رفع مارسيل عينيه عن روبي وهمّ بإجابته، لكن الألعاب الملونة لفتت انتباهه أولًا، وشعر بشرارة هلع في صدره، ثُمّ خرجت ميا من دورة المياه قائلة: «عم مارتن؟ أظنني سمعت صوت جدي...»

شهقت بفرح لرؤيته، لكن ابتسامتها اختفت عندما لاحظت الرجل الواقف بجوار فراش والدتها. أما مارسيل، فقد اعترته رغبة في الهرب، زادت بعد أن قال الدون: «نسيت إخبارك أن ميا ستبقى معك أيضًا. وداعًا.»

أسرع باللحاق به، ثُمّ اعترض طريقه وقال بصوت منخفض: «خذها معك.»

رمقه الدون ببرود: «تريد البقاء مع والدتها، ولن أرفض طلبها.»

أصر مارسيل: «خذها معك، لا تدعها تبقى هنا.»

«السبب؟»



زفر مارسيل بضيق: «افعل ما أقوله.»

رد الدون بنبرة صارمة: «لا آخذ الأوامر منك.»

همّ بالمغادرة، لكنه توقف عندما قال مارسيل بصوت أخفى خلفه اضطرابه: «أنا لست مستعدًا.»

التفت الدون نحوه مجددًا: «لست مستعدًا لميا؟»

غادرت الكلمات فمه بصعوبة، ولم يعرف كيف يشرح نفسه لوالده: «أنا لا أعرف كيف أتعامل معها بعد. أخشى أن أدمر كل شيء مجددًا، لذا خذها معك، من فضلك.»

حدّق به الدون للحظة، ثُمّ ليّن صوته قليلًا: «خوفك هو أولى خطواتك كأب... كلنا شعرنا بالخوف في البداية، لكننا أكملنا الرحلة، وفهمنا وتعلمنا.» اقترب خطوة منه، ثُمّ وضع يدًا على كتفه وأكمل: «ميا طفلة ذكية، وهي تحبك قبل أن تلتقيك، لذا لن يكون الأمر صعبًا. كل ما عليك فعله هو مد يدك إليها، وهي من سترشدك.»

ضغط الدون على كتف ابنه المتصلب، ثُمّ تركه ورحل من دون أن يقول كلمة أخرى، وظل مارسيل يحدق في الفراغ حتّى تنهد باستسلام.

عاد إلى الجناح، ووقف أمام الباب لبضع ثوانٍ استجمع فيها شجاعته، وكأنه يستعد لمعركة ما، ثُمّ دخل ورأى ميا تنظر نحو الباب بملامح حزينة جعلته يتجمد في مكانه ويعجز عن قول كلمة واحدة.

لم يرتبك مارسيل هكذا من قبل؛ كانت ميا عالمًا جديدًا لا يعرف كيف يدخله، ولا يملك أدنى فكرة عن التعامل معه. كانت روبي الأهم بالنسبة إليه، ومحور حياته، أما ميا فكانت مرحلة بدأت أبكر مما كان يخطط، فماذا يفعل؟ وكيف يمد يده إليها، مثلما قال والده؟



فتح فمه ليقول شيئًا، لكنّها سبقته وقالت بصوت خافت حزين: «هل سترحل وتتركنا مجددًا؟»

حدّق بها قليلًا، ثُمّ أجاب رغم الاضطراب الذي يشعر به في داخله: «لا.»

عقدت حاجبيها بشك: «هل عدت بشكل دائم؟»

اكتفى بإيماءة واحدة، وراقب الأمل يزهر في وجهها اللطيف، ثُمّ ابتسمت ابتسامة صغيرة جعلت شيئًا في داخله يلين قليلًا، وشجعته على بدء محادثة، لكنّها لم تمنحه فرصة بعد.

«هل قضيت على الأشرار؟»

عقد حاجبيه باستغراب: «الأشرار؟»

«الذين خطفونا وآذوا ماما.»

حدّق بها لبرهة طويلة، محاولًا وزن الحقيقة ومعرفة ما إن كانت ستتقبلها دون خوف. شعر بالحيرة، لذا اكتفى بقول: «أجل.»

أشرق وجه ميا أكثر: «ستبقى معنا من الآن فصاعدًا، صحيح؟»

أومأ مجددًا، ثُمّ اقترب بهدوء وجلس على المقعد الشاغر بجوار فراش روبي، بينما وقفت ميا إلى جوارها، ثُمّ أمسكت يدها وشهقت بقلق.

«لقد بردت يدها مجددًا.»

احتضنت يد والدتها بين كفيها وفركتها بنعومة، ثُمّ قبلتها ونفخت عليها عدة مرات، بينما كان مارسيل يراقب.

«إن ماما تفعل هذا لي عندما تبرد يداي. سأتولى هذه اليد، وأنت الأخرى.»



نظر إليها طويلًا، فرمشت باستغراب: «ألا تعرف كيف؟ هل أعلّمك؟»

انكمشت عندما طال الصمت، وشعرت أنها ارتكبت خطأ. بدأ القلق يتسرب إلى وجهها، ولم يرغب مارسيل في أن يكون السبب، لذا مد يده وأمسك بيد روبي.

تبدلت ملامح ميا فورًا، وعادت لتبتسم بفرح، حتّى شعر بلمسة دافئة تتسلل إلى قلبه.

«افركها هكذا، ثُمّ قبّلها وانفخ عليها.»

فعل ما قالته بالضبط، ثُمّ وقفت ميا على أطراف أصابعها ولوحت بيدها أمام وجه والدتها: «يا أحلام سعيدة، اقتربي، ويا كوابيس تعيسة، ابتعدي.»

نظرت إليه بجدية بريئة: «افعلها معي، ستكون التعويذة أقوى بوجود اثنين.»

زفر نفسًا قصيرًا، ثُمّ ردّد التعويذة التي لم ينساها، وانتظر تعليمات ميا، التي ظلت تنظر إليه وكأنها لا تصدق أنه يجلس أمامها.

أسرعت بالخروج من الغرفة، مثيرة تساؤلاته، ثُمّ عادت وهي تدفع كرسيًا دائريًا بعجلات؛ إذ كان مارسيل يشغل المقعد الوحيد بجوار الفراش، ولم تشأ أن تطلب منه النهوض عنه.

حاولت تعديل ارتفاع الكرسي، لكن وزنها لم يكن كافيًا، فحملت حقيبتها وأعادت المحاولة، حتّى انخفض الكرسي أكثر من اللازم.

زفرت بتعب، وكأنها انتهت من عمل شاق، ثُمّ حاولت رفع الكرسي، فارتفع أكثر من السابق.

نظرت إليه بوجه محبط، وعيناها تطلبان المساعدة، فنهض دون تفكير وعدّل الكرسي حتّى جلست بأريحية، وقالت: «شكرًا لك.»

أومأ فقط، وعاد إلى مكانه، يراقب روبي تارة ويسترق النظرات إلى ميا تارة أخرى. كان يدرك أنها تراقبه وتدرسه وترغب في الحديث، لكنه شعر أن اليوم يكفي كأول خطوة؛ أراد التقدم بحذر كي لا يفسد كل شيء.

وبعد زمن من الصمت والتفكير، بدأ رأس ميا يترنح، فقال بهدوء كي لا يفزعها: «انهضي ونامي على الأريكة.»

هزت رأسها بسرعة: «أنا بخير! وسأظل مستيقظة مثلك.»

«بل تشعرين بالنعاس، وقد تقعين من الكرسي، لذا اذهبي للنوم.»

فركت يديها بتوتر وهمست: «لو نمت، فهل ستكون موجودًا عندما أستيقظ؟»

«على الأرجح.»

«هل تعدني؟»

تنهد تنهيدة قصيرة وجاراها: «أعدك.»

مدت خنصرها قدر المستطاع: «وعد الخنصر؟»

استنكر: «لن أقطع خنصري إن استيقظتِ وأنا في الحمام أو أحضر الطعام.»

أجفلت ميا: «هاه؟»

عقد حاجبيه: «هل تعرفين ما هو وعد الخنصر؟ ومن أين بدأ في الأصل؟»



«لا. إنه وعد خنصر فقط، أفعله مع أصدقائي ونلتزم بالوعد، ولا نكسره أبدًا ما حيينا.»

تبادلا النظرات للحظات، حتّى أطلق مارسيل تنهيدة مستسلمة ومد خنصره بتردد، لكنه توقف قبل أن يلمس ميا ونظر إلى روبي التي انتفضت وفتحت عينيها فجأة!

بدأت تتحرك بعنف، تشد الأنبوب وتدفع الفراش بقدميها، محاولة الهرب من شيء لا يراه أحد سواها...

اندفع مارسيل حينها وثبتها كي لا تؤذي نفسها، بينما صرخت ميا الخائفة ونادتها، فزاد ذلك من هلعها.

«روبي! اهدئي، سوف تؤذين نفسك!»

أحكم تثبيتها، فخدشت ساعديه بأظافرها وهي تهزّ رأسها وتحرك عينيها على نحو غير مفهوم، لكن مارسيل كان يفهم ما يحدث لها، ويفهم أنها لا تدرك ما يجري حولها، وما تزال تظن أنها في السفينة وفي قبضة الرجال الذين يتمنى لو يعيدهم إلى الحياة كي يعذبهم مجددًا.

ورغم ذلك، حاول طمأنتها: «اهدئي... أنتِ بأمان... أنتِ بأمان.»

اندفع الطاقم الطبي إلى الغرفة، فأمسك أحدهم بميا الباكية وسحبها إلى الخارج، بينما نزع البقية جهاز التنفس عن روبي، لتشهق شهقة قاسية أعقبها نحيب وصرخات مبحوحة مزقت حنجرتها.

«سنقوم بتخديرها.»

أومأ مارسيل على مضض، وشد جسدها إليه بحذر كي يساعدهم في تثبيتها، حتّى دخل المهدئ إلى مجرى دمها، وبدأت مقاومتها تضعف، وصراخها يخفت إلى أنين مرتجف.



«لا... لا...»

انحنى مارسيل ومسح على رأسها بيد مرتجفة، ثُمّ همس: «أنا آسف. ستعودين إلى الظلام هذه المرّة فقط. سأكون هنا عندما تستيقظين... لستِ وحدك.»

اقتحمت ميا الغرفة بعد لحظات، وعيناها متورمتان من شدة البكاء. اقتربت من والدتها ولمست يدها، ثُمّ قالت بصوت باكٍ: «هل ماما بخير؟ ما الذي حدث لها؟»

لم يجبها مارسيل بشيء، وظلت نظراته معلقة بروبي وقلبه مفطور.

«لماذا لا ترد علي؟ بابا!»

طأطأ رأسه بتنهد متعب، وهمس: «هذا يكفي... ابتعدي قليلًا...»

«ماذا قلت؟ لا أسمعك!»

في تلك اللحظة، دخل الدون فيرناندو وبجانبه لورينزو، وخلفهما أندرياس القلق، الذي نظر إلى روبي أولًا، ثُمّ أسرع إلى ميا وجثا، رغم ألمه، وضمها إلى صدره، فبكت حتّى ربت على ظهرها.

«لا بأس يا صغيرتي، لا بأس.»

«لا أحد يخبرني بما يحصل مع ماما يا عم أندرياس.»

مسح دموعها بلطف: «توقفي عن البكاء. ستكون والدتك بخير.»

«لكنّها كانت تصرخ.»

أمسك بيدها وقال: «كانت تقاوم قوى شريرة، ويبدو أنها انتصرت، ولهذا تنام بعمق الآن، لذا لا تبكي... تعلمين ماذا تفعل بي دموعك، صحيح؟»



مسحت دموعها بكمها قائلة: «إنها تحرق قلبك.»

«صحيح.» قبّل يدها الصغيرة. «والآن، ما رأيك أن تعودي معي إلى المنزل؟ يمكننا السهر قليلًا ومشاهدة فيلمك المفضل، ثُمّ نعود غدًا لزيارة والدتك.»

«ولكن ماذا لو خافت مجددًا؟»

رد بنبرة أقرب إلى البرود: «لديها رفقة.»

نظرت ميا إلى والدها بتردد، ثُمّ تقدم لورينزو، بعد أن تفقد روبي، وقال: «اذهبي معه يا ميا، فوالدتك تحتاج إلى الراحة.»

اقتربت من والدها، ثُمّ سألته بقلق: «هل ستبقى وتحمي ماما؟»

نقل مارسيل نظراته من أندرياس الغاضب إليها، ثُمّ أجاب بنبرة هادئة: «أجل.»

«ولن ترحل؟»

«لا.»

أومأت فقط، ثُمّ أمسكت بيد أندرياس وغادرت بخطوات مترددة، وكأنها تركت جزءًا من روحها في الغرفة.



14: بيتزا بصلصة الحب

في صباح بدا دافئًا على نحو غير معتاد، فاحت رائحة القهوة والخبز المحمص في الأرجاء، وعلا صوت روبي وهي تدندن لحن أغنية ما وتحضر الطعام بحب وابتسامة لا تفارقها. بجوارها توبي سميث، الأب الوحيد الذي تعرفه، يستعرض حركته الشهيرة في قلب البيض على المقلاة، أمام ميا التي تصفق بحماسة.

«الرائحة شهية.»

عقد مارسيل ذراعيه حولها من الخلف وطبع قبلة سريعة على خدها، ثُمّ استقرت يداه على بطنها المستدير ومسح عليه بحنان.

«دعيني أكمل عنكِ.»

«لا بأس، كدت أنتهي. اذهب وحضّر الطاولة.»

«حسنًا، لكن دعيني أقبّل ابننا أيضًا.»

ضحكت ضحكة قصيرة، بينما انحنى مارسيل وقبّل بطنها، ثُمّ همس: «ستنضم إلى طاولتنا قريبًا.»

خرج ليحضر الطاولة، فنظرت روبي إلى والدها وقالت بنبرة ساخرة: «أنه الاستعراض يا أبي ولنأكل، فأنا وويليام والجميع نتضور جوعًا.»

زفرت ميا بإحباط: «هل سنسميه ويليام حقًا؟ ألن يتحول إلى فتاة فجأة ويصبح لدي أخت صغيرة؟»



«آسفة يا عزيزتي، إنه صبي واسمه ويليام، لكن يومًا ما سيصبح لديك أخت صغيرة.»

«حقًا؟»

ابتسمت: «أجل، والآن هيا بنا لتناول الطعام.»

اجتمعت عائلة روبي لتناول الإفطار في الحديقة، وغاصوا في الأحاديث والضحكات، حتّى لاحظت كرسياً شاغرًا بجوار ميا.

سرحت فيه طويلًا، محاولة تذكر من كان ينقصهم، ثُمّ سألت فجأة: «أين روبن؟»

نقلت نظراتها عن الكرسي عندما طال الصمت، لترى الجميع قد اختفى. تلفتت في الأرجاء بقلق، ثُمّ اهتز كأسها وفاض الماء من داخله، فنهضت بفزع وهمّت بالابتعاد، لكن يدًا أمسكتها بقسوة وقلبتها فوق الطاولة في غمضة عين، كما لو أنها لا تزن شيئًا.

رأت هوك يبتسم لها ابتسامته المعتادة، ثُمّ ظهر رجاله حولها، يثبتونها ويضحكون بصوت عالٍ، بينما كانت تحاول المقاومة والصراخ، لكن صوتها لم يخرج.

بحثت عيناها عن مهرب وعن أبيها، ثُمّ رأت روبن بينهم، وفي يده سكين غرزها في بطنها عدة مرات. لكن لم تكن الدماء ما تفجر منها، بل ماء أسود تدفق بلا نهاية، وغمرها وغمر كل شيء حولها.

تلوّت في الظلام، محاولة التحرر والتنفس، لا ترى شيئًا ولا تسمع إلا صوتًا واحدًا يعلو تدريجيًا، وكأنه يشق طريقه عبر العتمة.

«مجرد كابوس...»



«أنتِ بخير...»

«افتحي عينيك...»

«أنا هنا!»

فتحت عينيها بفزع وصرخت، تبعد كل الأيدي التي تلمسها. كانت رؤيتها مشوشة، وجسدها متألمًا، ورأسها يدور بلا توقف.

«سنخدرها.»

همّت بالصراخ والاعتراض، لكن أحدهم سبقه: «لن يخدرها أحد. ابتعدوا عنها!»

«ستؤذي نفسها.»

«بل ستهدأ بمفردها.»

شعرت بصاحب الصوت يلمس وجهها. كان يثبتها في الوقت نفسه، ولكن ليس بقسوة، بل بلطف وحذر، وكأنه يخشى أن يحطمها، ثُمّ همس لها:

«تنفسي يا روبي... تنفسي... أنتِ لستِ تحت الماء... لن يعيدك أحد إلى الظلام. تنفسي... تنفسي... تنفسي...»

تكررت تلك الكلمة حتّى بدأت أنفاسها تستجيب، فتسلل الهواء إلى رئتيها، وملأتهما بقوة، ثُمّ زفرته بارتجاف، بينما كان مارسيل يشجعها بكلماته ويمسح على ظهرها.

رمشت حتّى اتضحت وجوه الممرضات القلقات، ثُمّ رفعت رأسها إلى صاحب الصوت، وحالما التقت عيناها بعينيه، عاد الظلام لينهشها، فدفعته بعيدًا بعنف.



تراجع مارسيل إلى الخلف وحافظ على مسافته، مشيرًا إليهن ألا يقترين، فيما جلست روبي تحدق بيديها بعينين متسعتين لدقيقة كاملة، قبل أن تغطي وجهها وتصرخ حتّى انقطع صوتها، ثُمّ بدأت تهدأ تدريجيًا.

«روبي؟ هذه أنا، جوانا، وأنتِ في مشفى ڤيراكروز المركزي... هل تذكرين ما حدث لك؟»

ترقب الجميع إجابتها، لكنّها لم تجب، بل كانت تستقبل هجوم ذاكرتها المبعثرة؛ كل وجه، وكل لمسة، وكل ضربة وصرخة!

تذكرت رائحة الصدأ وطعمه في فمها، وتذكرت كيس اللحم، والأصوات، والغرق في المحيط، حتّى ارتجفت، في حين راقبها مارسيل بقلق، متمنيًا لو تسمح له بالاقتراب، ليمسكها ويبذل ما بوسعه ليأخذ عنها ألمها.

«كنتِ في غيبوبة قرابة ثلاثة أشهر. ابنتك ميا حية وهي بخير، وكذلك أندريه.»

رفعت روبي المرهقة رأسها، ونظرت مطولًا إلى جوانا، التي ارتاحت عندما أظهرت ردة فعل تثبت أن عقلها سليم.

«يمكنك رؤيتها لاحقًا إن أردتِ، نحتاج إلى إجراء بعض الفحوصات أولًا.»

نظرت إلى ثياب المشفى التي ترتديها وإلى الأنابيب المتصلة بجسدها. شعرت بها كالأيادي الكثيرة التي عذبتها، فبدأت تنزعها عنها.

اندفع مارسيل وأمسك رسغها قائلًا: «ستؤذين نفسك.»

صرخت وسحبت يدها: «لا تلمسني!»

غطت وجهها بيديها مجددًا، فقال مارسيل بهدوء محاولًا طمأنتها: «حسنًا، لن ألمسك، لكن أريدك أن تهدئي.»

قالت جوانا: «دعينا ننزع الأنابيب عنك.»

«اخرجوا...» ثُمّ صرخت عندما لم يستمعوا: «اخرجوا!»

خاطب مارسيل الممرضات: «لن أسمح لأحد بلمسها. فلتخرجن.»

رفعت روبي رأسها عندما تحركن، ورمقته بنظرة حادة وباردة: «اخرج!»

حافظ مارسيل على هدوئه، ثُمّ أومأ: «سأنتظر أمام الباب.»



«يا إلهي، متى سينتهي هذا العذاب؟»

تأفف أندرياس أمام طبيبه المعالج ولورينا، التي ابتسمت بشفقة وحاولت تشجيعه: «هيا... يمكنك الاستمرار.»

وأضاف الطبيب: «لا تنسَ أن كل هذه التمارين العلاجية لمصلحتك.»

تذمر باستياء: «كذب. أنفخ في الأنبوب وأشعر أن الرصاصة ما تزال في صدري.»

قالت لورينا: «لقد قطعت شوطًا كبيرًا، فلا تستسلم.»

أطلق تنهيدة مستسلمة، وانتقل إلى تمارين تمديد الصدر والكتف، مع المزيد من التذمر، حتّى دخل لورينزو وتفحص نتائجه.

علّق ببرود: «فاشل حتّى في التعافي.»

اعترض أندرياس: «أحرزت تقدمًا كبيرًا. لم أكن أستطيع السُعال بسهولة الشهر الماضي، أو نفخ أنبوب المقاومة بالكامل، أمـــــــا الآن



فأستطيع.»

«لا تكذب. شفاؤك أبطأ من المتوقع، لا سيما في التمارين.»

ابتسم أندرياس بتكلف: «أو ربَّما لم يكن الجراح ماهرًا.»

كتم الطبيب المعالج ضحكته، ونظر إلى لورينا التي وضعت يدها على فمها، مترقبة ردة فعل لورينزو بعد الإهانة الواضحة.

وضع لورينزو النتائج جانبًا بهدوء مريب، ثُمّ قال: «لحسم الأمر، فلنتحدَّ تحديًا بسيطًا إذًا... سأعترف بصحة اتهامك إن نجحت في نفخ الأنبوب لعشر ثوانٍ فقط.»

ضحك أندرياس باستخفاف: «يمكنني فعل ذلك.»

همست لورينا: «لا تفعل هذا.»

أمرها بنظرة واثقة: «أحضري الأنبوب.»

أحضرته إليه، فعدل جلسته واسترخى قبل البدء. وحينها قال لورينزو بابتسامة باردة: «للمعلومية، لو خسرت، فسوف توشم جملة: "شكرًا لورينزو" على جسدك.»

همست لورينا بإصرار: «انسحب.»

ضيّق عينيه بعناد: «لن أنسحب، وسأفوز مهما كان الثمن. ابتعدي ودعيني أركز.»

هزت رأسها باستسلام، بينما أخذ أندرياس شهيقًا عميقًا، ثُمّ نفخ في الأنبوب وراقب الثواني تمضي أبطأ من المعتاد. تحمّل وضغط على نفسه حتّى تعرق جبينه، لكن أنفاسه اختنقت بعد ثماني ثوانٍ فقط.

لهث واضعًا يده على صدره، ثُمّ نظر إلى لورينزو الذي هزّ رأسه بازدراء:



«يا للشفقة.»

«سأفعلها مجددًا، وسأنجح هذه المرة.»

«ليس لدي وقت لفشلك، فأنا عائد الليلة إلى العاصمة.»

عقد حاجبيه: «هل ستعود؟ لماذا؟»

«انتهى عملي هنا، ولدي جراحات مؤجلة.»

قالت لورينا بقلق: «ومن سيهتم بروبي؟ لقد قالوا إنها استيقظت قبل قليل، لكنّها طردت الجميع وترفض رؤية أحد.»

«جوانا وفريقها سيهتمون بها، وخطيبها موجود.»

رمقه أندرياس بحقد: «لن أسامحك أو الدون على استعمالي كبيدق.»

«لا نهتم. الوداع.»

اغتاظ أندرياس، ولم يتوقف عن إطلاق الشتائم بعد رحيل لورينزو، ثُمّ تنهد تنهيدة طويلة وطلب استراحة قصيرة قبل البدء بالتمارين التالية.

جلست لورينا بقربه، ثُمّ لمست خصلة من شعره وعدلتها بلطف: «ما بك؟»

«أشعر بالقلق على روبي وميا... لا أعلم ماذا أفعل.»

تنهدت بحزن: «أنا قلقة أيضًا، ما حدث لها ليس بالأمر الهين.»

«وذلك الوغد ما يزال في الأرجاء وكأنه لم يفعل شيئًا!»

مسحت على كتفه: «ذلك الوغد هو والد ميا.»

«في أحلامه! لا يستحق أن يكون والدها. هل تعلمين كم بكت ليلة البارحة؟ ترجتني أن أتصل به كل خمس دقائق لتتأكد أنه ما يزال في

المشفى، ولم تنم إلا بعد أن جاء الدون وطمأنها... الأب الحقيقي لا يجعل ابنته الصغيرة تبكي وتقلق بهذا الشكل.»

حدقت به لورينا مليًا، ثُمّ همست: «ماذا لو عاد وحاول أن يكون أبًا لها؟ وداعمًا لروبي؟»

«مستحيل، فهو سافل لعين.» زفر بضيق. «على كل حال، لا أريد الحديث عنه.»

ابتسمت بسخرية، محاولة تغيير مزاجه: «حسنًا، لنتحدث عن وشم لورينزو. أين ستضعه؟»

«لن أضعه أبدًا.»



شدّت ميا على يد جدها بتوتر، تعد الأرقام المضيئة داخل المصعد، وكأنها تعد أنفاسها معها. وما إن توقف المصعد في الطابق المطلوب حتّى أفلتت يده وركضت في الممر، بقلق تلاشى عندما رأت مارسيل جالسًا أمام باب غرفة والدتها.

ابتسمت ابتسامة واهنة وقالت بحذر: «مساء الخير.»

أومأ قائلًا بصوت منخفض: «مساء الخير.»

رفعت ميا رأسها عندما شعرت بيد جدها، ثُمّ قال: «انتظريني هنا. سآتي لاصطحابك لاحقًا.»

عانقته بسرعة: «حسنًا، وشكرًا يا جدي.»

رمق ابنه ببرود: «اعتنِ بها.»

رمقه مارسيل بالنظرة نفسها، حتّى التفت وغادر، ثُمّ قالت ميا بلهفة: «هل يمكنني رؤية ماما الآن؟»

حدّق بها قليلًا، ثُمّ قال: «حسنًا، لكن يجب أن تكوني هادئة، فهي ما تزال مرهقة.»

«حاضر.»

زفر مارسيل نفسًا عميقًا، ثُمّ دخل إلى الجناح، ورأى روبي جالسة كما تركوها، تحتضن نفسها وتبكي برجفة. فاستدار إلى ميا وهمّ بإخراجها من الغرفة؛ فالوقت غير مناسب، لكن ميا تجاوزته وركضت نحو والدتها تناديها.

شهقت روبي باسمها، ثُمّ رفعت رأسها ونظرت إليها بفزع؛ لم تصدق أنها حية وتقف أمامها، حتّى بعد أن نشجت ميا وقفزت إلى الفراش لتحتضنها.

تدفقت كلماتها بلا توقف: «لقد استيقظتِ أخيرًا، أنا آسفة جدًا يا ماما! لقد كذبت، أنا لا أكرهك، بل أحبك كثيرًا! أريد البقاء معك إلى الأبد. سامحيني.. لن أقولها مجددًا، أعدك. لقد كنت خائفة، واشتقت إليك، وظننت أنني لن أراك ثانية. لن أتركك أبدًا!»

تسارعت أنفاس روبي، وانكمش جسدها فجأة، وكأن الهواء انتُزع منها، وتشنجت عضلاتها، وشعرت بحبل خانق يلتف حول عنقها. ثُمّ التقت عيناها بمارسيل، الذي تبدلت ملامحه إلى القلق، قبل أن تغزو الظلمة عينيها وتفقد الوعي.

صرخت ميا: «ماما!»

اندفع مارسيل وأبعد ميا عنها، ثُمّ استدعى جوانا التي أسرعت لتفقدها

مع الممرضات، ولم يخرج إلا بعد أن اطمأن على حالتها، ثُمّ راقب ابنته تمسح دموعها.

قالت من بين شهقاتها المرتجفة: «هل أفزعت ماما؟ هل ستموت بسببي؟ هل ستعود للغيبوبة وقتًا أطول؟»

زفر بأعصاب مشدودة، ثُمّ قال بنبرة حاول إبقاءها متزنة: «ألم أخبرك أن تكوني هادئة قبل الدخول؟»

«كنت هادئة!»

«بلى، لم تكوني هادئة، بل منفعلة.»

ردت بارتباك: «منفعلة؟ وماذا يعني ذلك؟»

أشار إليها وهو يكبت غضبه: «ما تفعلينه الآن. هذا هو الانفعال.»

نظرت إلى نفسها، ثُمّ قالت باعتراض: «أين هو؟ إلى ماذا تشير؟ أنا كنت قلقة على ماما فقط. هذا قلق!»

حملق بها مارسيل، قائلًا: «هناك فرق كبير بين القلق والانفعال الذي تسبب في فقدان روبي لوعيها.. ألا تفهمين؟»

ارتجفت شفتاها، وانهمرت دموعها بغزارة: «كما توقعت، أنت تكرهني ولا تريدني!»

رمش بصدمة: «ماذا؟ متى قلت ذلك؟»

«من المفترض أن نتقرب من بعضنا بعد عودتك، ولكنك لا ترغب في رؤيتي أو الحديث معي، ثُمّ توبخني وتعطيني محاضرة عن القلق والانفعال. هذا ليس عدلًا!»

غطت وجهها وبكت، فلامس مارسيل جسر أنفه، وهـــمس بإنهاك:

«تبًا.»

هتفت من خلف كفيها: «قالت ماما ألا نشتم!»

في تلك اللحظة، ظهر أندرياس، وتنقلت عيناه بينهما: «ما الذي يحدث هنا؟ ما الذي فعلته بها؟»

ثُمّ ظهر لورينزو مع الدون، وقال بنبرة صارمة: «ما هذا الإزعاج في المشفى؟ لماذا حفيدتي تبكي؟»

انفعل أندرياس: «اسأله!»

خاطبه الدون بنبرة حادة: «ألم أخبرك أن تعتني بها؟ فما الذي فعلته؟»

تنقلت عينا مارسيل بينهم جميعًا، ثُمّ استقرتا على ميا التي تبكي في حضن أندرياس.

لم يبرر، ولم يجادل، بل تراجع إلى الخلف وترك المكان بهدوء، هاربًا من كل شيء..



وبعد ساعات من التفكير المفرط والغرق في دوامة خانقة من المشاعر الجديدة، لم يرفع مارسيل رأسه إلا حين توقفت لورينا أمامه ومدت إليه كوب قهوة ساخنة.

عدل جلسته، قائلًا: «لا أريد قهوة.»

«هل أنت واثق؟ ستحسن مزاجك قليلًا بعد كل تلك الفوضى.»

رفض عرضها مجددًا، فتنهدت وجلست قبالته، ثُمّ ارتشفت بضع رشفات من الكوب بينما هو يراقبها؛ يدرك أن لديها سببًا للجلوس هنا.



زفرت نفسًا عميقًا، وتحدثت أخيرًا: «لقد استيقظت روبي مجددًا.» وأضافت بسرعة عندما همّ مارسيل بالنهوض: «طلبت رؤية ميا فقط، لذا لا تذهب الآن وتشعل الفوضى مرّة أخرى.»

تجمد لثانية، ثُمّ استند إلى المقعد ونظر إليها: «ماذا تريدين؟»

مررت أصابعها على حافة الكوب: «أريد أن أتحدث معك بخصوص عودتك، وروبي.. وقبل أن تقول أي شيء، أعلم أن الأمر لا يعنيني، ولكنّها صديقتي وأكترث لأمرها.»

تأملت بخار القهوة المتصاعد لبرهة، ثُمّ قالت: «عندما أتت روبي إلى المجمع قبل خمس سنوات، بدت خائفة وضائعة... لم تفهم لغتنا، ولم تعرف كيف تتواصل مع أحد سوى أندرياس، ثُمّ أنا. لقد شعرت بالشفقة عليها في البداية، فقد كانت تحبس نفسها في الشقة، وترفض الخروج أو مقابلة أي أحد خوفًا من الوقوع في مشكلة قد تؤذيها أو تؤذي ميا حينها، لذا بدأت بزيارتها للثرثرة، وتقربنا من بعضنا مع مرور الأيام.. بدأت بالخروج، وتعلم اللغة، والاختلاط بالعائلة، ولكن كان هناك جزء منها لم يتعافَ أبدًا.»

رفعت عينيها عن كوبها ونظرت إليه: «لقد انتظرتك روبي حتّى بعد قدومها إلى المكسيك، وحتّى بعد ولادة ميا. تمسكت بك إلى أن تعبت وقررت المضي قدمًا بمفردها... كانت تكابر أحيانًا، ولكن كان هناك أمل صغير في أعماقها. أسست حياة جديدة ومختلفة لها ولابنتها.. لذا إن عدت لتهدم ما بنته أو تجلب لها التعاسة والألم مجددًا، فارحل ولا تعد أبدًا، فهي لا تحتاج إلى ذلك، خاصة بعد الذي حدث.»

أكملت بنبرة جادة: «وإن عدت لتفعل الصواب، فكن حذرًا واعرف ماذا تفعل، خاصة عند تعاملك مع ميا، فوالدتها تحبها أكثر من أي شيء

في حياتها، وتهتم لسعادتها وراحتها. هي الأولوية، ومفتاحك إن أردت الوصول إلى روبي.»

ساد هدوء ثقيل بينهما، فكر خلاله مارسيل في كلامها، ثُمّ سأل سؤالًا من الأسئلة التي دارت في رأسه: «ما مصلحتك من قول كل هذا لي؟»

تفاجأت لورينا للحظة، ثُمّ نظرت إلى كوب قهوتها مجيبة: «أخبرتك.. أكترث لأمر روبي، وأسديت إليك نصيحة لمساعدتك.»

لم تتبدل ملامحه حين ضغط عليها: «ولماذا ترغبين في مساعدتي؟»

عقدت حاجبيها باستياء: «يمكنك اعتبار كلامي عربون شكر على المساهمة في إنقاذ ابني وأندرياس.»

رمقها مطولًا، حتّى شعرت بنظراته تتغلغل إلى عقلها: «هذا ليس كل شيء، فما هدفك الخفي وراء هذا؟»

اضطربت لورينا وشدت على كوبها قليلًا، ثُمّ تنهدت واعترفت بصوت منخفض: «لست منافقة، أرغب في مساعدة روبي حقًا.»

«ولكن؟»

«لم يُلغِ الدون فيرناندو الخطوبة بعد، ولا أحد يعلم ماذا قد يفعل في المستقبل، وأنا.. لا أريد أن تتزوج روبي من أندرياس.»

هدد ببرود: «لن تتزوج بأحد، ولن يرغمها أحد على شيء لا تريده.»

همست بوجه جاد: «ابدأ بالتحرك دون تدمير ما حولك إذًا، فلن يستطيع أحد إيقاف والدك ما دام يترأس كل شيء! أنت بيدرو كورتيز الآن، لذا عش وفقًا لاسمك واتخذ مكانك بينهم بسرعة.»



لمحت أندرياس قادمًا، فاستأذنت ونهضت لتقابله في منتصف الممر قبل أن يرى مارسيل.

«أين كنتِ؟ بحثت عنكِ في كل مكان.»

عقدت ذراعها بذراعه وسحبته معها: «كنت أتحدث مع إحدى الممرضات. هل حدث شيء؟»

تنهد أندرياس بتعب: «إنه دانتي.»

سألت بقلق: «ما به؟»

«لقد هجرته خطيبته.»

«ماذا؟ ما الذي حدث؟»

هزّ رأسه بأسى: «بكت واعتذرت كثيرًا. قالت إنها لا تستطيع النظر إليه، وأنه لم يعد دانتي القديم، فتركها ترحل.»

أطبقت لورينا على شفتيها المرتجفتين، ثُمّ قالت بصوت مضطرب: «لقد كان ينوي طلب يدها للزواج بعد حفلتك. أخذني معه لشراء الخاتم المناسب!»

ثُمّ هزت رأسها رافضة الحقيقة: «أين هي؟ سأتحدث إليها، فما تفعله غير منطقي. صحيح أن شكله تغير بعد الانفجار، ولكنه ما يزال دانتي!»

«لقد أخبرنا ألا نتدخل. حالته النفسية سيئة جدًا، وأخشى أن يؤذي نفسه.»

«لنذهب إليه إذًا. لا ينبغي أن نتركه وحده.»



فتح مارسيل باب جناح روبي بهدوء، وتسلل إلى الداخل محافظًا على مسافة محسوبة كي لا تلاحظه.

كانت ميا تجلس على الفراش، تمسك بيد والدتها التي تنظر إليها بعينين خاليتين من أي أثر للحياة، أو أي شيء يدل على وجود روبي القديمة.

«لقد أحضروا الطعام يا ماما. ألن تأكلي؟»

هزت روبي رأسها مرّة واحدة، مثيرة حزن ميا وشفقتها أكثر.

«يجب أن تأكلي كي تتحسني، وتختفي هذه الكدمات نهائيًا.»

هزت روبي رأسها مجددًا، ثُمّ لمست وجه ابنتها وتأملته إلى حد أربكها.

«هل تظنين أني حلم يا ماما؟» أمسكت يدها وشدت عليها. «أنا لا أريد أن أقرصك، ولكني حقيقية. أخبرتك أن بابا أنقذنا وأعادنا إلى ڤيراكروز بسلام، ثُمّ خرج للقضاء على الأشرار الذين آذوك.»

أعادت ميا سرد القصة كلها ببراءة، لكن والدتها لم تبدِ أي ردة فعل؛ لم تكن مهتمة إلا بسماع صوتها فقط، ولمس وجهها الدافئ بعد أن كانت مجرد كيس لحم بارد ومتعفن.

وبعد أن انتهت ميا من سرد كل شيء، شعرت بالإرهاق والجوع، فتناولت كعكة من الصينية وحاولت إطعام والدتها مجددًا.

همست روبي بصوت جاف: «كلي أنتِ يا ميا.»

«ولكني أريدك أن تأكلي أيضًا. أرجوك افعلي هذا من أجلي، أريدك أن تتحسني!»

«لا أستطيع.»

«هل تؤلمك معدتك؟ هل أدلكها لكِ؟»



«لا.»

«إذًا يجب أن تأكلي. أريدك أن تكوني بخير. أرجوك يا ماما، أرجوك!»

نظرت روبي إلى صينية الطعام للحظة، ثُمّ إلى ابنتها وهمست: «سأشرب العصير فقط من أجلك، فليس لدي شهية لتناول أي شيء.»

ابتسمت ميا بفرح، وقدمت إليها العصير: «عصير البرتقال سيعيد لك النشاط، وستكونين بخير.»

همست روبي وهي تلمس وجه ابنتها: «لا أستطيع أن أكون بخير بعد الآن يا ميا.»

عقدت ميا حاجبيها دون فهم، ثُمّ التفتت عندما فتح الدون الباب، واتسعت عيناها لرؤية والدها واقفًا في الزاوية.

أشاحت بوجهها عنه بارتباك، بينما رمقتهم روبي جميعًا بنظرة باردة، وضمت ابنتها إليها.

قال لورينزو: «حمدًا لله على سلامتك. كيف تشعرين؟»

لم تعره روبي اهتمامًا، وركزت نظراتها على مارسيل ووالده فقط، وكأنهما وحشان ينويان الهجوم في أي لحظة وانتشال ابنتها منها.

وقف الدون بشموخ كالمعتاد، وقال بنبرة هادئة: «حمدًا لله على سلامتك. المشفى بأكمله تحت تصرفك إلى أن تشعري بتحسن، وعلى ميا العودة معي إلى الفندق.»

أحكمت روبي ضمها لابنتها التي قالت: «ألا يمكنني البقاء مع ماما؟»

«ألم تقولي إنك تشتاقين إلى أصدقائك والروضة؟ كما أنك قطعت وعدًا بأن تعودي عندما تستيقظ والدتك.»



«بلى، ولكن ماما..»

«يمكنك المجيء كل يوم.»

ابتعدت ميا ونظرت إلى وجه والدتها بحزن: «إن جدي محق. لقد قطعت وعدًا، ولا يمكنني أن أخلفه.»

تشبثت روبي بيدي ابنتها ونظرت إليها مطولًا، لكن ميا لم تفهم تلك النظرة، لم تفهم أن والدتها تترجاها ألا تذهب.

«لا أريد تركك، ولكني أشتاق إلى أصدقائي ومعلمتي حقًا.. هل يمكنني الرحيل والمجيء غدًا؟ إنها بضع ساعات فقط.»

لمست روبي وجه ميا بيد مرتجفة، وكل الكلمات علقت في حنجرتها، فلم تستطع إجبار ولو كلمة واحدة على الخروج.

لاحظ مارسيل ذلك، ولم يستطع أن يتحمل مشاهدتها تعاني هكذا، فالتفت إلى والده وقال: «دعها تبقى معها الليلة.»

«كم مرّة سأخبرك أني لا أتلقى الأوامر منك؟»

«هذا ليس أمرًا، بل طلب.»

«اطلب بأدب إذًا.»

التفت الدون ونادى ميا، فطلبت الإذن من روبي مجددًا، حتّى أومأت لها على مضض، ثُمّ احتضنتها لبرهة طويلة قبل أن تتركها ترحل.

«كلي يا ماما، وتغذي جيدًا. سأعود غدًا، أعدك!»

رفعت ميا خنصرها وعقدته بخنصر والدتها البارد، ثُمّ رحلت مع جدها، وظل مارسيل وحيدًا في غرفة غارقة في صمت موحش وخانق.



اقترب من الفراش بحذر، لكن روبي لم تنظر إليه، بل إلى قطعة الكعك التي لم تنهها ابنتها بعد.

قبض يده وأرخاها عدة مرات، باحثًا عن بداية مناسبة، لكنه لم يعرف ما المناسب. لا يستطيع أن يسألها كيف تشعر؛ لأنه يعرف أنها ليست بخير، ولن تكون كذلك في أي وقت قريب، وإن أضاع المزيد من الوقت فسوف تطرده وتنفعل مجددًا.

«لقد أخبرتك بما حدث، ولكن يجب أن تعرفي التفاصيل.»

همست: «اخرج.»

«لقد مات تشرشل، وجميع الرجال الذين...»

قاطعته وهي تقبض على يديها: «اخرج.»

لم يستسلم مارسيل وأكمل: «جوناثان ميت أيضًا. لقد قتله بيتروفا.»

أغمضت عينيها بقوة، وقالت من بين أسنانها: «لا أهتم، فاخرج ولا ترني وجهك مجددًا.»

هزّ رأسه: «لا.»

صرخت بصوتها المبحوح: «لم يتبقَّ شيء لتدمره! فاخرج وارحل عنا.»

تقدم مارسيل واعترض: «لن أرحل وأتركك مجددًا يا روبي! لدي الكثير لأقوله وأفعله.»

ضربت صينية الطعام القريبة منها بعنف، فارتطمت بالأرض وتحطمت الأطباق، ثُمّ قالت بحنق: «لا أهتم بمن قتلت، ولا بأي شيء آخر. لا أريد أن أراك أو أشعر بك حولي، أو حول ابنتي، لذا اغرب عن وجهي!»



أغمض عينيه لثانية، محاولًا إخماد النار التي تشتعل في صدره وتمنعه من تكوين كلماته: «أنا.. لا أعرف كيف أبرر لك، وكيف أبدأ، ولكن أرجوك اسمعيني، ثُمّ يمكنك فعل ما تشائين.»

«لماذا لا تفهم؟ لا أريد شيئًا منك!» لمست عنقها بارتجاف. «وجودك يعذبني ويخنقني، لذا ارحل!»

رمش بارتباك: «وجودي.. يعذبك؟»

«أجل!»

«ولكني لم أفعل شيئًا.. أنا فقط أحاول...»

قاطعته مجددًا: «لا يهم، فأنت مدمر بالفطرة، لذا ارحل وابقَ بعيدًا عنا!»

حدقا ببعضهما للحظات، شعر فيها مارسيل بضغط يكبس على صدره وعجز يقيده؛ ما يزال مرتبكًا وتائهًا، لا يعلم كيف يخطو خطوة دون أن يدمر ما حوله كما يتهمه الجميع.

كلما ظن أنه يقف على بقعة ثابتة، اهتزت الأرض من تحته ونقلته بلا رحمة إلى بقعة أخرى أسوأ من السابقة، بلا اتجاه واضح ولا علامات تقوده إلى الطريق الصحيح.

كبح إحباطه، وقال: «سأعود غدًا وأحاول مجددًا.»

غادر الجناح بينما روبي تكرر على مسامعه الأمر نفسه. أغلق الباب خلفه وأخذ نفسًا عميقًا ليهدأ، ويسيطر على الفوضى حوله، قبل اتخاذ الخطوة التالية.

«هل هي بخير؟»



نظر إلى جوانا وأجاب: «ليس بعد. حطمت الصينية، لذا أرسلي أحدهم لينظف الغرفة.»

أومأت بفهم، ثُمّ مدت يدها لتعطيه مفتاحًا: «أمرني الدون فيرناندو أن أعطيك هذا، وأخبرك أن ميا تنتظرك في المقهى.»

عقد حاجبيه: «وماذا يعني ذلك؟»

هزت كتفيها: «لا أعرف، نفذت أوامره وحسب.»

لم يطل مارسيل الحديث معها، واتجه إلى المقهى ليجد ميا تنتظره على إحدى الطاولات بمفردها.

رفعت رأسها عندما اقترب منها، ثُمّ خفضته مجددًا وتحاشت النظر إليه، حتّى عندما سأل: «أين جدك؟»

«أخبرني أن أنتظر هنا، وسيأتي أحدهم لاصطحابي.»

دارت الأفكار في رأس مارسيل، فشتم بهمس وتراجع ليتصل بوالده، الذي رد بعد الرنة الثالثة.

«نعم؟»

سأل بنبرة مشحونة: «أين أنت؟ ولماذا تركتها هنا؟»

«أنا في طريقي إلى المطار لأعود إلى عائلتي، لذا اعتنِ بعائلتك. مفتاح شقة روبي بحوزتك، خذ ميا واحرص على ألا تحزنها، وبينما تفعل ذلك فكر في أسلوبك ونبرتك معي.»

أنهى الدون المكالمة دون أن يسمح له بالحديث أو الاعتراض بحرف، مما جعل مارسيل ينظر إلى الشاشة بغضب. لم يعلم كيف ومتى بدأ يجد صعوبة في البقاء هادئًا والسيطرة على أعصابه هنا؛ كل شيء مرهق، وأكثر

إرهاقًا من محو هدف خطير.

تأمل المفتاح في يده، وفكر في كلام لورينا مجددًا.. قد يكون هذا ما يسمونه بالإشارة أو القدر. لم يعرف بالضبط؛ إذ لم يتعلم سوى الإيمان بالمنطق والحقائق في حياته.

فكر في المفتاح كفرصة قرر استغلالها في الوقت الراهن، لعله يكتشف شيئًا آخر، منعطفًا آخر يقوده إلى طريق أوضح، وإلى فهم أدق للقوانين الجديدة.

التفت إلى ميا وقال بنبرة حاول جعلها لينة قدر استطاعته، لكنّها خرجت رسمية: «هيا. ستأتين معي.»

«أنت؟»

أومأ بخفة: «أجل.»

نظرت إليه بنظرة عتب: «ولكنك تكرهني.»

لمعت عيناها بدموع جعلته يتوتر قليلًا، ثُمّ تنحنح وقال بنبرة نجح في جعلها لينة: «أنا لا أكرهك، وأعتذر إن جعلتك تشعرين بذلك.»

حدقت به مليًا، وكأنها تدرسه ولكن بطريقتها، ثُمّ فاجأته بسؤالها: «هل كنت منفعلاً؟»

رفع حاجبًا بتعجب، ثُمّ جاراها: «أجل. كنت منفعلاً.»

استرخت ميا تدريجيًا، ثُمّ سألت: «هل أنت آسف؟»

ضيق عينيه: «لقد اعتذرت للتو يا صغيرة، ولن أقولها مجددًا.»

ضيقت عينيها وقلدته معبرة عن استيائها، ليتنهد مارسيل ويعتذر مجددًا قبل الانطلاق..



«إلى أي منزل سنذهب؟»

ضغط زر المصعد الكهربائي مجيبًا: «المجمع.»

قفزت ميا وصرخت: «مرحى! لقد اشتقت إلى منزلنا كثيرًا!»

اكتفى مارسيل بإيماءة فقط، ثُمّ خرجا من المصعد ومشيا إلى البوابة محاولًا تهدئة أفكاره. وعندما خرجا إلى الشارع، أمسكت ميا بيده فجأة، فسحبها على الفور، وكأنها صعقته.

تفاجأت في البداية، ثُمّ تبدلت ملامحها إلى الحزن والإحباط على نحو ضايقه.

«لا يمكنني عبور الشارع بمفردي بعد.. ويدي نظيفة..»

لم يسعه سوى لوم نفسه على تدمير هذه اللحظة. شعر بالحيرة مجددًا، لكن صوتًا في رأسه ظل يكرر: «مد يدك.. مد يدك.. مد يدك...»

تشجع وفعل ذلك، ثُمّ قال: «لم أقصد أن أسحب يدي، لقد كانت ردة فعل لا أكثر.. ويدك تبدو نظيفة جدًا.»

ارتاح عندما ابتهجت ميا وأمسكت يده بقوة، كما لو أنها تمسك بجائزة. لم تستطع التوقف عن التبسم، والتحقق من أن الناس حولها يرونها جيدًا، حتّى عندما وصلا إلى المجمع، حرصت على إمساك يده بكلتا يديها وإلقاء التحية على كل من في الفناء، فقط ليروها مع الوالد الذي لطالما انتظرت عودته.

عانقت وصافحت الجيران وهي لا تترك جانب أبيها. أمّـــا هو، فقد تجاهل كل النظرات حوله، وركز فقط على يدها الصغيرة المتشبثة به.

فتح باب الشقة، فاندفعت ميا بلهفة وتأملت المكان وكأنها لم تره منذ

سنوات: «لقد اشتقت إلى منزلنا حقًا، وهو نظيف! لا بد أن العم أندرياس اعتنى به.» ثُمّ سحبت يد والدها بحماس طفولي: «تعال، أعطيك جولة!»

استغرب مارسيل من كونها تتحدث عن الشقة وكأنها قصر، لكنه تبعها على أي حال وراقب اندفاعها بفضول.

«هذه غرفة المعيشة، إنها صغيرة ولكنّها تسعنا، وهذا المطبخ، وتعال، تعال، سأريك غرفتي!»

قادته إلى غرفتها التي أعمته لثانية بسبب اللون الوردي، ثُمّ شرحت بكلمات سريعة: «هنا ركن ألعابي؛ لدي دمى باربي وهذا الأرنب العملاق، و.. أوه، تعال، تعال!»

سحبت يده ليدخل إلى الغرفة أكثر، ثُمّ جلست وأخرجت صندوقًا من تحت الفراش لتريه كنزها الثمين.

«هذه مجموعتي الخاصة من الأصداف التي جمعتها طوال حياتي، ولطالما أردت أن أريك إياها.» ضحكت بسعادة. «اختر أي واحدة وسأعطيها لك.»

تأمل مارسيل البريق في عينيها وابتسامتها التي ذكرته بروبي كثيرًا.. ابتسامة ارتسمت على شفتيها بسببه.

وجوده لا يخنقها أو يعذبها، بل يجعلها سعيدة، تمامًا كما كانت روبي قبل أن يفسد كل شيء ويخسرها، لذا بدأ بالتحرك بحذر فوق الأرض الجديدة.

«سأختار واحدة لاحقًا، لذا غيري ملابسك واستعدي للنوم، فلديك روضة غدًا.»

أغلقت الصندوق قائلة: «ماذا عن العشاء؟»



«ألم تأكلي مع رو.. أقصد والدتك؟»

لمست بطنها بإحباط: «نصف كعكة فقط. لا أزال جائعة.» نظرت إليه برجاء. «هل يمكننا طلب البيتزا؟»

تنهد تنهيدة قصيرة: «حسنًا.»

قفزت بسعادة وعانقته: «شكرًا، حبيبي بابا!»

تجمد لثانية، ثُمّ أبعدها عنه برفق: «لست حبيبك. أنت لا تعرفينني لتحبيني.» واستطرد بارتباك: «سأطلب الطعام، لذا بدلي ثيابك.»

هرب مارسيل إلى دورة المياه وغسل وجهه عدة مرات بالماء البارد لعله يهدأ. لم يحسب كم من الوقت أمضاه في الداخل بالتفكير في خطواته التالية، لكنه خرج ليجد ميا بانتظاره، تخفي شيئًا بين كفيها.

«هل يمكنك الجلوس؟»

جلس على الأريكة، فوقفت أمامه وفتحت يديها لتريه صدفة جميلة ذات تدرجات بنية اللون.

«هذه من مفضلاتي، وأريدك أن تحصل عليها.»

وضعتها في يده، ثُمّ أكملت بتردد: «وأريد أن أخبرك أني أعرفك، فلقد حدثتني ماما عنك كثيرًا، وأعرف أنك كنت005.»

نقل نظراته من الصدفة إليها: «وهل تعرفين ما يعنيه ذلك؟ ماذا كنت أفعل؟»

«قال روبن إنّك تأخذ المال وتقتل النّاس.. ولكنّك لا تفعل ذلك بعد الآن، صحيح؟ لقد قضيت على الأشرار الذين أذونا فقط، وستظلّ تبعدهم عنّا!»

هزّ كتفه وسايرها: «يمكنك قول ذلك.»

«أنت مثل ميمو يا بابا.»

عقد حاجبيه: «ومن يكون؟»

حكت القصّة بصوتها الرقيق: «إنّها قصّة قصّتها لي ماما. كان هناك سمكة تُدعى ميمو، وكانت تعيش مع عائلة لطيفة، ولكنّها ضاعت في المحيط، ووجدها قرش أسود يُدعى جاريد. كان شريرًا وقاسيًا، وقام بتربية ميمو ليكون مثله، وإن لم يفعل فهو يضربه ويعاقبه، ولقد كان ميمو مسكينًا ووحيدًا، ولم يجد خيارًا آخر.. ثمّ مات جاريد وتاه ميمو في المحيط.»

هزّت رأسها بإحباط، ثمّ أكملت: «قالت ماما إنّه لا يزال تائهًا، وليس هناك نهاية بعد، وقالت أيضًا إنّ ميمو سمكة طيبة في أعماق قلبه، لكنّه اقترف أفعالاً سيئة أعمته عن رؤية الخير، وأنا أظنّ أنّه يبحث عن عائلته الآن، وأتمنّى أن يجدهم يومًا ما.. مثلما وجدتنا.»

حدّقا ببعضهما لبرهةٍ طويلة، وكان هناك شعورٌ أشبه بالغصّة يضغط على قلب مارسيل، فلم يستطع قول أيّ شيء.

قالت بإصرار بريء: «أنا أعرفك، وانتظرت عودتك طويلاً. أحبّك لأنّك بابا، وأريدك أن تعرفني وتحبّني، لأنّي ابنتك الوحيدة!»

أغمض عينيه لثانية، ثمّ وجد كلماته أخيرًا: «فهمت.. ماذا تريدين أن تعرفي عنّي؟»

ارتسمت ابتسامة ظريفة على وجه ميا: «أريد أن أمنحك عناقًا أولاً.»

لم يتحرّك مارسيل، وربما أومأ دون شعورٍ منه، لأنّ ميا تقدّمت وعقدت ذراعيها حوله. كان جسدها ضئيلاً مقارنةً به، ولكنها بثّت فيه شعورًا كبيرًا وحنونًا، غمر قلبه، وجعله يسترخي حتّى قاطعهما الجرس، فابتعدت عنه وأسرعت لتستقبل البيتزا بلهفة.. مثل والدتها بعد انتظار الطعام لوقتٍ طويل.

تناولت البيتزا بنهم وعيناها تراقبان التلفاز، بينما مارسيل يتأمّلها،



ويكتشف المزيد عنها؛ كانت تشبهه أكثر ممّا تشبه روبي شكليًّا، ولكنّها كانت نسخة مصغّرة منها؛ تأكل مثلها، وتبتسم مثلها، وتتحدّث بشغف عن الفيلم الذي تشاهده مثلما تتحدّث روبي عن إحدى رواياتها، ولكنّ ميا تتفوّق في فئة الخيال الخصب.

قرع أندرياس الجرس فجأة، ثُمّ فتح الباب وسمح لنفسه بالدخول، وكأنه يملك المكان. نظر إلى الطعام ثُمّ إلى ميا، وأخيرًا رمق مارسيل بنظرة غاضبة.

«ما الذي تفعله؟ لقد تجاوزت موعد نومها.»

«لم يحن موعد النوم بعد.»

«موعد نومها في الساعة الثامنة!»

نظر مارسيل إلى ميا التي انزلقت من كرسيها لتختبئ منه، ثُمّ أعاد النظر إلى أندرياس وقال ببرود استفزه: «سأتصرف. هل هناك شيء آخر؟ نريد متابعة وجبتنا.»

اشتد غضب أندرياس، لكنه ابتلع كلماته وانسحب؛ فـلم يشأ افتعال

مشكلة أمام ميا أو إحزانها.

«اخرجي من تحت الطاولة يا صغيرة.»

فعلت ميا ذلك وفي يدها قطعة بيتزا، تتصنع البراءة قدر المستطاع، فعقد مارسيل ذراعيه وقال: «لن تكذبي علي بعد الآن. مفهوم؟»

أومأت بأدب: «مفهوم.»

«والآن أنهي طعامك.»



لاحقًا، استلقت ميا على الفراش بعد غسل أسنانها، ثُمّ نادت والدها، فدخل إلى الغرفة ونظر إليها باستغراب.

«هل تحتاجين إلى شيء آخر؟»

أشارت إلى رف قصصها بابتسامة متوسلة: «أريد سماع قصة قبل النوم. يمكنك القراءة من هذه الكتب، أو سرد قصة تعرفها مثل ماما.»

حملق برف الكتب الملونة وكأنه قد يقفز ويلتهمه في لحظة، ثُمّ قال: «ألا يمكنك أن تنامي بدون قصة هذه المرة؟»

حاولت استعطافه بنظراتها: «أرجوك يا بابا.»

تنهد باستسلام، ثُمّ سحب كتابًا عشوائيًا وجلس على طرف الفراش. فتحه وتأمل الصور الكرتونية بشيء من الاشمئزاز وأراد الانسحاب، لكنه وجد ميا متلهفة لسماع القصة، فلم يملك خيارًا آخر.

«كان يا مكان في أحد الأزمان، درفيل يُدعى.. كيكي البيكي.»

شتم بهمس، ثُمّ تابع رغمًا عنه: «ويومًا ما، بينما كان يتجول في البحر،



وجد صبيًا صغيرًا يُدعى بيتر، يتناول رقائق البطاطا الذهبية، فعرض عليه أن يحضر له شيئًا من البحر في مقابل أن يحصل على الرقائق. وافق بيتر، و...»

توقف مارسيل عن القراءة عندما رأى ميا قد نامت بسرعة.

فأعاد الكتاب قبل خروجه، ثُمّ أطلق تنهيدة طويلة ومرهقة؛ لا يصدق كيف مر هذا اليوم، وكيف وجد نفسه عالقًا مع فتاة صغيرة، يصادف أنها من لحمه ودمه.

قبض على الصدفة في جيبه، وكأنها مرساة تثبته. أقنع نفسه بأن كل شيء سيكون على ما يرام إن استمر بالمحاولة والنضال حتّى الوصول إلى روبي..



15: يوما ما

استيقظت ميا بفزع وخرجت من غرفتها مسرعة، شعرها فوضوي وعيناها تنضحان بالخوف. استرق مارسيل نظرة سريعة إلى وجهها المذعور، ثُمّ أكمل تحضير الطعام وكأنه يحاول بث الطمأنينة بالفعل لا بالكلام.

وضعت يدها الصغيرة على قلبها، وحاولت تهدئة أنفاسها:

«أنت هنا.. لقد خِفت.»

أجابها دون أن يلتفت:

«هذا رابع يوم يا صغيرة. لم أرحل بالأمس، ولم أرحل اليوم، ولن أرحل غدًا.»

رمشت عدة مرات لتطرد الدموع، ثُمّ ركضت إليه واحتضنته بقوة، ليتجمد جسده للحظة كالعادة، قبل أن يسترخي تدريجيًا ويربت على كتفها بحذر أقل من السابق.

كانت تلك الأيام القليلة حافلة بالتحديات الصعبة، والاكتشافات، والإحباط، والفرح؛ إذ بدت حياة مارسيل مع ميا كحركة المد والجزر، يصيب تارة ويخطئ أخرى، ويتعلم درسًا ثُمّ تفاجئه بآخر، من غير وتيرة ثابتة يسير عليها.

كانت ميا مثل الإعصار الذي علق فيه دون قدرة على الهرب، أو السيطرة عليه. تجبره على الدخول إلى عالمها، والسير تحت الضوء بعد



عمر قضاه وهو يعيش في الظل، وأمام صديقاتها ومعلماتها بفخر، وحتّى الأهالي عند ذهابها إلى الروضة.

وكلما ظن أنها مَلَّت، فهي تفاجئه وتعيد الكرة، وكأنه جائزة ثمينة تحب التفاخر بها، وكل ما كان عليه فعله هو مد يده إليها فقط، وتركها ترشده إلى طريق جديد، يستحق العناء.

«الرائحة شهية جدًا، ما الذي تعده؟»

«كتب العجو...» تدارك نفسه أمامها وصحح: «كتب جدك في قائمته الطويلة أنك تحبين فطائر الكعك المحلّاة.»

شهقت بسعادة:

«أجل، أحبها كثيرًا!»

هزّ رأسه وهو يسكب الخليط:

«ليست خيارًا صحيًا، ولكن ما باليد حيلة.»

لوحت بيدها في الهواء وقالت بنبرة ساخرة:

«لا بأس، يمكنك وضع الجزر والخيار في صندوقي.»

«ولن تأكليها مجددًا.»

ضحكت بمشاكسة:

«حسنًا، ضع التفاح أو المانجو.»

«المزيد من السكر.. عليك بأكل الخضراوات.»

رفعت ذقنها بثقة:

«لا بأس، فأنا أعتني بأسناني جيدًا، وتأخذني ماما إلى طبيب الأسنان كل شهر.»

«بالطبع تأخذك كل شهر، فنظام طعامك سيئ جدًا.»

ضحكت ميا قليلًا، ثُمّ قالت بابتسامة:

«حسنًا يا بابا، سآكل الخضراوات من أجلك اليوم.»

تأمل مارسيل ابتسامتها، ثُمّ قال بنبرة لينة:

«اذهبي واستعدي للروضة قبل تناول الإفطار.»



أمسكت ميا بيد والدها وغادرا المجمع معًا. استرخت في سيارته وكأنها أميرة، وأخذت تثرثر عن الحياة، والأفلام، والروضة، وسيسيل التي تأمل أنها حضرت اليوم لتغيظها وتجعلها تراه.

قفزت من السيارة عند وصولها، ولم تفلت يده حتّى وصلت إلى البوابة. ودعته وداعًا قصيرًا، ثُمّ انتظرت حتّى ابتعد عائدًا إلى سيارته وهتفت بأعلى صوتها المرح كي يسمعها الجميع:

«مع السلامة يا بابا! لا تتأخر!»

التفت مارسيل ورأى ابتسامتها العريضة، وكيف لوحت لإحدى صديقاتها وأشارت نحوه، لترد الصديقة بضجر أنها رأته بالأمس. ضحكت ميا ولوحت له مجددًا بحرارة، فاكتفى برفع يده بهدوء فقط.

انتظر حتّى دخلت إلى الروضة، ثُمّ جالت عيناه حول المكان، وتأكد من أن كل الحراس في مواقعهم قبل أن يصعد إلى سيارته وينطلق إلى



المشفى، ليتفاجأ بتجمهر الممرضات أمام غرفة روبي، ولورينا توبخ أندرياس المتجهم.

تأهبت كل حواسه دفعة واحدة، وأسرع إلى الباب ليرى روبي تصرخ على جوانا ومن حولها، فالتفت إلى لورينا وقال:

«ما الذي حدث؟»

زفرت لورينا بإنهاك ونظرت إلى أندرياس، وحالما فعلت ذلك حتّى جره مارسيل من قميصه ودفعه نحو الجدار:

«ما الذي فعلته؟»

شد أندرياس على قبضته، وعيناه تشتعلان غضبًا:

«أفلتني أيها الوغد!»

تدخلت لورينا ووقفت بينهما:

«لا تتشاجرا!»

دفعت مارسيل وثبتت أندرياس الغاضب، لكن ذلك لم يمنعهما من تبادل النظرات الحادة.

«زَلَّ لسانه وأخبر روبي أنك تمكث مع ميا في الشقة، فجن جنونها، وهي تحاول مغادرة المشفى الآن.»

رمقه مارسيل بنظرة قاتل:

«زَلَّ لسانك؟ دعني أقطعه لك!»

«أرني إن كنت تجرؤ!»

همَّ أندرياس بالاندفاع نحوه، لكن قريبه خوليو هرع إليه وقال محذرًا:



«أنت ما تزال تتعافى، لذا اهدأ.»

في تلك اللحظة، خرجت جوانا وقالت بانفعال مكبوت:

«سنخدّرها، إنها تهددنا بإبرة المغذي!»

رد مارسيل بتهديد:

«أخبرتك أني سأقتلك لو فعلت ذلك.. سأتعامل معها.»

أشارت جوانا للفريق بالخروج فورًا، وتراجع الجميع، فيما اندفع مارسيل إلى الداخل، وما إن رأته روبي حتّى انقضت عليه:

«أيها الوحش! أين ابنتي؟ ماذا فعلت بها؟»

تفادى ضربتها الأولى، ثُمّ الثانية، وحاول طمأنتها:

«اهدئي! إنها بخير.»

لوحت بالإبرة بانفعال، محاولة مهاجمته مجددًا:

«كيف تجرؤ على الاقتراب منها؟ كيف تركوها مع وحش مثلك؟»

«اتركي الإبرة قبل أن تؤذي نفسك.»

أمسك رسغها وثبته، فصرخت تأمره ألا يلمسها، لكنه لم يفلتها، بل جذبها إليه وقال:

«سيخدّرونك إن لم تهدئي وتفلتي الإبرة يا روبي، لذا أرجوك اتركيها!»

تمتمت باشمئزاز واختناق:

«لا تلمسني.. لا تلمسني.. لا تلمسني.. لا تلمسني.. لا تلمسني!»

انكمش وجهها فجأة، ثُمّ تقيأت بعنف، وما إن انتزع الإبرة حتّى أفلتها،



فوقعت على الأرض تلهث وتمسك عنقها.

جثا مارسيل أمامها غير آبه بالقيء على الأرض. أراد أن يلمسها، أن يحتويها، وأن يضمها إليه، لكنّها صفعت يده بقوة ما إن اقترب. نهضت بتثاقل وهتفت:

«لا تقترب مني!»

تمالك مارسيل نفسه ونهض، ثُمّ قال بصوت مهتم:

«أنا آسف، ولكني أقسم لك أن ميا بخير، لم أفعل لها شيئًا قد يؤذيها.»

رمقته بكره:

«أجبرتها على الكذب عليَّ. هي لم تخبرني أنك معها.»

«كنا سنخبرك، ولكننا انتظرنا إلى أن تتحسني قليلًا، لأنك كنت ستغضبين.»

«بالطبع سأغضب، فلا يحق لك الاقتراب منها! إنها ابنتي، وستبتعد عنها. هل تفهم؟»

ازدرد مارسيل بخفة، وقال بهدوء عنيد:

«لا.»

«ماذا قلت؟»

«لن أبتعد عنها أو عنك. قد تكون ابنتك، ولكنّها...» وجد الشجاعة ولفظ كلماته: «جزء مني أيضًا.»

صرخت بانفعال:

«لا تستحقها! لقد أدرت ظهرك لها منذ سنوات، فلا تأتِ الآن لتؤدي

دور الأب!»

نظر إليها بعينين مثقلتين بالذنب:

«أعرف أني لا أستحقها، ولكني أريد المحاولة.»

اندفعت تضربه بضربات واهنة:

«لن تفعل، لن تفعل! ستدمرها مثلما دمرتني!»

تابعت ضربه، ولم يوقفها هذه المرة، استقبل ضرباتها دون اكتراث للألم، أو الدم الذي سال من شق شفته.

«سترَحل ولن تقترب مني أو منها! هل تفهم؟ سترحل وتتركنا.»

رد بنبرة منفعلة، مؤكدًا كل كلمة:

«استمري بضربي كما يحلو لك، ولكني لن أرحل!»

«اصمت.»

«لن أتركك مجددًا.»

«اصمت.»

«أنا باقٍ!»

«اصمت!»

ابتعدت عنه وصرخت بقهر، ثُمّ نادت أندرياس عدة مرات حتّى اندفع إلى الداخل، وخلفه لورينا. توسلت إليه بانكسار:

«دعهم يخرجوني من هنا. أرجوك!»

اضطرب أندرياس وخانته كلماته، فتقدمت لورينا وقالت بهدوء:

«يجب أن تتحسني أولًا. إن ميا بخير، ونحن نحرص على ذلك.»

هزت روبي رأسها بعنف:

«لا! لن تكون بخير ما دام ذلك المسخ قريبًا منها. أبعده عنها يا أندرياس، احمها منه، أرجوك!»

حاول أندرياس أن يهدّئها، فتقدّم خطوةً نحوها، لكنّها تراجعت خطوتين بسرعة، واحتضنت نفسها.

«سأفعل ما تريدين، ولكن اهدئي!»

تسارعت أنفاس روبي، وفقدت القدرة على الوقوف. وقعت على الأرض وتشنّج جسدها، فأسرع إليها أندرياس قبل مارسيل، ليسمعها تتمتم برجاء: «لا تدعه يقترب منها.. سيؤذيها.. عدني.. عدني.»

جلس مارسيل في الممرّ بعد أن بدّل ثيابه، ظهره مسنود إلى الجدار، وعيناه لا تفارقان باب غرفة روبي، وفي الطرف الآخر من الممرّ، جلست لورينا إلى جوار أندرياس الذي دفن رأسه بين كفّيه في أسى ممّا آل إليه حالها.

قالت بصوتٍ منخفض: «هل رأيت ما فعلته غيرتك؟ لم يكن يجدر بك قول شيء لها.»

رفع رأسه ونظر إليها: «غيرتي؟»

«أجل. كلانا يعلم أنّ لسانك لم يزلّ سهوًا، وكلانا يعلم أنّك تكره وجوده مع ميا.»



زفرت بعمق، واستراقت نظرة إلى مارسيل قبل أن تضيف: «اشكر ربّك أنّه لم يقتلك أو يوجّه ضربة قوية إلى جرحك.»

«أوَّلًا، لا أغار منه. ثانيًا، يمكنني التصدّي له!» رمقته بضيق:

«أولًا، أنت تغار، فميا بالكاد أعارتك اهتمامًا خلال الأيام الماضية. وثانيًا، ربَّما يمكنك التصدي له، ولكن ليس في هذه الحالة، لذا توقف عن كونك غبيًا ومتهورًا!»

همس بحدة:

«هل أنت في صفي أو صفه؟»

«بصراحة؟ أنا في صفه هذه المرة، فمن الواضح أنه عاد ليصلح ما أفسده.»

«لا عودته ولا حتّى محاولاته ستصلح كل الضرر الذي سببه لروبي.»

«ولست من يقرر ذلك، بل هي!»

«طلبت مساعدتي.»

«ولن تتدخل.»

زفر بغضب:

«هذا يكفي. اصمتي يا لوري!»

رفعت حاجبها ونهضت:

«أصمت؟ حسنًا.. سأصمت يا أندرياس.»

«إلى أين تذهبين؟»

تجاهلته لورينا واتجهت لتجلس بجانب مارسيل الذي لم يزحزح عينيه



عن باب روبي، ثُمّ قالت بنبرة خافتة:

«أرجوك لا تؤذِ أندرياس.»

رد ببرود:

«لا أعدك بذلك. إنه يغار فقط، فميا مهمة جدًا بالنسبة إليه، ويعدها ابنته، كما أنه يكترث لأمر روبي ويشعر بالقلق.»

«لا أهتم.»

تفقد مارسيل ساعته، ثُمّ نهض، فسألت لورينا باستغراب:

«إلى أين؟»

«إلى روضة الصغيرة.»

نظرت إلى ساعتها:

«الوقت مبكر.»

«أعرف..»

كان الوقت مبكرًا بالفعل، لكن مارسيل لم يكترث للساعة التي انتظرها خارج روضتها تحت أشعة الشمس، فقد طلبت منه ذلك، وأكدت عليه دون تفسير، ولن يخذلها أيًا كان سببها.

لم يعد يرى ميا كفرصة للوصول إلى روبي، منذ أول يوم قضاه معها. لا يريد أن يكون الرجل الذي يستغل، يريد أن يكون جديرًا بها، يريد أن يكون جزءًا من عالمها، وأن يستحق مكانه هناك. يريد فرصته الثانية بأي ثمن، فقد كان يستعد لها منذ أربع سنوات قضاها في زيارة طبيبه النفسي، ولن يتوقف تحت أي ظرف.



«بابا!»

نادته بسعادة عندما خرجت برفقة أصدقائها إلى الساحة من أجل حصة البدنية، حيث تسابقت مع زملائها في الصف وقاموا بتأدية بعض التمارين البسيطة قبل أن تختم المعلمة الحصة وتصرفهم.

ركضت إليه وقفزت لتعانقه، فربت على كتفها بتردد فقط، إذ كانت مبادلة العناق خطوة لم يستطع أن يخطوها بعد، يشعر أنها قد لا ترحب بها رغم كل ما تفعله.

شهقت بقلق:

«ما هذا الجرح على شفتك؟ هل آذاك أحدهم؟»

هزّ رأسه مرة:

«لا، بل.. اصطدمت بالباب.»

«هل كنت شارد الذهن؟ بماذا كنت تفكر؟»

ارتبك لثانية، ثُمّ قال وهو يأمل أن تكون إجابته حاسمة للنقاش:

«كنت أفكر بالطقس.»

ضحكت بسخرية:

«ولماذا كنت تفكر بالطقس؟»

تنهد باستسلام وفتح لها باب السيارة:

«دعينا من ذلك الآن.»

صعد إلى مقعده، ثُمّ أحكم حزامه وسأل:

«كيف كان يومك؟»



«تشاجرت صديقتي أنجليكيا مع ماركوس المتنمر، وقمنا جميعًا بالوقوف في صفها حتّى اعتذر إليها. درسنا عن الكواكب، ورسمت رسمة جديدة. تشاركت الخضراوات مع أصدقائي، وأكلت واحدة من أجلك. شاهدنا فيلمًا قصيرًا عن الأسماك، وانظر إلى يدي! لقد أعطتني المعلمة ملصق نجمة لأني كنت مجتهدة، وأجبت على معظم الأسئلة.»

أومأ بفهم:

«هذه تفاصيل كثيرة.»

قاد السيارة وانعطف إلى الطريق العام، ثُمّ استرق نظرة إلى المرآة الأمامية ووجدها تتثاءب، فسأل:

«هل أنت متعبة؟»

«أشعر بالنعاس قليلًا، ولكن بماذا تفكر؟»

«كنت سأقصد مركز التموينات، ولكن إن كنت متعبة فسأنعطف و...»

قاطعته بحماسة:

«موافقة! لا أشعر بالنعاس بعد الآن، أنا بخير.»

ضحك ضحكة خافتة:

«حسنًا.»

«لم أكذب عليك، ولكن النعاس طار فجأة بعد أن ذكرت مركز التموينات. ليس الأمر بيدي.»

رد بتهكم:

«واضح.»



سارت ميا إلى جوار والدها بين الرفوف تدندن بصوت خافت وتتمايل مع الموسيقى التي ملأت أرجاء المركز، ثُمّ تتوقف فجأة وتبتسم بخجل كلما التفت إليها، لذا صرف نظره عنها كي لا يحرجها، لكنه رغم ذلك اشتاق إلى تلك الأيام التي كانت روبي تفعل فيها الأمر ذاته حوله.

جرت معطفه بعد لحظات وأشارت إلى قسم الحلويات فقال:

«سنمر به لاحقًا، فنحن نسير بالترتيب.»

«ولكني سئمت الانتظار.»

تنهد باستسلام ولم يجادلها. أوقف عربته في قسم الحلوى والوجبات الخفيفة وشاهدها تتنقل كالفراشة ذهابًا وإيابًا حتّى امتلأت العربة بالحلويات الملونة، والشوكولا، ورقائق البطاطا.

«أظن أن هذا يكفي.»

نظرت إلى العربة وهزت كتفها:

«أنت محق، هذا سيكفيني لأسبوعين.»

رمش بصدمة:

«هل ستأكلين كل هذا خلال أسبوعين فقط؟»

ضحكت بسخرية:

«وربَّما أقل.»

حدق بها مليًا، ثُمّ هزّ رأسه:



«لقد تجاوزت والدتك.»

دفع العربة واستأنف التسوق، بينما ميا تقضم قطعة بسكويت وتراقبه بفضول وهو يقرأ المكونات، ويتفحص كل منتج بعناية مفرطة، حتّى الخضراوات والفواكه.

«بابا؟ أنت بارع في الطبخ، ولكن هل أنت ببراعة هيغنز؟»

«هل قابلت هيغنز؟»

«أجل، وطبخ لي أطعم قطعة لحم مشوي تذوقتها في حياتي، فهل تستطيع التغلب عليه؟»

«هل هذا تحدٍّ، أم حيلة لإجباري على إعداد اللحم المشوي الليلة؟»

ابتسمت ابتسامة مخادعة:

«ربَّما الاثنان.»

«أنت تتلاعبين بشكل جيد يا صغيرة.. على كل، كنت سأعده الليلة، فقد كان ضمن القائمة.»

«مرحى! شكرًا يا بابا.»

تأمل وجهها المبتسم لثوانٍ، ثُمّ واصل السير، وحينها جرت ميا طرف معطفه مجددًا وأشارت إلى زبادي الفراولة. أحضره لها دون تعليق، لكنّها تجمدت فجأة، ثُمّ نظرت إليه بابتسامة لم يرتح لها.

«يجب أن نعد كعكة الجبن معًا. هيا، انتهِ من هنا ولنشتري المكونات. نحتاج إلى البسكويت والزبدة والجبنة والفراولة وربَّما البيض!»

«لم أوافق بعد.»

نظرت إليه بحزن وبراءة:

«ألا تريد ذلك؟ لماذا؟»

أشاح بنظره مجيبًا:

«قد لا يكون هناك وقت الليلة.»

«وقد يكون.. ما الأمر؟ ألا تريد ذلك؟»

أربكته نظرتها، فاستسلم وقال:

«حسنًا. أمهليني بضع دقائق لأقرأ عنها.»



لاحقًا، جلست ميا إلى الطاولة بلهفة واضحة، وما إن وضع مارسيل أمامها طبقًا تتوسطه شريحة لحم مشوية، وبطاطا مقلية ذهبية، حتّى داعبت الرائحة الشهية أنفها واتسعت عيناها.

«إنه يبدو كما لو أنه صورة من الإنترنت!»

ابتسم بخفوت:

«هل أقطعه لكِ؟»

«نعم، من فضلك.»

فعل مارسيل ذلك، ثُمّ جلس مكانه وبدأ بتناول شريحته أولًا، مترقبًا ردة فعل ميا على الرغم من أنها تمدح أي شيء يعده، لكن ذلك لم يمنع القلق من التسلل إليه.

ارتاح عندما أعجبها وأنهت الطبق كله، وكان يأمل أن تنسى أمر كعكة الجبن، لكنّها لم تنتظر دقيقة أخرى؛ قفزت إلى المطبخ وأخرجت كل



المكونات. ارتدت مئزرها الوردي وقبعة الطهاة البيضاء، وأمرته بارتداء مئزر روبي المزين بطوابع القطط، ثُمّ جلبت جهازها اللوحي، وثبتته بعناية، وبدأت التسجيل.

«مرحبًا بكم في برنامج مطبخ ميا وروبي. ماما ليست معي اليوم، لكن بابا هنا، لذا ستكون حلقتنا خاصة، وسوف نعد كعكة الجبن.»

نظرت إلى مارسيل الذي كان متجمدًا مكانه، ينظر لها كما ينظر إلى كائن غريب، ويتساءل ما الذي أوقع نفسه فيه..

سارت عملية تحضير كعكة الجبن بسلاسة، وقامت ميا بتوثيق كل لحظة وهي تتقمص دور مقدمة البرنامج، حتّى نسيت التصوير، وغاصت في لعق وعاء كريمة الفراولة، مع إبداء رأيها بالقوام والطعم وكأنها مختصة.

وبعد الانتهاء من الكعكة التي أرهقت مارسيل عقليًا وجسديًا، بدأ بتنظيف المطبخ على مهل، بينما هي تحوم أمام الثلاجة بجهازها اللوحي، وتسأله كل خمس دقائق:

«هل انتهت؟»

«لن تبرد إن واصلت فتح الثلاجة. تحتاج إلى ست ساعات على الأقل، وهذا يتجاوز موعد نومك، لذا ستتناولينها غدًا.»

هتفت ميا بإحباط:

«لا.»

«يجب أن تتحلي بالصبر، كي تنالي ما تريدين.»

«لا أريد أن أصبر. أريد تناولها الآن!»

هزّ كتفه:



«لن تكون لذيذة، وقد تفسدينها.»

«...»

تنهدت باستسلام:

«حسنًا. سأنتظر إلى الغد.» التفتت عندما ضحك ضحكة خافتة: «ما الأمر؟»

أعاد الأطباق المستعملة مكانها مجيبًا:

«أنت تملكين العديد من صفات روبي.»

ابتسمت بغرور:

«أنت تعرف ماما جيدًا، ولكنك لا تعرفني كليًا بعد. لدي صفات أخرى ومعلومات.»

«تقصدين معلومات..»

«آه، صحيح، تلك الكلمة. على أي حال، هل تعرف ما هو اسمي الأوسط؟»

توقف عاقدًا حاجبيه؛ لم يفكر بالسؤال عن اسمها الأوسط من قبل:

«لا..»

«اسمي الكامل هو ميا نيكول كورتيز. أخبرتني ماما أنه الاسم المؤنث من نيكولو، وعندما سألتها عنه، قالت إنه كان صديقك المقرب.»

حدق فيها مارسيل بشرود ذهن حتّى شعر بلمسة دافئة على قلبه، وتذكر آخر محادثة له مع نيكولو.

تبدلت ملامح ميا إلى الشفقة:



«أخبرتني أيضًا أنه كان مريضًا ومات.. أنا آسفة. لا بد أنك تشتاق إليه.»

«لا بأس.»

«يمكنك أن تحظى بصديق آخر. لن يكون مثله، ولكنه صديق في النهاية.. مثل العم أندرياس!»

رمقها مارسيل ببرود:

«لا، شكرًا.»

استغربت ميا، ولكنّها لم تفكر بالأمر طويلًا، ثُمّ وضعت جهازها اللوحي جانبًا وجلست إلى طاولة الطعام.

«هل يمكنك الجلوس من فضلك؟ هناك أمر يجب أن نتحدث فيه.»

«لست مرتاحًا لما هو آتٍ، ولكن حاضر.»

ترك ما بيده وجلس مقابلها، فقالت بجدية مصطنعة:

«هل تعلم أنك تدين لي بخمس هدايا؟»

رفع حاجبًا:

«كيف ومتى؟»

«لم تحضر لي هدية ميلاد طوال خمس سنوات، ولكن لا داعي للقلق، فأنا أعرف متجرًا رائعًا، ولدينا قاعدة: لو كانت الهدية صغيرة الحجم، فنحسب اثنتين كواحدة.»

«ومن سنَّ هذه القاعدة؟»

هزت كتفها وكأن الإجابة بديهية:

«أنا. أحتاج إلى الألعاب، ولقد أصدروا آخر نسخة من دميتي المفضلة،

وهي محاربة، ومعها سيف سحري يضيء في الظلام.»

«ألا تملكين الكثير من الألعاب مسبقًا؟ لماذا تريدين المزيد؟»

«لأني سأكون سعيدة لو كان معي ألعاب كثيرة.»

«هل الألعاب الكثيرة هي ما سيجلب لك السعادة؟ هل تقيدين سعادتك في ذلك فقط؟»

تذمرت ببراءة:

«ما هذا الكلام يا بابا؟ هل تحاول أن تجعلني مثل الكبار؟ أنا صغيرة، والألعاب مهمة وسوف تسعدني!»

هزّ رأسه:

«عجبًا..»

سألت بلهفة:

«هل سنذهب؟»

«سنذهب غدًا إن أردت.»

هتفت بفرح:

«يا لسعادتي!»

استرخت ميا على فراشها بعد أن استعدت للنوم، وراقبت الباب بلهفة واضحة، إلى أن دخل والدها أخيرًا على مضض، وتوقف أمام رفوف الكتب.

«أي كتاب تريدين الليلة؟»



«ألا تعرف أي قصص؟»

«مع الأسف لا.»

«احكِ لي ذكرى من ذكرياتك مع ماما إذًا، مثل الجزيرة التي ضعتها فيها.»

«هل أخبرتك عن الجزيرة؟»

«أجل. قالت إنكما ضعتما بسبب عبثك ببطارية الغواصة.»

رفع حاجبيه بسخرية:

«هكذا إذًا.»

تثاءبت ميا ورمشت عدة مرات، فمال نحوها قليلًا:

«لدي سؤال فضولي.. قمنا بفعل الكثير اليوم، فلماذا تحاربين النوم؟ ألست متعبة؟»

أجابت ميا بابتسامة ناعسة:

«بلى، ولكن لطالما أردت فعل هذه الأمور معك، وهناك المزيد.»

رد بهدوء مطمئن:

«لا تقلقي، سنتمكن من فعلها كلها، فأنا باقٍ هنا ولن أرحل، لذا أفضّل ألا نزحم اليوم بفعل الكثير.. أنا مرهق حقًا.»

ضحكت ضحكة خفيفة:

«حسنًا.»

تثاءبت مجددًا، ثُمّ اضطجعت على جانبها وتأملت صورة والديه على المنضدة، قبل أن تسأل بصوت خافت:



«هل تريد العودة إلى ماما؟»

نظر إلى الصورة لبرهة طويلة، ثُمّ همس:

«أجل.»

«أنا أيضًا أريدكما أن تعودا إلى بعضكما. أريد أن نكون عائلة واحدة.»

أبقى عينيه على الصورة، وعلى وجه روبي المبتسم، ثُمّ نظر إلى ميا التي تمتمت وعيناها مغمضتان:

«هل يمكنك الغناء؟»

«لم أحاول ذلك من قبل. لست من محبي الموسيقى.»

«حسنًا.. تصبح.. على خير.»

«تصبحين على خير.»

«أحبك.»

تأملها مارسيل حتّى انتظمت أنفاسها وغطت في نوم عميق، ثُمّ مد يده مترددًا، ومسح على رأسها برفق؛ يختبر إحساسًا جديدًا.

«سأحبك أيضًا.. يومًا ما.»



16: مطر وشجار

انتصف اللّيل في فيراكروز، وغرقت الشوارع تحت مطر ضرب الأرض بإيقاع رتيب. كانت المشفى هادئة، والمرضى نائمون أو يعانون داخل غرفهم، أما روبي، فقد كانت توضب أغراضها داخل حقيبة قماشية، بعد أن ارتدت كنزة اعتادت تدفئتها، لكنّها الآن فضفاضة على جسدها المرهق، تسمح للرياح الباردة أن تتسلل إلى عظامها.

«إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟» قالت جوانا عاقدة ذراعيها.

ردت روبي ببرود:

«إلى ابنتي.»

تنهدت جوانا بإرهاق:

«منعناك اليوم لسبب، فعلاجك لم ينتهِ بعد.»

«خضعت إلى كل التحاليل، ولدي حقيبة مليئة بالأدوية. هذا يكفي.»

«ألم تخضعي إلى التقييم النفسي بعد يا روبي؟ وتحتاجين إلى جلسات أيضًا، فما حدث معك....»

قاطعتها روبي وهي تقبض على يدها:

«لم يحدث شيء! لا أريد علاجًا نفسيًا، لا أريد عناية، كل ما أريده هو الذهاب إلى ابنتي ولن يمنعني أحد.»

حدقت بها جوانا مليًا، ثُمّ قالت:



«لن نمنعك هذه المرة، لكن خروجك سيكون على مسؤوليتك. أنت لست بخير، وقد تؤذين نفسك أو ميا، لذا فكري مجددًا.»

نظرت إليها روبي بوجه كئيب وخالٍ من الحيوية:

«سأذهب.»

أطلقت جوانا تنهيدة مستسلمة:

«افعلي ما تريدينه، لقد سئمت منك.»

شدت القلنسوة فوق رأسها، واتجهت نحو الباب، لكنّها ما إن فتحته حتّى شلها الخوف، وعاد الحبل الخفي ليشتد حول عنقها. أغمضت عينيها؛ فكرت في ابنتها، وفي الوحش الذي يحوم حولها، ثُمّ أجبرت نفسها على الخروج.

مشت في الممر وهي تتحاشى النظر إلى الممرضات والحراس حولها، حتّى وصلت إلى المصعد الكهربائي، ورأت رجلًا يخفي وجهه بقلنسوة كنزته السوداء. نظرت إلى يده اليسرى عندما طلب المصعد، وهمست دون تفكير:

«دانتي.»

تجمد مكانه لثانية، ثُمّ نظر نحوها بطرف عينه قبل أن يلتفت إليها كليًا، وتمنت لو أنه لم يفعل؛ أخبرتها ميا أنه تأذى، وذكرت لورينا في زيارة سابقة أنه تعرض لحروق بليغة، وأجروا له عمليات ترميم، لكنّها لم تتخيل أن الأمر يبدو بهذا السوء.

نصف وجهه الأيمن مدمر، والجلد متجعد ومتيبس، كأنه ذاب ثُمّ تصلب من جديد، وعينه اليمنى متضررة، وحُلِق شعره الأشقر كله، فالضرر أصاب نصف رأسه أيضًا، وما خفي تحت كنزته لا يقل سوءًا.



شد قلنسوته نحو الأسفل أكثر عندما مرت من جانبه ممرضة تحاشت النظر إليه، ولن يلومها أحد؛ فلم يكن هذا دانتي غارسيا، ابن عم أندرياس اللطيف الذي اعتاد جذب أنظار النساء بابتسامته الجميلة، ولباقته مع الجميع.. كان هذا نصف إنسان، ونصف مأساة.

قال بصوت منخفض:

«كيف عرفت أنه أنا؟»

رمشت روبي واستجمعت نفسها، ثُمّ أجابت بهدوء:

«تضغط كل الأزرار في حياتك بخنصرك.»

اكتفى بإيماءة خفيفة، ثُمّ نظر إلى الحقيبة التي تحملها:

«هل سمحوا لك بالرحيل؟»

«لا، ولكني ذاهبة على أي حال.. هل يمكنك إيصالي إلى المجمع؟»

ضغط زر المصعد من جديد، فعدت ذلك موافقة، ودخلت معه، لكنّها أبقت مسافة بينهما، وظلت تشد على حقيبتها وتحاول التقاط أنفاس قصيرة؛ إذ كان ضيق المكان يطبق على صدرها، ويوقظ فيها ذكرى الحاوية التي حُبِست بداخلها.

شعر دانتي باضطرابها، لكنه لم يتدخل، وأوصلها إلى المجمع كما طلبت، وظلا يتأملان المبنى، والمطر الخفيف..

«الكل نائم في هذا الوقت، لذا لن تجدي أحدًا في الفناء.»

زفرت نفسًا عميقًا، ثُمّ لمست مقبض الباب وقالت:

«شكرًا على إيصالي، و... أنا آسفة لما حدث لك.»



أغمض دانتي عينه السليمة، وقال بصوت خافت يخفي غضبًا مكبوتًا:

«لم يكن الأمر خطأك، بل خطأ ذلك الصبي الذي لم يتخلصوا منه بعد.»

توقفت يد روبي عن دفع الباب. نظرت إليه مليًا، وهمست:

«هل هو حي؟»

«أجل.. يحتجزه أندرياس في مكان ما.»

ازدردت بثقل ولمست عنقها، ثُمّ دفعت الباب وخرجت دون قول شيء آخر، وأسرعت إلى المبنى. كان المكان ساكنًا، وهادئًا أكثر مما ينبغي، الفناء خالٍ كما قال، ولكنّها شعرت بأن هناك أعينًا تراقبها من خلف النوافذ، لذا أسرعت من خطواتها وقصدت شقتها على الفور.

ابتلعتها ظلمة المكان، وكادت تهلع لولا أن فتح مارسيل مصباح الأريكة وأضاء عتمتها.

نظر إليها بقلق:

«روبي..؟» جالت عيناه عليها وازداد قلقًا: «أنت مبتلة. ستصابين بالبرد.»

همست بامتعاض:

«اخرس.» نظرت إلى باب ميا: «أين ابنتي؟»

«إنها نائمة في غرفتها.» استطرد متأملًا وجهها المرهق: «أنت تشعرين بالبرد يا روبي، وقد تمرضين.»

«اخرس وارحل من هنا فورًا.. لن أكرر كلامي مجددًا.»



أومأ:

«سأخرج من الشقة، ولكني لن أرحل بعيدًا.»

خطت خطوة غاضبة نحوه:

«بل سترحل! لا مكان لك هنا ولن يكون.. لقد خدعتني، أردتني أن أتخلص من ميا، ودمرت كل شيء. هل نسيت؟ أم أنك تتناسى؟»

أجاب محدقًا بعينيها:

«لم أنسَ.. ولكني لم أعد ذلك الشخص.»

«بلى! أنت 005، وأنت ميت بالنسبة لي.»

اقترب خطوة أخرى، وهمس:

«لو كنت ميتًا بالنسبة إليك، فلماذا أخبرت ميا عني؟ لماذا لم تدفني ذكرياتنا؟ لماذا تضعين صورتنا في قلادتها وبجانب فراشها؟»

زادت كلماته من غضبها:

«لو كان الأمر بيدي لكنت أخبرتها أنك ميت، ولكننا في أرض عائلتك، وكانت تسأل الكثير من الأسئلة، لذا حرّفت الحقائق وغرقت في كذبتي حتّى لم يعد هناك مجال للتراجع.» تابعت بقهر: «لا تستحق ميا أن تتحمل اختياري الخاطئ لك كأب، لا تستحق أن يطلقوا عليها ابنة 005، بل تستحق أن تكون سعيدة كل الوقت! أما أنت؟ فلا تستحقها أبدًا، بل تستحق الظلام، وكل جحيم عرّضك له جاريد، وأتمنى لو كان حيًا ليعذبك مجددًا.»

طال الصمت بينهما، لم ينطق مارسيل بكلمة، لكنّها رأت الألم في عينيه للحظة قصيرة، قبل أن يسأل:



«هل هذه الكلمات نابعة من قلبك؟»

رمقته بحدة:

«ألا يمكنك قراءة لغة جسدي ومعرفة ذلك بنفسك؟»

هزّ رأسه مرة:

«أفضّل ألا أفعل ذلك.. فما أراه مختلف عما تشعرين به.» اقترب خطوة حتّى بات قريبًا منها: «أرى الغضب، والحقد، والعتب، والقسوة.. ولكنّها مجرد ذرائع كي تدفعيني بعيدًا عنك، ولن أرحل.»

«توقف عن الهراء يا مارسيل، فهذا دون مستواك. انظر إلى عيني جيدًا وستعرف كم أكرهك، لذا اخرج ولا تعد أبدًا!»

حدق في عينيها الزرقاوين، ثُمّ همس قاطعًا أي مجال لجدال آخر:

«أنت لا تكرهينني.. سأراك غدًا. تصبحين على خير.»

17: صفعة

ما ألطف براءة الأطفال، وما أبسط أحلامهم. ينظرون إلى العالم بعيون مختلفة عن البالغين، ويظنون أن ابتسامة واحدة قادرة على محو الحزن، وأن الحياة مثل صندوق الحلوى المغلق، مليئة بالمفاجآت.. لا يدركون بعد أن المفاجآت ليست كلها سارة، وأن هناك لحظات قادرة على تحطيم مفاهيمهم.



«ميا..؟ استيقظي..»

فتحت ميا عينيها على لمسة والدتها، ورمشت عدة مرات، ثُمّ قرصت خدها لتتأكد أنها لا تحلم.

«ماما..؟ متى أتيت؟»

رسمت روبي ابتسامة مزيفة وهشة:

«بينما كنت نائمة.. هيا، لقد أعددت لك طعام الإفطار.»

عانقتها ميا بقوة، ثُمّ تلفتت حولها وسألت:

«وأين بابا؟ كان بجانبي ليلة البارحة.»

سكنت ملامح روبي:

«لماذا لم تخبريني أنه معك؟»

أجابت بارتباك:

«أخبرني أن أنتظر، وأردت مفاجأتك.»

لمست يد ابنتها وشدت عليها، لتسأل بجدية:

«هل آذاكِ؟»

«لا.» تأوهت ميا وحاولت سحب يدها: «أنت تؤلمينني.»

تداركت نفسها وتركت يد ابنتها:

«آسفة. لم أقصد.»

سألت ميا بقلق متصاعد:

«أين بابا؟»

ردت بنبرة غامضة:

«لقد رحل.»

«ماذا تعنين؟ لقد كان هنا بالأمس!»

نهضت روبي وقالت بلا مبالاة:

«هذا ما حدث.. هيا، فقد أعددت لك فطائر الكعك المحلّاة.»

اتجهت إلى المطبخ، بينما نهضت ميا وفتشت الشقة بجنون، تظن أنها ما تزال نائمة، وأن ما تراه هو كابوس لا أكثر. صرخت تناديه لعله يظهر فجأة، ثُمّ قالت بصوت مكسور:

«لقد وعدني! قال إنه عاد وسيبقى هذه المرة. أعددنا كعكة معًا، وكان من المفترض أن نشتري الألعاب اليوم!»



اقتربت روبي ولمست كتفها:

«لا بأس يا حبيبتي. أنت لا تحتاجينه.. هيا تعالي وتناولي إفطارك.»

ارتبكت ميا وتصادمت المشاعر داخل قلبها الصغير، ثُمّ هرعت عندما قرع أحدهم الجرس، وفتحته لتفاجأ بوالدها. اندفعت تحتضنه قبل أن يتسنى له أن يسألها ما خطبها، لكنه نظر إلى روبي التي بدت مصدومة أكثر من كونها غاضبة.

«كنت أعلم أنك لم ترحل وتتركنا، ولكني خفت كثيرًا!»

مسحت دموعها بسرعة عندما انحنى ولمس كتفها، ثُمّ طمأنها:

«لا تقلقي، لن أرحل وأترككم.» استطرد: «سأقلك إلى الروضة، فهيا اذهبي وتناولي إفطارك. سأكون بانتظارك في الفناء.»

ردت بابتسامة مضطربة:

«حاضر.»

ثُمّ أغلقت الباب والتفتت إلى والدتها بوجه مشرق:

«إن بابا لم يرحل يا ماما. لقد فهمت العكس، ولكن لا بأس.»

لم تنطق روبي بشيء، وأسرعت ميا بالاستعداد ثُمّ جلست على الطاولة وانتظرت حتّى وضعت طبق الفطائر أمامها، وسكبت عليها القليل من الشوكولا الذائبة.

«هل أكتب اسمك على الطبق كالمعتاد؟»

هزت ميا رأسها:

«لا داعي لذلك. أريد أن آكل بسرعة فبابا ينتظرني.»

ارتعشت ابتسامة روبي المزيفة، ثُمّ لمست وجه ابنتها، وقالت بتردد:

«ما رأيك ألا تذهبي إلى الروضة اليوم؟ يمكننا أن نحظى بيوم ممتع نحن الاثنتان فقط. سنشاهد الأفلام ونعد الفشار، و.. و.. ويمكننا أن نخبز كعكة معًا أيضًا. اشتقت إليك كثيرًا.»

ابتسمت ميا ببراءة:

«اشتقت إليك أيضًا، ولكني وعدت بابا مسبقًا بالذهاب معه إلى متجر الألعاب.»

تلاشت ابتسامة روبي وتبدلت ملامحها لأخرى يائسة ومحبطة، ثُمّ قضمت ميا قضمتها الأولى ومضغتها لثوانٍ قبل أن تبصقها فجأة.

«ما الأمر؟»

«إنه مالح جدًا.»

أجفلت روبي وتمتمت بارتباك:

«ماذا؟ ولكن.. هذا...»

«هل وضعت الملح عوضًا عن السكر يا ماما؟»

«هذا مستحيل!»

نهضت إلى المطبخ وهي تردد ذلك، وتفقدت المقادير حتّى رأت الملح، وأدركت أنها استعملته عوضًا عن السكر بالفعل. تلعثمت وهي تحاول التماسك:

«يبدو أن الحليب منتهي الصلاحية ولم أنتبه.. من حسن الحظ أنك لم تأكليه. سأعدها مجددًا!»



ساد ميا القلق:

«سأتأخر.»

«يمكنك التغيب كما قلتُ لكِ، سوف أهاتف معلمتك. لا تقلقي!»

«ولكني أريد الذهاب يا ماما.»

ردت روبي بأنفاس متسارعة:

«سنحظى بوقت أمتع هنا. سأعد الفطائر مجددًا والوافل! أنت تحبينه. سأعده الآن، لذا لا تذهبي.»

باشرت بالبدء على الفور، فسألت ميا بوجه منكمش:

«هل أنت بخير؟ أنت تخيفينني.»

لم تَرُدَّ عليها روبي وانشغلت بترتيب المقادير، فنهضت ميا من مقعدها وحملت حقيبتها قاصدة الباب بحذر، وحينها التفتت روبي وصرخت دون وعي:

«قُلتُ لا تذهبي!»

ارتعدت ميا وكذلك روبي عندما أدركت ما فعلته. مزقتها نظرة الخوف في عيني ابنتها، فرفعت يدها إلى عنقها واختنق نَفَسُها. قالت بصوت مبحوح:

«أنا آسفة يا ميا. لم أقصد أن أصرخ وأخيفك.. انتظريني هنا. سأعطيك مصروفك.»

أسرعت إلى غرفتها وبحثت عن محفظتها حتّى وجدتها وأخرجت المال، لكنّها عادت إلى غرفة المعيشة لتجد أن ميا قد رحلت..

وقفت تحدق بالباب وهي مجروحة، ثُمّ اقتربت من النافذة واسترقت نظرة إلى الفناء من خلف الستائر، لترى ميا تركض إلى حضن والدها وتخبره بما حدث.

رفع مارسيل بصره نحو النافذة، فارتدت روبي إلى الخلف، ويدها تنغلق حول عنقها. ضاق المكان حولها، وانقبضت الجدران كأنها تُطبق عليها. تسارعت أنفاسها، وحاولت الصراخ، لكن الصوت اختنق في صدرها، رافضًا الخروج.

كان هناك ألم عظيم مدفون داخلها، لا تستطيع الوصول إليه ولا مقاومته، لا تستطيع سوى أن تتركه يعذبها، ويدفنها في القاع.

في أحد الأزقة الضيقة، تصاعد الدخان السام من سيجارة أندرياس، يستنشقها بعمق ويحتفظ بالهواء داخل رئتيه، وكأن الاختناق أهون من التفكير.

«يا ابن العم!»

تأفف خوليو وأسرع بانتشال السيجارة منه، ثُمّ دهسها تحت حذائه:

«ظننتك أقلعت، وسيقتلك لورينزو لو علم أنك تدخن! ما خطبك؟»

شد أندرياس فكه:

«لا أكترث.»

أخرج سيجارة أخرى وهمَّ بإشعالها، فانتشلها خوليو مجددًا وقال:

«حسنًا، دعنا من لورينزو. ماذا عن لورينا؟»

أخرج سيجارة ثالثة وكرر:

«لا أكترث.»

«سحقًا! هل تتكاثر في جيبك؟»



ثبَّته من كتفيه وفتَّش جيوبه واحدًا تلو الآخر، ليتأفف أندرياس ويسند ظهره إلى الجدار بتعب.

«ما بك؟»

همس بصوت مشدود:

«أظنني.. في بداية نوبة هلع.»

اقترب خوليو وسأل باهتمام:

«إلى ماذا تحتاج؟ ماذا أفعل؟»

أغمض أندرياس عينيه وحاول تنظيم أنفاسه المرتعشة:

«أريد ألّا أفكر بابني، أو لورينا، أو دانتي، ولا حتّى روبي.. لا أريد أن أفكر بأي شيء يخص ليلة الهجوم، لذا قم بإلهائي. أخبرني عن أي شيء ولو كان سخيفًا، وافعل ذلك بسرعة، فأنا رجل يرفض أن يسقط ضحية الهلع.»

أومأ خوليو سريعًا:

«حسنًا، حسنًا. لقد حدد الدون فيرناندو تاريخ زفافي.»

«أعرف. ماذا أيضًا؟»

«ستكون إشبينًا.»

تذمر أندرياس:

«أعرف ذلك أيضًا! أسرع، فأنا أكاد أختنق.»

ضحك خوليو رغمًا عنه:

«أنا سعيد، ومتفائل من هذه الزيجة. لوسيا هي المرأة المنشودة، سنتزوج وسأسمي أول ابن باسم أبي، والثاني باسمك، إن لم تكن تمانع بالطبع.»

«ولم قد أمانع؟»



«أنت نرجسي عندما يتعلق الأمر باسمك يا ابن العم!»

«لن أمانع يا غبي.. قل شيئًا آخر.»

تردد خوليو:

«لدي اعتراف قد تغضب لو سمعته.»

رد بضيق:

«لن أغضب، لذا واصل الحديث.»

ابتسم خوليو ابتسامة مذنبة:

«هل تذكر عندما كنا في المدرسة وحصلت على رسالة حب من معلمتنا المفضلة؟ خبأتها تحت فراشك، وأبقيت الأمر سرًا عن الجميع، وانتظرت إشارة منها، ولكنّها كسرت قلبك عندما أعلنت خطوبتها من معلم التاريخ.»

«أجل، أذكرها.»

اعترف خوليو بنبرة ساخرة:

«لم ترسل لك رسالة أبدًا، بل أنا من كتبها بمساعدة دانتي وبنيتو.»

فتح أندرياس عينيه على مصراعيهما وجذب ياقة خوليو بعنف:

«أيها الأوغاد!»

ضحك خوليو وتملص منه، ثُمّ بدأ بالركض وهو يكرر اعتذاره، بينما أندرياس يلحق به، إلى أن قفز داخل سيارة التوك توك وأمر السائق بالانطلاق بأقصى سرعة.

هتف أندرياس بغضب:

«سأقتلك! ولن تسمي ابنك باسمي!»

ضحك خوليو ولوح له فقط، ثُمّ زفر أندرياس أنفاسه بتعب:



«لو لم أكن مصابًا لأمسكت به ونطحته أرضًا.»

لمح ظلًا أسود من طرف عينه، فالتفت إلى الزقاق وأطال التحديق، لكنه لم ير سوى الأهالي. تنهد بضجر، وعاد إلى المجمع ليرى المرأة التي تقطن في الشقة المجاورة لروبي تحزم أغراضها مع ابنها.

«ماذا يحدث؟»

ردت بابتسامة متوترة:

«أوه، كنت أبحث عنك. أعلم أن الأمر مفاجئ، ولكني أريد أن ألغي عقد إيجاري، فلقد وجدت مكانًا آخر يناسبنا ولم أستطع تفويته، ودفعت مقدمًا للمالك.»

هزّ كتفه ونظر إلى الشقة دون أن يشعر بالريبة:

«حسنًا. سأرسل لك الوثائق اللازمة لتوقعي عليها.»

«شكرًا جزيلًا.»

واصل سيره حتّى توقف عند شقة روبي. تردد للحظة، ثُمّ قرع الجرس وانتظر بنفاد صبر. فتحت الباب بسرعة متوقعة عودة ميا، لكنّها أصيبت بالإحباط فور رؤيته، وأغلقت الباب في وجهه.

«روبي..؟»

أتاه صوتها المحطم:

«لا أريد رؤيتك.. لم تحمِ ميا منه.»

وضع كفه على الباب:

«أرجوكِ افتحي الباب ودعينا نتحدث.»

«لا.»

«أنا آسف حقًا، أرجوك سامحيني.»

انقطع صوتها، ولم تجبه أبدًا، ليتنهد بإرهاق ويهمس:

«ناديني لو احتجتِ إلى أيّ شيء.»

صعدت ميا إلى سيارة والدها بعد المدرسة بحماس مفرط، تراقب الطريق عبر النافذة، وتعد المنعطفات حتّى وصلا إلى أشهر متجر ألعاب في ڤيراكروز.

كانت تلك أول مرّة تطأ فيها قدم مارسيل متجرًا لألعاب الأطفال. توقف عند المدخل للحظة، وتأمل عالمًا جديدًا من الألوان المبهرجة، والموسيقى المرحة، والضحكات المتداخلة. ثُمّ نظر إلى ميا الصغيرة التي جرته إلى هذا العالم، وسأل:

«هل نبدأ من القسم الأزرق؟»

شدت يده وهزت رأسها:

«لا يا بابا، فتلك ألعاب الأولاد. سوف نتجه إلى القسم الوردي هناك.»

«هيا!»

تركها تقوده بين رفوف الألعاب، ثُمّ تأملها بفضول؛ يتساءل كيف للألعاب أن تصنع الفرح في قلوب الصغار، ولماذا يتعلقون بها إلى هذا الحد.

التفتت ميا نحوه وسألت:

«بابا؟ ماذا كانت لعبتك المفضلة؟»

فكر في إجابة مناسبة، ثُمّ قال:

«المسدس.»

ضحكت وضربت ذراعه قائلة:

«يا لك من ولد!»



لم يقل شيئًا، وشاهدها تتأمل الرفوف بتركيز حتّى توقفت أمام رف للدمى.

«أريد شراء الرضيعة ميليسا. كان لدي النسخة القديمة، ولكن ذراعها انكسرت.»

حدق مارسيل بدمية الرضيعة ذات الشعر البني الطويل:

«لا توجد رضيعة بشعر كثيف وطويل كهذا. إنهم يكذبون عليك.»

نظرت إليه باستغراب:

«إنها لعبة. ما الذي تقوله؟»

تنهد مستسلمًا:

«لا شيء.»

ثُمّ أضاف بفضول واضح:

«ما فائدة هذه اللعبة على أي حال؟»

شرحت بابتسامة:

«إنها رضيعة، ولديها زجاجة حليب وطبق طعام، وحفاضات، ومهد، وحوض استحمام، وملابس! كما أنها تصدر أصواتًا مثل البكاء والضحك وتقول: ماما. سأكون أمها وأرعاها، وهذا يعني أنها ستكون حفيدتك.»

حدق بها مجددًا، وكأن عقله يحاول ملاحقة عالم لا يفهم قواعده:

«تابعي.»

وضعت ميا اللعبة في العربة، ثُمّ تابعت التجول إلى أن شهقت فجأة:

«المرجل السحري!»

أسرعت وحملت لعبة المرجل الملونة، وحرصت على انتقاء واحدة معينة، ومما فهمه مارسيل أنها تختار شكل الدمية المحشوة.



«لطالما أردت هذه اللعبة، ولكن ماما تقول إنها مضيعة للمال.»

«وما هي؟»

«هذا المرجل السحري، نخلط المكونات وفق الكتيب، حتّى نحصل على دمية جميلة.»

أومأ مارسيل فقط، ثُمّ قال:

«بقيت ثلاث ألعاب.»

تبدلت ملامحها إلى الإحباط:

«ألا يمكن أن أشتري المزيد؟»

«لا. قلت بنفسك إنك تريدين خمس هدايا. اثبتي على رأيك.»

احتجت وهي تضع يديها على خصرها:

«ولكني طفلة، لا أثبت على رأي!»

رد بتهكم:

«وأنا بالغ سيحرص على أن تثبتي على رأيك.. لا تلاعب.»

تنهدت باستسلام:

«حاضر.»

مشت أمامه مجددًا، ثُمّ توقفت فجأة واتسعت عيناها:

«إنها سيسيل! هي هنا!»

«المتنمرة؟»

«أجل. كانت غائبة اليوم أيضًا. هيا أمسك بيدي، فأنا أريد أن أتباهى بك أمامها!»

لم تمنحه حق الاعتراض، أمسكت بيده ومشت بثقة حتّى تقاطعت مع سيسيل التي رمقتها بنظرة متعالية:



«ما الذي تفعلينه هنا؟»

ابتسمت ميا بثقة:

«أتسوق مع بابا.»

«سمعتهم يقولون إن والدك قد عاد، ولكني لم أصدق.» ضيقت عينيها على مارسيل: «هل أنت والدها حقًّا؟»

هتفت ميا بحدة طفولية:

«هل أنت عمياء؟ انظري إليه جيدًا. لدينا نفس لون العيون والأنف والفم وحتّى الشعر!»

هزت سيسيل كتفها بتكبر:

«لا يهم. ظهر لك أب بعد خمس سنوات. أبي معي منذ ولادتي، وأحضرني ليشتري لي الألعاب لأني كنت مريضة.» نظرت إلى عربتهما بازدراء: «لعبتان فقط؟ يا للشفقة.»

شعر مارسيل بيد ميا تشد على يده، كانت مستاءة، وقد تفقد الوجه الواثق في أي لحظة ما لم يكن لديها رد، لذا تدخل بهدوء:

«في الواقع، كنت سأشتري عشر ألعاب، فلدي مال جمعته خلال رحلات عملي في السنوات الماضية.» ثُمّ نظر إلى ميا: «كم عدد الطلاب في صفك؟ ولا تحسبي سيسيل، فأنا واثق أن والدها قد أغدقها بالهدايا والألعاب مسبقًا.»

«سبع فتيات وستة صبيان.»

«حسنًا، سنشتري لهم الهدايا أيضًا وستقدمينها لهم غدًا.» ابتسم بتكلف لسيسيل: «نراك لاحقًا.»

كررت ميا جملته الأخيرة بغرور، ثُمّ انتظرت حتّى ابتعدا وقالت بفخر:

«أحسنت يا بابا! سوف يسعد أصدقائي كثيرًا، ولن أنسى وجه سيسيل.»

«ستكون هذه أول وآخر مرّة أدافع فيها عنك أمامها.»

لوحت بيدها:

«لا عليك. أستطيع تولي أمرها في المرّة القادمة، والآن هيا، فلدينا عشر ألعاب لي ولزملائي في الصف كذلك.»

«مهلًا.. لقد ذكرت الألعاب هكذا فقط. لا نزال على اتفاقنا القديم.»

عقدت ميا ذراعيها ورفعت ذقنها:

«ألست بالغًا يثبت على كلامه؟ ألم تقل هذا الكلام توًا؟»

حدق مارسيل بوضعية وقوفها وملامح وجهها التي كانت تمامًا نسخة مصغرة من روبي، أوقعته في فخ لم يتوقعه إطلاقًا!

«سحقًا..»

وبخته ببراءة:

«بابا! ليس من المفترض أن نلعن أو نشتم.»

«تحرّكي.»



وبعد جولةٍ طويلة في المتجر وعربتين ممتلئتين، حظيت الأميرة ميا كورتيز ووالدها الموقر بمعاملة خاصة؛ موظفون مبتسمون وطابور منفصل خصص لهما.

«هيا بنا.»

«ألن نأخذ الألعاب معنا؟»



«لن تتسع في سيارتي، لذا طلبت أن يرسلوها إلى عنواني الليلة، ويغلفوا هدايا زملائك.»

«هل يمكنني أن آخذ ميليسا على الأقل؟»

أعطاها لعبتها، ثُمّ غادرا معًا، وجلست ميا في السيارة وميليسا في حضنها، تمسح على شعرها البلاستيكي بحنان بريء.

«بابا؟ أين عنوانك؟ أين تنام؟»

أجاب وهو يراقب الطريق:

«سأنتقل إلى الشقة المجاورة لكما.»

شهقت بدهشة:

«حقًا؟ ستعيش معنا في المجمع؟»

«لا تخبري أحدًا بعد، سيكون سرنا.»

«لن أخبر أحدًا..» ثُمّ همست للدمية: «هل سمعت يا ميليسا؟ سيعيش جدك معنا!»

استرق مارسيل نظرة إليها واسترجع ذكرى قديمة، ثُمّ سأل:

«هل أنت جائعة؟»

أومأت بحماسة:

«نعم.»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة:

«توقعت هذه الإجابة.»

«هل سنأكل؟»

«لا بد أن والدتك تنتظر عودتك وقد أعدت شيئًا، سأوصلك وأذهب لحل بعض الأمور.»

تنهدت بحزن:

«آمل أنها تحسنت قليلًا.»

«آمل ذلك أيضًا.»



سحبت روبي ابنتها إلى حضنها فور عودتها، ثُمّ أبعدتها قليلًا لتتفحص وجهها بقلق:

«لماذا تأخرت هكذا؟ لقد قلقت كثيرًا.»

أجابت ميا ببراءة:

«آسفة.. انشغلنا بشراء الألعاب لي ولزملائي في الصف.» ثُمّ رفعت الدمية: «انظري، لقد اشترى لي بابا ميليسا، وهناك ألعاب أخرى سوف تصل الليلة.»

مررت يدها على وجنتها، ثُمّ قالت محاولة التماسك:

«لا تتأخري مجددًا.»

لمست ميا يد أمها وسألت باهتمام:

«كيف حالك الآن؟»

ابتلعت روبي ريقها:

«أعتذر على ما حدث اليوم. لم أقصد إخافتك.. وتركتني قبل أن أعطيك مصروفك.»

عانقتها ميا فورًا:

«أنا آسفة. لن أفعلها مجددًا.»

«لا بأس..» زفرت محاولة أن يبدو صوتها طبيعيًا: «لقد حضرت العشاء وحرصت أن أطبخه جيدًا. هل تريدينه الآن أم لاحقًا؟»



«الآن، فأنا جائعة جدًا.»

«حسنًا، اذهبي وبدلي ثيابك ريثما أحضر الطاولة.»

قفزت ميا ومعها لعبتها، وحضرت روبي الطاولة بعناية مبالغ فيها؛ تذوقت المعكرونة والحساء عدة مرات لتتأكد أنها لم تخطئ هذه المرة. شرعت ميا بالغوص في طعامها وهي تتحدث بسعادة عن رحلتها إلى متجر الألعاب مع والدها، وكل كلمة كانت كالسكين التي تطعن قلب روبي. أجبرت نفسها على الاستماع، وعلى الإيماء. حاولت أن تغير الموضوع، لكن ميا لم تترك لها المجال حتّى بعد انتهائها من الطعام.

«لقد وضعت التحلية لك.»

رفعت رأسها عن ألعابها:

«هل هي كعكة بابا؟ كنت قد نسيت أمرها. أرغب في تناولها بشدة.»

ردت روبي بوجه محبط:

«بل بسكويت الشوكولا.»

«أريد قطعة من كعكة الجبن، أستطيع تناول البسكويت اللذيذ لاحقًا.»

همست بصوت مكسور:

«حسنًا.»

وضعت البسكويت جانبًا، وأخرجت كعكة الجبن من الثلاجة. أمسكت السكين بيد مرتعشة، وأنفاسها تضيق تدريجيًا حتّى بات من الصعب التنفس. لم تلاحظ ميا حال والدتها، وانتظرت حصتها فقط، وتناولتها بفرح.

«ألن تأكلي منها يا ماما؟»

«لا أشعر برغبة في تناولها الآن.»



«تناولي منها لاحقًا إذًا، فهي لذيذة جدًا وستعجبك.» ضحكت برقة: «كنت محقة عندما قلت إن بابا بارع في المطبخ.»

شدت روبي فكها:

«أليس لديك واجبات منزلية؟»

«من حسن حظي لا.» استطردت ميا وهي تراقب من النافذة: «على كل حال، سأطلب من بابا أن يعد لي كعكة الجزر في المرّة القادمة.»

همست روبي وهي تحدق بالفراغ:

«هلا توقفت؟»

«ماذا قلت يا ماما؟»

«لا شيء..»

فركت يديها باحباط وجلست على الأريكة، تراقب ابنتها وتشعر أنها غير مرئية. أرادت أن تصرخ، أن تجعل ميا تلتفت نحوها، أن تتحدث إليها دون ذكر اسم مارسيل وفرضه على حياتهما.

«لقد وصلوا!»

قطع صراخها المتحمس خيوط أفكار روبي، وهمت بسؤالها، لكن ميا أسرعت بالخروج لاستقبال والدها الذي تقدمت شركة الشحن، وأرشد العمال إلى شقته الجديدة!

راقب الجيران ما يجري من خلف نوافذهم بشيء من الدهشة والترقب، إلا أندرياس الذي اندفع إلى الخارج، مسرعًا إلى الشقة، بينما ميا تقفز وتحتضن والدها.

نظر حوله بغيظ؛ اكتفت جارتهم السابقة بأخذ ممتلكاتها الشخصية، وتركت خلفها أواني الطبخ، والثلاجة التي ابتاعتها مؤخرًا، وكذلك التلفاز المسطح. شتم بهمس؛ لم يشك أن مارسيل وراء انتقالها المفاجئ، وفي وقت قصير جدًا. لقد تكفل بكل شيء!



«عم أندرياس! إن بابا سيعيش هنا. لقد أتى من أجلي أنا وماما.» هتفت ميا بفرح، قبل أن تنشغل بتفقد ألعابها.

التفت أندرياس إلى مارسيل وسأل بنظرات حادة:

«ما الذي تفعله؟»

«اشتريت الشقة.»

«لا يمكنك أن تشتريها وتنتقل فجأة دون أن تأتي إليّ أولًا.»

«لقد أبرمت عقدي مع المالك.»

«أنا المالك!»

رفع مارسيل هاتفه:

«لست كذلك. هذه صورة من العقد. المالكة الأصلية هي السيدة نينا غارسيا، وهذا ختمها.»

تأمل أندرياس الشاشة، ثُمّ اقتربت ميا بقلق، وتشبثت بذراع والدها.

«لم آتِ إلى هنا لأسبب المشاكل.. أريد البقاء بجانبهما وحسب.»

تبادلا النظرات، ثُمّ سألت ميا:

«هل هناك مشكلة؟ هل ستمنع بابا من الانتقال؟»

نظر أندرياس إلى قبضتها الصغيرة حول ذراع مارسيل، ثُمّ قال مستسلمًا:

«لا.»

خرج وقصد شقة لورينا التي أجفلت عندما صفع الباب بعنف، ثُمّ سألت بحذر:

«هل سينتقل إلى المبنى حقًا؟»

مرر يده على شعره بعصبية:

«يبدو ذلك، ولجدتي يد في الأمر.»

ابتسم أندريه بإشفاق وهو يراقب من النافذة:

«انظرا كيف تبدو ميا سعيدة.. لطالما تمنت عودته. أنا سعيد من أجلها.» ثُمّ التفت: «سأذهب وأساعدها في ترتيب غرفتها الجديدة.. وداعًا!»

بقيت لورينا تحدق عبر الزجاج نحو شقة روبي، دون أن تعلم أنها تدور في غرفة معيشتها كحيوان محاصر، أنفاسها مضطربة وصدرها يضيق أكثر فأكثر، حتّى دخلت ميا وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

«لقد انتقل بابا إلى الشقة المجاورة يا ماما! سوف يتسنى لي رؤيته كل يوم، وسيكون لي غرفة أيضًا، سأنام يومًا هنا ويومًا هناك بلا مشاكل، وسوف ألعب معه أيضًا وأطبخ و...» توقفت فجأة: «ماما؟ ما بك تبكين؟»

انهمرت دموع روبي بغزارة، ثُمّ اندفعت خارجًا وقصدت أندرياس الذي التقاها في منتصف الطريق. وقفت أمامه وهي تكاد تنفجر:

«قلت إنك آسف، وسوف أسامحك إن أخرجته من هنا.»

تنهد بثقل:

«أنا آسف حقًا يا سنيوريتا، ولكنه أبرم العقد مع جدتي. إنها المالكة الأصلية وأنا الوكيل فقط.»

قالت من بين أنفاسها اللاهثة:

«لا يمكنه البقاء. هو.. هو... هو يفعل هذا عمدًا! هو هنا ليدمرني. سوف يسلب ميا مني، وستتركني من أجله.. أرجوك أخرجه!»

«روبي؟ اهدئي!»

صرخت:



«إن لم تطرده فسأفعل!»

التفتت روبي واندفعت نحو شقة مارسيل بخطوات متعثرة وغاضبة، خلفها أندرياس يحاول تهدئتها، أما ميا، فقد وقفت خارج الباب، تحتضن دميتها وتكتم دموعها؛ لا تفهم ما يجري، ولكنّها خائفة جدًا.

«ستخرج من هنا أيها السافل! هل تفهم؟ اخرج الآن!»

مد أندرياس يده ليوقفها، لكنّها صرخت تأمره ألّا يلمسها، فانكمشت ميا أكثر، وحاول أندريه سحبها مع والدتها لتبتعد عن هذا الجنون، لكنّها أبت أن تتحرك.

اقترب مارسيل القلق وقال:

«اهدئي يا روبي.»

«لا تخبرني أن أهدأ! أنت هنا لتدمر كل ما بنيته!»

«لست كذلك.»

«بلى!»

أسرعت نحو المطبخ، ثُمّ عادت وهي ترفع سكينًا بيد مرتجفة، توجهها نحوه.

«ارحل وإلا قتلتك! لن أدعك تقترب من ابنتي، ولن تحدثها، ولن تشتري لها الهدايا!»

اندفعت ميا إلى الداخل باكية:

«ما الذي تفعلينه يا ماما؟ توقفي قبل أن تؤذي نفسك!»

انتزعت روبي الدمية من بين ذراعيها ورمتها أرضًا بعنف. رفعت السكين في وجه ابنتها دون وعي:

«لن تريه مجددًا، ولن تأخذي أي شيء منه! هل تعلمين حتّى بأي مال يشتري لك كل هذا؟ هل تعلمين؟ إنه المال الذي...»

صفعة واحدة لسعت وجه روبي فجأة، وأخرستها كما الجميع!

نظرت إلى أندرياس الغاضب، ولم تمر ثانية حتّى انقض عليه مارسيل، ولكمه بقسوة وطرحه أرضًا. اندلعت الفوضى.. تعالت صرخات لورينا وأندريه وهما يحاولان إبعاد مارسيل، وبكاء ميا وهي تتوسلهم أن يتوقفوا عن الشجار، لكن مارسيل لم يتوقف عن شتم أندرياس وضربه حتّى تدخل رجلان من الخارج وأبعداه عنه بالقوة.

مسح أندرياس الدم عن فمه، ودفع الجميع عنه، ثُمّ صرخ:

«لقد سئمت!» أشار إلى مارسيل: «أنت ما تزال وغدًا تدمر ما حولك دون أن تشعر!» ثُمّ التفت إلى روبي: «وأنت! يبدو أن عدوى التدمير انتقلت إليك. انظري إلى حالك، وانظري إلى ابنتك المسكينة التي كسرتها!» اشتد صوته قسوة: «لست بخير، وسئمت من مكابرتك. سئمت من المجاملة ومحاولة طمأنتك، وأنت ترفضين استجماع شتات أمرك! لذا إن لم تهدئي، فسأطردكم جميعًا وآخذ ميا إلى جدها!»

هرعت لورينا القلقة إليه عندما أمسك بصدره، لكنه لم يتوقف عن الصراخ:

«أيها الأوغاد! كل يوم مشاكل، مشاكل، مشاكل لا تنتهي من احترق، ومن مات، ومن بكى، ومن شرق، والمزيد من الضغط! متى سأرتاح؟»

تأوه بألم وأوشك على فقدان وعيه، فصرخت لورينا:

«يا إلهي! اطلبوا الإسعاف.»

هتف أندريه:

«سأنادي خوليو!»

حمله الرجلان وسط تجمهر الجيران الذين اخترقت أعينهم روبي، وتردد صدى همساتهم حولها؛ يتهمونها بالجنون ويوجهون أصابع اللوم إليها، ويشفقون على ميا.



لم تستطع التحمل أكثر، تركت المكان وهربت لتحبس نفسها في غرفتها. أما ميا، فقد احتضنت دميتها الملقاة ولم تتوقف عن النحيب، ووقف مارسيل يراقبها باضطراب، لا يعرف كيف يواسيها.

تأمل احتضانها لدميتها، ثُمّ اقترب أخيرًا، وجلس على الأرض وضمها إليه بلطف حذر، فبكت في حضنه حتّى ابتل قميصه. مسح على ظهرها هامسًا:

«لا بأس.. إنها بخير ولم تتحطم.»

«ولكن ماما ليست بخير. ليست ماما التي أعرفها. لقد غيرها الأشرار!»

«ستكون بخير، تحتاج إلى الوقت فقط.»

ربت على ظهرها حتّى فرغت من البكاء، ثُمّ مسحت دموعها وقالت:

«ما الذي يجب أن نفعله الآن؟»

«عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذه النسخة على شكل كتاب مطبوع، أو من أحد برامج المكتبات على الهاتف فتأكد من أنك تقرأ نسخة مسروقة وليس لمن طبعها/نشرها الحق في البيع والشراء.. وهذه النسخة بالأصل هي نسخة إلكترونية تم تجهيزها من فيلق مكتبة ضَاد[1] الإلكترونية على تطبيق تيليجرام! فتأكد من أنك تحمّل هذه الرواية وتقرأها من قناتنا الرسمية. نعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة..

نظر مارسيل حوله، ثُمّ أجابها:

«سأغير ملاءات الفراش. يمكنك أن تنامي هنا الليلة.»

«ولكني أحتاج فرشاة أسناني، وثوب نومي، وحقيبة الروضة، والزي.»

---

[1] للانضمام إلى القناة الرسمية أدخل اليوزر التالي في محرّك بحث تيليجرام: @twinkling4



«لدي فرشاة جديدة ومعجون يمكنك استعمالهما. نامي بهذه الثياب الليلة، وغدًا سنحل بقية الأمور.»

«وما نكهة معجونك؟»

استغرب من سؤالها، ولكنه أجاب على أي حال:

«النعناع.»

انفجرت بالبكاء، ودفنت رأسها في صدره مجددًا:

«إنه حار.. خاصتي بالفراولة.»

تنهد مارسيل:

«حسنًا، سأطلب معجون الفراولة، فتوقفي عن البكاء من فضلك.»

رفعت رأسها بقلق:

«هل دموعي تحرق قلبك أيضًا؟ لقد تألم قلب العم أندرياس بسببي. كان يمكن أن يموت.»

كتم غيظه:

«سيعيش، فلا تقلقي.»

«لا تتشاجرا مجددًا، اتفقنا؟ لا أريد أن تؤذيا بعضكما.»

رد بنبرة غامضة:

«سأحاول ألّا أؤذيه بشدة في المرّة القادمة.»



18: الخطوة الأولى

يقول بعض الفلاسفة إننا عندما نشعر بالألم، فهذا يعني أننا أحياء، ويقولون إن الألم شعور حتمي لا مفر منه في هذه الحياة، لكن المعاناة ليست حتمية، بل خيار!

لكن ماذا عن الألم الذي يطفئ الحياة من الداخل؟ الألم الذي يقتل الروح لا الجسد؟ كيف نتعامل مع ذلك؟

كيف تستعيد روبي روحها مجددًا وهي ما تزال تحبس نفسها في غرفتها لخمسة أيام متواصلة؟ خمسة أيام لم تقابل فيها أحدًا أو تتحدث إلى أي أحد. لا تستمع إلا لميا التي تشتاق لرؤيتها، وتأتي كل يوم لتخبرها عن يومها، وتطلب منها الخروج، وأحيانًا تغني لها ظنًا منها أن ذلك سيحسن من مزاجها.. لكن لم يتغير شيء.

هل ستستمر بالاختباء هكذا بقية حياتها؟ هل الاستمرار في الهرب، أو الكتمان، أو المعاناة هو الحل؟ أم أن الضيفة الغريبة التي تجلس على أريكتها ستحدث تغييرًا؟

امرأة سمراء، نحيلة وقصيرة القامة، عيناها عسليتان وشفاهها ممتلئة، وشعرها مجعد. تبدو مسالمة ورزينة، وكأنها لا تنتمي إلى هذا العالم الفوضوي.

«من أنت؟»

«اسمي كارمينيتا توريز. طبيبتك النفسية. يمكنك أن تناديني كارمن.»

«لم أطلب طبيبة.»

«اتصلوا بي.. لقد أتيت البارحة أيضًا وجلست، ولكنك لم تخرجي.»

تجمدت روبي:

«كنت هنا البارحة؟»

«أجل، وسوف آتي كل يوم في مثل هذا الوقت ولمدة ثلاث ساعات. لقد دفعوا لي، وأنا هنا لمساعدتك والاستماع إليكِ.»

ردت روبي ببرود:

«لا أريد أن أتحدث.. يمكنك أن تغادري، فلا حاجة لأن تضيعي وقتك.»

«لا بأس، لقد تمكنت من إنهاء بعض المهام عن بعد، ولكني لا أرغب في الاستمرار بذلك كل يوم، لذا ما رأيك أن تجلسي؟»

تجاهلتها روبي واتجهت نحو المطبخ:

«لا.»

«سأنتظر ساعة أخرى إذًا.»

«اخرجي من فضلك.»

«لا أستطيع. أنا ملتزمة بعملي.»

سألت روبي:

«ومن اتفق معك؟»

«هل يهمك؟»

حدقت بها طويلًا، ثُمّ قالت:

«لا.»

عبأت روبي إبريق المياه، وعادت إلى غرفتها بسرعة، ثُمّ ارتاحت عندما غادرت الطبيبة بعد ساعة بالضبط. ظنت أنها لن تعود في اليوم التالي،

لكنّها عادت ورفضتها مجددًا. حبست نفسها، وظلت تنتظر ابنتها فقط، حتّى سمعت خطواتها أخيرًا.

انتظرت أن تقترب من بابها، وأن تتحدث مثل كل يوم، لكنّها لم تفعل. سمعت فوضى غريبة، وكأن ميا تبحث عن شيء، ولم تمضِ دقيقة حتّى سمعت صوتها:

«ماما؟ إنه يوم الشاطئ، سيذهب الجميع وسأذهب مع بابا.. أتمنى لو أنك تستطيعين القدوم معنا.» لمست الباب، ثُمّ أضافت: «إلى اللقاء.. أحبك.»



وفي الشقة المجاورة، كان مارسيل قد أنهى استحمامه، وخرج يجفف شعره بالمنشفة، ليتفاجأ بميا واقفة أمام الباب. ترتدي ثوب سباحة ورديًا، بزركشة خفيفة حول الخصر، وتتمايل داخل إطار منفوخ على شكل أحادي القرن الأبيض، بقرنه الملون.

«ما هذا؟»

ابتسمت بحماسة:

«إنه يوم الشاطئ!»

«لقد استحممت للتو.»

«ولماذا تستحم في يوم الشاطئ؟ يمكنك أن تستحم بعد ذلك. هيا بنا.»

«لا أشعر برغبة في الذهاب.»

عبس وجهها فورًا، وتدلى الإطار قليلًا:

«لم أذهب منذ مدة طويلة.» حاولت إقناعه: «انظر ارتديت ثوب السباحة بنفسي وحزمت كل شيء كما كانت تفعل ماما. لدي المرهم،



والمنشفة، وألعابي، وملابس إضافية، وستشتري لي وجبات خفيفة عندما نصل..»

تأملها قليلًا، ثُمّ قال بتردد:

«وستذهبين.. هكذا؟»

نظرت إلى نفسها باستغراب:

«أجل.»

سأل بحرج لم يعتده من قبل:

«هل أنت مرتاحة في هذا اللباس؟»

أجابت بسعادة:

«طبعًا، أليس جميلًا؟ انظر إلى الزركشة عندما أتحرك أو أرقص.»

هزت جسدها محاولة هزّ خصرها، فأطبق مارسيل شفتيه وأدار بصره جانبًا؛ يكتم ضحكة ساخرة.

«هل رأيت؟»

تنحنح، ثُمّ قال بنبرة هادئة:

«أجل.. هل أخبرت والدتك؟»

«أخبرتها أني سأذهب معك، ولم تقل شيئًا.»

أومأ بذهن شارد، ثُمّ وافق على طلب ميا، وأمهلته بعض الوقت ليستعد. ارتدى ملابس تناسب البحر، وتغطي ندبات جسده بطريقة لا تثير الريبة؛ لم يكن قلقًا من أن يراه أحد، لكنه لم يكن مستعدًا لتراه ميا، وتبدأ بطرح الأسئلة.

كان الشاطئ مكتظًا بالوجوه المألوفة، من حراس وأهالٍ، حتّى أندرياس كان هناك، يستلقي على الكرسي، وتغطي نظارته السوداء عينيه. لا يعلمون إن كان نائمًا أو يتأمل السَّماء، لكنه التفت حين لوح أندريه لميا بحماسة.

نقل نظراته إلى لورينا التي تضع سماعاتها وتقرأ كتابًا، ثُمّ مد ساقه ودفع ساقها، فتأففت بضيق.

«كنت في وسط مشهد مهم! ماذا تريد؟»

«آي آي، استرخي.. سأتمشى، فهل تودين القدوم معي؟»

«لا.»

ارتدت نظارتها مجددًا وعادت لكتابها، أما مارسيل، فقد جلس نصف مستلقٍ على كرسيه، يراقب ميا التي خرجت من البحر لتلعب بمسدسات الماء مع الأطفال، ثُمّ جلست لتبني قلعة رملية، ووبخت أندريه عدة مرات عندما فشل في تنفيذ ما طلبته.

«بابا! أنا جائعة!»

ناولها شطيرة الجبن المحمصة التي اشتراها، فتناولتها وهي تهزّ رأسها مع الموسيقى الصادرة من أحد الباعة في الشاطئ، بينما أندريه يحرس القلعة بعيدًا.

«هل يمكنني أن أسألك سؤالاً يا بابا؟»

«تفضلي.»

«هل أنت هادئ على الدّوام؟ لا ترقص، أو تلعب، أو تضحك بصوت عالٍ.»

ابتسم بخفّة: «تركت تلك الصفات لوالدتك.. لطالما كنت هادئاً وقليل الكلام، إلى أن ظهرت هي، والآن أنت.»

ابتسم بخجل: «هذا يعني أنك تحبني، صحيح؟»

«ليس بالضرورة، ولكن إن أردت أن تفهمي الأمر هكذا فلا بأس.»

عقدت حاجبيها: «أحياناً تقول كلاماً لا أفهم معناه يا بابا.»



ابتسم ابتسامة صغيرة وراقبها تشرب عصيرها.

«أريد أن أسألك عن جدي أيضاً، إنه رجل صارم ولكنه طيب ويحبني، فأنا حفيدته الأولى بالطبع.. على كل حال، هل كان يوبخك كثيراً؟ أو يضربك؟»

نظر إليها ملياً؛ لا يعلم بماذا يجيبها، فهي لا تزال طفلة، ليست مستعدة لتعرف عن جاريد، والمنظمة، وعن الحقيقة خلف اسم ٠٠٥، ولا يعرف كيف يختلق كذبة مناسبة، فهو لم يعش طفولة طبيعية، ولا يعرف كيف من المفترض أن تكون.

«أنا ميمو.. كانت تلك قِصّتي التي حكتها لك والدتك.»

تفاجأت ميا وظلت تحدق فيه لبرهة طويلة، وكأنها تحاول أن تفهم بعقلها الصغير ما تعنيه كلماته.

«هل هذا يعني أنك ضعت عن جدي عندما كنت صغيراً ووجدك القرش جاريد؟ وجعلك شريراً مثله؟»

هَمَس: «أجل..»

«ثم تِهت في المحيط؟»

أومأ مارسيل فقط، وتأمل وجهها الحزين.. قد تكون ما تزال صغيرة، لا ترى عمق الأمر، ولكنها ترى السطح، وهذا ما يهم الآن.

تركت طعامها، ثم اقتربت وعانقته عناقاً بريئاً، قبل أن تطبع قبلة على خده.

«لقد وجدتنا الآن يا بابا، وستكون بخير.»

كانت كلماتها بسيطة، لكنها انسلت إلى جرح عميق، ولمسته برفق كبلسم. لمس وجهها، ثم انحنى وقبل جبينها، لترتسم على وجهها اللطيف ابتسامة سعيدة.

«أنا آسف.. وشكراً.»

«لماذا؟»

«هكذا فقط.»



عادا إلى المجمع بعد نهار ممتع، وظن مارسيل أن التعب سينتصر أخيراً، وأن ميا ستنام فور أن تطأ قدماها الشقة، لكنها نسيت التعب وانطلقت إلى الفناء حين رأت خوليو والرجال يشوون اللحم.

تركها تمرح، وصعد إلى شقته، لكنه توقف عند شقة روبي؛ يتساءل ماذا تفعل الآن؛ فلم يستطع سماع شيء عبر جهاز التنصت الذي خبأه في غرفة المعيشة سوى بكائها، وصرخاتها المتألمة عندما يغلبها النوم وتطاردها الكوابيس.

اقتحم شقتها في المرّة الأولى التي سمع فيها صرختها. حاول أن يحتويها، لكنها طردته، وحبست نفسها في غرفتها، وأغلق الباب عليه وعلى كل شيء، ومع ذلك لم يكف عن التسلل والتأكيد عليها أنه موجود من أجلها، ولن يرحل أبداً.

وضع السماعة في أذنه وأنصت إلى السكون حتى تأكد أنها ليست في غرفة المعيشة. استجمع شجاعته وقصد غرفتها، ثم طرق الباب بالنمط نفسه الذي يطرقه كل يوم كي تميزه.

«عدنا من الشاطئ. لعبت ميا كثيراً، وحظيت بوقت ممتع.» ثم أضاف: «كان ينقصنا وجودك.»

تنهد عندما طال صمتها، ثم قال:

«لن أستسلم عنك يا روبي. لن أرحل ولن أخذلك مجدداً. أنا معك، ويمكنك الاستناد إلي، وسأكرر ذلك كل يوم.»



«ما بك يا أندرياس؟ لم تتناول سوى القليل.» سألت لورينا بقلق وهي تنظر إلى طبقه: «لقد شوى خوليو اللحم كما تحبه.»

تنهد بضجر: «لا أعلم. ليست لي شهية لأي شيء هذه الأيام.» ضيق عينيه بشك: «اعترفي! وضعت شيئاً في مشروب الأكسدة المقرف الذي تعطينه لي.»

ابتسمت بخبث: «كشفتني!»

زفر بملل ونهض قائلاً: «أشعر برغبة شديدة في تناول شطيرة تاكو أصلية.»

رفعت حاجبيها بدهشة: «هل ستذهب الآن؟ هل أنت جاد؟»

«أجل.»

حدقت بظهره فقط، ثم قالت بتردد: «أود أن أحدثك بخصوص شيء مهم عندما تعود.»

التفت إليها والإنزعاج باد على وجهه: «هل حدث شيء؟ هل يجب أن أقلق؟»



هزت رأسها بسحرية خفيفة، ثم ابتسمت: «لا تقلق هذه المرة.»

أومأ وهو يشعر بالريبة: «حسناً.»

ترك أندرياس الجموع ومشى خارج المجمع وهو يدندن بلا طاقة، ثم سكت عندما شعر بأحد يتبعه في مواقف السيارات.

تابع المشي دون لفت الانتباه، وسلك عدة منعطفات حتى ضلل من يتعقبه، ثم انتظر اللحظة المناسبة، وانقض عليه مشهراً خنجره.

ثبت المتعقب على الجدار، ثم ابتسم بتكلف: «كدت أشوّه وجهك الفاتن.. يا إيزابيل.»

التقطت إيزابيل أنفاسها وأزاحت قلنسوتها، ثم رمقته بغضب تخفي خلفه اضطرابها.

نظر إليها قليلاً، ثم أعاد الخنجر إلى جيبه: «لماذا أنت في فيراكروز؟ ولماذا قررت الظهور الآن؟»

رمشت بتعجب: «هل كنت تعلم أني هنا منذ البداية؟»

رد ببرود: «نوعاً ما. لقد رفعنا درجة الأمان وأخبروني أنهم لاحظوك. قلت لهم أن يتجاهلوك، لذا أخبريني ما الذي تريدينه؟»

رفعت ذقنها بتكبر: «أليس واضحاً؟»

«لا تجيبسي بسؤال، بل قولي لماذا أنت هنا.»

حدقا ببعضهما، ثم قالت بانفعال مكبوت: «لا أعلم.»

«ليست إجابة مقبولة، لذا سأسأل مجدداً.. لماذا أنت هنا؟»

حاولت التملص والهرب منه، لكنه احتجزها ولم يسمح لها بالحراك.



«اتركني!»

«ليس قبل أن تعطيني إجابة.»

انفجرت أخيرًا، وارتعش صوتها رغم محاولتها الصّمود:

«ماذا تريدني أن أقول؟ من المفروض أنّي أكرهك لطردي وإبعادي، ولكنّي غاضبةٌ لأنّي لم أستطع التّوقّف عن التّفكير بك!» ثمّ خرجت كلماتها بسرعة: «أتى بوبي وأخبرني أنّ أحد الطّيور قد مات، وكان الّذي أسميته أندرياس، وبعدها بأيّامٍ سمعت أنّك أصبت وكدت تموت، وقيل إنّك من فعلها!»

هزّت رأسها وحاولت الهدوء، لكنّ الاعتراف الّذي دفنتْه لوقتٍ طويلٍ أبى أن يبقى ساكنًا داخل قلبها أكثر.

«لا أعلم ما الّذي أصابني. كنت أدور في حلقاتٍ من القلق، والغيرة، والخوف، وكلّ ذلك دفعني للمجيء إلى هنا. راقبتك من بعيد، ثمّ اقتربت أكثر ممّا ينبغي لعلّك تراني ولو لمرّة، لأنّ كرامتي منعتني من الوقوف أمامك!»

أعاد خصلة شعرٍ خلف أذنها بلطف، فرمقته بحدّةٍ وقالت:

«أكرهك لأنّك بعثرتني هكذا!»

ابتسم بغرور:

«هل تكرهينني حقًّا؟»

«نعم.»

اقترب وهمس:

«التّرجمة كالآتي.. أحبّك، وأقبّل الأرض الّتي تمشين عليها.»

رمقته بازدراء:

«لن أقبّل أيّ أرض.»

ضحك بخفّة:

«حسنًا.. ولكنّك ستتزوّجين بي، وتنجبين أطفالي، وتغنّين لي فقط، وتعاملينني بدلالٍ وكأنّي ملك، وتطبخين لي.»

«في أحلامك أيّها المتخلّف!»

رفعت يدها لتصفعه، فأمسكها ووضعها على قلبه:

«لم أنته بعد.. ستكونين ملكتي وسأبني لك مملكة. قلبي لك، ومالي لك، وبيتي لك، ووسامتي وشخصيّتي المذهلة لك، وليس لديّ مانعٌ أن أقبّل الأرض الّتي تمشين عليها.»

حاولت الإفلات:

«أنت رخيصٌ وكلامك أرخص، ولا أصدّق أنّي عدت لأجلك. اتركني، لقد تراجعت!»

«آي آي.. ليس هناك مجالٌ للتّراجع بعد الآن يا حبّي.»

«لماذا؟»

مال نحوها وهمس:

«لأنّي سأخطفك.»

فتحت كلّ الألعاب الّتي اشترتها، ولكنّها متعلّقةٌ جدًّا بالدّمية الرّضيعة ميليسا. دخلت البارحة ورأيتها تحتضنها من تحت قميصها، وعندما سألتها ما الّذي تفعله أجابت أنّها ترضعها.. فضحكت بشدّة.

ابتسم الطّبيب تود من خلف شاشة الحاسوب:

«هل تدرك أنّك تبتسم عندما تتحدّث عنها؟ إنّها تؤثّر بك.»

عاد مارسيل إلى التّحفّظ على الفور، لكنّه قال بنبرةٍ ليّنة:



«إنّها تؤثّر بي بالفعل.. ليس كروبي، ولكن لها تأثير، وسحرٌ غريبٌ أيضًا.»

«وكيف ذلك؟»

«ذهبنا إلى الشّاطئ اليوم. لعبت، وتحدّثنا، ثمّ سألتني عن طفولتي مع العجوز.»

صحّح تود بهدوء:

«والدك.»

تنهّد مارسيل بضجر:

«على أيّ حال، سألتني عن طفولتي وأخبرتها أنّني ميمو.»

أومأ تود بفهم:

«قصّة السّمكة.»

«لم أرد أن أكذب عليها، وأخبرتها بمقدّمة الحقيقة فقط، ثمّ احتضنتني، وقبّلتني وقالت: «لقد وجدتنا الآن يا بابا، وستكون بخير». كانت جملةً بسيطة، ولكنّها تمكّنت منّي. وجدت الشّجاعة لأقبّل جبينها، لأنّني كنت ممتنًّا، ومتأسّفًا في الوقت نفسه.»

«ولماذا كنت متأسّفًا؟»

«لأنّي لم أكن متواجدًا منذ ولادتها.. فاتني نموّها وتحوّلها إلى هذا الكائن المذهل.»

«من الجيّد أن تشعر بهذه المشاعر، ولكن احذر أن تلوم نفسك بدرجةٍ تعميك عن رؤية الحاضر. ركّز على اللّحظة، وابن معها ذكرياتٍ خاصّة، ودعها تكن بدايتك.» ثمّ أضاف بابتسامةٍ حقيّة: «البنات أفضل ما يمكن أن يحصل عليه أيّ أب.»

التفت مارسيل إلى ميا عندما استيقظت وخرجت من غرفتها. كانت قد



تناولت اللّحم المشويّ ولعبت مع أندريه خارجًا قبل أن يغلبها التّعب وتنام.

تأمّل وجهها الشّاحب، وشعرها المبعثر، ثمّ قالت وهي تمسك ببطنها:

«لا أشعر أنّي..»

لم تكمل جملتها؛ تقيّأت على الأرض فجأةً، فأنهى مارسيل الاتّصال بطبيبه، وهرع ليتفقّدها.

«سحقًا، حرارتك مرتفعةٌ يا ميا!»

بكت بصوتٍ ضعيف:

«أنا آسفةٌ.. الأرضيّة.»

«دعيك منها وتعالي معي.»

حملها إلى الحمّام وغسل فمها ووجهها الحارّ، فتأوّهت بتعب:

«سأتقيّأ مجدّدًا.»

«حسنًا، حسنًا.»

جمع شعرها بيد، ومسح على ظهرها بالأخرى وهو يلوم نفسه، وكيف ظنّ أنّ تعبها بسبب اللّعب طوال النّهار، لا لأنّها مريضة.

وضعها على الفراش برفق، ثمّ وقف في منتصف الغرفة مشوّشًا؛ هل يتّصل بطبيب؟ هل هناك دواءٌ معيّن؟

أجبر نفسه على الهدوء، ثمّ قصد شقّة روبي، وطرق الباب بالنّمط نفسه، محاولاً ألّا يخيفها.

«أنا أحتاجك.. ميا مريضةٌ ولا أعرف ماذا أفعل. هل آخذها إلى الطّبيب؟ هل هناك دواءٌ معيّنٌ تعطينها لها؟»

فتحت روبي القلقة بابها بعد لحظةٍ قصيرة. لم تبال بمظهرها، وكيف

أنّه لاحظ عينيها المحمرّتين من شدّة البكاء. تبعتْه إلى الشّقّة، وأسرعت باحتضان ابنتها الّتي تمتمت:

«ماما؟»

«أجل يا حبيبتي.. أنا هنا، وستكونين بخير.» ثمّ نظرت إلى مارسيل ببرود: «هناك رفٌّ في المطبخ به صندوق الإسعافات الأوليّة، وأدويةٌ سائلة. أحضره.»

أومأ مارسيل منفّذًا الأمر على الفور، ثمّ أحضر الماء، وراقب ما تفعله روبي حتّى عادت به الذّاكرة إلى الجزيرة، عندما تمكّنت منه الحمّى واعتنت به.

تمتمت ميا تناديها، فهمست روبي وهي تمسح على رأسها:

«لا بأس يا عزيزتي. أنا هنا، وسأعتني بك، لذا نامي وارتاحي.»

تولّى مارسيل مهمّة التّنظيف، ثمّ دخل إلى الغرفة وسأل بقلق:

«هل انخفضت حرارتها؟»

أجابت روبي دون أن تنظر إليه:

«درجة.. يجب أن أعطيها الدّواء كلّ أربع ساعاتٍ في هذه الحالة.»

أومأ بفهم، ثمّ همس:

«سأتولّى الأمر. اذهبي ونالي قسطًا من الرّاحة لو أردت ذلك.»

«لا. اذهب أنت.»

«سأبقى حتّى تتحسّن.»

ظلّت روبي صامتةً، تراقب ابنتها النّائمة، وتحاول تجاهل وجوده، حتّى انقضت السّاعات، وأفاقت ميا نصف إفاقةٍ لتناول الدّواء، ثمّ مدّت يدها تنادي والدها، وما إن شعرت بقربه حتّى هدأت، وعادت للنّوم.

تأمّل وجهها البريء، ثمّ قال:

«إنّها تشبهك كثيرًا.»

لم تردّ أو تلتفت نحوه، لكنّه كان يعلم أنّها تنصت إليه.

«تشبهك في ردّات فعلها، وعنادها، وذوقها في الطّعام.. تهوى الرّقص والغناء، ولن أتفاجأ لو بدأت بقراءة الرّوايات مستقبلاً.»

همست ببرود:

«ما الّذي تريد أن تصل إليه؟»

صرّت على أسنانها ثمّ قالت:

«توقّف عن الحديث. توقّف عن التّمثيل.»

هزّ رأسه وهمس:

«أنا لا أمثّل هذه المرّة.»

«وما الّذي سأستفيده من هذا؟ لقد انتهى كلّ شيءٍ بيننا منذ زمن.»

«يمكننا البدء مجدّدًا.»

«ولا أريد ذلك، لذا اغرب عن وجهي.»

«لن أرحل مهما قمت بدفعي بعيدًا عنك.» ثمّ نهض بهدوء: «سأحضر الحساء لميا، فنالي قسطًا من الرّاحة.»

ردّت بعناد:

«لست متعبة.»

بعد بضع ساعاتٍ أخرى، شهقت روبي بخفّةٍ عندما أدركت أنّها استسلمت للتّعب ونامت، وفوقها غطاءٌ ناعمٌ لم تضعه. لم تر ميا بجانبها،

فشتمت بهمسٍ ثمّ اتّجهت نحو الباب، وتوقّفت حال سماعها صوت ضحكاتها الظّريفة.

«إنّ الوافل الّذي تعدّه هو الأفضل يا بابا.»

«لن تأكليه حتّى تنتهي من تناول حساء الخضراوات أوّلاً لتستعيدي صحّتك.»

«سأتناوله من أجلك.. سأحاول أن أحبّه وكذلك السّبانخ والبروكلي.»

«أحسنت.»

«هل يمكنك أن تعدّ لي المعكرونة لاحقًا؟ أو ما رأيك أن تأخذني إلى السّينما؟»

ضحك ضحكةً خافتة:

«على رسلك.. لم تتحسّني بالكامل بعد وترغبين بالانطلاق.»

ضحكت ميا مجدّدًا:

«حسنًا، سنعدّ الفشار ونشاهد فيلمًا معًا في المساء، وسنتناول المعكرونة والتّاكو!»

ردّ بتهكّم:

«بات الطّبخ مرهقًا بسببك.»

«ماذا أفعل؟ طبخك لذيذٌ جدًّا.»

شعرت روبي بالحبل الخفيّ يضغط على عنقها، ثمّ استجمعت نفسها وخرجت لتترك ميا طعامها وتعانقها، بينما مارسيل يغسل الصّحون في صمتٍ متعمّد.

حاولت أن تبتسم:

«هل أنت بخير؟»



«أشعر بتحسّن، فشكرًا لك.» ثمّ سألت ببراءة: «هل تريدين أن تأكلي؟ تبدين جائعة.»

استرقت روبي نظرةً إلى مارسيل، ثمّ قالت:

«لا شكرًا.» ثمّ استطردت بتردّد: «ما رأيك أن تقضي اليوم عندي؟»

ارتبكت ميا:

«كنت قد اتّفقت مع بابا أن نمضي اليوم معًا إمّا في السّينما أو هنا، ولكن سآتي غدًا. حسنًا؟»

حدّقت بها روبي لبرهةٍ طويلة، ثمّ أومأت على مضضٍ فقط، وشعرت أنّها تختنق أكثر، فأسرعت إلى شقّتها، وتجمّدت عندما رأت الطّبيبة كارمن على الأريكة، تحتسي القهوة من كوبها الخاصّ.

«هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟»

قالت روبي بصوتٍ مشدود:

«يجب أن ترحلي فورًا!»

رفعت كارمن حاجبيها بهدوء:

«ما الخطب؟»

«نفّذي ما قلته!»

«ماذا حدث؟ تحدّثي إليّ.»

انفعلت روبي ويداها ترتعشان:

«لا تستطيعين مساعدتي! لا أحد يستطيع!»

«ولماذا؟»

«لأنّك لا تستطيعين. لن تفهمي! لن تستطيعي فعل أيّ شيء!»

«فعل شيءٍ حيال ماذا؟»



انفجرت روبي:

«حيال كلّ شيء! أرأيت؟ أنت لا تفهمين ولا أحد سيفهم!»

ضغطت كارمن أكثر:

«أخبريني ما الّذي حدث إذًا لأعرف.»

انهارت روبي وصرخت:

«لقد تعرّضت للتّعذيب!» ثمّ تكسّرت الكلمات من بين شفتيها: «والخيانة، والكذب.. وغرقت، غرقت والآن أنا أخسر ابنتي، السّبب الوحيد الّذي يجعلني أتنفّس!»

غطّت وجهها وانتحبت، فنهضت كارمن ومعها المحارم، ثمّ قالت بصوتٍ ليّن:

«لقد اتّخذت الخطوة الأولى للتّوّ يا روبي بالاعتراف بما حدث. أنت مبعثرة، ومشوّشة، لكنّك ستكونين بخيرٍ حالما تبدئين الحديث أخيرًا، ولا يهمّ من أين تبدئين. اختاري أيّ شيء، وسأبذل ما بوسعي لأوجّهك.»



19: ذكريات مؤلمة

«بماذا شعرت عندما اعترف لك روبن بحقيقته؟»

فركت روبي يديها ببعضهما، عيناها على الأرض، لا ترى سوى الذّكريات المؤلمة، ويطول سكوتها قبل أن تغادر الكلمات فمها، لكنّ كارمن أمهلتها كلّ الوقت الّذي تحتاجه. عبثت بطرف قميصها، ثمّ قالت:

«شعرت بالخيانة، وبالفشل مجدّدًا.»

«ولماذا؟»

شدّت على طرف القميص، ثمّ قالت بنبرةٍ مشدودة:

«وماذا قد يكون السّبب؟ أحببته كما لو كان ابنًا لي، ورأيت نفسي فيه. تذكّرت المشاعر الّتي خالجتني عندما وجدني أبي، لذا أردت حمايته من هذا العالم، أن أحتويه وأضمّه إلينا.» صمتت قليلاً، ثمّ همست باشمئزازٍ من نفسها: «ولكن كان كلّ شيءٍ كذبة، وصدّقتها لأنّي غبيّة.»

أومأت كارمن بفهم، ثمّ سألت:

«وماذا تقصدين بالفشل؟ في ماذا فشلت بالضّبط؟»

«كلّ شيء..»

«هل تظنّين أنّك فاشلة؟»

تجنّبت روبي النّظر إليها:

«لا أظنّ، بل هذه الحقيقة ولطالما كانت واضحة.»

دوّنت كارمن ذلك، ثمّ طلبت منها أن تفصّل كلامها، وتشرح كلّ الأسباب الّتي تجعلها ترى نفسها فاشلة، لكنّ روبي رفضت، وبدا لكارمن أنّها تريد العودة إلى داخل قوقعتها، فانتقلت إلى موضوعٍ آخر.

«بماذا شعرت عندما دخل جوناثان والش؟»

شدّت روبي على فكّها ومسحت على ذراعها، وأطبقت شفتيها للحظة، ثمّ قالت:

«شعرت بالكثير.. وكان عقلي يردّد لي أنّني لن أرى ابنتي مجدّدًا، وأنّه سيقتلني ليحصل على انتقامه من والدتي الميّتة.» التقطت أنفاسها باضطراب، ثمّ أضافت: «رأيت العديد من النّظرات في حياتي، ولكنّي لم أر الكره المطلق من قبل إلّا بعد أن قابلته. أطلق غضبه المكبوت وضربني بقسوةٍ حتّى توسّلته أن يتوقّف، ولكنّه لم يفعل، لم يكتف، لذا أمر الرّجال بـ..» ازدردت بثقلٍ ثمّ تابعت: «تدميري.»

أومأت كارمن مجدّدًا، ثمّ سألت بحذر، ولكن بصوتٍ مطمئن:

«هل اغتصبوك في السّفينة؟»

انكمشت روبي على نفسها وأبت الحديث للحظات. أبقت نظراتها على الأرض حتّى اسودّت، واستنشقت رائحة الصّدأ. قالت بصوتٍ مختنق:

«لا.. قال رئيسهم إنّهم سيفعلون ذلك كاحتفال.. عندما ينتهون من نقل الشّحنات حتّى ينضمّ إليهم أصدقاؤهم.»

«هل يمكنك إخباري بما فعلوه؟»

لمست عنقها وشدّت عليه، وازدردت بثقل، وخرج صوتها ضعيفًا:

«ضربوني.. وأهانوني. حاولت المقاومة، حاولت أن أجعلهم ينفرون منّي، لذا لطّخت جسدي بفضلاتي علّهم يتراجعون. لكنّهم لم يفعلوا.. وأحدهم تبوّل عليّ.» تقطّع صوتها، لكنّها أكملت: «ضربوني مجدّدًا، وسخروا منّي، ثمّ أحضروا خرطوم ماءٍ ووجّهوه نحوي.. لقد كان الماء المندفع مؤلمًا وباردًا جدًّا، وكنت أتمنّى أن يمزّقني كي أموت.. لكنّي عشت



في ظلام تلك الحاوية.» انهمرت دموعها رغمًا عنها: «كان كلّ شيءٍ مؤلمًا لدرجةٍ عجزت فيها عن الحركة. شعرت أنّي مثل كرةٍ يقذفونها بينهم.. تمنّيت الموت عدّة مرّات، ولكن لم تتحقّق أمنيتي.»

زفرت أنفاسًا مضطربة، بينما كارمن تدوّن بعض الملاحظات وتحافظ على ملامح وجهٍ هادئة، ثمّ سألتها:

«هل يمكنك إخباري عن الكوابيس الّتي انتابتك منذ نجاتك؟»

مسحت على وجهها بتعب:

«أنا.. أنا.. لا أرغب في المتابعة، فهلّا توقّفنا؟»

أومأت كارمن:

«لا بأس، سنتابع غدًا.»

«يمكنك ألّا تعودي غدًا.. فأنا...» تردّدت؛ لم ترد أن تقول «أنا بخير»، لذا قالت: «سأتدبّر أمري بمفردي.»

«لماذا تقولين ذلك؟ هذه أوّل جلسة، وأنا منبهرةٌ وفخورةٌ بك. الكثيرون لا يتحدّثون في أوّل جلسة، ولكنّك فعلت، ممّا يعني أنّك ترغبين بالعلاج.»

انخفض كتفا روبي أكثر، أرادت أن تفتح فمها وتخبر كارمن أنّها مخطئة؛ لا ترغب بالعلاج، لا ترغب سوى باستعادة ابنتها، لكنّ الكلمات علقت مجدّدًا.

«سأراك غدًا، وسنتحدّث عن بعض التّمارين الّتي ستفيدك كثيرًا.. إلى اللّقاء.»

غادرت كارمن وأغلقت الباب برفق، فاحتضن الصّمت روبي، واشتدّ الألم حتّى نشجت وتردّدت شهقاتها في أرجاء الشّقّة.

كانت كلّ شهقة، وكلّ أنين، ودمعةٌ لم يستطع مارسيل مسحها لها، تحرق قلبه. اجتاحته رغبةٌ شديدةٌ في التّدمير، وتمنّى مجدّدًا لو استطاع



العودة بالزّمن ليوقع بأولئك الرّجال أشدّ العذاب.. ولكنّه كان يعرف أنّه مهما فعل بهم، فلن يكون ذلك كافيًا.



20: فرصة ضائعة

جلست روبي إلى طاولة الطعام وحدها بعد جلسة أخرى مع كارمن، تنتظر عودة ميا لتعانقها، وتخبرها عن يومها في المدرسة قبل رحيلها مع والدها. روتينٌ جديدٌ لا تطيقه، بدأ من الأسبوع الذي انهارت فيه، وعقدت جلستها الأولى مع طبيبتها.

فتحت ميا الباب، وكان مارسيل يقف خلفها. عانقت والدتها، ثُمّ قالت: «كان هناك اختبار اليوم ونجحت فيه. كتبت كل الأرقام والحروف بشكل صحيح، وبخط جميل، وأثنت عليَّ المعلمة!».

ابتسمت روبي ابتسامة خفيفة: «هذا رائع. أنت طالبة مثالية يا عزيزتي».

هزت ميا كتفيها: «هذا كل شيء تقريبًا.. سأذهب الآن».

شاهدتها تسرع إلى والدها، ولم تستطع فهم نظراته الساكنة نحوها، وماذا يخفي خلفها، ثُمّ أغلقت ميا الباب ونظرت إليه باستغراب:

«ما بك يا بابا؟ تبدو شارد الذهن».

«تذكرت أن لدي عملًا مهمًّا».

أصابها الإحباط على الفور: «من المفترض أن نشاهد فيلم الحورية الصغيرة اليوم».

«سأعوضك.. سأحضر لك الشوكولا التي تحبينها الليلة، لذا ابقي مع

والدتك إلى ذلك الوقت. اتفقنا؟».

فكرت بالأمر قليلًا، ثُمّ وافقت وودعته بقبلة سريعة، قبل العودة إلى والدتها مجددًا.

«لقد تغيرت خطتي لليوم يا ماما، وسأبقى معك. سنحل الواجبات، ثُمّ نشاهد فيلم الحورية الصغيرة».

تفاجأت روبي لثانية، ثُمّ أشرق وجهها قليلًا رغم التعب، ورحبت بابنتها: «بالطبع.. سنفعل أي شيء تريدينه! سأبدل ثيابي وأعود إليك».

أومأت روبي وهي تحاول السيطرة على مشاعرها المضطربة، ثُمّ استرقت نظرة أخيرة إلى مارسيل الذي أغلق الباب، وكادت تجزم أنها رأت ابتسامة صغيرة على شفتيه.

«أمي..؟ ألن يتناول أبي الطعام معنا اليوم أيضًا؟».

تنهدت لورينا بضيق وهي تضع الملعقة في الطبق، ثُمّ مسحت يديها ونهضت بعصبية: «لا أعلم ما خطب والدك هذه الأيام، بالكاد يعود إلى المنزل! سأذهب لأتفقده، ولنأمل أنه موجود لأني سأوبخه بشدة».

خرجت بخطوات سريعة واتجهت إلى شقة أندرياس.

أخرجت مفتاحها وفتحت الباب، ثُمّ دخلت لتراه يقف عند الموقد، ويقلب شيئًا في المقلاة.

زفرت بارتياح، ثُمّ أسرعت بتوبيخه: «أين كنت؟ تعود ونحن نيام، وتذهب قبل أن نستيقظ! ما خطبك؟». أشارت إلى المقلاة: «ولماذا تطبخ؟ لقد أعددت الغداء!».



ضحك أندرياس، فهمت بضربه، لكنّها توقفت عندما خرجت إيزابيل من غرفته وهي ترتدي ثوبًا لطيفًا، وتُسدل شعرها الأسود.

وقفت لورينا تتأملها لحظة طويلة، حتّى تقدم أندرياس ولف ذراعه حول كتفي إيزابيل.

«هذا سبب غيابي هذه الأيام». أشار بينهما: «لم تتقابلا من قبل. هذه لورينا بيرو، أم ابني. لورينا، هذه إيزابيل»، أضاف بابتسامة جانبية: «خطيبتي».

رمقته إيزابيل بنظرة منزعجة، فضحك: «حسنًا، حسنًا، رفيقتي مؤقتًا».

همست إيزابيل ببرود خفيف: «مؤقتًا؟».

«لقد تحدثت إلى الدون يا حبي، لذا لا نملك وقتًا طويلًا».

هزت رأسها باستسلام، ثُمّ نظرت إلى لورينا، وقالت بابتسامة مهذبة: «سررت بلقائك».

علقت الكلمات في حلق لورينا حتّى شعرت بها كالشوك.

ارتعشت أصابعها قليلًا، فضمت ذراعيها إلى صدرها محاولة السيطرة على نفسها، ورسمت ابتسامة مزيفة.

«سررت بلقائك أخيرًا». ثُمّ نظرت إلى أندرياس مباشرة: «هل يمكنني التحدث إليك على انفراد لدقيقة؟ سأنتظرك في السطح».

سبقته لورينا وغادرت بسرعة، استغلت الثواني القليلة لتهدئة قلبها، ثُمّ فتح أندرياس باب السطح، ورفع يديه باستسلام حالما رمقته بنظرة غاضبة.



«كان عليَّ إخبارك عن سبب غيابي المتكرر منذ البداية... أحضرتها هنا ليلة البارحة، وكنت أنوي تقديمها إليكما، لكني انشغلت، وهناك الكثير من الأمور تجول في رأسي».

ردت بغضب مكبوت: «كنت مشغولًا، ولكنك وجدت وقتًا لتتحدث مع الدون فيرناندو عن الزواج بها!». اشتدت نبرتها: «ما خطبك؟ متى عدت إليها؟ ولماذا الزواج بهذه السرعة؟ ما الذي يحدث؟».

حرك يديه محاولًا تهدئتها: «آي، آي.. اهدئي يا لوري. أعلم أن الأمر مفاجئ».

قاطعته بازدراء: «ليس مفاجئًا. أنت مع امرأة جديدة كل يوم، ولكنك لا تتزوج إحداهن بهذه السرعة، وهي بالتحديد التي...» أضافت بنبرة أهدأ: «المرأة التي كسرت قلبك».

تنهد تنهيدة طويلة، ثُمّ مرر يديه في شعره، ونظر نحو الأفق قليلًا، ثُمّ إلى لورينا مجددًا وقال: «بيننا تاريخ طويل، ولا أريد أن أثقل رأسك بالتفاصيل، ولكني أحبها، وهي تحبني أيضًا».

وضع يده على صدره وقال بابتسامة خفيفة: «هل تعرفين ذلك الشعور عندما يخبرك قلبك أن هذا هو الصواب؟ هذا ما شعرت به.. الاقتراب من الموت غيَّر نظرتي إلى الكثير من الأمور، وجعلني أتيقن أن الحياة قصيرة جدًا يا لورينا، ولن أضيع يومًا آخر».

حدقت به مليًّا، ثُمّ سألت بصوت خافت: «هل أنت سعيد؟».

«ما زلت في البداية.. ولكني سأصل إلى سعادتي حتمًا».

قلبت ناظريها: «آه يا للشفقة، بقيت تقول شعرًا أيضًا؟ اغرب عن وجهي!».



ضحك أندرياس، ثُمّ عانقها وقبّل رأسها، فأطالت العناق وكأنها المرّة الأخيرة التي ستعانقه فيها.

«أتمنى أن تجعلك سعيدًا وتعاملك جيدًا...» ثُمّ قالت بسخرية مصطنعة تخفي خلفها اضطرابها: «وأتمنى ألا تتشاجرا مجددًا وتعود لإزعاجي. أحتاج إجازة منك ومن ابنك».

«يمكنني ترتيب إجازة مناسبة لك».

ابتعدت عنه على مضض، ثُمّ قالت بتعالٍ زائف: «هيا ارحل من هنا».

هزّ رأسه واتجه نحو الباب. ظلت تراقبه وتتمنى ألا يتذكر محادثتهما الأخيرة، تتمنى أن ينساها ولا يسألها؛ حتّى تجد عذرًا لتغضب منه، وتدفن كل مشاعرها مجددًا.. لكن أندرياس لم ولن يتغير، سيظل الرجل الذي يقدم عائلته أمام كل شيء.

توقف فجأة، ثُمّ التفت إليها: «كدت أنسى، ما الشيء المهم الذي أردت الحديث عنه؟».

ردت بانزعاج: «وكيف لي أن أتذكره الآن؟ فلتنس الأمر فقط!».

رفع حاجبيه باستغراب: «آي، آي، يبدو أنني سأرتب لإجازتك على الفور».

«احجز لي في أفخم منتجع في العالم من فضلك».

انحنى بابتسامة: «أمرك».

وما إن أغلق باب السطح ورحل، حتّى سقط قناع لورينا، وانهمرت دموعها الصغيرة رغمًا عنها، فرفعت رأسها إلى السَّماء ومسحتها وهي تسخر من نفسها.



«سحقًا، يا لي من غبية».

صفعت وجنتيها بخفة عدة مرات، محاولة استعادة توازنها ولكن دون جدوى؛ كان هناك شعور خانق تعرفه جيدًا وسيدمرها إن بقي حبيسًا داخلها.

لم تكن قادرة على العودة إلى شقتها، ولا على مواجهة ابنها وهي بهذه الحالة، لذا تحركت قدماها تلقائيًا نحو شقة روبي.

فتحت ميا الباب وابتسمت: «عمة لورينا؟ ما الأمر؟ هل ترغبين في مشاهدة فيلم الحورية معنا؟ لقد بدأنا للتو».

ارتبكت لورينا ونظرت إلى روبي التي عقدت حاجبيها بشكل طفيف تشعر بوجود خطب ما.

دخلت لورينا وأغلقت الباب خلفها، ثُمّ قالت بسرعة وكأنها تخشى أن تتراجع إن حبست كلماتها لمدة أطول: «أعتذر على المقاطعة وقدومي المفاجئ. أعلم أنك لا ترحبين بالزيارات بعد، ولكن يجب أن أخبرك بشيء، فأنت صديقتي، والوحيدة التي تعلم بما يجري، وإن لم أخرج ما في قلبي فلن أستطيع المضي قدمًا، وأرفض ذلك!».

نظرت إلى ميا المستغربة، ثُمّ خففت نبرتها قليلًا وقالت بلطف: «هل يمكنك الذهاب إلى غرفتك لدقيقة؟».

التفتت ميا إلى والدتها التي أومأت فقط، فانسحبت إلى غرفتها كما طلبت.

أطلقت لورينا نفسًا عميقًا، ثُمّ قالت: «تعرفين كم أحب أندرياس».

ابتسمت ابتسامة باهتة: «أحبه إلى درجة أني منعت نفسي عنه، ودفعته بعيدًا طوال هذه السنوات كي لا يحزن في المستقبل، ولكني غيرت



رأيي عندما أوشكت على خسارته. تشجعت أخيرًا وأخبرته أني أريد محادثته في أمر مهم.. ولكني تأخرت!».

لمعت عيناها بدموع أبت أن تستسلم لها: «إيزابيل في الشقة المجاورة. لقد عاد إليها، وتحدث مع الدون بشأن الزواج منها. لم نخض في التفاصيل، لكنه قال إن قلبه أخبره أن هذا هو الصواب، وأن الاقتراب من الموت جعله يدرك أن الحياة قصيرة، ولن يضيع يومًا آخر». ثُمّ همست باضطراب: «فهمت كلماته الخفية.. لن ينتظرني بعد الآن».

مسحت الدمعة التي فرت من عينها بسرعة، ثُمّ قالت بنبرة حاولت أن تكون ثابتة: «كان أمام عيني لوقت طويل، وتركته ينساب من بين يدي. حظيت بالعديد من الفرص، ولكني لم أنتهزها».

انخفض كتفاها باستسلام واضح: «أستحق ما يحدث لي، وهذه نهاية القصة. سأنسى وأمضي قدمًا أيضًا دون العودة إلى الوراء. هذا الأفضل لكلينا».

تنهدت تنهيدة عميقة، ثُمّ اعتدلت في وقفتها ومسحت على وجهها سريعًا: «على كل حال، أعتذر مجددًا على إزعاجك.. وآمل أن تتحسني قريبًا».

خرجت ميا من غرفتها بعد مغادرة لورينا، ثُمّ نظرت إلى والدتها وسألت: «ما الأمر يا ماما؟ لماذا كانت العمة لورينا...».

عادت روبي من شرود ذهنها ونظرت إلى ابنتها: «لا شيء يا عزيزتي.. أمور بالغين لا أكثر».





حضرت إيزابيل الطاولة في هدوء تام، ثُمّ وقفت تراقب أندرياس الذي ما يزال يقلب الصلصة الحمراء في المقلاة وهو شارد الذهن، يفكر بكلام لورينا، والعناق الذي طال أكثر مما ينبغي.

خشيت إيزابيل مقاطعته، لكن رائحة الصلصة تفشت أكثر وأوشكت على الاحتراق، لذا تحتم عليها التدخل.

لمست ذراعه برفق وقالت: «أحرقت الصلصة».

انتفض أندرياس قليلًا، وأطفأ الموقد على الفور: «سحقًا، لقد سرحت».

وضع المقلاة جانبًا وأنقذ ما تبقى من الصلصة، فاقتربت منه أكثر، حتّى استدار نحوها بالكامل.

«ماذا؟».

«سأستمع إلى ما يدور في ذهنك إن أردت.. مهما كان».

حركت كلماتها شيئًا داخله، فمرر نظره على وجهها، وكأنه يراها لأول مرة؛ كانت مستعدة لسماعه حتّى لو عنى ذلك التحدث عن حبه الأول.

أراد فعل ذلك، ولكنه تذكر كلماته قبل قليل: الحياة قصيرة ولن يضيع يومًا آخر ولا لحظة أخرى في الوقوف في محطة واحدة، منتظرًا حافلة لن تأتي أبدًا، وتستحق إيزابيل اهتمامه الكامل.

«أدرك أن لورينا أم ابنك، ولا أريد أن...».

قاطعها وهو يمد يده ليلمس خصلات شعرها الحريري ويمررها بين أصابعه: «لا أريد الحديث عنها، بل أريد الحديث عنك.. ستبدين فاتنة في ثوب الزفاف».



قلبت ناظريها، لكن ابتسامة خفيفة تسللت إلى شفتيها رغمًا عنها.

«وستبدو يدك أجمل بخاتم زفافنا. سأشتري أروع خاتم قد ترينه في حياتك!».

«لدي الكثير من المجوهرات الرائعة يا أندرياس، لذا سيكون ذلك صعبًا».

ابتسم بغرور: «هذا الخاتم سيكون مختلفًا، لأن اسمي سيُحفر عليه!».

هزت رأسها باستسلام: «في حياتي كلها لم أر رجلًا يعشق اسمه لهذه الدرجة».

ضحك ضحكة قصيرة: «حسنًا، حسنًا، لا داعي للغيرة.. سأحبك أكثر من اسمي».

«لا أظنك تستطيع».



21: نكرة

تعالت أصوات الرجال وامتزجت بطرق المطارق، بينما كان العمال يهيئون الفناء لمناسبة مميزة. وقفت روبي تستمع إلى الضوضاء لثوانٍ، ثُمّ سكبت القهوة وجلست مقابل كارمن.

«تعدين قهوة لذيذة».

هزت كتفها فقط، كأن المجاملة لم تعد تعني لها شيئًا، وظلت تراقب البخار يتصاعد من كوب لم تمسه بعد..

«كيف تشعرين اليوم؟».

ردت دون أن ترفع عينيها: «لا أعرف..».

«هل قمت بتطبيق التمارين؟».

«أجل».

تأملتها كارمن لحظة: «حسنًا.. هل أنت مستعدة للتحدث عن الغرق؟».

اندفع الخوف داخل صدرها بسرعة مرعبة، لكنّها شدّت على يديها محاولة استعادة أنفاسها كما علمتها؛ شهيق، ثُمّ زفير عميق.

ثبتت بصرها على الكوب أمامها، كأنه يشدها كي لا تتيه بعيدًا، ثُمّ قالت: «لا يوجد ما يقال.. غرقت، وابتلعني الظلام. تحديدًا.. لم أرد أن أستيقظ.. لقد مت في تلك السفينة».



انخفض صوتها وارتجف: «أردت أن يبقى الأمر كذلك، أردت أن أنهي هذا الجسد».

سألت كارمن بهدوء: «وما الذي منعك من إنهاء حياتك بعد نجاتك من الغيبوبة؟».

حاولت أن تسيطر على نفسها، وأن ترتب كلماتها، لكنّها انفلتت دفعة واحدة: «لأن ميا قالت إنها تحتاجني، وتريدني أن أتحسن، وأنا لا أستطيع ذلك!».

رفعت يدها إلى صدرها، وترقرقت عيناها بالدموع: «لا بأس أن أكون ميتة.. لا بأس أن أعيش في هذا الجحيم وأتحمل المزيد من الألم، طالما أنها تحتاجني».

استشعرت كارمن بأنّ هناك المزيد، فقالت: «لماذا تبدين مستاءة بقرارك إذًا؟».

اضطربت أنفاسها، فحاولت تطبيق التمرين مجددًا، واستعادة توازنها، لكنّها فشلت، وارتفع صوتها المرتجف قليلًا: «لأنها تتركني وتركض لأحضان والدها بعد كل شيء فعلته من أجلها! بالكاد تمضي وقتًا معي، لا تنفك تتحدث عنه، تقارن بيننا، وتقحمه في كل شيء يخصنا.. إنها تحبه أكثر مني».

هزت رأسها بانكسار، ثُمّ قالت: «أشعر كما لو أني دمية قديمة على الرف، لا تستطيع أن ترميها، ولكنّها مع ذلك لا ترغب باللعب بها.. وكل ما أفكر فيه هو ما الذي سأفعله عندما تقرر أنها لم تعد بحاجة لي؟».

تركت كارمن الصمت يمتد قليلًا، ثُمّ سألت: «لماذا تظنين أن ميا تفضله عليك؟ إلى جانب حبها له».

«لأنه البطل الذي ظهر وأنقذ الجميع.. وأنا مجرد فاشلة ضعيفة، لم أفعل شيئًا من أجلها، بل أنا السبب في ما حدث لها!».

مسحت على ذراعها برجفة: «لو كنت حذرة، لو لم أفتح بابي لروبن، لو كنت بارعة وأحمل مسدسًا، لما خطفتنا تلك السيارة.. ولكني لم أكن».

«أنت تحملين نفسك أكثر مما تحتملين».

أشاحت روبي ببصرها إلى النافذة، وانتظرتها كارمن حتّى بدا لها أنها هدأت، فوضعت قلمها جانبًا، ومالت إلى الأمام، ثُمّ قالت: «أنت لست السبب في ما حدث.. تقولين إنهم أعادوك للحياة، ولكن أنتِ من عاد. أنتِ من تحملت، وبطريقتك الخاصة».

نظرت إليها أخيرًا، فأضافت: «ما مررت به كافٍ لكسر أي شخص، ولكن ها أنتِ ذي هنا».

مسحت روبي دموعها، وتابعت الإنصات لكارمن.

«وبالنسبة لميا، فهي طفلة افتقدت والدها، فمن الطبيعي أن تنجذب إليه، وهذا لا يعني أنها استبدلتك. هي تحاول أن تفهم عالمها الجديد، فأمهليها وقتها».

هزت روبي رأسها باضطراب: «وماذا أفعل إلى ذلك الحين؟».

«سأخبرك..».

تابعت كارمن الحديث لبضع دقائق، ثُمّ استأنفت أسئلتها لروبي التي دفعت كلماتها للخروج دون ترتيب واضح؛ تبدأ فكرة، ثُمّ تقفز إلى أخرى، ثُمّ تعود فجأة إلى الأولى وكأن عقلها يحاول اللحاق بكل شيء دفعة واحدة، وعندما تدرك ما تفعله، فهي تتوقف فجأة وتنكمش على نفسها.



«أنا آسفة».

ابتسمت كارمن: «لا تقلقي، قلت لك إنني سأساعدك في ترتيب أفكارك المبعثرة».

«قلت هذا عدة مرات، ولكن كلانا يعلم أنك سوف تسأمين في النهاية.. فالجميع يسأم عندما يتعلق الأمر بي».

دوَّنت كارمن ملاحظة سريعة، ثُمّ قالت بنبرة ممازحة: «لن أسأم ما داموا يدفعون لي»، ثُمّ ابتسمت لتطمئنها: «لن أتوقف عن مساعدتك».

لم تثق روبي بتلك الكلمات أبدًا، ثُمّ سألت كارمن السؤال الذي ظل معلقًا بينهما منذ أن أخبرتها عما فعله روبن:

«سألتك من قبل لماذا اندفعت وحاولت إنقاذ روبن، ولم تكوني مستعدة للإجابة.. فهل تستطيعين ذلك الآن؟».

أطالت روبي التحديق في الفراغ أمامها، كأنها تحاول استرجاع تلك اللحظة: «لقد كانت محاولة إنقاذ وانتحار في الوقت ذاته... لم أصدقه عندما قال إن ميا حية. كان كل شيء قد انتهى بالنسبة لي».

«ولكن..؟».

«نعته الصبي الذي حاول قتله بالنكرة، وتلفظ بكلمات قاسية اعتدت سماعها في حياتي، وأثار ذلك غضبي.. لذا اندفعت نحوه، وحدث ما حدث».

دوَّنت كارمن ملاحظتها، ثُمّ سألت: «هل كنت تغضبين عندما تسمعين تلك الكلمات في الماضي؟ هل هاجمت من أساء إليك؟».

«قاومت البعض وتجاهلت آخرين».

«هل ترين أن ما حدث كان نتيجة تراكم كل تلك السنوات؟ لم تعودي قادرة على التحمل، لذا اندفعت في هجوم أخير، تنتقمين فيه للماضي، وتنهين الحاضر؟».

حدقت بها روبي طويلًا؛ تتزاحم الأفكار في رأسها مجددًا، حتّى شعرت أنها تتيه بينها، فخمدت الكلمات في حلقها، ولم تجب، حتّى انتهى وقت الجلسة.



خلع مارسيل السماعة اللاسلكية، ثُمّ التفت إلى ميا الجالسة على الأرض، تحاول حل واجبها المدرسي.. رفعت الكتاب نحوه بفخر طفولي، وأرته الإجابة التي كتبتها، فتنهد تنهيدة قصيرة.

«أعيديها مجددًا.. عيِّني نقطة على الليمونة أولًا، ثُمّ احسبي ما حولها. لا تعودي إلى النقطة نفسها مرتين».

أطلقت تنهيدة طويلة، وألقت رأسها إلى الخلف: «لقد سئمت!». ثُمّ قلبت الصفحة بعصبية: «وما زالت هناك صفحة كاملة!».

«لن آخذك إلى الميدان إذًا».

«حسنًا، سأعد مجددًا.. وأنت غير حافظة ميليسا، لا بد أنها منزعجة».

هزّ رأسه، وامتثل لأمرها دون تعليق، ثُمّ انتظرها حتّى انتهت واصطحبها إلى ميدان المنطقة المزدحم، حيث الأضواء الساطعة، وضحكات الأطفال، وروائح الطعام والحلويات التي تملأ الأرجاء.

توقفت ميا أمام أحد الباعة، وبدأت تشير بحماس إلى أنواع مختلفة من الحلوى، ليضعها في الأكياس الورقية بابتسامة، ثُمّ نظرت إلى والدها وقالت: «إنّ ماما تحب حلوى المانجو المضغية، فهلّا اشتريتها لها؟».



نظر إلى الحلوى التي أشارت إليها، ثُمّ قال ببساطة: «سأشتريها، وقدميها لها لاحقًا».

أومأت ميا بابتسامة واسعة، لكن الابتسامة تلاشت فجأة، تجمدت مكانها للحظة قصيرة، كأن شيئًا ما جذب نظرها في الزحام، ثُمّ اقتربت من والدها أكثر وتمسكت بيده، فنظر إليها باستغراب:

«ما الأمر؟».

«ظننت أني رأيت...» هزّت رأسها بسرعة: «لا شيء».

شد مارسيل على يدها قليلًا ليطمئنها، لكن عينيه تحركتا بهدوء في المكان، محدِّدًا مواقع الحراس الذين وضعهم حولها، وكذلك بعض رجال الدون فيرناندو المنتشرين بين الحشود.

لم ير ما قد يثير القلق، فاستأنف تجواله مع ميا التي اشترت المزيد والمزيد من الحلوى، إلى درجة أزعجته.

«هذه آخر حلوى أشتريها».

عبست ببراءة: «ولكني لم أجد المصاصة بعد يا بابا».

«لديك الكثير من الحلوى والشوكولا، ولا تحتاجينها».

وقبل أن تتمكن من الرد، سمعت صوتًا مألوفًا يناديها، فالتفتت لترى أندريه يركض نحوهما، وفي يده المصاصة التي كانت تبحث عنها.

توقف أمامهما أخيرًا وهو يلهث، ثُمّ رفعها بفخر: «وجدتها! اشتريت آخر خمس مصاصات من أجلك».

قفزت ميا نحوه فورًا وعانقته بسعادة: «أنت بطلي!».

بادلها العناق ضاحكًا، لكن عينيه التقطتا في تلك اللحظة نظرة مارسيل الباردة، فاقشعر بدنه وتنحنح مبتعدًا عنها.

أومأ بوتر: «مرحبًا.. يا سيد».

لم تلاحظ ميا شيئًا؛ كانت منشغلة بالمصاصات، ثُمّ مدت واحدة نحوه: «هذه جائزة لك».

أخذها بامتنان، ثُمّ شهق عندما لمح من خلفها، وقال بسرعة: «مهرج! لا تلتفتي!».

تجمدت ميا مكانها لثانية واحدة فقط قبل أن تغلق عينيها وترمي بجسدها نحو والدها، تتشبث به بقوة مفاجئة.

التفت إلى الخلف باحثًا عن مصدر التهديد، فرأى مهرجًا يقف قرب عربة حلوى، يلهو مع الأطفال.

«هل تخافين من المهرجين؟».

هزت رأسها دون أن تبتعد، وأضاف أندريه: «إنهم أكبر مخاوفها بسبب سيسيل الغبية!».

نقل نظراته إلى ابنته مجددًا: «لماذا لم تخبريني؟».

هزت كتفها فقط، ثُمّ تحدث أندريه مجددًا: «قلة فقط من يعرفون بذلك».

رمقه بنظرة باردة: «دعها تجيبني من فضلك».

تجمد أندريه مكانه وتمتم بتوتر: «آسف».

ظلت ميا متشبثة بوالدها حتّى رحل المهرج بعيدًا. نظر إلى وجهها الحزين، ثُمّ قال: «سنناقش الأمر لاحقًا، ولا تقلقي.. سأكون حذرًا وأعلمك



لو اقترب منا مهرج آخر».

«شكرًا يا بابا».

تراجع خطوة إلى الخلف عندما رن هاتفه، بينما انشغلت ميا بعرض الحلوى التي اشترتها على أندريه، وأجاب اتصال أحد الحراس الذين وضعهم حول روبي بقلق دفين.

أبقى نبرته هادئة ومتزنة: «ما الأمر؟».

«لقد غادرت الشقة مع خوليو غارسيا منذ نصف ساعة يا سيدي، وتبعتهم إلى أحد المستودعات في طرف المدينة».

اتسعت عينا مارسيل قليلًا، فروبي لم تغادر المجمع منذ خروجها من المشفى، وهذه المرّة الأولى، ولن تفعل ذلك إلا لسبب قوي.

«أرسل لي الموقع».

22: الهدف و البارون

يُعْدّ الانتظار من أصعب الأمور في الحياة، أحيانًا يكون ثقيلًا، وأحيانًا يتحوّل إلى عذاب صامت، كأمٍّ تنتظر عودة أبنائها من المدرسة، أو أبٍ ينتظر ولادة طفله، أو انتظار الإشارة الخضراء لأولئك المتعجّلين، أو انتظار الأمتعة بعد رحلة طويلة.. وإلى آخره.

لكن معظم هذا الانتظار له نهاية معروفة، ومتأكدون من حدوثها بنسبة كبيرة، أمّا الدرجة الأصعب من الانتظار، فهي انتظار المجهول؛ فهو لا يحمل وعدًا ولا موعدًا، لسنا متأكدين من حدوثه، ومع ذلك ننتظر!

انتظار كهذا لا يتطلب صبرًا وحسب، بل قدرة عالية على الثبات حتّى لا تنكسر القلوب، وتخيب الآمال، ونقع في دوّامة القلق والجنون..

وقف خوليو أمام باب المستودع الصغير، ثُمّ التفت إلى روبي خلفه، ملامحها جامدة كأنها منحوتة من حجر.

سأل بتردد: «هل أنت واثقة؟»

حملقت به فقط، فأومأ بفهم وفتح الباب. ارتفع صرير المعدن في أرجاء المستودع المضاءة بمصباح أصفر صغير يتدلى من السقف، يلقي بظلاله على السجين.

كـــــان روبن يجلس على كرسي معدني في منتصف الغرفة، ذراعاه



مطويتان إلى صدره داخل غطاء مبطن يُشدّ من الخلف، عيناه معصوبتان بقطعة قماش سوداء، وسلاسل صدئة تقيد قدميه إلى قاعدة الكرسي، رأسه مائل إلى اليسار قليلًا، وصدره يعلو ويهبط بإيقاع منتظم.. لقد كان نائمًا رغم الوضعية القاسية!

تأملته لبرهة طويلة، ثُمّ نظرت إلى خوليو، فهزّ كتفه وقال: «إنها الأوامر».

نقلت نظراتها إلى روبن مجددًا، ثُمّ قالت ببرود: «انزع الغطاء عن عينيه».

تقدم خوليو نحوه، فانتفض جسد روبن فجأة وحرك رأسه بلا وعي، ثُمّ أغمض عينيه بقوة عندما نُزعت العصابة وآذاه الضوء.

بدا شاحب الوجه أكثر من آخر مرّة رأته فيها، فقد شعره الأسود بريقه، وباتت عظام وجنتيه بارزة بوضوح؛ لم يكن يأكل أو يشرب منذ وقت ليس بقصير.

حاول الكلام بصوت مبحوح بالكاد خرج من حلقه: «لا أرغب في الطعام».

رد خوليو ببرود: «لم يحن وقت الطعام بعد»، ثُمّ أضاف: «هناك من يريد رؤيتك».

رفع رأسه المثقل، وما إن رآها حتّى اتسعت عيناه؛ خُيّل إليه أنه يحلم.. كانت حية، ولكنّها لم تبدُ كروبي التي عرفها قبل السفينة، كأن شيئًا انكسر داخلها ولم يعد كما كان.

امتلأت عيناه بالدموع، وارتعشت شفتاه، لكنه لم يقل شيئًا، بل خفض رأسه، وكأن النظر إليها يؤلمه.

قالت بنبرة باردة: «اتركنا وحدنا».

غادر خوليو وأغلق الباب خلفه، ثُمّ خطت روبي بضع خطوات نحو روبن الذي انكمش جسده مع كل خطوة.

نظرت إليه مليًا، ثُمّ قالت: «ارفع رأسك».

لم يفعل روبن ذلك، بل طأطأ رأسه أكثر.

«ارفع رأسك وانظر إلي».

رد بصوت مضطرب: «لا».

«لم لا؟»

«لا.. أستحق.. النظر إليكِ».

شدت روبي قبضتها حتّى ابيضّت مفاصلها، ثُمّ قالت بنبرة صارمة: «ارفع رأسك الآن!»

ارتجف جسده، ثُمّ رفع رأسه، ونظر إليها بنظرات ملؤها الندم والألم، لكن روبي الغاضبة لم تتأثر.

«كيف مَكَّنك قلبك من فعل كل ذلك؟»

طأطأ رأسه مجيبًا: «أنا..»

قاطعته بانفعال: «انظر إليّ عندما تتحدث. أريد أن أرى كيف ستكذب في وجهي مجددًا!»

امتثل روبن لذلك، ثُمّ قال بصوت خافت: «كنت أنفذ الأوامر فقط.. أنا.. آسف».

«ولماذا حاولت إنقاذي؟ لماذا انقلبت ضدهم؟»

هربت دموع صغيرة من عينيه، ثُمّ اعترف: «كانوا سيقتلونني.. قالوا إني تعاطفت معكما. أرادني كينغ أن أقتلك، ولكني لم أستطع فعلها، فحاولت إنقاذك بأي ثمن!»

طأطأ رأسه مجددًا وهمس: «أنا آسف حقًا.. كل ما حدث لكما بسببي».

ارتجف صوت روبي رغمًا عنها عندما صاحت: «وماذا أفعل بأسفك؟ لن يمحو الماضي!»

هز رأسه وصاح بصوت مبحوح: «عاقبيني إذًا. اضربيني. افعلي ما تريدين. انتقمي مني!»

ثُمّ انحنى قليلًا إلى الأمام رغم قيوده: «أستحق ذلك، ولن أعترض، ولن أقاوم، لذا افعليها!»

تمالكت روبي أعصابها وحاولت الهدوء، لكن قلبها كان يغلي، ثُمّ سألته: «أكان كل شيء كذبًا؟»

بكى روبن ولم يجبها على الفور، فصرخت: «تكلم!»

أجاب بصوت متحشرج: «لم يكن كل شيء كذبًا، لكني لا أستحق أن أقول إنّي كنت سعيدًا معكما. أنت طيبة القلب لدرجة أني تمنيت لو كنت روبن حقًا».

أغلق عينيه: «لكني لم أعرف كيف أعيش تلك المشاعر، لذا حاولت طردها».

ثُمّ نظر إليها: «لا أملك الحق لأطلب الصفح منك، لكن ما أزال أرغب بالاعتذار.. أريدك أن تعلمي أني آسف، وأريد أن أعلم شيئًا واحدًا.. لماذا أنقذتني؟ لماذا ضحيت بنفسك من أجل شخص مثلي؟»

أشاحت روبي بوجهها عنه للحظة، ثُمّ قالت بصوت خالٍ من المشاعر: «هناك أسباب كثيرة، منها أني أحببتك. كنت مثل ميا في نظري.. لكنك طعنتني في ظهري!»

«انتقمي مني.. وإن لم ترغبي في تلطيخ يديك بدمائي القذرة، فدعي أولئك الرجال يقتلونني».

لمست عنقها دون وعي، ثُمّ همست: «وهل هذا ما تريده؟»

«هذا ما أستحقه».

«لا أتحدث عما تستحقه، بل ما تريده».

«لا يحق لي أن أبوح بما أريد...»

قالت بصرامة: «أجب!»

ذرف المزيد من الدموع، ثُمّ قال: «سألتني مرّة ماذا أريد أن أصبح عندما أكبر.. فكرت كثيرًا وأنا.. أريد أن أكون روبن».

عمّ الصمت إلا من صوت شهقاته الباكية. كان يحاول تحريك ذراعيه ليمسح دموعه، لكن قيوده لم تسمح له.

وفجأة، شعرت روبي أن هذه حقيقة روبن؛ مقيد، وحيد، ومهمل بلا أحد ليمسح دموعه، ولا ليعتني به، أو يؤنس وحدته في هذا السجن.

«لا أستطيع أن أسامحك، وربَّما لن أستطيع أبدًا.. ولكنك لن تبقى هنا».

نظر إليها دون فهم، حتّى اقتربت وبدأت تحرره من قيوده.

«ما الذي تفعلينه؟»



لم تظهر ارتباكها، ولم تتوقف رغم إدراكها لخطورة ما تفعله، وقالت ببرود: «ستأتي معي حتّى أجد الطريقة المثلى لمعاقبتك».

ازداد ارتباك روبن؛ لم يفهم، ولم يعرف ماذا يقول، لكنه استسلم، وانتظرها حتّى فكّت قيوده. لم يستطع الحراك في البداية؛ كل عضلة في جسده متشنجة وضعيفة.

أمهلته بضع دقائق حتّى تمكن من الوقوف على قدميه، ثُمّ أمرته أن يتبعها خارجًا.

ما إن فتحت الباب، حتّى اتجهت إليها أعين آل غارسيا، ثُمّ ارتفعت أسلحتهم غريزيًا فور رؤيتهم روبن بلا قيود.

تقدم خوليو وسأل بنبرة حادة: «ما الذي تفعلينه؟»

وقفت روبي في مواجهتهم، ثُمّ قالت ببساطة: «سيأتي معي».

قطب خوليو حاجبيه: «لا يمكنك فعل ذلك! أنت تخالفين الأوامر».

«لا أهتم».

التفتوا عندما ركن مارسيل سيارته وترجل منها مسرعًا إليهم. وقعت عيناه على روبن، ثُمّ اقترب من روبي، وحال بينها وبين الرجال خلفه.

«ما الذي يجري؟»

امتعضت روبي فورًا، وكأن رؤيته تستفزها، ثُمّ أجابت: «ليس من شأنك».

تقدم خوليو الغاضب: «لقد حررت الصبي وتريد أخذه معها، ولكننا لن نسمح بذلك!»

ردت بعصبية: «سيأتي معي وأنا من سيعاقبه!»

حدق بها مارسيل مليًا دون قول شيء. لم تحتمل نظراته، فخطت بضع خطوات نحو المخرج، لكن الرجال اعترضوا طريقها.

رمقتهم بحدة: «ابتعدوا عن طريقي».

«روبي..»

شدت على قبضتها ولم تلتفت عندما ناداها، فوقف أمامها مرّة أخرى وقال: «هذه ليست فكرة صائبة.. أعيديه إلى المستودع».

رفع روبن رأسه عندما أنزلت ميا نافذة السيارة ونظرت نحوهم بصدمة وقلق؛ لم تصدق أنه حي، وأن والدتها تحاول إخراجه.

اضطربت روبي لنظرات ابنتها، وانقبض قلبها بقوة، لكنّها أخفت ذلك بسرعة، وشدّت كتفيها في مواجهة مارسيل.

«أنا من سيعاقبه، لذا تنحَّ جانبًا».

حدقا ببعضهما لحظة طويلة، وبدا لها أنه يرغب في قول شيء، لكنه نقل عينيه إلى الرجال الغاضبين، وأخيرًا إلى خوليو، ثُمّ قال بهدوء حاسم: «سأقلهما».

انتفض الرجال وتجمهروا حولهم، ثُمّ تقدم أحدهم نحو روبن بسرعة وجره من ذراعه بقسوة. لم يقاوم، وكأنه تمثال، لكن روبي انفجرت، ودفعت الرجل حتّى ارتد إلى الوراء.

«ابتعدوا عنا!»

علا صوت مارسيل بصرامة: «هذا يكفي»، ثُمّ نظر إلى خوليو: «أبعد عائلتك. سنناقش الأمر لاحقًا».



رفع خوليو يده، فتجمد الجميع في أماكنهم، ثُمّ أشار مارسيل برأسه إلى روبي كي تتحرك، فقالت بجفاء: «لن أذهب معك».

اقترب منها أكثر، ثُمّ قال بصوت منخفض لا يسمعه الرجال: «هؤلاء الرجال غاضبون وقد يطلقون النار عليه»، أضاف بنظرات جادة: «لن أسمح أن يصيبك مكروه، خاصة أمام ابنتنا، لذا تعالي معي».

صَرَّت على أسنانها وأبت الحركة في البداية؛ شيء ما داخلها رغب بالمقاومة، بالعناد، وبدفعه بعيدًا، لكن ميا تراقبها، ولم ترد أن تفزعها إذا انفعلت.

همس: «أرجوك يا روبي».

أشاحت بنظرها عنه وعقدت ذراعيها فقط، ففهم وتقدمها إلى السيارة. حينها فتحت ميا الباب وخرجت لتتشبث به، ثُمّ تنقلت عيناها بينهم بارتباك.

«ماما؟ هل أنت بخير؟»

اضطربت روبي أكثر، فتحت فمها ولكن الكلمات تبخرت، فرسمت ابتسامة باهتة وقالت: «مرحبًا يا عزيزتي».

راقبها مارسيل بتركيز، ورأى كل ما تحاول إخفاءه، ثُمّ قالت ميا: «إنه مع الأشرار، فلماذا تقفين بجواره؟»

لم يرفع روبن رأسه، أما روبي فازدردت بصعوبة: «سأشرح لك لاحقًا. لا تخافي».

هزت ميا رأسها وتشبثت بوالدها أكثر: «سيؤذينا مجددًا يا ماما!»

ازداد تشتت روبي أكثر، وانعقد لسانها، فنظرت إلى مارسيل الذي وضع

يده على كتف ابنته برفق، وطمأنها: «أنا هنا.. ولن يصيبكما أذى. أعدك بذلك».

هدأت ميا قليلًا، ثُمّ فتح مارسيل الباب فدخلت أولًا، وعندما انحنت روبي، وضع يده على سقف السيارة، فلامس رأسها كفه للحظة عابرة.

تجمدت لثانية، وكأن اللمسة سحبتها إلى شيء لم ترغب في تذكره، ثُمّ تجاهلت الأمر تمامًا، وجلست في المقعد دون أن تنظر إليه.

أغلق الباب، ثُمّ نظر إلى روبن ببرود: «ستجلس في المقعد الأمامي. حركة واحدة مشبوهة، وستكون ميتًا».

لم يحتج روبن إلى رفع رأسه ليفهم؛ إذ كانت نبرة مارسيل كافية لجعله يشعر بالتهديد في عظامه. أومأ مرّة واحدة فقط، وصعد إلى السيارة..

عبرت بوابة المجمع بخطوات مضطربة وهي تسحب روبن خلفها، ثُمّ تجمدت عندما وصلت إلى الفناء؛ رفعت رأسها ونظرت إلى الجيران وسكان المبنى. كانوا يقفون خلف النوافذ، وعلى السلالم، وفي الممرات. أناس اعتادت أن تبتسم لهم، وتضحك معهم، لكنهم الآن ينظرون إليها بنظرات احتقار قاسية حتّى شعرت أنهم نسخ متعددة من جوناثان والش.

لمست عنقها بارتجاف، ولم تستطع التنفس.. تداخل الغضب مع الخوف، وتزاحما داخل صدرها حتّى شعرت أنها على وشك الانهيار!

نظرت إلى مارسيل مرّة واحدة فقط، فتقدم خطوة إلى الأمام وقال بصوت جهوري:

«تفرقوا!»

انسحب بعضهم على عجل، بينما أطال آخرون التحديق بروبي حتّى شاهدوها تسرع إلى شقتها، وكأنها تهرب...



جلست ميا إلى جانب أندريه في غرفة معيشته، يحدقان عبر النافذة نحو شقة والدتها. كان وجهها حزينًا على غير عادته، وذراعاها تضمان الدمية إلى صدرها كما لو كانت تحتمي بها.

«لا أعلم ما خطب ماما. لماذا قد تفعل ذلك؟»

رد أندريه بحقد: «لقد غسل دماغها عندما كانت في السفينة. إنه خطر ولا بد أن نتخلص منه!»

«لقد قلت ذلك لبابا، ولكنه أخبرني ألا أقلق، وأنه سيحميني ويحمي ماما من أي خطر».

هز أندريه رأسه: «لست مرتاحًا أبدًا. إنه حولنا، وسيفعل شيئًا ما مجددًا».

«ما الذي سنفعله؟ هل تملك خطة؟»

«لا. سأترك الأمر لأبي. لن يسمح ببقائه هنا. أنا واثق من ذلك!»

تنهدت ميا بحزن: «لماذا حياتنا هكذا؟ لماذا لا تصبح ماما بخير وتعود إلى بابا لنعيش معًا؟»

لمس أندريه يدها في محاولة خجولة للمواساة: «لا تحزني.. ستتحسن والدتك يومًا ما وستعيشين بسعادة حتّى لو لم يكونا معًا»، أضاف بابتسامة خفيفة: «مثلي».

نظرت إليه بفضول: «هل أنت سعيد رغم أن والديك منفصلان؟»

هزّ كتفه: «أحيانًا أشعر بالحزن، وأحيانًا لا.. لا ترغب أمي في الارتباط، وأبي يواعد إيزابيل ويبدو أنه سيتزوج بها».

تفاجأت ميا: «العم أندرياس سيتزوج من تلك الجميلة التي أريتني إياها؟»

«هذا ما سمعته»، ضيّق عينيه: «وليست جميلة إلى ذلك الحد. أمي أجمل منها!»

حاولت أن تشرح له ببراءة: «هي جميلة مثل دمية، أما العربية لورينا فجميلة مثل..» فكرت قليلًا، ثُمّ قالت: «إنسانة!»

انفجر أندريه ضاحكًا: «هذا تشبيه مضحك».

ردت ميا بنبرة ساخرة: «ولكنّها الحقيقة».

كان أندريه على وشك الرد، لكنه توقف فجأة عندما ارتفعت الأصوات في الفناء.

«لقد وصل أبي! سينهي كل شيء وسترين»، ثُمّ قال بصوت منخفض، يحمل حقدًا واضحًا: «آمل أن يطلق النار عليه ويحصل على انتقامنا».

حدقت به ميا قليلًا؛ شيء ما جعلها تستنكر كلماته، ثُمّ سألت: «هل سيقتل العم أندرياس طفلًا؟»

قطب أندريه حاجبيه: «روبن ليس طفلًا، بل مجرم يستحق الموت! لن نسامحه أبدًا، وإياك أن تنسي ذلك».

اكتفت بإيماءة خفيفة، لكنّها بدت مرتبكة، ثُمّ نقلت نظراتها إلى الفناء، وإلى أندرياس الذي وقف بين خوليو ولورينا، يستمع إلى ما يقولانه بتعابير ساكنة، وكأنه لم يتأثر بالفوضى المحيطة به.



لمس كتف لورينا وطمأنها، ثُمّ صعد الدرج بخطوات ثابتة، وقصد شقة روبي. حينها خرج مارسيل من شقته، ووقف في الممر عاقدًا ذراعيه، يتبادل النظرات معه دون قول شيء.

طرق الباب وانتظر، ثُمّ أتاه صوتها المترنفز: «ماذا تريد؟»

قال أندرياس بنبرة هادئة حملت تحذيرًا خفيًا: «افتحي الباب يا روبي».

«لن أفتح الباب، فارحل من هنا!»

«لدي المفتاح الاحتياطي، ولكني لن أستعمله لأنك ستفتحين الباب الآن».

شدت على أسنانها، ونظرت عبر عين الباب مرّة أخرى، ثُمّ فتحته وتراجعت إلى الخلف عاقدة ذراعيها.

رمقته بغيظ: «قل ما لديك بسرعة واخرج يا أندرياس».

بقي مارسيل عند العتبة، بينما خطا أندرياس خطوتين إلى الداخل، متجاهلًا وجود روبن تمامًا، وكأنه لا يستحق وقته، عيناه ثابتتان على روبي فقط.

«اسمعي.. أنا أعرف أن ما حدث لك في السفينة ليس شيئًا سهلًا، وأعي أنك تحتاجين إلى المساعدة، ولهذا السبب أحضرت كارمن». نظر إليها ببرود أشد: «ولكن يبدو أنها لم تحرز تقدمًا إن كانت هذه هي القرارات التي تتخذينها».

ابتلعت ريقها بصعوبة، ورفعت ذقنها بكبرياء هش: «هذه حياتي، وهذه قراراتي، فلا تتدخل! لا يحق لك أن...»

قاطعها بقسوة: «اخرسي!»

أجفلت روبي وارتجف جسدها رغمًا عنها، ثُمّ قال أندرياس وصوته يشتد تدريجيًا: «لست الوحيدة التي تعاني.. كلنا نعاني منذ ذلك الهجوم، ولكننا لا نتخذ قرارات أنانية تؤذي العائلة!»

انخفض صوته قليلًا: «لكنك لن تعرفي ما يعنيه ذلك، لأنك لا تنتمين إلينا يومًا كعائلتك، ولا تكترثين لأحد».

ردت بصوت مضطرب: «غير صحيح».

«بل صحيح. لو كنت تكترثين لأمرنا، لما حررت الصبي. كنت ستفكرين بمشاعرنا على الأقل، فقد خسرنا أرواحًا بسببه». أضاف بمرارة: «دفنتهم بنفسي يا روبي!»

تقدم خطوة أخرى نحوها، ورأت العتب ينضح في عينيه، ثُمّ تبعته كلمات أصابتها في الصميم..

«كنت أعدك أختًا لي، بذلت جهدي لأضمك إلينا، لأجعلك تشعرين أنك في موطنك، وبين عائلة ترحب بك. وقفت ضد الدون الذي هو بمثابة أبي من أجلك! وهذا ردك لي؟»

اختنق صوتها: «أنا.. أنت.. لا تفهم...»

«كل شيء واضح يا روبي!» ثُمّ تنهد تنهيدة قصيرة: «على كل حال، لا فائدة من النقاش بعد الآن».

نظر إليها نظرة جادة: «جئت إلى هنا لأعتذر عن تلك الصفعة، وعن صراخي.. لكنني لن أعتذر عما سيحدث لاحقًا، فالقرار القادم سيكون بيد الدون فيرناندو. لن أتدخل، ولن أدافع عنك.. أنت وحدك».

راقب مارسيل كيف دمعت عيناها وارتعشت شفتاها، وهي تقاوم البكاء، فتحرك فور خروج أندرياس، وتقدم نحوها، حتّى وقف أمامها



مباشرة، ثُمّ قال بصوت منخفض وثابت: «دعك منه. لن تكوني وحدك. أنا هنا».

مد يده نحوها، لكنّها دفعته بعيدًا، ثُمّ هربت إلى غرفتها.

بقي مارسيل مكانه، ثُمّ تنهد تنهيدة قصيرة، ونقل نظراته إلى روبن الذي انتابه القلق والعجز.

«هل يمكنك أن تعيدني إلى المستودع؟ سأنتظر عقابي هناك. لا أريد أن أسبب لها المزيد من المشكلات».

رمقه ببرود: «هل تظن أنك هنا من أجل عقاب؟»

عقد حاجبيه بحيرة: «لقد قالت ذلك».

«أنت غبي مثلهم إذًا». استطرد بنبرة جافة: «على كل، لا تخرج أبدًا. أنا أراقبك، ولن أتردد في قتلك لو شعرت بذرة خطر منك».



23: الضوء

لماذا عشت..؟ لماذا لا أمت؟

هل قاومت تلك الليلة؟ لا أذكر.

لو نمت، هل كانت ميا لتحزن كثيرًا؟ هل ستنساني بسرعة بوجوده؟

إنها رائعة ومميزة.. كيف لامرأة مثلي أن تكون أمها؟

لماذا ما زلت أتنفس؟

فتحت روبي عينيها، وتأملت خيوط الشمس المتسللة عبر النافذة. كان الضوء ساطعًا، لكنه لم يمسها، وظل جسدها باردًا، منكمشًا على الأرض.

طرق روبن الباب، ثُمّ قال بصوت خافت: «روبي؟ لقد أتت الطبيبة كارمن مجددًا».

أغمضت عينيها وتجاهلته، فتنهد روبن والتفت إلى الطبيبة التي نهضت هذه المرّة واقتربت من باب الغرفة، ثُمّ قالت بصوت رقيق: «يجب أن نتحدث يا روبي.. هذه انتكاسة بسيطة وستتجاوزها معًا».

همست روبي دون وعي: «هذه ليست انتكاسة.. هذه أنا».

تنهدت كارمن عندما لم تجد استجابة، وعادت إلى الجلوس، ثُمّ نظرت إلى روبن الذي رفع الإبريق وقال بصوت مهذب: «هل ترغبين بالمزيد من القهوة؟»



اكتفت بإيماءة بسيطة. راقبته وهو يسكب القهوة بثبات غريب، يداه لا ترتجفان رغم التوتر حولهما.

ارتشفت رشفة صغيرة: «قهوتك لذيذة.. تعدها على طريقة روبي».

أومأ فقط، ثُمّ عاد إلى مقعده البعيد، وجلس يراقب الفراغ وكأنه يرى شيئًا لا تستطيع رؤيته.

«هل يمكنك الجلوس معي هنا؟»

نظر إليها باستغراب: «لماذا؟»

ابتسمت بتحفظ: «لنتحدث قليلًا».

حدق بها مليًا؛ إذ كانت هذه المرّة الرابعة التي يراها فيها، وأول مرّة تطلب منه شيئًا كهذا. تردد قليلًا، ثُمّ جلس في المقعد المقابل لها، رأسه منخفض، ويداه متشابكتان بإحكام.

فتحت كارمن دفترها، ثُمّ سألته: «أعرف القليل عنك، وعن ما حدث، ولكن أخبرني.. ما اسمك الحقيقي؟»

ظل صامتًا للحظة، ثُمّ أجاب: «ليس لدي اسم حقيقي، مجرد لقب أطلقه علينا من ربّانا».

«وما هو؟»

ازدرد بصعوبة، وكأن الاسم شوكة عالقة في حلقه، ثُمّ قال وعيناه على الأرض: «البارون..»

أومأت كارمن: «أخبرني المزيد، ما الذي كنت تفعله بصفتك البارون؟»

«لماذا تريدين أن تعرفي؟»



«فضول.. وهل يمكنك أن تنظر إليّ عندما تتحدث من فضلك؟»

رفع رأسه ونظر إليها، فتأملت زرقة عينيه، وكيف بدا لونها باهتًا بلا لمعة، وكأن الطفل الذي كان يعيش داخل هذا الجسد انطفأ، أو لم يولد قط.

«تربيت منذ الولادة لأكون أداة تنفذ المهام».

«وما هي المهمات التي نفذتها؟»

أجاب بتعابير واحدة: «الاغتيال، والمشاركة في خطف الأطفال».

سكنت يد كارمن الثانية فوق الدفتر، لكن ملامحها ظلت محايدة: «وهل كانت تلك الحياة تعجبك؟ هل كنت مرتاحًا؟»

شعر بالحيرة؛ لم يعرف كيف يشرح لها بدقة، ثُمّ قال: «لم أعرف حياة غيرها.. لم نتربَّ على مشاعر مثل الراحة أو الخوف وحتّى الرحمة».

«حسنًا.. إن لم تتربَّ على هذه المشاعر، فكيف زيفتها عندما قابلت روبي؟»

«تدربنا على التمثيل، وإتقان لغة الجسد المطلوبة».

«ولكن..؟»

شد على يديه المتشابكتين وأخفض عينيه للأرض، كمن يشعر بالذنب: «لم يكن كل شيء مزيفًا مع روبي وميا».

دونت ملاحظة سريعة: «وضح لي أكثر».

نظر إلى دفترها: «ما الذي تفعلينه؟ هل تحاولين تحليلي؟»

أجابت ببساطة: «أجل».



«لماذا؟»

«فضول كما قلت لك، وربَّما أستطيع مساعدتك».

أخفض عينيه مجددًا: «لا فائدة من مساعدتي.. فقد اقترفت ما لا يُغتفر».

«هذا صحيح»، أغلقت الدفتر، ثُمّ قالت بنبرة صريحة: «ولكني لست من سيحاكمك، لذا وضح لي ما تقصده».

ظل صامتًا لثوانٍ، ثُمّ قال أخيرًا: «عندما كنت معهما، كانت هناك لحظات أبتسم وأضحك فيها بحق. كنت أشعر بما يسمونه البهجة، وعرفت معنى الطيبة والرحمة»، أضاف بصوت خافت: «كنت سعيدًا، وكان ذلك الشعور كالإدمان».

همّت بقول شيء آخر، لكن الطرق المفاجئ على الباب أوقفها.

رفع روبن رأسه فورًا، ثُمّ نهض وفتحه بحذر، فظهر أمامه لورينزو الذي لم يعره انتباهًا، ومرّ من جانبه، قاصدًا غرفة روبي.

طرق الباب مرّة واحدة فقط، ثُمّ قال بنبرة رسمية: «الدون فيرناندو يطلب حضورك. لديك خمس دقائق. إن لم تحضري، فسيأتي بنفسه ولن تكون العواقب سليمة».

تنهدت كارمن بخفوت ثُمّ قالت: «أستميحك عذرًا يا سيدي، ولكن الوقت غير مناسب».

نظر لورينزو إلى ساعته، وقال ببرود: «أربع دقائق يا روبي سميث»، ثُمّ أضاف مخاطبًا كارمن بنبرة لا تحتمل الجدال: «يمكنك الانصراف».

تقدم روبن حينها بخطوات مترددة وقال: «أرجوك اتركها.. فـــــــهي

متعبة».

«لا».

حاول مرّة أخرى بإلحاح أكبر: «تحتاج إلى الراحة!»

أدار لورينزو رأسه نحوه أخيرًا، ونظر إليه كما ينظر المرء إلى حشرة، ثُمّ قال ببرود قاطع: «قلت لا، وتراجع إلى الخلف أيها الولد».

لم يتراجع روبن، بل تشجع ووقف أمامه مباشرة، ثُمّ فرد ذراعيه، وسد الطريق بجسده الهزيل، عيناه تتوسلانه مجددًا: «أرجوك»..

نظر إليه لثانية، ثُمّ رفع بصره إلى الباب وقال: «ثلاث دقائق.. إن انتهت ولم تخرجي فسأنحر عنقه أيضًا».

لم يتزحزح روبن من مكانه، وظل يحدق في عيني لورينزو بنظرة ثابتة حتّى سمع صوت الباب خلفه.

خرجت روبي من الغرفة، لكنّها بدت كأنها خرجت من قبر؛ وجهها أشحب مما كان عليه قبل أيام، كأن الدم قد انسحب منه. نظراتها خالية كأنها لا ترى ولا تشعر بشيء.

التفت لورينزو ببساطة، وأشار لها أن تتبعه، فهمّ روبن بإيقافها، لكنّها تجاهلته ومضت لتقابل الدون فيرناندو.

دخلت إلى غرفة المكتب وجالت عيناها على من فيها.. كان أندرياس يقف في الزاوية، عاقدًا ذراعيه، يحدق في الفراغ وكأنه لا يريد أن ينظر إليها مباشرة.. بدت ملامحه ساكنة، لكن الهم الثقيل في عينيه لم يكن قابلًا للإخفاء.

وكان الدون فيرناندو جالسًا خلف المكتب كعادته؛ هادئًا وثابتًا وكأنه لا



يوجد أحد في هذا العالم يستطيع أن يزحزحه عن مكانه، يقابله مارسيل، وإلى جانبه مقعد فارغ.

عادت إليها ذكرى جلوسها في الغرفة ذاتها إلى جانبه... تسرّها جملة واحدة ظلت تتردد في أعماقها طويلًا، وجعلتها تتمنى لو أنها غادرت ولم تعد إليه أبدًا.

كانت كل الأصوات في رأسها تخبرها أنها ستنكسر مجددًا في هذه الغرفة، ومن سيفعلها يجلس أمامها، يرمقها بنظرات قاسية.. لكنّها لم تشعر بالخوف هذه المرة.

جلست في المقعد الشاغر دون الاكتراث لوجود مارسيل، ولو التفتت إليه لرأت النظرة الحادة في عينيه، نظرة رجل ينتظر زلة واحدة فقط ليقضي على الجميع.

لكنّها لم تفعل، بل اكتفت بالنظر إلى الدون فيرناندو ببرود لم يعتده منها..

كان يدرك ما طرأ عليها، يدرك أنها ليست بخير، لكنه مع ذلك لن يسمح لأحد أن يتجاوز حدوده مهما بلغت حالته سوءًا.

«روبي سميث.. من أين أبدأ؟ الفوضى التي تحدثينها دائمًا ما تجد طريقها إلى منزلي. لقد سببت الكثير من المشاكل مؤخرًا».

نظر إليها نظرة حادة، ثُمّ بدأ يعدد ما فعلته وكأنه يسرد لائحة اتهام: «أسأت معاملة الأطباء والممرضات في المشفى، خرجت دون إذن، انفعلت أمام حفيدتي، وأخيرًا حررت ذلك الصبي دون موافقتي، ودون اكتراث أو احترام لموتانا وأهاليهم».

زفرت روبي بلا مبالاة، ثُمّ قالت ببرود: «أنا من سيعاقبه ولا أحد غيري،

فأنا من كان هدفه الرئيسي، وما حدث للبقية كان ضررًا جانبيًا».

أثارت كلماتها غضب الدون وأندرياس، أما مارسيل فبقي ساكنًا، يراقبها بتركيز، يتتبع حركاتها، وبرودها المصطنع الذي يخفي وراءه بركانًا على وشك الانفجار.

«ضرر جانبي؟»

«هذا ما لا يريد الجميع الاعتراف به»، نظرت إلى أندرياس وأضافت بنبرة أكثر قسوة: «أنا من تأذى، ولم يتأذَّ أحد أو يعانِ مثلي».

عادت لتنظر إلى الدون فيرناندو: «لذا افعل ما تفعله دائمًا. اصرخ، هددني بابنتي.. لكنني لن أسلم الصبي لك».

ساد صمت قصير، ثُمّ قال الدون ببرود يشوبه الاستهزاء: «يبدو أنك نسيت أن هذه أرضي، وأنا من يدير كل شيء».

«لم أنس، فأنت تذكرني بذلك دائمًا».

رمقته بحدة دون قول شيء، ثُمّ حسم الأمر قائلًا: «لن أهدر المزيد من الدقائق معك، لذا إليك ما سيحدث.. سيعود الصبي إلى سجنه حتّى أقرر حكمه، وستتابعين جلساتك مع الطبيبة حتّى تعودي إلى رشدك. خطوبتك بأندرياس ملغاة، سنحتفل بزفاف خوليو الشهر القادم، وبعد ذلك سنعلن خطوبتك ببيدرو».

في تلك اللحظة فقط، تغير كل شيء في وجهها؛ اشتد إحكامها على أسنانها حتّى نبض الألم في فكها. نظرت إلى مارسيل الذي لم يعجبه كلامه، ثُمّ أعادت نظرها إلى الدون.

قالت بصوت مشدود: «لن أتزوج بأحد».



«ليس لديك خيار آخر»، ثُمّ أشار نحو الباب: «والآن اغربي عن وجهي».

تصاعد السخط في صدرها، واختفى كل شيء من حولها حتّى لم تعد ترى سوى الرجل الجالس أمامها.

قالت بنبرة انقطعت فيها آخر بقايا التعقل: «بل لدي خيار.. سأقتلك!»

انزلق الكرسي إلى الخلف بصوت حاد عندما نهضت بعنف. اندفعت يدها تحت قميصها وأخرجت مسدسًا صغيرًا، أعطاها إياه أندرياس منذ سنوات.

انتفض الجميع في اللحظة التي رفعت فيها سلاحها، ما عدا الدون فيرناندو نفسه. أخرج لورينزو سلاحه بحركة خاطفة ووجهه نحوها مباشرة، إصبعه قريب من الزناد، ينتظر الأوامر، أما أندرياس، فسحب سلاحه هو الآخر، وأبقاه في يده؛ إذ لم يكن قادرًا على رفعه نحوها، لكنه اكتفى بالاقتراب من الدون واستعدّ ليكون حاجزًا بشريًا إن ساءت الأمور أكثر.

وأما مارسيل، فقد اقترب خطوة واحدة فقط، فصرخت روبي على الفور وأمرته بالبقاء مكانه وإلا ستقتله أيضًا.

قال بصوت منخفض، وحذر: «روبي.. انظري إلي».

أمرته أن يخرس، وكل تركيزها وغضبها على الدون الذي نهض دون ارتباك، كأنها ليست حدثًا يستحق القلق، وذلك الثبات المهيب فيه كان أكثر ما يستفزها؛ لأنه لم يمنحها حتّى متعة إخافته.

ارتعشت يدها حول السلاح: «أنت تحطمني باستمرار، تمـــلي عليّ

الأوامر، تهددني بابنتي وتخبرني كيف أربيها وكأن حياتنا ملك لك».

ابتلعت غصتها بصعوبة، ثُمّ صاحت: «لكن هذا يكفي! لن أسمح لك أن تسلبني حق الاختيار هذه المرة. سأقتلك وأخلص الجميع منك، فأنت وحش وتستحق الموت!»

فتحت صمام الأمان، فاشتدت قبضة لورينزو على سلاحه حتّى برزت العروق في يده، وتحرك مارسيل ليعترض طريقها ويقف بينها وبين والده.

«ستنفذ ما تريدينه. سأحرص على ذلك، لذا ضعي المسدس من يدك...»

قالت من بين أسنانها وهي تكاد تختنق: «ابتعد».

تدخل أندرياس أخيرًا، وقال بنبرة مضطربة: «توقفي يا روبي. لا تجبرينا على إطلاق النار».

حينها فقط، رفع الدون يده بهدوء: «أخفض سلاحك يا لورينزو».

امتثل للأمر على مضض، ثُمّ أمر الدون ابنه بالابتعاد أيضًا، لكنه أبى الحراك، حتّى كرر أمره بنبرة حازمة لا تُرَدّ.

قابل الدون نظراتها الغاضبة بسكون، ثُمّ فاجأ الجميع بقوله: «سأسمح لك بإطلاق النار».

اضطرب لورينزو، وحارب نفسه قدر المستطاع كي لا يخالف أوامر سيده.

«ولكني أريدك أن تفكري فيما بعد الطلقة بحكمة. إن قتلتني الآن، فسيقتلك لورينزو، وإن قتلك، فسيقتله بيدرو.. وفي أقل من دقيقة، ستكونين قد حرمتِ امرأة وأطفالًا من والدهم، وجعلتِ ميا يتيمة».



أجفلت روبي وارتجفت يدها أكثر، فتابع الدون: «وإن لم أمت من رصاصتك، فستموتين أنت على أي حال، وربَّما يقفز بيدرو بينكما لينقذك، وحينها سأخسر ابني.. لذا فكري جيدًا، واسألي نفسك لماذا ترفعين السلاح، وعلى من، وما الذي سوف تستفيدينه من ذلك».

تبدل كل شيء في لحظة واحدة، وتحول الغضب إلى يأس، وفراغ ابتلع ما تبقى منها..

تسابقت الأفكار داخل رأسها بسرعة مؤلمة؛ ستعيش في ذاكرة الجميع كقاتلة مختلة، وستدمر حياة ابنتها إلى الأبد، وستتخلى عنها لا محالة.

كانت كل الطرق مسدودة؛ لن تحصل على مبتغاها أبدًا، لن تنتصر، ولن تستطيع تغيير أي شيء.. إلا أمرًا واحدًا.

شاهد مارسيل القرار يتشكل في وجهها قبل أن تتحرك؛ رأى كيف سكنت ملامحها فجأة، وانطفأت الحياة من عينيها، وكيف حركت السلاح عن الدون، ووجهته نحو رأسها.

تحرك دون أن يضيع ثانية واحدة. قبض على يدها، ورفعها في اللحظة نفسها التي ضغطت فيها الزناد، فانطلقت الرصاصة نحو السقف، ومزق صوتها جمود الغرفة!

صرخ مارسيل باسمها علّها تعود إلى رشدها، ثُمّ انتزع المسدس من يدها وألقاه بعيدًا، فأسرع أندرياس وأخذه، ثُمّ نظر إليها بقلق واضح هذه المرة، لكنّها لم تكن ترى أي شيء وكأن روحها غادرت المكان وبقي الجسد وحده واقفًا.

طفح الكيل بمارسيل، فقال بنبرة حاسمة: «هذا يكفي. ستأتين معي».

حملها على كتفه بحركة سريعة، فانفلتت منها صرخة معترضة وبدأت

بمقاومته وضربه، تطالبه أن يضعها على الأرض.

لكن مارسيل لم يستمع، بل زاد إحكامه خشية أن تكمل قرارها المرعب. خرج بها من المكتب، وقبل أن يرتد الباب خلفهما، وقعت عيناها على وجه الدون فيرناندو.. ورأت القلق للحظة خاطفة.

صعد مارسيل الدرجات بسرعة، متجاهلًا شتائمها وضرباتها. دفع الباب بكتفه عندما وصل إلى شقتها، ثُمّ أنزلها برفق متناقض مع عنفه قبل قليل، كأنه لم يهدأ إلا حين أبعدها عن تلك الغرفة.

ما إن لامست قدماها الأرض حتّى صفعت وجهه بقوة، فأغمض عينيه لثانية، ثُمّ نظر إليها، وقال بهدوء شديد: «هل انتهيت؟»

صرخت في وجهه: «أيها السافل!»

انهالت عليه بكلمات قاسية، وراحت تضرب صدره وكتفيه بيديها المرتجفتين، فأمسك بمعصميها ليوقفها.

«سوف تستمعين إليَّ الآن».

«لا تلمسني!»

دفعت صدره وتراجعت إلى الخلف وهي ثائرة، ثُمّ توقفت وجالت عيناها في المكان؛ لم تجد أثرًا لروبن أبدًا... اختفى وترك خلفه رسالة واحدة فقط:

«ذهبت معهم طواعية. لا أريد أن أكون السبب في حزنك... سأظل أنتظر عقابك لآخر يوم في حياتي. آسف، وشكرًا لك. روبن»

تمتمت بصوت مبحوح: «أخذوه... أخذوه».

شدت أصابعها على عنقها، وراحت تتمتم بكلمات متقطعة لا تكـــاد



تخرج كاملة؛ تقول إنها النهاية، وإنه لم يبقَ لها شيء، وإنها تريد أن تموت وترتاح فقط.

وفجأة، مزَّق بكاءها صوت تسجيل مرعب خرج من هاتف مارسيل... سمعت عويلًا مذعورًا، وأنفاسًا متقطعة، وتوسلات بالرحمة، واسمها يتردد بين الصرخات.

هدأت شهقاتها، والتفتت إليه بوجه مشوش، فقال: «هذه أصوات الرجال الذين آذوك... هل تسمعين كيف يصرخون باسمك، ويتوسلون مغفرتك؟»

نظرت روبي إلى هاتفه بفزع، ثُمّ قال: «لقد لقوا مصرعهم بأسوأ طريقة ممكنة، وكنت آخر ما يفكرون فيه. لقد اختفوا من على وجه الأرض، فلماذا تسمحين لهم بالتأثير عليك هكذا؟»

علا صدرها وهبط بعدم انتظام، ومنعتها مشاعرها المتصادمة من التفكير بوضوح، فاقترب مارسيل منها أكثر.

«لقد نجوت منهم، ولم يكن ذلك بسبب الحظ».

هزت رأسها وتمتمت بأفكار كثيرة: «لا... لقد انتهى... أنا... اخرج!»

«روبي...»

لوحت بيديها بعنف: «ارحل! لا أريد سماعك! لن تفهم... لا أحد يفهم!»

«أنا الوحيد الذي يعرفك ويفهمك، الوحيد الذي يعرف كم أنت قوية».

«لا... لا! اخرج!»

رفض مارسيل، فدفعته وكررت أمرها الأخير، لكنه قاوم، وأمسك بيديها

مجددًا، ثُمّ أجبرها على الإنصات إليه.

«أنت أقوى امرأة عرفتها في حياتي».

حاولت سحب يديها، لكنه لم يسمح لها، ولم يتوقف: «نجوتِ من فقدان والدك في سن صغيرة، ومن دور الرعاية. نجوتِ من الوحدة، وكنت تبتسمين رغم كل الآلام!»

شد على يديها قليلًا، وعيناه تفيضان بمشاعر لم تعهدها منه: «نجوتِ في رحلتنا من الغرق، والنيران والحوادث، وحتّى جاريد. نجوتِ منه بينما لم ينجُ منه أحد... نجوتِ في هذا المكان وأنجبتِ فتاة رائعة وربيتِها بمفردك، وكل ذلك يتطلب قوة عظيمة!»

احتضن يديها بين كفيه عندما توقفتا عن المقاومة: «نهضتِ من فراشك بعد السفينة لأن ميا قالت إنها تحتاجك، لكن الحقيقة هي أنكِ نهضتِ لأنكِ مناضلة بالفطرة، وحررتِ الصبي لأنكِ لم تستطيعي تركه هناك».

انحنى نحوها قليلًا، وقال بنبرة أكثر صدقًا ودفئًا: «أنتِ لستِ فاشلة، ولا ضعيفة... أنتِ متعبة فقط».

تسللت كلماته إليها كما يتسلل ضوء الشمس عبر الشقوق إلى غرفة مظلمة وباردة.

كانت تعرف كل ذلك مسبقًا، لكن الوحدة والألم طمسا تلك الحقيقة، وتركاها ترى نفسها بصورة أخرى.

ارتجف جسدها، وصدر منها أنين مكتوم، وكأن شيئًا ثقيلًا في أعماقها بدأ يتصدع بعد سنوات طويلة من الكبت.



اقترب مارسيل أكثر، ثُمّ همس، وكأنه يفتح لها بابًا: «لا تكتمي الألم بعد الآن... أنا هنا، لذا أطلقيه بعيدًا عنك».

وفجأة، انهار الجبل الذي دفنت تحته، وكان الأمر مهيبًا، فصرخت بأعلى صوتها، وبكت بشدة كما لم تفعل من قبل.

كان بكاؤها بكاء طفلة موجوعة، وامرأة دفنت الألم طويلًا حتّى فاض بها...

تراجعت إلى الخلف، كأن جسدها لم يعد يقوى على حمل كل ذلك، لكن مارسيل أسندها، فمالت على صدره وهي ترتجف.

كرر بهمس: «سأحمل ألمك يا روبي... أنا هنا لأجلك».

وبعد أن خفت شهقاتها، وتحولت إلى أنفاس مرهقة وبطيئة، خارت قواها وأغمضت عينيها؛ كأنها سبحت من قاع البحر حتّى رأت الضوء البعيد، وبقي القليل فقط.

لم تشعر بمارسيل وهو يحملها، ولا حين وضعها على الفراش الذي لم تنم عليه منذ عودتها، لم تشعر إلا بالدفء والأمان... فتشبثت بهما، وغفت أخيرًا...

24: ارتباط روحي

«شعرت براحة غريبة بعد تلك الليلة، وأدركت شيئًا أيضًا...

منذ استيقاظي من الغيبوبة وهو يكرر على مسامعي أنه لن يرحل، ولن يبتعد مهما دفعته... ليس من عادته تكرار كلماته، ولكني فهمت الآن أنه كان يذكرني أنه معي».

تنهدت روبي تنهيدة طويلة، وسرحت في الفراغ لحظات انتهزتها كارمن بتدوين ملاحظات جديدة.

«وهل تشعرين أنكِ كنتِ تختبرينه في كل مرّة دفعته فيها بعيدًا عنك؟»

تأملت روبي بخار القهوة المتصاعد من كوبها، ثُمّ أجابت: «ربَّما... وربَّما لا. لا أعلم على اليقين».

أومأت كارمن بتفهم، ودونت ذلك، ثُمّ سألت: «ماذا ستفعلين بعد هذا الإدراك؟»

هزت روبي كتفها بتعب: «لا شيء... أنا لن أجحد مساعدته لي عندما انهرت، ولكن هذا لن يمحو الماضي».

أومأت كارمن مرّة أخرى، ثُمّ انتقلت إلى ما يشغل قلب روبي أكثر: «هل أخبرك أحدهم بمكان روبن؟»

ذبلت ملامحها فورًا: «لا...» ثُمّ سألت بتردد: «هـل أكون مجرمة إن

أردت إنقاذه ومنحه فرصة ثانية؟»

تابعت بإشفاق: «صحيح أنه مذنب، ولكنه ليس العقل المدبر، ولم يقتل بنيتو. حاول إنقاذي ولم يكترث لحياته، وفوق ذلك هو مجرد طفل ضائع».

تنهدت كارمن ووضعت دفترها جانبًا: «موضوع روبن معقد، وأتمنى لو أستطيع المساعدة، لكن ليس بيدي شيء».

همست روبي بقلق: «هل تظنين أنهم سيقتلونه؟»

«صدقًا؟ لا أظن أن الدون فيرناندو سيوجّه أمرًا بقتله، فقد تكفّل برعاية كل الأطفال الذين أحضروهم من السفينة، ويسعون للعثور على ذويهم».

مسحت روبي على ذراعها بشرود ذهن، ثُمّ همست: «هكذا إذًا...»

لمست كارمن يدها وقالت بنبرة حانية: «سيكون كل شيء على ما يرام، لذا ركّزي على نفسك الآن».

لمعت الدموع في عيني روبي، وقالت بصوت مضطرب: «هل تظنين أني قادرة على التشافي؟ لن أنتكس مجددًا؟»

ابتسمت كارمن ابتسامة صغيرة ومطمئنة: «أجل... وقد تتعثرين مرّة أخرى، وهذا لا يعني أنك عدتِ إلى البداية، فالتعافي لا يسير في خط مستقيم. المهم هو ألا تتوقفي».

كان مارسيل يقود السيارة وهو يستمع إلى المحادثة عبر السماعة، ويراقب ميا في الوقت ذاته كلّ بضع ثوان؛ إذ كانت تشعر بالملل، وتتساءل

إلى أين يأخذها، وعندما سألته للمرّة الثالثة، خلع السماعة أخيرًا، ونظر إليها عبر المرآة الأمامية.

«انتظري وستعرفين».

تنهدت باستسلام، وعادت للعب بدميتها الرضيعة ميليسا، محاولة الانشغال عن التفكير بروبن الذي أخذوه قبل بضع ليالٍ.

كانت قد زارت والدتها في اليوم التالي واطمأنت عليها، لكن ذلك لم يكن كافيًا ليطفئ فضولها، وقلقها مما يحدث حولها.

توقفت عن التفكير تمامًا عندما ركن مارسيل السيارة أمام متجر كبير للحيوانات الأليفة، ثُمّ شهقت بدهشة: «بابا؟»

«ألم تقولي إنك ترغبين في حيوان أليف؟ وإنك لن تطلبي هدية أخرى طوال حياتك؟»

اختلطت المشاعر في وجهها بسرعة؛ فرح، ثُمّ ندم سريع، فقالت بارتباك: «لم أقصد كل حياتي للأبد».

ضيّق عينيه قليلًا، محاولًا التلاعب بها: «هل نعود إلى المجمع؟»

مطت شفتيها: «لا... أريد هدية أيضًا».

رفعت وجهها إليه بذلك التعبير البريء، فجاراها وخرج من السيارة، ثُمّ أمسك بيدها، فابتسمت على الفور، ومررت كفه على خدها بحنان؛ تكاد تطير فرحًا وكأنها ذاهبة لاختيار أثمن هدية.

ما إن دخلا المتجر حتّى تركت يده، وانطلقت بين الأقسام وهي تداعب الحيوانات، وتقيمها بعناية شديدة، وكأنها خبيرة لا طفلة.

راقبها مارسيل كالعادة، ثُمّ وقف قرب قفص للببغاوات وقال: «ما رأيك



بالببغاء؟ يبدو خيارًا جيدًا».

تأملت الببغاء قليلًا: «لا أشعر أنه ما أريد»، ثُمّ أشارت بحماس إلى جهة أخرى: «لنذهب ونرى الأفاعي هناك».

همّت بالتحرك، لكن يده هبطت على رأسها بلطف، ووجّه مسارها إلى الجهة الأخرى.

«ستموت والدتك من الخوف لو اشتريت أفعى، فاذهبي وتفقدي الأرانب».

اتجهت ميا إلى حيث الأرانب، وسمح لها الموظف بمداعبة أرنب أبيض صغير، أحمر العينين. حملته بحذر وربتت على ظهره وهي تضحك، لكن ذلك الاندماج لم يدم طويلًا، إذ شعرت بأن هناك شيئًا ناقصًا.

انتقلا بعد ذلك إلى قسم القطط، وكانت لطيفة وتصدر أصواتًا صغيرة جذبت انتباهها. لعبت معها لوقت طويل حتّى ظن مارسيل أنها ستحسم أمرها أخيرًا، لكنّها لم تفعل، فانتقلا في النهاية إلى قسم الكلاب.

وقف مارسيل يراقبها وهي تنتقل من قفص إلى آخر، تنظر، وتلمس، وتسأل الموظف عدة أسئلة بريئة وأخرى غريبة حتّى انتابه الفضول.

«لدي سؤال فضولي لك... ما هي معاييرك لاختيار حيوان أليف بالضبط؟»

وضعت يدها على خصرها ورفعت ذقنها: «لم أشعر بالارتباط الروحي!»

كان سينهي النقاش بعد هذه الإجابة، ولكنه تابع لمعرفة كيف يفكر عقل ميا بالضبط.

«الارتباط الروحي؟»

شرحت بجدية طفولية: «يجب أن أنظر إلى الحيوان وأربت على رأسه، فيرتاح لي وأرتاح له، ثُمّ يحدث الارتباط! مثلما حدث عندما حملت ميليسا خارج صندوقها لأول مرة، شعرت أنها ابنتي وحفيدتك».

هزّ مارسيل رأسه، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة صغيرة، ثُمّ تأملها وهي تخضع الكلاب الصغيرة لاختباراتها الغامضة، وبقربها صبي يلح على والديه لشراء كلب معين، بينما أخوه يتذمر ويطالب بقطة بدلًا من ذلك.

شاهد مشاحنتهما قليلًا، ثمّ عاد للتركيز على ميا التي كانت منحنية أمام أحد الأقفاص، تداعب جروًا صغيرًا لم يستطع رؤيته بسبب ظهرها.

اقترب منها قائلًا: «هل اخترتِ...»

تجمد مكانه حالما رآه، ثُمّ حملته ميا بين ذراعيها بسعادة: «أختار هذا الجرو اللطيف يا بابا... ستحبه ماما كثيرًا، وسيكبر في بيتنا!»

مرّ شريط الذكريات أمام عيني مارسيل وهو يحدق به؛ لقد كان مثل الجرو الذي رباه كمهمة، ثُمّ خنقه، وشاهد الحياة تغادر عينيه البريئتين...

قال بنبرة هادئة: «لنذهب».

ميا باستغراب: «ماذا؟ ألن نشتري الجرو؟»

«لا. هيا بنا».

مضى قبلها، فتركت الجرو على مضض ولحقت به لتفهم ما يجري. حاولت التحدث إليه، وإقناعه مع استعمال وجهها الحزين، لكنه لم يستمع، وعندما حاولت أكثر، رفع صوته وأمرها أن تصعد إلى السيارة.

أجفلت ميا لنبرته الحادة، وصعدت إلى السيارة. ظل قلبها الصغير قلقًا



طوال رحلة العودة، حتّى بعد عودتهما إلى الشقة؛ إذ كان والدها صامتًا أكثر من اللازم، يجلس على الأريكة وظهره منحني قليلًا، ينظر إلى الفراغ بذهن شارد ومشاعر تتشابك فيها أطراف كثيرة.

وبعد سكون طويل، قال دون أن ينظر إليها: «هل ترغبين في تناول العشاء؟»

أجابت بانكماش، وكأنها تخشى أن تخطئ في كلمة: «لا...؟»

«اذهبي واستعدي للنوم إذًا».

خافت ميا من السؤال عن أي شيء، خشية أن تسمع إجابات لا تريدها، لكنّها عادت إليه بعد ارتداء ثياب النوم وبيدها قصة، وكان كما تركته.

سألت بتردد: «هل تقرأ لي القصة؟»

رد بصوت مرهق: «هل يمكنك النوم بدونها الليلة؟»

وفي تلك اللحظة انكسرت ميا وأجهشت بالبكاء، فرفع رأسه بتعجب.

«أنا آسفة. لقد أغضبتك! لا أريد حيوانًا أليفًا، لذا لا تغضب وترحل».

شتم مارسيل بهمس، مدركًا الذنب الذي اقترفه، وكيف تسبب بحزنها. لمس كتفها بسرعة وحاول أن يصحح الأمر ويبرر نفسه.

«لا تبكي. أنا آسف. أنت لم تفعلي شيئًا، لست غاضبًا منك!»

مسح دموعها بيده، فاقتربت وجلست على فخذه، ثُمّ رفعت وجهها إليه: «لماذا لم تتحدث معي إذًا؟»

تنهد تنهيدة عميقة: «يصعب عليَّ الشرح الآن».

وضعت يدها على جبهته: «هل أنت مريض؟ هل لديك صداع؟»

ابتسم ابتسامة خفيفة: «أجل، يمكنك قول ذلك».

نظرت إليه نظرة مليئة بالخوف من فقدانه: «لن ترحل إذًا، صحيح؟»

«لا».

ابتسمت ميا ابتسامة صغيرة، لكن مارسيل ما يزال يرى حزنًا في عينيها، فكرر اعتذاره، وحملها إلى فراشها، ثُمّ قرأ لها القصة باندماج أكثر من السابق، ليطمئنها أنه لن يتركها ويرحل أبدًا.

عاد إلى غرفة المعيشة بعد أن نامت، وجلس وحده، لكنه لم يسمح لنفسه بالغرق في أفكاره مرّة أخرى، وبدأ يرتبها داخل عقله، يفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وبعد لحظات مضت على هذا الحال، نهض ليفتح الباب للطارق، ولم يستطع ألّا يتفاجأ لرؤيته روبي. بدت متوترة قليلًا، ولكنّها جاهدت لإخفاء ذلك خلف وقفتها المستقيمة وملامحها الساكنة.

لم يقل أحدهما شيئًا في البداية، فبادر هو وأنقذها من الصمت المربك: «مرحبًا...»

لاحظ ارتياحها الطفيف، وكأنه اختصر عليها مهمة شاقة لم تعرف كيف تبدأها.

قالت بنبرة محايدة، لم تحمل شيئًا من النفور أو البرود: «خبزت بسكويت الشوكولا لميا. أبقه في الفرن أو غطّه، ويمكنها أن تتناوله صباحًا مع الحليب أو تأخذه معها إلى الروضة».

مدت الوعاء نحوه، فأخذه بهدوء دون أن يكسر اتصال أعينهما، ولامست أصابعه يدها لمسة خفيفة، ولكنّها كانت كافية لتجعلها تنفر منه، ثُمّ تشد على أسنانها كي لا تظهر شيئًا.

همّت بالرحيل، لكنه أوقفها: «روبي؟»

توقفت في مكانها فقط، ولم تنظر إليه؛ تنتظر أن يقول ما لديه كي تمضي بسرعة.

«هل يمكنك البقاء مع ميا قليلًا؟ نصف ساعة إلى ساعة تقريبًا... لدي عمل طارئ ومهم».

لم تجد جوابًا واكتفت بإيماءة، فارتدى معطفه بسرعة، ثُمّ غادر بعد شكرها، لتبقى وحدها في الشقة.

دفعت باب غرفة ابنتها برفق، ورأتها تغط في نوم عميق، ثُمّ لاحظت التغييرات الجديدة في الغرفة؛ كان هناك رف أبيض اللون، رتّب فيه قصص النوم وفقًا للألوان، كما قام بتغيير الإضاءة الجانبية إلى أخرى عليها رسومات ظريفة، وخصص ركنًا لألعاب ميا التي بدت منظمة جدًا.

ثُمّ نظرت إلى صورة الجندول الشهيرة التي نقلها إلى هنا... تأملتها وهي تفكر بالماضي، والحقيقة، والكذب، ثُمّ هزّت رأسها، رافضة الوقوع ضحية عاصفة جديدة.

غادرت بعد تقبيل ابنتها، ثُمّ شعرت بالبلادة لوقوفها في شقته دقيقة كاملة بلا حراك؛ لا تعلم ماذا تفعل وكيف تقضي وقت الانتظار.

كانت الشقة نظيفة ومرتبة كما هو متوقع، وعلى الأرجح أن المطبخ يحوي كل ما قد يحتاج إليه، وكذلك الثلاجة... لكن ميا أخبرتها بشيء غريب وأرادت أن تتأكد منه.

فتحت إحدى الخزائن بحذر، وحرصت على عدم لمس أو تحريك أي شيء. رأت الشوكولا والحلوى مرتبة في مجموعات وفق أيام الأسبوع،



وملاحظة لاصقة بها صورة شخصية خيالية تحبها ميا، تقول بالخط العريض: «لا تغشّي».

همست: «المجنون ينظم استهلاكها للحلويات حقًا...»

انتقلت إلى الثلاجة لترى خيارات صحية، وأخرى تحمل لمسة ميا، كما كانت حياتهما قديمًا في المنزل الزجاجي.

أغلقتها لتتوقف عن التفكير، لكن عينيها تعلقتا بباب غرفته المفتوح على مصراعيه لوقت طويل؛ كانت تعرف ما ستجده هناك، لكنّها مع ذلك وجدت نفسها تقترب حتّى وقفت عند العتبة، حريصة ألّا تتجاوزها.

لم تكن الرؤية واضحة، فتقدمت خطوة دون وعي، ثُمّ تجمدت ونظرت إلى قدمها كأنها تجاوزت حدًا لا يحق لها تجاوزه.

زفرت بضيق، ثُمّ عقدت ذراعيها كي لا تلمس شيئًا، ونظرت لما حولها بسرعة.

سرير مرتب. غرفة نظيفة. لا شيء جديد...

استوقفها شيء على الطاولة الصغيرة بجانب حاسوبه. كان هناك كتاب، وما إن قرأت عنوانه حتّى ارتبكت ملامحها...

«دليلك لتصبح أبًا ناجحًا».

حدقت في الكتاب مطولًا حتّى شعرت بالغصة تخنقها، فغادرت الغرفة على الفور ووقفت تستجمع أنفاسها، وتحاول إيقاف الأفكار التي تتدافع داخل رأسها بعنف.

اتجهت إلى الأريكة وجلست، لكن ذهنها لم يهدأ. ظلت تفكر في التغير



الذي بدأ يظهره، وفي الليلة التي انهارت فيها بين ذراعيه؛ كيف أسندها، وبقي إلى جانبها حتّى استعادت وعيها، ثُمّ طردته.

زفرت بنفور هذه المرة، فقد سئمت الصراع والشد المتواصل مع الأفكار، ثُمّ عاد مارسيل أخيرًا بعد نحو ساعة، يحمل في يد حقائب قماشية، وفي اليد الأخرى قفصًا صغيرًا يرقد بداخله جرو نائم.

تبادلا النظرات للحظة، ثُمّ عقدت حاجبيها وقالت باستغراب لم تستطع إخفاءه: «خرجت لشراء جرو؟»

أجاب بحرج خفيف: «ليس أي جرو، بل الذي شعرت ميا بارتباط روحي معه». تنحنح، ثُمّ أضاف: «هل لديك أي فكرة عن ذلك؟»

هزت روبي رأسها بعفوية، وكأنها تعطي إجابة خفية تنص على أن ميا هكذا، مذهلة وعجيبة.

وضع مارسيل القفص جانبًا، ثُمّ فتح بابه وهو يقول: «لقد ذهبنا إلى المتجر اليوم... ورأته».

شعرت بغموض كلمته الأخيرة، لكنّها رفضت أن تسأل.

نظر إلى الجرو النائم للحظة، ثُمّ اعترف: «هذا الجرو مثل الذي ربيته وقتلته، لذا لم أكن مرتاحًا لشرائه وغادرنا، مما جعل ميا تحزن».

تنهد تنهيدة قصيرة: «لا أريدها أن تستاء بسببي، لذلك ذهبت لإحضاره قبل أن يغلقوا المتجر».

أخذ يفرغ الأغراض على الطاولة، بينما ظلت روبي تنظر إليه، غير مصدقة لما تسمعه.



«هل تساعدينني؟ هناك مشتريات خاصة أوصوني بها، ومنزل صغير له، وشيء يتطلب تركيبًا».

شعرت حينها بالارتباك؛ لأنه لم يطلب شيئًا معقدًا، بل بسيطًا، منزليًا، وكأنه يريد أن يشركها في الأمر.

ابتلعت ريقها بخفة وقالت: «لا... أقصد... لدي شيء لأفعله، ويجدر بي الذهاب».

حدق بها قليلًا، ثُمّ أومأ بفهم: «حسنًا».

استدارت روبي واتجهت نحو الباب، لكنه ناداها، فتوقفت والتفتت إليه.

«لقد تحدثت إلى العجوز بشأن الزواج». لاحظ تصلب جسدها، فأضاف بسرعة: «من الآن فصاعدًا، لا أحد سيجبرك على شيء لا تريدينه. سأردعهم وأخبرتهم بذلك مسبقًا... ولن أتزوجك إن لم ترغبي في ذلك».

وبهذه البساطة، أشعل النار وأخمدها في الوقت نفسه، لكنّها لم تقل شيئًا، بل التفتت نحو الباب من جديد ووضعت يدها على المقبض.

«شيء آخر...»

شدت قبضتها، ثُمّ انتظرت حتّى قال بهدوء كاد يربكها أكثر: «تصبحين على خير».

حدقت به للحظة، ثُمّ أومأت إيماءة خفيفة وهمهمت بشيء غير واضح، قبل أن تفتح الباب وتهرب، وكأن البقاء دقيقة أخرى في حضوره سيحرقها.



25: آخر وسيلة

«ساعديني يا كارمن أرجوك!»

قالتها روبي وهي تمسح دموعها أمام طبيبتها في جلسة أخرى؛ منهكة من تفكير لم يتوقف منذ الليلة الماضية...

«لا بأس يا روبي...»

هزت رأسها، ثُمّ قالت بسرعة قبل أن تختنق بكلماتها: «إنه يقرأ كتابًا عن الأبوة، واشترى الجرو رغم ماضيه ليسعدها فقط، ويجاري رغباتها الغريبة».

ازدردت بصعوبة، ثُمّ أضافت بصوت أخفض: «ولا أستطيع أن أصف لك فرحة ميا عندما أحضره لتريني إياه، وحكت لي كل شيء عن الرحلة، وكيف أنه رفض شراء أفعى لأني أخافها».

توقفت قليلًا، ثُمّ أكملت باضطراب: «ثُمّ ذكر الزواج وأخبرني أنه لن يتزوجني إن لم أرغب في ذلك، وبدا الأمر كما لو أني الطرف الذي لم يكن موافقًا!»

«وهل سألته عن موقفه؟ عن شعوره؟»

فتحت روبي فمها لتجيب، لكنّها عجزت عن قول شيء، ثُمّ مسحت دموعها بسرعة، كأنها غاضبة من نفسها لأنها تبكي.

«أريدك أن تكوني صادقة معي... ما موقفك تجاه مارسيل الآن؟»

بقيت روبي صامتة لثوانٍ، ثُمّ قالت: «بتُّ أصدق أنه تغير أو على الأقل يتغير، لكن ليست المسألة أني لا أود الاعتراف بذلك... بل لأني لا أستطيع».

«لماذا؟»

أجابت بغصة وهي تشير إلى نفسها: «لأني هكذا... وأنا خائفة».

«خائفة من أن يؤذيك؟ أو من تصديقه خشية أن تقعي في حبه مجددًا؟»

ارتبكت روبي واشتد انقباض قلبها؛ كانت تعرف الجواب الحقيقي، وتخافه، فقالت: «لا أريد الحديث».

دونت كارمن ذلك بهدوء: «سنعود إلى هذه النقطة في الجلسات القادمة».

أومأت روبي على مضض، وانتقلتا إلى مواضيع أخرى. كانت تحاول التركيز في البداية، تستمع، وتجيب، لكن مارسيل يعود إلى رأسها في كل مرة، يقتحم أفكارها وكأنه فيروس عنيد.

كانت تتمنى لو تستطيع أن تطرده من عقلها بالكامل، لكن وجوده حولها لا يساعد إطلاقًا، وها هو الآن يأتي برفقة ميا، ومعهما البيتزا والمعكرونة التي تحبها.

هتفت بسعادة وهي تحمل الجرو الذي أسمته روكو:

«أحضرنا وجبة من مطعمك المفضل يا ماما!»

رمشت روبي بتشويش، وكأنها سُحبت من عالم آخر فجأة: «حسنًا... هذا رائع».



اندفعت ميا لتعانقها، ثُمّ ابتعدت قليلًا والابتسامة لا تفارق وجهها الصغير: «هل يمكننا أن نتناول الطعام هنا معًا؟ أرغب في النوم معك الليلة، فقد اشتقت إليك كثيرًا، وأريد أن نشاهد تسجيل طفولتي، فلقد أخبرت بابا عنه وهو متشوق لرؤيته وأريده أن يراني!»

حدقت روبي بابنتها لبرهة طويلة؛ بدا الأمر كما لو أنها ألقت عدة قنابل في وقت واحد، وتنتظر منها جوابًا فوريًا.

لم تستطع سوى أن تقول: «ماذا...؟»

تقدم مارسيل حينها لينقذها: «كبداية، هي تريدنا أن نتناول الطعام معًا من بعد إذنك».

تنقلت عيناها بينهما، ثُمّ استقرتا عليه؛ تحاول أن تفهم كيف ولماذا بات ماهرًا في إنقاذ المواقف التي تربكها فجأة.

عقدت حاجبيها وكررت مجددًا: «ماذا...؟»

ارتفعت زاوية شفته في ابتسامة صغيرة وعابرة، جعلتها تشيح ببصرها بسرعة، ثُمّ عادت إلى الهدوء والتحفظ، وأومأت بالموافقة. قفزت ميا بسعادة ووضعت روكو على الأرض ليستكشف المكان، فانسحبت روبي إلى الحمام بحجة غسل يديها، لكنّها احتاجت إلى جمع شتات أمرها قبل العودة. أخذت نفسًا عميقًا، ثُمّ خرجت عندما استعادت توازنها، لتجد مارسيل يحضر الطاولة، فساعدته بصمت تام أجبرها على كسره:

«هل لديك عصير في الثلاجة؟»

أجابت بصوت هادئ: «نعم».

«هل يمكننا شربه؟»

أومأت دون النظر إليه، ثُمّ جلست ميا إلى الطاولة بعد غسل يديها وبدأوا بتناول الطعام لأول مرّة كعائلة تخطو أول خطوة نحو الترابط والاستقرار. كانت ميا سعيدة وتتحدث مع كليهما، تقص عليهما قصصًا من المدرسة، وأخرى مع أندريه، تداعب روكو وتطعمه، ثُمّ تعود لإكمال الحديث، وفي أثناء ذلك كله، كان والداها يسترقان النظرات إلى بعضهما. كانت روبي تنظر إليه عندما يتحدث أو يبتسم لابنته ابتسامة نادرة لم تكن تراها كثيرًا في الماضي، أما هو فقد كان يطيل النظر إن لاحظته، يحدق بها على نحو يجعلها مضطربة.

ثُمّ مد كل منهما يده نحو عبوة العصير، وأطالا التحديق، حتّى سحبت روبي يدها أولًا، وأشارت له أن يسكب لنفسه. حمل مارسيل العبوة، لكنه ملأ كأسها قبل كأسه، ثُمّ قال ليصرف انتباهها عن تلك اللحظة:

«المعكرونة لذيذة حقًا، صحيح يا ميا؟»

وافقته ميا الرأي وبدأت بتقييم الطبق ومقارنته بمطاعم أخرى، وحين انشغلت روبي بالاستماع إليها، دفع كأس العصير نحوها برفق، فالتقطته وارتشفت منه دون أن تعلم أنه كأسه، وأنه يشرب من كأسها...



بعد انتهاء العشاء، جمع مارسيل الأطباق وحملها إلى المطبخ ليغسلها وينظفها، بينما انشغلت روبي بحفظ ما تبقى من المعكرونة لليوم التالي. نادتها ميا بصوت مفعم بالحماس:

«هل أحضّر التلفاز؟»

التفتت إليها روبي، وما زالت يدها على علبة الطعام: «حسنًا».



ابتسمت ميا ابتسامة مشاكسة: «هل يمكننا أن نأكل الفشار والحلوى؟»

ارتسمت على شفتي روبي ابتسامة صغيرة، ثُمّ أخرجت مغلف الفشار وبدأت بتحضيره، ولم تكن مرتاحة لتحركاتها الكثيرة في المطبخ بينما مارسيل لا يزال فيه، لذا انتظرته حتّى ينتهي من تجفيف الكؤوس التي لا تعلم لماذا يستغرق دهرًا لتجفيفها، ولم تشك أنه يتعمد فعل ذلك ليبقى بقربها وقتًا إضافيًا. أخرجت الفشار ثُمّ نظرت إلى الوعاء الخاص الذي مده نحوها، فأفرغته فيه وهي تتحاشى النظر إليه حتّى لا ترتبك مجددًا.

«هل أغادر؟»

استغرقت بضع ثوانٍ لتفهم المغزى من سؤاله، ثُمّ قالت:

«إنها تريدك أن تبقى، وسوف تحزن وتظن أني السبب في رحيلك».

أومأ متأملًا عينيها:

«جيد... لأني أرغب بالبقاء معك ومعها».

كانت الطريقة التي شدّد بها على كلمة «معكِ» كفيلة ببعثرة مشاعرها، حتّى شعرت بأعصابها تشتد، لكنّها تماسكت، وأومأت للمرّة المئة في هذا اليوم، كأن الإيماءة صارت عذرها الوحيد كلما عجزت الكلمات عن الخروج.

احتضنت الأريكة ثلاثتهم معًا بسهولة، وتنعمت ميا بحضن والديها من كلا الجانبين، ثُمّ نقرت روبي على جهاز التحكم ليبدأ التلفاز بعرض ذكريات ابنتها العشوائية منذ الولادة...

«انظر يا بابا! هذه أنا عندما ولدت، لقد كنت صغيرة الحجم، صحيح يا ماما؟»



ابتسمت روبي توافقها الرأي، ثُمّ نظرت إلى مارسيل الذي كان يشاهد بفضول حقيقي، يرى أندرياس وهو يحمل الكاميرا ويصور روبي بطوقها الوردي، الغرفة، والضيافة، ثُمّ ميا الرضيعة في مهدها. لاحظ العبوس على وجه روبي في ذلك التسجيل، بينما أندرياس يمازحها بلا توقف يحاول انتزاع ابتسامة منها قدر المستطاع... وكانت مشاهدة ذلك صعبة على روبي؛ لا بسبب الذكرى وحدها، بل لأن كل شيء تغير بينها وبين أندرياس، الشخص الذي ظنت أنه لن يتخلى عنها أبدًا.

«كفاك تصويرًا يا أندرياس. احمل ميا، فأنا أريد الذهاب إلى دورة المياه».

ثبت أندرياس الكاميرا، ثُمّ حمل ميا بين ذراعيه وهو يبتسم ويداعب يدها الصغيرة بسعادة واضحة:

«أنت أجمل فتاة في العالم كله، ولكن ابنتي ستكون أجمل منك!»

ضحكت ميا وعلقت بسخرية: «ما يزال لا يملك طفلة بعد».

شاهد مارسيل معاملة أندرياس لميا بشيء من الغيرة والندم معًا، ثُمّ تدرجت الذكريات إلى لحظات عديدة من طفولتها، وبدت فيها روبي حيوية، وسعيدة على نحو موجع لمن يراها الآن:

«إن ابنتي الجميلة تخطو أول خطواتها!»

كانت روبي تضحك وهي تصوّر ميا تمشي كالبطريق الصغير، تقع على مؤخرتها، ثُمّ تنهض من جديد بعناد لطيف.

التفتت ميا إلى والدها في الحاضر وقالت بفخر:

«هل ترى ذلك يا بابا؟»



«أجل».

مشت ميا في التسجيل بترنح حتّى ألقت بنفسها في حضن والدتها التي قبلتها وسط ضحكها، وانتقلت التسجيلات بعدها إلى لحظات أخـــرى

جعلت مارسيل يبتسم دون أن يشعر، بينما بدأت عينا روبي تدمعان.

«لقد كنت جميلة وظريفة، صحيح؟»

نظر إليها بابتسامة حدقت بها روبي طويلًا: «لا تزالين جميلة وظريفة».

ثُمّ نظر إلى روبي دون أن يبتسم، فقد كانت هناك محادثة صامتة تجري بينهما، تيار من مشاعر لا يمكن وصفها. قرأت شفتيه وهو يقول: «لا تبكي...»

جفلت ومسحت الدموع الهاربة بسرعة، لكن ميا كانت أسرع في ملاحظتها، وسألت:

«لماذا تبكين يا ماما؟»

أجابت بارتباك: «لأنك كبرت بسرعة».

ابتسمت ميا وعانقتها عناقًا طويلًا. أخبرتها أنها تحبها، فردت روبي على ذلك، وقبلت رأسها، ثُمّ انتقلت بعدها إلى حضن والدها.

«وأحبك أيضًا يا بابا».

مسح على رأسها للحظة، بينما روبي تنتظر بترقب لشيء ظنت أنه مستحيل... ازدرد مارسيل بخفة، ثُمّ تشجع أخيرًا وقال:

«وأنا أيضًا أحبك».

رفع عينيه إلى روبي، لكنّها أشاحت ببصرها إلى ميا ومسحت على يدها قائلة:

«سيطول التسجيل، وقد حان موعد نومك. ما رأيك أن نكمله غدًا؟»

تثاءبت ميا: «أستطيع المقاومة، ولا يزال هنالك الكثير، وأريد لبابا أن يشاهده».

لمس مارسيل كتفها برفق: «سأشاهده في وقت آخر بالتأكيد. أريد أن أرى كل ما فاتني».

لم تنظر إليه روبي هذه المرة، ثُمّ حدث كل شيء بسرعة. غادر، واستعدت ميا للنوم، استلقت على فراش والدتها وانتظرت حتّى دخلت واستلقت بجانبها، وكم اشتاقت لذلك القرب من ابنتها، بلا خوف أو أفكار تقلقها. كانت مستعدة لتقص عليها أفضل القصص، لولا أن باغتتها ميا بحقيقة بريئة، لكنّها هبطت على قلبها كالمطرقة:

«كان بابا من اقترح أن نتناول الطعام معًا يا ماما، ولقد فرحت كثيرًا بهذا الاقتراح... أتمنى أن نتناول كل الوجبات معًا دائمًا».

سألتها وهي ما تزال تمسح على رأسها بحنان: «هل كان هو من اقترح ذلك حقًا؟»

أومأت ميا، ثُمّ همست كما لو أنها تكشف سرًا خطيرًا:

«أخبرك بسر يا ماما».

«ما هو؟»

«إن بابا يحبك».



اضطربت روبي بعد أن تذوقت السلام لفترة وجيزة فقط، ثُمّ سألت: «هل أخبرك بذلك؟»

«أجل، وهو يتحدث عنك كثيرًا، ويقول إنه يريد أن يكون معك للأبد».

ابتسمت ميا بخجل، ثُمّ طلبت القصة، فأطاعتها روبي وبدأت تسرد واحدة بذهن مشوش، شاردة إلى درجة أن ميا لم تفهم، واستسلمت للنوم.

لم تذق روبي طعمه أبدًا؛ تتقلب في فراشها بنفور، تشعر أن رائحة مارسيل علقت في شقتها، وفي غرفتها رغم أنها قامت برش عطرها.

كانت ترفض الاعتراف أن الرائحة في أنفها، وأنه هو نفسه عالق في عقلها، وروحها، وفي كل أفكارها... مثل الفيروس تمامًا!

فيروس أو ربما مارسيل الجديد. تعددت الأسماء، لكن الأثر واحد، ولم تعد تحتمل ذلك، فنهضت أخيرًا، ولفت رداءها حول جسدها جيدًا، ثُمّ خرجت من شقتها في منتصف الليل قاصدة شقته.

فتحت الباب مباشرة دون طرقه ودخلت، ثُمّ تجمدت عندما رأته جالسًا أمام حاسوبه، يتحدث إلى أحدهم عبر الشاشة، فشعرت بالحرج يتصاعد في وجهها حتّى تحول إلى اللون الأحمر.

اقترب منها روكو واحتك بساقها، وكأنه يرحب بها، ثُمّ عاد إلى الانشغال بكرته بعيدًا، فتنحنحت محاولة استعادة شيء من هدوئها.

«كان الباب مفتوحًا».

حدق بها قبل أن يستدرك نفسه وينظر إلى الشاشة: «سنكمل لاحقًا».

أتاه صوت تود عبر السماعة: «لا بأس».

أغلق مارسيل الحاسوب، ثُمّ نهض عن الطاولة واتجه نحوها، فبادرت هي بالسؤال قبل أن يقترب أكثر: «هل قاطعت شيئًا؟»

«لا عليك، كان ذلك معالجي».

أومأت بتحفظ، ثُمّ أخذت نفسًا عميقًا لتقمع الحرب التي تدور داخلها، ولكن دون فائدة. كل ما استطاعت فعله هو إبقاء الفوضى حبيسة فقط، كي لا تنفجر خارجًا، غير أن مارسيل كان يرى اضطرابها بوضوح؛ يراه في شد فكها، وعينيها اللامعتين، ويدها التي تنقبض وتنبسط دون وعي.

سأل بصوت منخفض: «ماذا حدث؟ هل كل شيء على ما يرام؟»

هزت رأسها: «لا. أنا مرهقة ولدي مشاكل تكفيني، لذا أريد أن أنهي ما يدور في عقلي، وأن أقول ما لدي!»

ابتلعت ريقها وأخذت نفسًا عميقًا آخر، فاقترب منها أكثر، وقال بنبرة هادئة: «حسنًا...»

أجبرت الكلمات على الخروج: «قلت إنك لن تجبرني على الموافقة على الزواج، ولكنك لم توضح موقفك. هل كنت أنت من فاتح الدون بالأمر؟ هل ترغب بالزواج بي؟ أنت هنا بصفتك من؟»

لم يتردد مارسيل في الإجابة، فقد ولى الزمن الذي اعتاد أن يكتم فيه مشاعره أمام روبي.

«لم أفاتحه بشيء... وموقفي هو أني أريد الزواج بك، ولكني لن أجبرك على ذلك إن لم تكن لديك رغبة».



اضطربت روبي وقالت بأعصاب مشدودة: «لا يمكنك أن تأتي فجأة وتقول إنك تريد الزواج!» وأضافت بارتباك: «أنا... كان من المفترض أن أتزوج أندرياس!»

«وكان ذلك من تدبير العجوز».

«ليجبرك على الخروج. أعلم! ولكني لست لعبة».

هزّ رأسه، وقد بدا عليه الضيق من فكرة كهذه أكثر من غضبه مـــن

كلامها: «لست كذلك، وغضبت عندما عرفت أنه استغلك بتلك الطريقة، ولكنني الآن ممتن أنه فعل ذلك. اتخذت القرار الصحيح بالعودة مبكرًا».

حدقت به وكأنها لن تصدق ما سمعت، ثُمّ ارتفع صوتها: «ولم تكن لتعود مبكرًا إن لم أوشك على الزواج؟ من تظن نفسك لتكون المقرر أصلًا؟ تختفي ثُمّ تظهر فجأة وأنت شخص جديد وتريد الزواج بي؟ بهذه البساطة؟»

اقترب خطوة أخرى منها واحتج: «لم يكن الأمر بسيطًا أبدًا. نعم، اختفيت، ولكني أخبرتك أين كنت، ولا أزال أرغب بالحديث معك عن الوقت الفائت».

عقدت ذراعيها وهي تتنفس باضطراب: «ماذا لو أراد الدون تزويجي حقًا؟ ماذا لو أخبرتك أني أريد الزواج بأندرياس؟»

تبدلت ملامحه للغضب: «كنت لأحارب من أجلك في كل الأحوال وأمنع زواجك منه، فهو لا يستحقك».

رفعت حاجبًا بازدراء: «ومن يستحق؟ أنت؟ هل تظن أني سأعود إليك؟»



«لا أستحقك، ولكن لدي أمل أن نعود إلى بعضنا».

قالت بانفعال: «تخلَّ عنه إذًا! فأنا لن أعود إليك. تغيرك، وبقاؤك بجانبي عندما انهرت، ما قلته وما فعلته، لم يغير شيئًا. لم أتأثر! لذا استسلم وتوقف فقط».

كان يدرك أنها تكذب، فضغط بهجوم مضاد: «أتوقف عن ماذا؟»

أشارت بينهما بعصبية: «عن هذا! هذا! لا يمكنك أن تفعل ما تفعله بي».

أربكها أكثر: «ولكنك قلت إنك لم تتأثري».

صرخت بغضب: «مارسيل!»

قابل غضبها بالهدوء: «روبي...»

هربت دمعة دون سيطرة، فاقترب ليمسحها لها، لكنّها تراجعت إلى الخلف، وكأن لمسته ستحرق آخر شيء صامد فيها.

قالت بصوت يرجف قهرًا: «لا يمكنني نسيان الماضي وتجاهله!»

رفعت يدها وضربت صدره ضربة موجوعة أكثر مما هي قوية: «قلت إنك تعرفني، وكنت تعرفني حينها أيضًا، فلماذا آذيتني؟» ضربته مجددًا: «هل كان سهلًا عليك أن تشاهدني أتعذب بسببك؟ لماذا عاملتني بتلك الطريقة عندما كنت أكثر من يعرف الحقيقة؟»

نظر إليها بندم: «أنا آسف... وأعرف أن أسفي لن يغير الماضي، لكني أريدك أن تمنحيني فرصة لأشرح لك كل شيء...»

«لن يغير شرحك أي شيء، فلقد انتهينا منذ زمن. لنغلق هذا النقاش للأبد، من فضلك».



«انتظري أرجوك...»

لكن روبي لم تنتظر، بل هربت إلى شقتها بخطوات سريعة، وقلبها يعتصر، ثُمّ دخل مارسيل بعد لحظات وهو يحمل صندوقًا متوسط الحجم معه.

قالت بأعصاب مشدودة: «اخرج، فميا نائمة ولا أريدها أن تستيقظ على صوت شجارنا».

«سأخرج، ولكني سأعطيك هذا الصندوق أولًا. ستجدين داخله مذكرات جلساتي... لم أكن أستطيع التحدث في البداية، لذا أخبرني الطبيب أن أكتب، وفعلت».

أكمل مشيرًا إلى الصندوق: «إن لم تريدي سماعي، فأرجوك اقرئيها... ستجدين كل شيء هنا».

أدارت روبي ظهرها له وتمالكت دموعها قدر المستطاع، فوضع مارسيل الصندوق فوق الطاولة، ثُمّ نظر إليها بشيء من الأمل والخوف في آنٍ واحد؛ فهو يترك آخر وسيلة يملكها للوصول إليها بين يديها... إما أن تأخذها، أو تلقي بها بعيدًا.

«تصبحين على خير».

26: خطر

«مذكرتي العزيزة، هذه أوّل مرّة أكتب فيها بعد انقطاع طويل. امتلكت الشجاعة أخيرًا لأدوّن كل ما حدث، وقد قالت لي طبيبتي إن هذه خطوة مهمة للمضي قدمًا في حياتي. أشعر ببعض التحسن، وسعيدة بهذا الإنجاز. صحيح أني في البداية... لا، بل في المنتصف! سوف أُبقي هذه الفكرة حية حتّى تترسخ داخلي... أنا في منتصف الطريق، وأنا أتحسن!

مررت بلياٍل صعبة، طاردتني فيها وجوه وأصوات الرجال الذين عذبوني، ولكني تحملت، وفكرت بالغد وأنه سيكون أفضل، وإن لم يكن، فاليوم الذي يليه، والذي يليه، والذي يليه. يجب أن أكون قوية.

أنا أتحسن في كل شيء... عدا من ناحية مارسيل.»



«هل قرأتِ المذكرات بعد؟»

أجابت روبي بانكماش خافت، وهي تشيح بنظرها إلى طرف الطاولة: «لا...»

مضى شهر.

تنهدت بتعب، ثُمّ قالت: «شهر وثلاثة أيام... أعرف. مضى، وحدث الكثير خلال هذه الفترة كما تعلمين. بتُّ أقضي وقتًا أكثر مع ميا، وتنام عندي، ونتناول وجباتنا معه أحيانًا، وخرجت البارحة إلى الحديقة



لأشاهدها وهي تلعب مع روكو، وكان هو موجودًا. لم نتفاعل كثيرًا، ولكنه سألني عدة مرات إن كنت قرأتها أم لا.»

صمتت كارمن لحظة، ثُمّ سألت: «ولماذا لم تقرئيها بعد؟»

حدقت روبي في الفراغ طويلًا، ثُمّ شبكت يديها ببعضهما، وقالت بتردد: «هناك علبة صغيرة لم أفتحها، وخمس مذكرات متسلسلة. أنا خائفة مما قد أجده في صفحاتها، وهو لا ينفك يضغط على قلبي و... لا أعرف ما العمل.»

«نصيحتي لك هي أن تقرئيها، فربما تجدين فيها إجابات الأسئلة التي ما زلتِ تعانين منها، وربما تساعدك في تخفيف الألم أو الفوضى التي تشعرين بها.»

أومأت روبي على مضض، فقط دون اقتناع كامل، ثُمّ علا صرير مكبرات الصوت في الخارج لثانية، فأفزعها، قبل أن تتذكر ما يجري في الخارج، وتهدأ.

استرقت كارمن نظرة عبر النافذة، ثُمّ قالت بابتسامة خفيفة: «اليوم المنتظر، الخوليو.»

نظرت إليها: «هل ستحضرين؟»

هزت روبي رأسها نفيًا: «لست مدعوة... وحتّى لو قام بدعوتي فلن أحضر. لا أشعر برغبة في التواجد بينهم بعد ما حدث.»

أومأت كارمن بتفهم، ثُمّ حاولت تلطيف الأجواء: «هل تعلمين أن هذه زيجته الثالثة؟»

ابتسمت روبي ابتسامة صغيرة: «أعلم. لديه حظ سيئ مع النساء.»



«ولكن يبدو أن هذه المرّة مختلفة. أعرف زوجته وهي رائعة جدًا.»

«هل ستحضرين؟»

«مع الأسف، لدي رحلة عمل مهمة، ويجب أن أذهب إلى المطار بعد ساعة.»

ودعتها روبي بعناق قصير، ثُمّ وقفت عند النافذة وتأملت التجهيزات والزينة التي غطت الفناء، وكذلك أندرياس الذي يتحدث إلى الرجال حوله ويملي الأوامر.

رفع بصره إلى نافذتها فجأة، لكنّها التفتت في اللحظة نفسها على صوت ميا وهي تدخل بعد أن استحمت في شقة أبيها، ولم ترَ الأسى الذي ارتسم على وجهه للحظة، ثُمّ اختفى.

قالت وهي تتفحص شعر ابنتها: «أحسنتِ يا ميا. لا توجد بقايا شامبو في شعرك. أصبحتِ كبيرة.»

«هل يمكنني وضع مساحيق التجميل إذًا يا ماما؟»

«لستِ كبيرة إلى هذا الحد، ولكن سأفعل شيئًا بسيطًا.»

«أريد أن أبدو جميلة مثل العروس!»

فَرَصَت خدها بحنان: «أنتِ جميلة أصلًا، وستزدادين جمالًا عندما تكبرين.»

سرّحت روبي شعر ابنتها بعناية، وجعلت أطرافه تتموج قليلًا، ثُمّ وضعت لها طلاء الأظافر الأبيض كما طلبت، وظلت ميا تنفخ على أصابعها بفمها الصغير حتّى يجف، قبل الانتقال إلى مساحيق التجميل.

«سأضع مرطب الشفاه في حقيبتك اللامعة إن احتجتِ إلى تجديده.»



قالت ميا وهي تراقب نفسها بإعجاب: «أريد أن أرتدي الفستان الوردي! لقد سألني بابا كي يرتدي ربطة عنق تتماشى معي.»

رفعت روبي حاجبيها: «أوه... فهمت.»

ارتدت ميا الفستان، ووضعت لها روبي زينة الشعر المناسبة، ثُمّ ارتدت الحذاء وحملت حقيبتها استعدادًا للرحيل.

لم تمضِ لحظات حتّى طرق مارسيل الباب ودخل، فدارت ميا أمامه كالأميرات، ليبتسم ابتسامة صغيرة، كانت كافية لبعثرة روبي.

كان يرتدي بدلة رمادية على غير عادته، ولكنّها لاقت به كثيرًا، وربطة عنق وردية فاتحة متناسقة مع لون فستان ميا.

«تبدو كأمير يا بابا!»

«شكرًا... وتبدين كأميرة أيضًا.»

دارت ميا بلطافة مجددًا: «أعرف.»

كانت روبي تحدق بهما وهي تشعر بدفء اللحظة ينساب إلى داخلها رغمًا عنها. لم تكن تبتسم، ولكن هناك راحة، وسكينة، ورغبة في حفظ هذه اللحظة داخل إطار، حتّى لو لم تكن جزءًا منها.

«التقطي لنا صورة معًا يا ماما.»

أخرج مارسيل هاتفه قائلًا: «التقطيها من هاتفي.»

أومأت وأخذت هاتفه، ثُمّ حدقت بخلفية شاشته للحظة قصيرة انتبه لها؛ كان يضع صورة لها مع ابنتهما، التقطها عندما أرته ميا ألبوم الصور.

ازدرَدت بخفة، وأجبرت نفسها ألّا تطيل النظر، ثُمّ جهزت الكاميرا لتتخذ ميا وضعية فورًا، بينما مارسيل ما يزال ينظر نحوها فقط.

«واحدة أخرى يا ماما.»

التفتت إلى والدها: «احملني، ولكن لا تفسد الفستان.»

«حاضر.»

حملها مارسيل كما طلبت، فابتسمت سعادة، بينما هو ينظر لها بابتسامة صغيرة، لتلتقط روبي الصورة، ثُمّ تعيد إليه الهاتف وتودعهما بحزن دفين...

نبَح روكو وأعادها من شرود ذهنها، فانحنت وحملته عن الأرض، ثُمّ قالت بصوت بدا محبطًا: «سنكون وحدنا اليوم يا روكو.»



مشت ميا ممسكةً بيد والدها نحو القاعة التي تقام فيها مراسم الزفاف، ثُمّ قالت بحماسة: «لم أحضر زفافًا منذ مدة، وأنا متشوقة جدًا لرؤية العروس!»

نظر إليها مارسيل بطرف عينه، بينما يبطئ خطواته ليتماشى معها: «بإمكانك رؤيتها عندما تبدأ الحفلة في المجمع، ولكنك تصرين على الذهاب.»

اتسعت عيناها بدهشة بريئة: «يجب أن أشاهد مراسم الزواج. هذا أهم جزء! ما بك؟»

هزّ رأسه مستسلمًا: «حسنًا، حسنًا... لا تغضبي.»

«لست غاضبة يا بابا، أنا أشرح لك فقط.»

اتجهت الأنظار نحوهما فور دخولهما القاعة، لكن ميا لـــم تلاحظ



النظرات؛ عيناها تبحثان عن جدها، وما إن رأته حتّى أشرق وجهها وتركت يد والدها لتركض نحوه وتعانقه.

راقبها مارسيل للحظة، ثُمّ تقدم إلى الداخل دون أن يلقي التحية على أحد، وجلس في الجهة اليسرى من الدون كما أشار له لورينزو.

مرت بضع دقائق، ثُمّ تنحنح ريكاردو وقال بتردد: «مرحبًا... يا أخي الأكبر.»

تشجعت فاليريا بعده، وسألته بصوت ألطف: «كيف حالك؟»

انتقلت الأنظار إلى مارسيل، وترقبوا ردة فعله. نظر إليها مطولًا دون أن تتبدل ملامحه، ثُمّ أومأ برأسه فقط، وعاد بصره إلى ميا التي تلقي التحية على الجميع بعفويتها المعتادة، وتتباهى بفستانها الجميل، دون الشعور بالتوترات الخفية التي تفيض من العائلة حولها، ثُمّ عادت إلى جانبه، واستعدت لمشاهدة المراسم.

بدأت الموسيقى، ودخل خوليو القاعة أولًا، وسط ترحيب حار وتصفيق صاحبَه توترًا بدل أن يطمئنه، ثُمّ دخل الإشبينون، أصدقاء العريس، ومعهم الإشبينات، صديقات العروس، واتخذوا مواقعهم.

عدل أندرياس بدلته السوداء، ثُمّ مال برأسه قليلًا نحو خوليو وقال بصوت منخفض: «هذه المرّة الثالثة. يجب أن تكون أكثر استرخاء.»

وصل صوته إلى بعض الرجال في الصفوف الأمامية، فاهتزت أكتافهم من الضحك المكتوم، لكن نظرة واحدة من الدون كانت كافية لابتلاع كل تلك الضحكات.

ثُمّ تبدلت الموسيقى لأخرى أنعم وأكثر كلاسيكية، فوقف الجميع، واتجهت أنظارهم نحو المدخل، حيث ظهرت العروس ومشت بجانب

والدها، ليزفها إلى زوجها.

انبهرت ميا بشكلها، ثُمّ همست لأندريه الجالس خلفها: «إنها جميلة جدًا، صحيح؟»

همس أندريه: «لا أفهم طريقة التقييم بالضبط، لكن أبي علمني أن كل النساء جميلات، وأمي في المرتبة الأولى، لذا سأوافقك الرأي.»

هزّ مارسيل رأسه ببرود، ثُمّ رمق أندرياس في اللحظة التي مال فيها نحو خوليو مجددًا وهمس: «عروسك فوق التقييم، مما يعني أن هذا الزواج لن يستمر. سأفوز بالرهان!»

رد خوليو من بين ابتسامته الثابتة: «اخرس.»

ارتفعت المباركات بعد انتهاء مراسم العقد، وانهالت الدعوات بزواج سعيد ومستمر هذه المرة، وخلال ذلك، انسحب أندرياس إلى زاوية القاعة حيث كانت إيزابيل تقف وحدها.

طبع قبلة سريعة على يدها، ثُمّ قال: «لم أقدمك إلى الدون بشكل رسمي بعد، فتعالي معي.»

ابتسمت بنعومة، ثُمّ أخذت بذراعه، فقادها معه إلى حيث يجلس الدون وعائلته، متجاهلًا مارسيل عمدًا.

«هذه خطيبتي، إيزابيل مارلون.»

رد الدون بنبرة رسمية: «يسرنا لقاؤك.»

صافحته إيزابيل بأدب، وقالت بابتسامة موزونة: «وأنا كذلك. لطالما أردت مقابلة الرجل الذي يعتبره أندرياس والده... شكرًا لعنايتك المستمرّة به.»

لمعت عينا أندرياس بسعادة وفخر لردها، ثُمّ عرفها على فيرونيكا التي أثنت على فستانها وجمالها، وأخيرًا على لورينزو الذي قابل ابتسامتها المتكلفة بأخرى باردة لا يمكن الوثوق بها.

ومن زاوية بعيدة في القاعة، وقفت لورينا وراقبتهما بصمت، لكن الحسد والحزن كانا يستقران في عينيها، ولم تستطع إيقاف ذلك حتّى أتى أندريه وصرف انتباهها عنهما.



راقبت روبي توافد الضيوف إلى الفناء خلسة من خلف الستائر. تأملت الوجوه السعيدة، والأزياء المبهجة، والفرقة الموسيقية، والراقصين المفعمين بالحيوية، وفي صدرها شعور موحش.

ثُمّ ابتعدت عن النافذة فجأة عندما لمحت مارسيل يصعد الدرج؛ أخبرها قلبها أنه قادم إليها، لذا أسرعت بالجلوس على الأريكة وتظاهرت بمشاهدة التلفاز، كأنها لم تكن تتلصص على الفناء قبل لحظات.

طرق الباب قبل فتحه، ثُمّ قال: «كيف أحوال روكو؟»

أجابت من دون أن تنظر إليه: «لم يسبب أي متاعب.»

«جيد.»

سألت وهي تدعي اللامبالاة: «وأنتم؟ كيف كانت المراسم؟ وأين ميا؟»

«لا بأس بها، وهي مع أندريه.»

أومأت روبي فقط، ثُمّ قالت بنبرة محايدة: «لا تدعها تفرط في تناول الكعك.»

أومأ مثلها، ثُمّ قال: «سآتي لتفقدك لاحقًا.»

نظرت إليه أخيرًا: «لا داعي لذلك، فأنا لست طفلة.»

«أعرف، لكني ما زلت أريد ذلك.»

غادر بعد إلقاء تلك الكلمات، لتنكمش في جلستها أكثر وتطلق تنهيدة طويلة، تلتها أخرى قصيرة عندما سمعت صوت سقوط شيء ما في غرفتها.

«روكو! ماذا أوقعت الآن؟»

دخلت غرفتها لتراه يتصارع مع وشاحها وكرته الصغيرة، وقد أسقط صندوق مجوهراتها على الأرض، فجاءت بسرعة لتجمع ما تناثر حوله.

«يا لك من كلب سيئ!»

توقف روكو عن اللعب ونبح في وجهها وكأنه يحتج على الاتهام، فضحكت روبي ضحكة رقيقة، تلاشت عندما نظرت إلى الصندوق الخاص بمارسيل.

مدت يدها نحوه، وفتحته بتردد. تأملت المذكرات ذات الأغلفة الجلدية، ثُمّ التقطت العلبة الصغيرة الموضوعة بجانبها، وفتحتها بعد صراع نفسي آخر.

رأت بتلات وردة حمراء داكنة، جافة وهشة، متكسرة إلى قطع صغيرة، وبجانبها زوج السوارين اللذين ابتاعتهما في البندقية.

اتسعت عيناها؛ لم تصدق أنه احتفظ بالسوارين كل هذا الوقت. ازدرَدت بصعوبة، وأغلقت العلبة بسرعة، ثُمّ التقطت المذكرة الأولى، ومسحت على غلافها بأصابع مرتجفة.

تسلل الخوف إليها من جديد، لكن كان هناك جزء منها يرغب بإجابات ليرتاح. زفرت نفسًا مرتعشًا، واستجمعت شجاعتها، ثُمّ فتحت أول صفحة



وقرأت تاريخ الجلسة الأولى، وما كتبه...

«حدقت بهذه الورقة الفارغة لساعة قبل أن أقرر ما أكتبه، لأني احتجت مقدمة لك يا تود. أخبرتني أن أكتب، وسألتني سؤالًا، لذا سأجيب وأدون كل شيء.

كان سؤالك الأول يقول: ((لماذا أنت هنا؟))

أنا هنا لأنني لا أستطيع تحمل الحياة بدون روبي بعد الآن.»

صرخت صرخة قصيرة، وأغلقت المذكرة فورًا عندما دوى صوت الموسيقى العالية فجأة من الخارج.

«سحقًا، لقد سقط قلبي!»

اقتربت من النافذة مرّة أخرى، بينما روكو ينبح ويمسح على الباب برغبة واضحة في الخروج، فابتسمت بشفقة وأشارت له بالقدوم إليها.

حملته عن الأرض برفق ومسحت على جسده الصغير: «آسفة يا روكو. أعلم أنك ترغب في اللعب خارجًا مع ميا، ولكن نحن مجبران على البقاء هنا الليلة.»

أزاحت الستائر قليلًا لتشاهد ما يحدث في الفناء... كان الاحتفال قد بدأ، وانعكست الأضواء على الحضور الذين أحاطوا بخوليو وعروسه، يصفقون ويرقصون ويمرحون، وبعضهم يشارك الفرقة الموسيقية بالغناء.

تنقلت عينا روبي بين الحضور، ثُمّ غيم عليها الحزن للحظة؛ لم تلمح دانتي بينهم، وتساءلت إن كان يحبس نفسه في مكان ما، ويراقبهم خلسة مثلما تفعل، أو أنه ابتعد عن المجمع الليلة كي لا يراه أحد.

نبح روكو وأنقذها من الغرق في التفكير، فربتت على رأسه وأشارت إلى ابنتها: «انظر يا عزيزي، إن ميا هناك، ترقص مع أندريه. مارسيل يراقبها وينظر باتجاه نافذتنا.»

حولت نظراتها إلى البقية، وضحكت بهمس عندما رأت رقص ترياكي الغريب. بدا الكل سعيدًا، عدا لورينا التي تجلس وحدها، وترتشف من العصير، وكأنها ليست في مزاج للاحتفال.

أشارت بذقنها إلى جهة أخرى، وهمست: «تلك هي إيزابيل الشهيرة بدافينا، وبجانبها من كان صديقي، ثُمّ خطيبي، والآن لا أعلم ماذا أسميه، ولكنه خطيبها حاليًا.» أضافت: «آمل أن يتزوجها وتنجب له العديد من الأطفال حتّى تصبح كالبرميل!»

عادت بعينيها إلى ميا من جديد، وتأملتها ترقص وتضحك مع أندريه وعمها ريكاردو، ثُمّ فاليريا والفتيات الأخريات، وكأنها صاحبة الحفلة.

«إن ميا تملك عائلة كبيرة حقًا، وكم أنا سعيدة من أجلها... لقد أردت منحها ذلك، أردت منحها إخوة وأخوات وأن أؤسس عائلتنا الكبيرة.»

وضعت روكو على الأرض، ثُمّ ابتعدت عن النافذة وجلست على الأريكة، فصعد بجانبها وكأنه شعر بانكسارها، ويريد مواساتها.

ربتت على رأسه: «شكرًا يا روكو. أنت لطيف حقًا، وإضافة رائعة لنا.»

تأملته للحظة، ثُمّ تذكرت مقدمة مارسيل وزاد فضولها أكثر. أغمضت عينيها لدقيقة، وزفرت نفسًا عميقًا، قبل أن تفتح المذكرة، وتتابع القراءة...



جلس مارسيل إلى جانب والده كأنهما تمثالان، تنبض الحياة حولهما وهما يكتفيان بالمراقبة، تتنقل أعينهما بين الوجوه بحذر يخفيانه خلف قناع اللامبالاة.

كان الدون فيرناندو يركز على المحيطين بعائلته، أما مارسيل، فقد صبّ كل تركيزه على ميا التي تركض من مجموعة إلى أخرى، برفقة أندريه الذي شعر برغبة في ضربه فجأة.

وبعد صمت طويل، قال دون نزع عينيه عن ميا: «لدي سؤال لك.»

نظر والده إليه: «اسأل.»

«أنت تعامل الجميع، وخاصة النساء، برسمية، فلماذا تقسو على روبي بالتحديد؟»

«لدي سبب.»

التفت إليه مارسيل أخيرًا، وقال ببرود: «ستتوقف عن ذلك، أيا كان السبب.»

رفع الدون حاجبه: «هل تهددني وتأمرني مجددًا؟»

رد مارسيل بلا تردد: «أجل، فمع الأسف لا أستطيع ضربك.»

ظهر طيف ابتسامة على وجه والده: «هل تود ضربي؟»

لم تتغير ملامح مارسيل وهو يقول: «أجل، ولكني لا أستطيع، لأن ذلك من الممنوعات كما تعلمت.» أضاف بنبرة جافة: «كما أنك عجوز، وسيكون ذلك ضد حقوق العجزة أيضًا.»

أومأ الدون، وعاد مارسيل لينظر إلى نافذة روبي مرّة أخرى، وأطال النظر هذه المرة، حتّى سأله والده فجأة: «لماذا لم تأتِ؟»



«لم يقم أحد بدعوتها.»

«إنها من عائلتنا، لا تحتاج إلى دعوة.»

«ليست كذلك...»

نظر مارسيل إلى ابنته التي تسأل العروس عن تاجها الصغير، وبدا له أنها تقص عليها قصة خيالية أيضًا، ومن المؤكد أن لها علاقة بالأميرات.

«سأخرج الصبي وأعيده إليها.»

لم يستطع الدون ألّا يتفاجأ من هذا الاعتراف: «ولماذا أنت بالتحديد؟»

«لأني لا أهتم للنظرات أو حتّى الشتائم التي سأتلقاها. هي متعلقة بذلك الصبي، وأنا لا أريدها أن تكون الطرف الملام أو المسؤول.»

اكتفى الدون بإيماءة خفيفة، وعيناه تراقبان زوجته وابنته تتهامسان حول شيء ما، ثُمّ قال: «ماذا لو كان الصبي في خطر، أو سيجلب الخطر؟»

«وهل هناك منا من ليس في خطر؟ حتّى أنا في خطر، والدليل هو عدد الحراس الذين زدتهم حولي خفية.»

نظر إليه بجدية: «هل هم آل ريفيرا؟»

«لقد أرسلوا رسالة تهديد... يقولون إن حياة ابن بيرتو الأكبر ذهبت هباءً، ولا أعلم متى سيضربون، متجاهلين حقيقة أنني احتجزت ديرين ريفيرا.»

«وهل لورينزو يتابع الأخبار من جواسيسه؟»

«أجل.»



قلب مارسيل الأمر في رأسه، ثُمّ نظر إلى ميا التي ركضت نحوه، وتوقفت لتلتقط أنفاسها وتمسح العرق عن جبينها.

«أريد تناول الكعك يا بابا.»

«ما رأيك أن تستريحي أولًا؟»

هزت رأسها بعناد: «لا، لا، لا! هيا، أحضر لي حصة من قمة كعكة الزفاف.»

تنهد باستسلام وأخذ بيدها إلى حيث الكعكة الكبيرة ذات الأدوار المتعددة، وقسم لها قطعة صغيرة في البداية، فرمقته باستياء، لكنه ناولها الطبق دون نقاش.

«أوصتني والدتك ألّا أدعك تفرطين في تناول الكعك.»

تناولت قضمتها الأولى بنهم: «هذا ليس إفراطًا.»

«وما الحد الذي تسمينه إفراطًا بالضبط؟»

أجابت بضحكة: «لو تناولت هذه الكعكة كاملة.»

«هل تدركين أننا نتحدث عن خمسة أدوار من الكعك الملغّم بالسكر الصناعي؟ قد تصابين بداء السكري حقًا يا ميا... وهذا ليس جيدًا.»

لعقت الشوكولا عن شوكتها وهي تقول: «لماذا؟ هل سيعطونني إبرة مؤلمة؟ يمكنني تحملها، فأنا قوية.»

«ستمنعك تلك الإبرة من تناول الحلوى والمعكرونة والبيتزا لبقية حياتك.»

شهقت بخوف: «لا يا بابا! مستحيل!» نظرت إلى طبقها بفزع: «ما العمل؟»

عقد ذراعيه وهو يشعر بالنصر: «كلي نصف الطبق فقط.»

راقب الدون المشهد وهو يبتسم دون إدراك، أما أندرياس، فقد كان يراقبهما بنظرات مليئة بالغيرة والحسد، حتّى لمح لورينزو يشق طريقه بخطوات متسارعة نحو الدون، ويهمس له بشيء.



لم تلاحظ روبي المنغمسة في القراءة أن الموسيقى قد توقفت في الخارج، وأن الحفلة قد انتهت أبكر من المتوقع؛ كانت منفصلة عن العالم حولها تمامًا، عالقة وسط عاصفتها الخاصة، تبكي، وتشهق، وتشتم، ثُمّ ترتجف وتخشى الانتقال إلى الصفحة التالية... حتّى سمعت صوت ميا الذي سحبها من العاصفة وجعلها تغلق المذكرة في يديها.

مسحت دموعها جيدًا، ثُمّ نظرت إلى ابنتها التي اقتحمت الشقة وهتفت بفرح أنهم ذاهبون في رحلة مع جدها.

عقدت روبي حاجبيها بعدم فهم، ثُمّ اضطرب قلبها عندما دخل مارسيل بعدها مباشرة، ولم ترتح لوجهه، وكأنه يحمل أخبارًا سيئة.

أمر ميا أن تأخذ روكو إلى غرفتها وتغير ملابسها، ثُمّ نظر إلى روبي مليًا، وجالت أسئلة كثيرة في رأسه وهو يتأمل وجهها، والانتفاخ حول عينيها.

«هل كنتِ تبكين؟»

ردت بنرفزة دفاعية: «لا، وما الذي يجري؟»

«يجب أن نرحل من هنا.»

«لماذا؟»

«لقد رصدوا دييغو ريفيرا في المكسيك، وهناك تحركات مشبوهة من



عائلته ورسائل تهديد، لذا سيجمع العجوز العائلة والمقربين للحماية، وسنذهب إلى المزرعة الآن.»

انقبض قلبها: «ستأخذون ميا؟»

قال بنبرة مهتمة: «سآخذكما.»

«لست من العائلة. لا بد أنه لم يطلب منك أن تأخذني.»

«أمرني أن أجلب عائلتي... وأنت عائلتي.»

اقترب خطوة نحوها، فارتدت إلى الخلف على الفور وهي تتحاشى النظر إليه.

«سأحضر حقيبة ميا، وأنتِ جهزي حقيبة بكل ما تحتاجينه. سوف ننطلق الآن.»

لم تتحرك روبي من مكانها، فأصر: «أريد إبعادكما عن الخطر.»

هزت رأسها بقلق: «سيستهدفون الدون لا محالة، لن نكون في أمان بقربه!»

«إنهم يستهدفونني أيضًا.»

نظرت إليه باستغراب، ولم تبتعد هذه المرّة عندما اقترب منها مجددًا؛ توقف عقلها عن التفكير تمامًا.

«لا أستطيع الاختباء أو القتال وأنتما بعيدتان عني ويحميكما الهواة الذين لا يفقهون شيئًا... يجب أن أتأكد أنكما بأمان.»

خرجت ميا من غرفتها، فانصرف انتباه مارسيل إليها للحظة، ثُمّ نظر إلى روبي التي اتجهت إلى غرفتها وأغلقت الباب، وكان يأمل أنها تحزم أغراضها كما طلب....

كانت ميا متحمسة جدًا، وكذلك أندريه الذي ظن أنها رحلة استجمام ممتعة مثلها تمامًا، ولو أنهما ركزا في وجوه البالغين جيدًا، لأدركا أن هنالك خطبًا ما، لكن الجميع تصرفوا بطبيعية قدر المستطاع، ودفنوا القلق عميقًا.

انطلقوا بالسيارات إلى المطار، وكان مارسيل آخر الذاهبين؛ لم يرتح قلبه إلا عندما خرجت روبي أخيرًا ومعها حقيبتها.

هتفت ميا بفرح: «سنذهب في رحلة معًا!»

مسحت روبي على رأس ابنتها، وزيّفت ابتسامة صغيرة.

ثُمّ همّ مارسيل بحمل حقيبتها، لكنّها سحبتها منه على الفور وهمست أنها قادرة على حملها بنفسها.

اختارت الجلوس في الخلف، بجانب ميا التي استغربت من ذلك، وباغتتها بالأسئلة، فاختلقت سببًا سريعًا وأخبرتها أنها تريد العناية بروكو خلال الطريق.

كانت تتصرف بغرابة، لكن مارسيل فضّل ألّا يسألها عن أي شيء الآن. قاد السيارة حتّى المدرج الخاص، وما إن رأت روبي السيارات والدون فيرناندو يترجل من إحداها بعد أن تأكد من وصول ابنه بسلام، حتّى عاد إليها التوتر.

كان أندرياس متواجدًا، وكذلك إيزابيل ولورينا مع ابنها فيرونيكا والتوأم، ولورينزو أيضًا... أشخاص لم تعد ترتاح لوجودهم بقربها.



ترجل مارسيل من السيارة، وأمر الرجال بتحميل الحقائب، بينما خرجت ميا وهي تسد أذنيها من صوت الطائرة العالي.

«ماما؟ هيا، يجب أن نصعد إلى الطائرة.»

لم تتحرك روبي أبدًا، حتّى اقترب مارسيل من بابها وفتحه برفق، فطأطأت رأسها على الفور، بينما تأمل هو يديها، ولاحظ كيف ابيضت مفاصل أصابعها من شدة إحكامها لهما.

رفعت ميا صوتها أكثر، وقد بدأ القلق يتسرب إلى حماسها: «بابا؟ ما بها ماما؟ لا تنزل من السيارة! لقد صعد الجميع.»

أطال مارسيل التحديق بروبي، ثُمّ أمر الرجال بإعادة الحقائب إلى السيارة، وأشار إلى ميا أن تعود. أجلسها في مقعدها وأحكم حزامها بنفسه قائلًا: «سنذهب في رحلة برية إلى المزرعة... سيكون ذلك ممتعًا أكثر.»

رفعت روبي رأسها حينها ونظرت إليه بدهشة، فاكتفى بإيماءة خفيفة، ثُمّ صعد إلى مقعده وحرك السيارة، وسط ثرثرة ميا ومقارنتها بين السيارة والطائرة.

«هل يمكننا أن نسبق طائرتهم يا بابا؟»

زفر مارسيل ضحكة خافتة: «سأحاول.»

اختفى خوف روبي بعد لحظات، لكنه خلّف وراءه شعورًا أكثر إرباكًا، سلبها استقرارها، ولم تجد مهربًا منه حتّى وصلوا إلى المزرعة، بعد رحلة استغرقت أربع ساعات.

تأملت البيت جيدًا، لم يكن بمساحة قصر، لكنه كان كبيرًا بما يكفي ليسع الجميع، بسيط التصميم، وقد يبدو أجمل في النهار.

قالت ميا وهي تشد على روكو: «إنه يريد اللعب يا بابا.»

«دعيه يركض قليلًا.»

أفلتته ميا، فانطلق حول المكان بحرية، بينما استمرت روبي بتأمل الأشجار الطويلة، واستنشاق الهواء المختلف تمامًا عن المناخ الاستوائي الرطب الذي اعتادته في ڤيراكروز.

التقت عيناها بالدون مصادفة من خلف زجاج غرفة المعيشة، فأشاحت ببصرها على الفور، ونظرت إلى كبيرة الخدم التي رحبت بهم، ثُمّ قادتهم إلى الداخل.

مشت روبي وهي تنظر إلى الأرض، لا تتأمل شيئًا أو تعلق، تكتفي بتتبع مارسيل وميا، وتخشى الانفصال عنهما ولو لثانية، حتّى أوصلتهم كبيرة الخدم إلى جناح مستقل، يضم غرفة معيشة صغيرة، وغرفتي نوم وحمامًا واحدًا.

شعرت روبي كما لو أنها انتقلت إلى الريف حقًا، لكن ليس أي ريف، ولا أي منزل. كانت ألوان المكان دافئة على نحو مريح، بدرجات الخريف، أرضية خشبية لامعة، وأريكة داكنة تقابل مدفأة حجرية، ورفوف احتوت بعض الكتب.

«لقد وضعوا حقيبتي هنا يا ماما.»

أشارت ميا إلى إحدى الغرف، فتقدمت روبي وتأملتها قليلًا.

لم تكن الغرفة واسعة، لكنّها كانت مريحة مرتبة، وتغمرها إضاءة صفراء ناعمة.

توقفت عن التأمل عندما لم تلمح حقيبتها، ثُمّ رأت مارسيل يتجه إلى الغرفة الأخرى، فأسرعت قبله، ودخلت لتجدها هناك.

حملتها بسرعة وشدت عليها بتوتر واضح، ثُمّ همّت بالمغادرة، فقال: «يمكنك أن تحظي بهذه الغرفة لو أردت.»

قالت بجفاء: «لم أطلب منهم وضعها هنا.»

رد بنبرة ودية: «أعلم. كنت أقترح ذلك فقط. يمكنني النوم على الأريكة، ويمكنك أن تأخذي الغرفة لنفسك.»

«لا. سأنام مع ميا.»

تجاوزته على الفور، واتجهت إلى الغرفة الأخرى وهي ما تزال تشد على الحقيبة التي تخفي فيها المجلد الأخير من مذكراته....



وفي الطابق السفلي، كان أندرياس يتفقد أندريه الذي خرج للعب مع روكو قليلًا قبل النوم، ولورينا التي وقفت تراقبهما عند النافذة، وهي تنقر الأرض بقدمها، ولا تفعل ذلك إلا حين يقلقها شيء إلى درجة كبيرة.

اقترب منها بهدوء، ثُمّ مسح على كتفيها وهمس: «استرخي.»

لم تلتفت إليه، ثُمّ قالت وكأنها تستبق اتهامه: «لم أتصل بدييغو أو أتواصل معه، لو كان هذا ما يقلقك وسبب مجيئك.»

عقد حاجبيه باستغراب: «لم آتِ لهذا السبب، بل لأقول لك أن تهدئي.»

دلك كتفيها برفق حتّى شعر بعضلاتها تسترخي، ثُمّ جعلها تلتفت إليه، وسأل: «ما الذي يشغل بالك؟»

همست بقلق واضح في عينيها: «هل سيقتله؟»

تأمل وجهها لثوانٍ وهو مشوش: «هل يقلقك أمره يا لورينا؟»

ردت بأعصاب مشدودة: «أنا قلقة من عواقب أي قرار يصدره الدون فيرناندو. لا أريد أن تنشب حرب أخرى يا أندرياس. لا أريد أن أخسرك أو أخسر ابننا!»

حاول بث الطمأنينة فيها: «سنحاول تجنب ذلك. نحن بزمام الأمور كما تعلمين.»

«لم تخف والدتي من ذلك قبلهم... ماذا لو لم يعودوا يكترثون لأمر العمة ديرين؟»

«سنوقفهم... لن يمسوا عائلتنا بسوء.»

هزت رأسها بقلق، فأمسك وجهها بين يديه، وأجبرها أن تنظر إليه من جديد.

«سأحميك وأحمي أندريه مهما كلفني الأمر.»

زفرت بتهكم: «لا تدع خطيبتك تسمعك.»

ابتسم ابتسامة صغيرة: «هي تعرف أنني رجل يحمي عائلته... وأنتم الثلاثة أولويتي القصوى.»

أومأت لورينا فقط، قبل أن تطلب منه إدخال أندريه كي ينام، ثُمّ التقطت هاتفها واكتشفت أن وضع الطيران ما يزال مفعّلًا، وما إن ألغته حتّى انهالت الإشعارات دفعة واحدة، وتوقفت عيناها عند رسالة من رقم غريب.

«هذا أنا، أحدثك من رقم آخر وأتوسل إليك أن تجيبي... أنا في المكسيك وأحتاج إلى مساعدتك.»



ارتعد قلبها وكادت أن تفلت الهاتف من يدها. تلفتت حولها بخوف، ثُمّ أسرعت بإغلاق الباب، وعاودت التحديق بالشاشة، حتّى تجرأت وضغطت على زر الاتصال.

«لورينا؟»

همست بغضب مذعور عندما ميزت صوته: «هل أنت مجنون؟ كيف تجرؤ على التواصل معي؟»

«اسمعيني... ليس لي يد في رسائل التهديد. كل ما يجري من تدبير عمي. هو يريد شن هجوم خطير، ولم آتِ إلى هنا إلا لمنعه، لكن رجال آل كورتيز يلاحقونني، لذا أنا مختبئ ومقيد مكاني!»

شدت لورينا على الهاتف وسألته بحدة: «وما الذي تريده مني؟»

«أن تصليني بالدون، يجب أن أتحدث معه على الفور.»

«هل جننت؟ سيقتلوننا!» أضافت بازدراء: «وكيف لي أن أعلم أنك لا تكذب وتستغلني؟»

«هل استغللتك يومًا؟»

مرت لحظة صمت بينهما، ثُمّ همست لورينا: «لا.»

تنهد دييغو بعمق: «حياة والدتي على المحك... ستنشب حرب وسنخسر أرواحًا من الطرفين. عمي جاد، وأنا أريد حماية والدتي، لذا ساعديني أرجوك.»

سمعت لورينا صوت ابنها وأندرياس قادمين، فأنهت الاتصال على الفور، وبدأت تمسح كل شيء بسرعة وكأنها تمحو آثار جريمة.

لكنّها لم تستطع محو الخوف الذي استقر في قلبها، وجعل نبضاته

تضطرب. هناك شعور سيئ يخبرها أن كارثة ستحل عليهم، ولن يكونوا قادرين على التصدي لها في الوقت المناسب إلا بخطة محكمة.



عمّ السكون أرجاء المنزل... وظنت روبي أن الجميع نائم عندما أغلقت آخر مذكرة قرأتها وتركت دموعها تنهمر بألم لا يحتمل.

ضغطت على شفتيها لتكتم صوتها قدر المستطاع ولا توقظ ميا، ثُمّ خرجت إلى الحمام. غسلت يديها ووجهها مرارًا، ولكنّها لم تستطع أن تغسل الأفكار المتعلقة بمارسيل.

كتب كل فكرة راودته عنها، وكل شعور أخفاه، وكل رغبة كتمها...

وضع الحقيقة بين يديها، وتركها في مواجهة أصعب قرار في حياتها.

خرجت من الحمام وهي ما تزال تحاول استجماع شتاتها، فصادفته يدخل إلى الجناح، مكسوًّا باللباس الأسود وكأنه اتحد مع الظلال.

حدقا ببعضهما قليلًا، ثُمّ بادر هو بالحديث: «كنت أتفقد المنطقة، وأتأكد أنها آمنة.»

ردت ببرود: «لم أسأل.»

لم يتراجع، بل سأل وهو يراقب وجهها بعناية: «ولم تأكلي الشطيرة التي حضرتها لك؟»

«لست جائعة.»

«لم تأكلي شيئًا يا روبي.»



رفعت ذقنها وقالت بجفاء: «لا أريد شيئًا منك. لا تعدّ الطعام، ولا تتحدث معي حتّى!»

حدق بها مليًا، ثُمّ اقترب منها دون أن يصرف نظره عن وجهها؛ يحلل كل حركة.

«ما الذي يجري؟ هل أنت مستاءة لبقائنا هنا؟ لو كان ذلك، فأنا أعتذر، وسأبحث لنا عن مكان آخر فورًا.»

«لا شأن لك بي يا مارسيل... لست مسؤوليتك.»

«بلى.»

قالت بعصبية: «لا! توقف عن التقرب مني، وعن بدء المحادثات، أو قول إنك تكترث لأمري... انتهت علاقتنا منذ زمن، لذا ابتعد عني!»

شعر بشيء من الاستياء، لكنه لم ينفعل، وسألها بصوت منخفض: «هل قرأت المذكرات؟»

أجابت بسرعة: «رميتها.»

رمش بعدم تصديق: «لم تفعلي.»

حاولت أن تشد ملامحها وتجمدها كي يصدق كذبتها: «بلى. رميتها في برميل النفايات لأني لا أريد قراءتها، ولا أريد أن يربطني بك شيء سوى ميا.»

«لماذا تقولين هذا الآن؟»

«لأني سئمت منك! ولأن لا شيء سوف يتغير حتّى لو قرأتها. لا أريدك في حياتي، فاستسلم.»

هز رأسه: «لن أستسلم. سأجد طرقًا أخرى.»



ارتفع صوتها قليلًا: «لا شيء سيتغير! لن أسامحك، ولن أمنحك فرصة ثانية مهما فعلت. أنا لا أحبك، ولن نعود إلى بعضنا أبدًا.»

اقترب خطوة أخرى، وترجاها بعينيه: «لا تدفعيني بعيدًا يا روبي.»

همست لتؤكد له: «اقرأ وجهي جيدًا يا مارسيل... أنا لا أريدك.» ثُمّ رمقته ببرود جارح: «تعلم من أخطائي في الماضي، وتحلَّ ببعض الكرامة. كفَّ عن التعلق بي، وابتعد.»

تجاوزته بعد طعنتها الأخيرة، وما إن دخلت إلى الغرفة وأغلقت الباب خلفها، حتّى أسندت ظهرها إليه، رافضةً الانكسار...



27: نحو المجهول

«مذكرتي العزيزة...

أشرقت الشمس وأنا ما أزال مستيقظة، أفكر بمارسيل وما كتبه. خمس مذكرات ظننت أن الجراح وحياته كان النصيب الأكبر منها، ولكن كنتُ أنا من كتب عنها.

قرأت أفكارًا لم أتخيل يومًا أنها مرت في رأسه، ولا أنه شعر بها أصلًا... لقد كان يريد وجودي حوله، ولكنه كان أضعف من أن يبوح لي بذلك أو ليبادر.

ذكر كل لحظة أراد أن يقبلني فيها أو يراقصني، وكل مرّة أراد سحبي إلى حضنه، وكل مرّة اشتاق إليَّ وهو يقف أمامي بوجه جامد كأنه لا يشعر...

ذكر كل لحظة أراد فيها الانهيار بين ذراعي، وكل مرّة شعر فيها بالاختناق ولم يعرف كيف يطلب مساعدتي.

كنت أشعر أنه يعاني، ولكن لم أعرف ممَّ بالضبط، ولا إلى أي درجة كان الأمر يمزقه من الداخل. لم أعرف أنه كان يحترق بين نارين طوال الوقت، وأن صمته لم يكن برودًا دائمًا، بل عجزًا وضياعًا...

لن أخوض في المزيد من التفاصيل، لأن قلبي يؤلمني كثيرًا ولا أستطيع التحمل. لا أريد التفكير فيه وبما كتبه، وما يفعله حاليًا، لأني لا أستطيع أن أكون معه. لا أستطيع سوى أن أدفعه بعيدًا، وأعامله بجفاء حتّى يستسلم ويرحمني من هذا العذاب.

سوف أكتب عن شيء آخر الآن لعلي أنساه... إن الإطلالة هنا، وموقع هذا البيت بديعان بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

استطعت أن أرى الحقول التي لونها الخريف، والأشجار العملاقة شبه العارية بوضوح في النهار، وقالوا إن هناك بحيرة قريبة من هنا ينعكس عليها ضوء الشمس بطريقة ساحرة.

وهناك حظيرة كبيرة أيضًا، فيها أبقار وخيول وربما حيوانات أخرى. لم أرَ كل شيء بعد، لكنني أتوق إلى الخروج بشدة. أريد استنشاق الهواء النقي، والمشي بين الأشجار، والجلوس على العشب كما كنت أفعل في أرياف بلاكبول....»



وضعت روبي مذكرتها جانبًا بعد الانتهاء من كتابتها، ثُمّ اتجهت إلى النافذة، وأزاحت الستار قليلًا لتراقب ما يجري في الخارج.

كان الخدم يجهزون طاولة الإفطار وسط جو ممتاز لتناول الطعام في الحديقة. كانت الأكواب تلمع تحت الشمس، والأطباق توضع بعناية تحت إشراف فيرونيكا التي شاركتهم، وبدت مستمتعة جدًا بالأمر.

ابتعدت روبي عن النافذة، وجلست على الأريكة عندما طرقت كبيرة الخدم الباب، ثُمّ دخلت وهي تدفع عربة الإفطار الخاصة بها، وحضرت الطاولة.

تأملت روبي ما وضع لها باستغراب، ثُمّ سألت: «المعذرة، لماذا إفطاري مختلف عن البقية؟»

وقفت كبيرة الخدم باستقامة وأجابتها بنبرة متزنة: «لم تتناولي إفطارك في أول صباح لك هنا، ثُمّ أطلعنا السيد كورتيز على ما تفضلينه، ومع ذلك



لم يرقَ لك ما أعددناه في الصباح التالي، فأصبح يعده لك بنفسه.»

رمشت روبي بارتباك: «ماذا؟ من السيد كورتيز؟ هل تقصدين مارسيل؟ هل كان هو من يعد الطعام لي؟»

«أجل، وكل الوجبات أيضًا... عن إذنك الآن.»

قبضت روبي يديها بعد مغادرتها، ثُمّ نظرت إلى الطعام باستياء؛ لقد كان كل طبق محضرًا على ذائقتها بالضبط، ولم تشك في أي شيء.

لم تقبل أن تمس الطعام، حبست نفسها في غرفتها، وانتظرت حتّى أتى أحدهم وأخذ الصينية، ثُمّ باغتها النوم لبعض الوقت، واستيقظت بعد كابوس مرعب وغريب، جعلها تنتفض من الفراش.

لم ترَ جوناثان والش، أو هوك ورجاله، بل رأت نفسها تقف عند جثة مارسيل.

لمست عنقها كعادتها عندما تشعر بالاضطراب أو الاختناق، وحاولت الهدوء، ثُمّ نهضت وفتحت النافذة لتستنشق الهواء وتطرد ما رأت من رأسها.

رأت ميا تركض وتصرخ بشقاوة مع روكو والأطفال الآخرين. لا يملكون أدنى فكرة عن المخاطر التي تحوم حولهم، لا ينامون ويستيقظون بقلوب مثقلة بالهموم والأفكار.

«أريد الخروج...»

تفقدت الأرجاء بحذر، ثُمّ ارتدت كنزتها، وخرجت من الغرفة. هبطت إلى الأسفل متجاوزة الخدم الذين تهامسوا حالما مرت بهم، لكنّها لم تتوقف، ولم تنظر إليهم، كل تركيزها ينصب على الباب الذي يقودها إلى الخارج.



سحبت نفسًا عميقًا إلى رئتيها عندما لامست قدماها العشب، ثُمّ راحت تتأمل ما حولها باحثة عن مكان تهرب إليه من الأنظار. كان فضولها يدفعها نحو البحيرة، فسارت بين الأشجار وعلى شفتيها ابتسامة صغيرة.

سرعت من خطواتها حتّى وصلت إلى البحيرة، وهمست بانبهار: «بديعة بحق.»

جالت المكان بعينيها، ثُمّ تلاشت ابتسامتها عندما رأت رجالًا يقفون على جسر خشبي يمتد فوق سطح الماء قليلًا، يحرسون الدون فيرناندو الذي يصطاد السمك، وإلى جانبه مارسيل.

شتمت بخفوت وتراجعت إلى الخلف دون تفكير، ثُمّ توقفت في منتصف الطريق وشتمت مجددًا.

سحقًا لهم، كنتُ في مزاجٍ جيّد.

«ما الذي تفعلينه؟»

ارتجفت والتفتت بسرعة لترى لورينزو خلفها، يحدّق فيها ببروده المعتاد.

ابتلعت فزعتها وقالت: «أتمشّى. هل هذا ممنوع؟»

«لا.»

«جيّد.»

همّت بتجاوزه، لكنه أوقفها حين قال: «موقعك ممتاز، وتراودني فكرة...»

«المعذرة؟»



اقترب منها حتّى بات واقفًا أمامها مباشرة: «تراودني فكرة بقتلك هنا والآن. لن يعلم أحد، وسيستغرقون وقتًا طويلًا ليعثروا على جثتك.»

لم تخف روبي من تهديده، بل رمقته ببرود: «هل بسبب ما فعلته مع الدون؟»

«بالضبط. لقد رفعتِ السلاح في وجهه. تفوّهتِ بكلمات لا تعرفين معناها، ولم تفكّري بالاعتذار حتّى.»

«لن أعتذر.»

تبادلا النظرات لبرهة طويلة، ثُمّ قال فجأة: «أنت تكرهينه.»

«أعطاني كل الأسباب لأكرهه.»

«صحيح، ولكن لو عرفتِ حقيقته لاحترمتِه على الأقل، ولم تفكّري لثانية أن تتفوّهي بتلك الكلمات يومها.»

استنكرت كلامه: «أحترمه؟ جعلني أعيش في عذاب هنا. لا يتوقف عن تهديدي بسلب ابنتي وإبعادي عنها، مثلما فعل مع دييغو، ونحن في خطر الآن بسبب فعلته!»

هزّ لورينزو رأسه مرة: «نحن في أمان بسبب ما فعله، وحتّى دييغو.»

عقدت حاجبيها بعدم فهم، وشرد لورينزو بذهنه للحظة، متذكّرًا الماضي...

لقد احتجز والدته كي يمنع آل ريفيرا من الهجوم أو حتّى التفكير في التحرّك، وهي في ضيافتنا حتّى الآن. قام بنفي دييغو لأنه كان طفلًا، ولم يرد أن يقتله أحد منا بدافع الانتقام أو الولاء، حتّى بعد أن اقتصّ منهم.

أضاف بثقة عميقة: «إنّ الدّون رجل يدرس خطواته جيدًا. لا يحبّذ

الحرب، ولكنه مستعد لها في أي وقت...»



وفوق الجسر الخشبي، حرّر الدون السمكة التي اصطادها، وشاهدها تشقّ طريقها نحو حريتها، بينما مارسيل يتأمل البقعة التي كانت تقف عندها روبي قبل قليل.

قال بنبرة هادئة يغلفها الضجر الواضح: «إلى متى سنجلس هنا؟»

«أعلم أنك تريد اللحاق بها، ولكنك لن تبرح مكانك حتّى تخبرني بالحديث الذي دار بينك وبين لورينا، وتطلعني على خطتك.»

ردّ ببرود: «كلّما قلّت معرفتك، كان ذلك أفضل.»

«...بيدرو.»

نظر إليه مارسيل عندما ناداه باسمه، ورأى القلق في عينيه رغم سكون ملامحه.

«أريد أن أعرف إن كانت هذه أيامي الأخيرة. لا تُبقِني في الخفاء.»

«ظننتك لا تهاب الموت.»

ردّ الدون بملامح جادّة: «لا أخشاه، ولكني أخشى أن أرحل دون توديع عائلتي.»

التفت مارسيل إلى البحيرة أمامه، ثُمّ قال: «لقد تحدّثت إلى دييغو ريفيرا، ورسمت خطة، لكنّها محفوفة بالمخاطر والخِيانات.»

«لست واثقًا بنجاحها؟»

«ليس كليًّا. سأطلعك على التفاصيل بمفردك لاحقًا، لذا هل يمكنني



الذهاب الآن؟»

رمقه الدون بطرف عينه وقال ببرود مستفز: «اصطد سمكة أولًا يا فاشل.»

شتم مارسيل بهمس ورمى صنّارته في البحيرة مجددًا، فإذا بالدون يبتسم ابتسامة ساخرة، مستمتعًا بضجره، ثُمّ تنهد تنهيدة طويلة حملت الحنين والاشتياق إلى الماضي.

«لقد اعتدت الصيد مع والدي عندما كنت صغيرًا، وبعد سنوات من موته، تطوّعت والدتك للصيد معي. كنا نجلس في هذا المكان بالتحديد، نصطاد، ونتثرثر حتّى تظلم السَّماء.»

عمّت لحظة صمت قصيرة، ثُمّ سأل مارسيل دون أن يفضح فضوله: «كيف كانت؟»

«كانت تجسيدًا لكل ما تمنّيته...» ثُمّ نظر إليه: «هل أنت مهتم بمعرفة المزيد عنها؟»

«ليس إلى ذلك الحد، فأنا لم أعرفها قط، ولا أملك مشاعر تجاهها.»

نظر إليه مليًّا: «هذا محزن، فلقد أحبّتك أكثر من أي شيء في هذه الحياة... أتمنى لو حظينا بالمزيد من الوقت معًا.»

لم يعلّق مارسيل بشيء، وظل يراقب طُعمه وهو يبتعد تحت سطح الماء، بعد أن التقطته سمكة صغيرة، حاربت حتّى تحررت من الخطّاف.

«أضعت السمكة.»

ردّ بلا مبالاة: «سأحرّرها في كل الأحوال، لذا لن أصطادها.»

«يقول الحكماء: لو اصطدت سمكة فأطلقها، وإن عادت فهي لك إلى

الأبد.»

عقد مارسيل حاجبيه باشمئزاز: «لا توجد حكمة في هذا إطلاقًا، فالسمكة ستعود مهما فعلت لأنها سمكة ولا تفكّر. ليست مثل البشر.»

«تعني ليست مثل روبي؟»

تأمل المياه مجددًا، ثُمّ قال: «اصطدتها وأطلقتها عدة مرات، ظنًّا أنها ستعود، إلى أن رحلت للأبد... كان يجب أن أصطادها وأبقيها معي.»

«روبي أم السمكة؟»

«روبي ليست سمكة.»

«ما الذي تتحدث عنه إذًا؟»

فتح مارسيل فمه، ثُمّ زفر بانزعاج وأشاح بوجهه: «لا يهم. ما يهم هو أني لا أتفق مع تلك المقولة... إذا امتلكت شيئًا ثمينًا فلا تفرّط فيه وتختبره، فحتّى السمكة قد ترحل وتتركك تتضرر جوعًا.»

أومأ الدون باقتناع، ثُمّ سأل: «كيف تسير الأمور بينك وبينها؟»

«سيئة.»

أشار نحو الصنارة: «يمكنني رؤية ذلك. اسحبها من الماء.»

انزعج مارسيل أكثر: «هل نتحدث عن روبي أم السمكة؟»

ردّ الدون بنبرة متهكّمة: «لا أعلم. أخبرني أنت. لقد حيّرتني.»

اغتاظ مارسيل، ووضع الصنارة جانبًا كما لو أنه أعلن تمرّده النهائي على هذه الجلسة، فضحك الدون بعفوية وفاجأ الجميع حوله.

ثُمّ التفتوا عندما ظهر ريكاردو راكضًا نحوهم، والاستياء بادٍ على وجهه:



«أبي! لماذا لم تخبرني أنك تصطاد؟»

أجابه بهدوء: «كنت أتحدث مع أخيك عن بعض الأمور الخاصة. يمكنك الانضمام إلينا الآن لو أردت.»

نهض مارسيل قائلًا: «خذ مكاني، فأنا ذاهب.»

ردّ ريكاردو بخجل: «ولكني أردت صيد السمك معك أيضًا.»

رمقه مارسيل بريبة: «لماذا؟»

«لنتعرّف على بعضنا أكثر، وتقوى الرابطة بيننا.»

همّ مارسيل برفضه، لكن الدون قاطعه: «سيبقى. جهّز مقعدك وصنّارتك.»

أومأ ريكاردو بحماسة وبدأ بفعل ذلك، ثُمّ التفت فيرناندو إلى ابنه الآخر وقال بنظرة محذّرة: «قد تكون ابني أيضًا، ولكني أحذّرك من معاملة ريكاردو أو فاليريا بجفاء، أو دفعهما بعيدًا عنك. إنهما سعيدان بوجودك.»

«لا أريد التقرّب منهما. من الأفضل أن يبقيا بعيدين.»

ردّ الدون بصرامة: «أخبر طبيبك أن يُدرجها ضمن رحلة علاجك إذًا، أو سأخبره بنفسي. لا يجب أن تكون سميث هي المحور الوحيد.»

هزّ مارسيل رأسه وتمتم ببرود: «يا إلهي، ألهمني المزيد من الصبر...»

رنّ هاتف الدون فجأة عند عودة ريكاردو، فأخرجه ونظر إلى الشاشة، ثُمّ أدارها نحو ابنه ليقرأ اسم رومان ريفيرا... عمّ دييغو!

تبدلت ملامح مارسيل إلى الجدية أكثر، ثُمّ قال: «أجب الاتصال ودعني أسمعه.»

تلفّتت روبي حولها للمرّة العاشرة، ثُمّ استسلمت أخيرًا لحقيقة أنها ضلّت طريقها بين الأشجار، وجلست لتلتقط أنفاسها.

تسلّل الندم إليها وهي تفكر في حماقة قرارها؛ كان عليها ألّا تحاول الوصول إلى البحيرة من جهة أخرى لتتجنب رؤية مارسيل ووالده، وها هي الآن تدفع الثمن.

مدّت يدها إلى زهرة صغيرة بجانبها وقطفتها، ثُمّ بدأت تنزع بتلاتها واحدة تلو الأخرى وهي تفكر بصوت مسموع: «ماذا أفعل الآن؟ هل أصرخ وأنادي أحدهم؟ أو أرتاح قليلًا ثُمّ أتابع البحث عن طريق العودة قبل الغروب؟»

واصلت قطف البتلات وهي تفكر بالكثير من الأمور، حتّى سمعت وقع أقدام أحدهم يقترب، فتأهّب جسدها، واشتد حذرها لبضع ثوانٍ فقط، قبل أن تميّز تلك الخطوات الرزينة، وتعرف صاحبها.

لم تلتفت أو تنظر إليه حتّى بعد أن وقف أمامها، وتظاهرت بالعبث ببقايا البتلات كي تشغل نفسها عنه.

«هل أنت في نزهة؟»

ردّت وهي تركز في الزهرة: «أجل، وكنت في مزاج جيد، ولكنه تعكّر الآن.»

أومأ مارسيل مرّة واحدة: «هل لأنك ضللت طريقك؟»

نهضت تنفض التراب عن ملابسها، وردّت بجفاء: «لا.»



عقد ذراعيه وجاراها: «غريب... فقد أخبرني الحراس أنك كنت تدورين في البقعة ذاتها عدة مرات قبل أن تجلسي هنا.»

تفاجأت عند ذكره الحراس، ثُمّ تلفّتت حولها بغضب وتمتمت: «الأوغاد رأوني أضل الطريق ولم يفعلوا شيئًا.»

ابتسم ابتسامة خفيفة: «إذًا... ماذا كنت تقولين عن أنك لم تضلّي الطريق؟»

وجّهت غضبها نحوه: «كنت أقول إنه لا يخصك الأمر إن ضللت طريقي، أو متُّ في الغابة!»

تبدّلت ملامحه للقلق فورًا، واقترب منها قائلًا: «لا تقولي ذلك...»

ردّت بانفعال: «لماذا ما تزال لا تفهم؟ لست مسؤوليتك! لا تبحث عنّي، ولا تعترض طريقي، لا تتحدث إليّ، ولا تحضر إفطاري! وبأي حق تفعل ذلك أصلًا؟»

«لأني أهتم لأمرك.»

«لا تهتم!»

تراجعت خطوة إلى الخلف عندما شعرت أن قناعها سيسقط ويكشف اضطرابها، ولكنّها لم تكن تعلم أنها مكشوفة أمامه.

«دعني وشأني يا مارسيل...»

عمّت لحظة سكون، ثُمّ قال بهدوء غريب: «قد تتحقق أمنيتك الليلة.»

رفعت عينيها عن الأرض ونظرت إليه: «ما الذي تقصده؟»

«لقد اتصل عمّ دييغو بالعجوز. إنهم قادمون إلينا، وسنعقد اجتماعًا

وديًّا في القرية أولًا، ولكنه...»

قاطعته دون إدراك: «قد يتحول إلى ساحة حرب.»

«أجل، لهذا يجب أن تعودي إلى البيت وتختبئي مع الآخرين. سيكون الحراس حولكم، وستكونون بخير.»

قالت بصوت ارتعش في آخره: «لست ذاهبًا معهم، صحيح؟»

تأمل عينيها، ثُمّ قال: «بلى. لديّ خطة، ولكني لست واثقًا من نجاحها، لأني لست من سينفّذها.»

كبحت انفعالها، وزيّفت اللامبالاة: «ماذا يعني ذلك؟ هل ستتأذى؟»

«سأحاول أن أكون بخير إن كان هذا ما يقلقك.»

«لست قلقة عليك، فلا تحوّر كلامي!» زفرت نفسًا مضطربًا، ثُمّ تحجّجت: «أنا قلقة على ميا لو حدث لك شيء.»

خطا خطوة أخرى نحوها، ولم تبتعد هذه المرة. كان يرى القلق والخوف والتوتر في وجهها، يريد دفعها أكثر، وجعلها تعترف بالحقيقة التي تخفيها، ولكنه يخشى كسرها دون قصد.

«لن تضيع ميا ما دمت معها، وكلاكما ستكونان بخير حتّى لو حدث لي مكروه. لقد رتبت لكل شيء يخصكما. يمكنك السفر معها وترك المكسيك، ولن يوقفك أحد، ولقد اتفقت مع العجوز على ذلك. سيوفرون لكما الحماية في أي مكان تريدينه في هذا العالم... خذيها وعيشا معًا كما ترغبان، وكما ترتاحين.»

اتسعت عيناها، واختنق صوتها: «هل... هل أنت تودّعنا؟»

همس: «أجل.»



وفي تلك اللحظة، تحطّم شيء في صدرها، ولم تستطع إيقاف الدموع الصغيرة التي علقت في طرف عينيها.

رفع مارسيل يده بحذر؛ يتوق للمس وجهها ومسح دموعها، لكنّها صفعت يده سريعًا، ودفعته بعيدًا عنها مجددًا.

«خذني إلى ابنتي!»

أومأ باستسلام ولم يجادل، ثُمّ تقدّمها عائدًا إلى البيت، لترى الرجال يودّعون عائلاتهم، ويستعدّون للرحيل، وآخرين يتخذون مواقعهم حول المزرعة لحماية الجميع.

كان أندرياس من بينهم أيضًا، يودّع إيزابيل التي ترجّته ألّا يذهب. لورينا ليست في الأرجاء، لكنّ أندريه متواجد، وبدا على شفا البكاء.

أما ميا، فلم تفهم ما يجري بعد، ولكنّها راقبتهم جميعًا بوجه قلق حتّى رأت والدها وركضت نحوه.

جثا على ركبته واستقبل عناقها القصير، ثُمّ نظرت إليه ببراءة أوجعت قلب والدتها: «إلى أين تذهبون يا بابا؟»

احتضن يدها الصغيرة بين كفّيه، وقال: «لا تقلقي، لدينا اجتماع عمل طارئ لا أكثر.»

«ومتى ستعودون؟»

«في أقرب وقت... اعتني بنفسك وبوالدتك حتّى أعود.»

مدّت شفتيها باستياء طفولي: «نسيت ميليسا وروكو.»

ضحك ضحكة خافتة: «صحيح. اعتني بهم جميعًا، اتفقنا؟»

«اتفقنا!»

عانقته بقوة فجأة، فعقد ذراعيه حول جسدها الصغير للحظة طويلة.

«سنظل بانتظارك، فلا تتأخر.»

تسارعت ضربات قلب روبي أكثر، حتّى كاد ينفجر، ثُمّ وجّه مارسيل آخر ضربة عندما التفت نحوها وقال: «اعتني بنفسك... وأنا آسف.»

كانت تلك كلماته الأخيرة قبل أن يرحل، وظلت روبي مكانها، تنظر إليه وهو يضيع منها فقط.

أرادت أن تناديه، أن تخبره ألّا يذهب، ألّا يتهور ويتأذى. أرادت أن تحبسه، وتمنعه من الرحيل، فقد يُقتل بحق هذه المرة، ولن تراه مجددًا!

كانت على يقين تام أنها لو فتحت فمها وأمرته بالبقاء فسيفعل ذلك من أجلها... فلماذا لا يخرج صوتها؟

شدّت على يد ابنتها ودخلت إلى البيت، فإذا بيد تلمس كتفها فجأة، فالتفتت ورأت أندرياس. كان وجهه يحمل الكثير؛ ذنبًا، وندمًا، وأشياء أخرى لا يسعه الوقت لشرحها.

«أنا آسف... اعتني بنفسك يا سنيوريتا.»

ربّت على رأس ميا بابتسامة أخفت خوفه وحزنه، ثُمّ لحق بالدون فيرناندو. فور خروجه، استقلّوا السيارات، وانطلقت بهم بعيدًا عن المنزل، نحو المجهول...



28: وطن

اتَّخَذَ الاجتماعُ مَوْقِعَهُ في ساحةِ القريةِ، تحت سماءٍ ساكنةٍ وليلٍ بدا هادئًا، وكأنَّه يحبس أنفاسه مترقِّبًا ما قد يحدث.

أحاطت بهم البيوت الصغيرة من كلِّ جانب، وكان سكانها يختبئون خلف الأبواب المغلقة والنوافذ المعتمة، يراقبون المشهد بأنفاسٍ مكتومة.

حاوطت سيارات آل كورتيز وغارسيا المكان من كلِّ الجهات، وتوغلوا بهدوءٍ وحزم بين رجال آل ريفيرا، يتبادلون النظرات الحادة، ويقيسون كلَّ حركة، ويستعدون لأيِّ طارئ.

وُضِعت الطاولة في قلب الساحة، وكأنَّها مركز التوازن. جلس رومان، الشقيق الوحيد لوالد دييغو، على أحد طرفيها بملامح يصعب قراءتها، وخلفه اثنان من رجاله، وعلى يساره دييغو الذي بدا مشدود الأعصاب.

وفي الطرف المقابل، جلس الدون فيرناندو بثباتٍ مهيب، بجواره مارسيل اليقظ، وخلفه يقف أندرياس ولورينزو، ومعهما رجلان آخران، يشكِّلون صفًّا قويًّا ومخيفًا من الحراسة.

كان التوتر يدور بينهم جميعًا، لكنَّه لم يكن ذلك النوع الذي يجعل القشعريرة تسري في الجسد، بل كان توترًا باردًا، يصاحبه تركيز حاد، وترقُّب لأيِّ حركة مفاجئة، أي شرارة قد تشعل الحرب بينهم!



«نريد العدالة يا فيرناندو»، قال رومان وهو يرفع ذقنه عاليًا، ليعطي نفسه جبروتًا لا يملكه. «ابنك حي، وهذا يعني أن روح ابن أخي، الشقيق الأكبر لدييغو، ذهبت هباءً.»

تبادل دييغو النظرات مع مارسيل بصمتٍ محمَّل بكلمات كثيرة، بينما حدَّق الدون بالذي أمامه، وقال ببرود يثير الأعصاب: «و...؟»

تابع رومان بنبرة أشد تحدِّيًا: «نحن هنا لنقتص كما فعلت. أعطنا ديرين لو كانت حيَّة، أو أعطنا حياة ابنك.»

لم تتغير ملامح الدون وهو يقول: «تجرأت وأرسلت لي تهديدًا بحياة ابني الذي استعدته للتو، وجعلت ابن أخيك يعصي أمري ويعود إلى المكسيك بعد نفيه، ثم تطلب اجتماعًا وتملي عليَّ الأوامر؟ هل يحتاج آل ريفيرا إلى تذكير جديد بمن هم أسيادهم؟»

امتعض وجه رومان، لكن دييغو تدخَّل بهدوء: «عدت لاستعادة أمي فقط.»

حوَّل الدون بصره إليه، وتأمَّله مليًّا، ثم عاد ليخاطب رومان: «ستبقى ديرين في ضيافتنا حتى آخر يوم في حياتها، وسيعود دييغو إلى منفاه، ولن يمس أحد عائلتي.»

«لم تترك لنا خيارًا يا فيرناندو!»

رد ببرود: «لا تستحقون ذلك بعد فعلة أخيك.»

ضحك رومان ضحكة متعالية: «وأنت أخذت انتقامك. ابن بابن، وحياته عوضًا عن زوجته لأنك لا تقتل النساء... ولكنك خطفتها. ما الذي يضمن لنا أنها ما تزال حيَّة بعد كل هذه السنوات التي تهددنا بها؟ أراهن أنك قتلتها مثلما قتلت كاستيلا!»



ثم ابتسم بخبث وقال: «لا تظن أننا لا نعلم أنك كنت وراء ذلك. أرسلت قاتلًا محترفًا ليقتلها... ابنك.»

اتجهت الأنظار نحو مارسيل، لكنه لم يرمش حتى، ساكن الملامح، لا يكشف شيئًا.

«هل لديك دليل يثبت كلامك؟»

رفع رومان ذقنه أكثر، وقد ظن أنه أصاب الهدف: «ليس بعد، ولكن سنثبت ذلك للعالم عاجلًا أم آجلًا.»

زفر الدون بضجر بارد، ثم قال: «اسمع يا رومان... أنا لست هنا للاستماع إلى تكهنات أو ثرثرة، بل لألقنك درسًا لن تنساه أبدًا عن عواقب التمرد.»

«إن كان هناك من سيُعطى درسًا لن ينساه، فسيكون أنت يا فيرناندو. لا تظن أنك الأقوى، فأنت الآن في يدي، كحشرة صغيرة!»

وفجأة، ظهر رجال مسلَّحون من نوافذ البيوت ومداخلها، ومن فوق الأسطح كذلك، وارتفعت الأسلحة في وقتٍ واحد نحو الطاولة، ثم نهض دييغو وأشهر سلاحه في وجه الدون مباشرة، ونظراته الحاقدة تقول كل شيء؛ لا يوجد تردُّد، ولا مجال للعودة!

ازدرد أندرياس بثقل، وشد يده على سلاحه، يريد أن يسحبه بشدة، ولكنه يخشى أن يطلق أحدهم النار، فتندلع الحرب بينهم.

ابتسم رومان وهو يشعر بلذة النصر: «أنا من له الكلمة الأخيرة يا فيرناندو... ستعطي كلمة لرجالك، سيحررون ديرين، وستعترف بأنك قتلت كاستيلا بيرو، ولن تتدخل في أعمال آل ريفيرا بعد الآن!»

لم يهتز للدون فيرناندو جفن: «تهددني بالسلاح وحولك رجالي؟»

رد رومان بتحدٍّ: «لا أخشى على حياتي... إما أن أحصل على مبتغاي أو يتحول هذا المكان إلى ساحة حرب ونذهب إلى الجحيم جميعًا.»

هز الدون رأسه ببطءٍ مستفز: «لن أذهب إلى أي مكان.»

رمقه رومان بحدة، ثم صاح: «أطلق النار يا دييغو، وانتقم لعائلتنا!»

اتجهت الأنظار إلى دييغو الذي بدا عازمًا على قتل الدون، وكان مارسيل يراقبه بتركيز، يخفي في كم سترته سكينًا حادة، جاهزة لاختراق رأسه في أي لحظة لو لم يتبع الخطة.

قال الدون فيرناندو بازدراء: «يا للعار... تريد من ابن أخيك أن يضغط على الزناد عوضًا عنك. أنت جبان يا رومان، ولطالما كنت كذلك، تختبئ تحت جناح أخيك، والآن تريد أن تتجبَّر وتطغى، ويكون لك طريق للفرار رغم ذلك بوضع اللوم عليه.»

احتج بتكبُّر مهتز: «أنا أعطيه فرصة الانتقام!» ثم صرخ بعصبية: «أطلق يا دييغو!»

أخذ دييغو نفسًا عميقًا، ثم استرق نظرة واحدة إلى مارسيل، قبل أن يوجِّه السلاح نحو عمه، وتتبعه أسلحة رجال عائلته أيضًا.

اتسعت عينا رومان بصدمة، وتحرَّك الحارسان خلفه بغريزة الدفاع، لكن رجال آل كورتيز كانوا أسرع؛ انقضوا عليهما بقسوة، وانتزعوا سلاحيهما قبل أن يلمسا الزناد.

صاح رومان بغضب: «ما الذي تفعله؟»

رد دييغو بنظرة قاسية: «ما يجب أن يتم فعله. أنت لا تكترث لحياة والدتي، بل تريد حربًا على حساب أرواحنا. تريدنا أن نتقاتل فيما بيننا حتى لا يبقى أحد، وتحصل على ميراثي وكل شيء!»

ثم تقدَّم خطوة واحدة، وفوهة سلاحه ما تزال ثابتة على عمه: «أنت جبان بالفعل يا عمي، والسبب الوحيد الذي دفعني للمجيء إلى هنا هو منعك من قيادتنا نحو الهلاك، والتفريط بحياة أمي.»

ضرب رومان الطاولة بكفِّه: «هل جننت؟ أنا كبير هذه العائلة، يمكنني إعدامك هنا والآن!»

رد دييغو بنظرات جامدة: «أنت الأكبر، ولكنك تضحي بنا... ولا يمكنك إعدامي هنا، فهؤلاء الرجال رجالي، عائلتي! ولن يسمعوا كلمة منك.»

نهض الدون بهدوء، ثم نظر إلى رومان نظرة واحدة كانت كافية لتجريده من أي كرامة تبقَّت له: «لقد انتهينا هنا... خذوا هذا الجبان وضعوه في أعفن زنزانة.»

كان بيت المزرعة غارقًا في وحشة ثقيلة، وكأنه فقد روحه. لا ضحكات، ولا أوامر للخدم، ولا أصوات رجال تتردد في الممرات.

لم تكن روبي تسمع سوى صوت الهمسات والدعوات والبكاء الحزين الذي تحاول بعض النساء كتمه. حتى الحراس حولهم متوترون، تتنقل أعينهم بين الأبواب والهواتف، ينتظرون أي خبر يريحهم.

نظرت إلى فيرونيكا التي كانت تقف أمام النافذة، تحدق في الأفق البعيد بوجه متماسك، ولكن القلق كان واضحًا في وقفتها المشدودة، ثم انتقلت عيناها إلى إيزابيل التي تجلس في زاوية بعيدة وتحدق بهاتفها فقط، وأخيرًا الخادمات اللاتي يراقبن المداخل وهواتفهن على أمل سماع أي خبر يكسر هذا الانتظار.

تسرَّب قلقهم إلى روبي شيئًا فشيئًا حتى صار يخنقها. كان هناك شيء يضغط على قلبها بلا رحمة، ويعذبها، ويؤنبها؛ فحين ودَّع الجميع بعضهم، كان آخر ما بينها وبين مارسيل أنها دفعته بعيدًا، ولديها شعور قوي أنه لن يعود هذه المرة.

شدت يدها على عنقها، وتمتمت بكلمات غير مفهومة محاولة الهرب من الانهيار، لكن الضغط ازداد، ولم يعد بمقدرتها التحمُّل أكثر.

نهضت من مكانها فجأة وأفزعت الجميع، ثم ركضت إلى غرفة لورينا لتجدها جالسة على طرف الفراش، غارقة في البكاء، تنتظر خبرًا يطفئ نار قلبها.

قالت بأنفاس متسارعة: «هل ما زلت تملكين رقم دييغو؟ أعطيه لي أو اتصلي به، يجب أن أعرف مكانهم. لقد تأخروا. يجب أن أذهب!»

هزت لورينا رأسها بأسى: «لا يمكننا فعل شيء حتى لو ذهبنا... يجب أن ننتظر. لدى مارسيل وديغو خطة.»

قاطعتها روبي: «سحقًا للخطة، قد لا تنجح!» وضعت يدها على قلبها: «هناك من سيموت... أشعر بذلك! هناك من سيتأذى!»

وقبل أن تستطيع لورينا الرد، دوى صوت رصاص عنيف حول البيت، فاندفعتا خارج الغرفة، لتجدا الحراس قد اقتحموا غرفة المعيشة، وجوههم متوترة ولا تبشِّر بخير.

قالت فيرونيكا بصوت حازم رغم اضطرابها: «ما الذي يحدث؟»

«لقد حدث تبادل للنيران في الاجتماع، وانقطع الاتصال.»

أضاف حارس آخر وهو يعيد تلقيم سلاحه: «ونتعرض الآن لهجوم من بعـــض رجال آل ريفيرا، لذا أرجوك يا سيدتي، خذي كل النساء والأطفال



واختبئوا في القبو على الفور! سنتصدى لهم! لن يدخلوا إلى المنزل!»

ارتجفت روبي بفزع، ولم تعد ترى شيئًا أمامها سوى جثة مارسيل من الكابوس، وكادت تغرق فيها، لولا صرخة ميا الخائفة التي سحبتها بسرعة.

«ميا!»

أسرعت مع لورينا إلى حيث الأطفال، حملت ابنتها بين ذراعيها، ثم أسرعت إلى القبو، وجلست في الزاوية، بعيدًا عن الجميع.

ضمت فيرونيكا التوأم اللذين لم يظهرا الضعف، وحاولا البقاء ثابتين من أجلها، أما أندريه، فقد حاول أن يكون رجلًا شجاعًا، يحمي والدته ويواسيها رغم خوفه.

بكت ميا في حضن والدتها، وارتجف صوتها الرقيق وهي تسأل وسط الفوضى وصوت الطلقات البعيدة: «ما الذي يجري يا ماما؟ من يطلق النار؟ هل نحن في خطر مجددًا؟»

رفعت روبي يدها المرتجفة ومسحت دموع ابنتها، ثم همست بصوت متقطع: «سن... نكون ب... خير. لا... لا تقلقي!»

لكن ميا لم تهدأ، بل رفعت وجهها المبلل بالدموع وسألت بشهقة: «أين بابا؟ أريد بابا! هل أصابه مكروه؟»

انقبض قلب روبي حتى شعرت أنه لن يحتمل نبضة أخرى، وقالت بصوت مبحوح: «لا... أعلم.»

سألت ميا بخوف أكبر: «هل نحن بأمان هنا؟»

أجابت بسرعة وهي تنظر حولها: «أ... أجل، بالطبع.»

ثم اتسعت عيناها فجأة؛ إذ تبدلت الجدران الحجرية حولهما إلى أخرى

معدنية. تلاشى القبو ومن فيه، وطغت رائحة الصدأ على رائحة الخشب.

تسارعت أنفاسها برعب، وبدأت تتمتم: «لا... لا... ليس مجددًا... لا... لا.»

أغمضت عينيها بقوة، فسألت ميا بقلق: «ما بك؟ هل أنتِ بخير؟»

ولأول مرّة همست روبي بخوف دون محاولة للتماسك أمام ابنتها: «ابقي معي يا ميا... أنا خائفة. لا تتركيني... أرجوك.»

انكمشت ميا في حضنها ولفت ذراعيها حولها بكل ما تملكه من قوة في جسدها الصغير، ثم قالت بصوت مضطرب: «لا تخافي يا ماما. لن أتركك أبدًا! نحن معًا، وسيأتي بابا لينقذنا!»

اهتز جسد روبي مع بكائها المكتوم، بينما اقتربت إيزابيل في الجهة الأخرى، وسألت فيرونيكا بصوت مشدود: «هل هناك أخبار عنهم؟»

هزت فيرونيكا رأسها، وعيناها على الهاتف: «لا يعلمون شيئًا بعد.»

زفرت إيزابيل أنفاسها المضطربة، وضغطت على قبضتها لتتماسك، ثم ألقت نظرة سريعة على روبي المنهارة في الزاوية قبل أن تجلس بجوار فيرونيكا، وتنتظر مثل الجميع...



انقضت ساعتان، وانقطعت أصوات العيار الناري، لكن الصمت الذي عقب ذلك لم يكن مطمئنًا؛ فلا أحد يجيب على الهواتف، ولا أحد أرسل إشارة إلى النساء والأطفال بالخروج.

تلاعبت الدقائق بأعصاب الجميع، ونهشتهم من الداخل، لتتركهم في مواجهة أسوأ الاحتمالات.



أما روبي، فقد انتصر عليها الهلع، وفصلها عمن حولها؛ لا تسمع، ولا ترى، ولا تشعر بشيء، مخدَّرة تمامًا، بينما ابنتها ساكنة بين ذراعيها.

لقد نامت المسكينة.

التفتت لترى لورينا جالسة بجانبها، ولم تعرف متى اقتربت أو كيف جلست هنا دون أن تشعر بها.

نظرت إلى ميا، ومسحت على شعرها برفق، ثم عدلت جسدها بحذر وجعلتها تستلقي على الأرض بجوارها، قبل أن تخلع كنزتها وتغطيها جيدًا كي لا تبرد.

تأملت لورينا حينها ذراعيها المكشوفتين، حيث ندوب أعقاب السجائر الباهتة، التي وسمها أحد الرجال على جسدها في السفينة.

انعصر قلبها بحزن فأشاحت بنظرها، ثم همست: «أنا صديقة سيئة بالفعل، كما قال مارسيل.»

نظرت روبي إليها عند ذكر اسمه، فتنهدت لورينا واسترقت نظرة لابنها وريكاردو اللذين يصرفان انتباه الأطفال الآخرين بأحاديث وقصص تبقيهم هادئين.

«اتصل بي دييغو وطلب مساعدتي، ولكني خفت ولم أعرف ماذا أفعل، فلجأت إلى مارسيل... ولم يقبل بسماعي أو مساعدتي في البداية لأني آذيتك.»

شدت روبي على كنزة ميا قليلًا، بينما تابعت لورينا: «قال إنني لا أكترث لأمرك، وإنني جئت إليك ذلك اليوم وألقيت فوقك كل ما في قلبي، دون أن أكترث للضغط الذي تحملينه.»

همست روبي بصوت مبحوح: «وكيف عرف؟»

مسحت لورينا على رأس ميا بحنان: «لا بد أنها أخبرته، ولكن لا يهم، ما يهم هو أنه محق. لقد كنت أنانية. ابتعدت وقللت احتكاكي بكِ، ظنًّا مني أنك تحتاجين إلى مساحة لتتشافي وحدك، ولم أفكر في أنك كنت متعبة، وأثقلتك بهموم لا علاقة لك بها... آسفة لكوني صديقة سيئة.»

أشاحت روبي ببصرها ولم تقل شيئًا لدقيقة كاملة، ثم همست أخيرًا: «لست صديقة سيئة.»

لمعت عينا لورينا بالدموع، وهمت بقول شيء، لكنهم سمعوا ضوضاء مقلقة ووقع أقدام سريعة، فهرعت إلى أندريه، واستيقظت ميا بفزع لتتشبث بوالدتها، بينما سحبت كبيرة الخدم فيرونيكا والتوأم إلى الخلف، ثم تقدمت هي وخادماتها إلى الأمام وقد أشهرن أسلحتهن نحو الباب، مستعدات لإطلاق النار.

التزم الجميع الصمت، وتصاعد التوتر إلى أقصاه في ثوانٍ قليلة، ثم سمعوا صوت أحد رجالهم، وشعروا به مثل ماء بارد ينسكب على قلب محترق.

طمأنهم أنهم بأمان، وأخبرهم أن الدون فيرناندو قد عاد، ففتح الباب، واندفعوا إلى الخارج بلهفة وقلق، لتفقد أحبائهم.

تجمهروا خارج البوابة، ووقفت روبي في الخلف، بملامح ساكنة تراقب السيارات الوافدة والرجال الذين يترجلون منها.

رأت فيرونيكا تسرع مع التوأم نحو الدون فيرناندو الذي استقبلهم جميعًا في عناق سريع وطمأنهم أنه بخير، ورأت أندرياس يركض إلى إيزابيل، ويطمئن لورينا وابنه. رأت خادمة تحتضن شقيقها، وأطفالًا يرمون أنفسهم في أحضان آبائهم.



«إنه بابا!»

أفلتت ميا يد والدتها وركضت بأقصى ما تستطيع نحو والدها الذي ظهر من خلف السيارات وملابسه مغطاة بالدماء، لكنه لم يوقفها، بل انخفض واستقبلها في عناق طويل.

سألت بخوف: «هل هذه دماؤك؟»

مسح دموعها الصغيرة بإبهامه: «لا.»

«لقد كنت قلقة جدًّا! حتى ماما كانت قلقة جدًّا!»

«أنا بخير.»

رفع عينيه باحثًا عن روبي، وكان متأكدًا أنه رآها واقفة عند البوابة، لكنها اختفت الآن، وكأنها تبخرت، ثم لمح بطرف عينه ظلًّا سريعًا يبتعد نحو الأشجار، فأخبره قلبه أن يتحرك على الفور.

نظر إلى ميا وقال بسرعة: «ابقي مع جدك.»

«...»

قاطعها وهو يبتعد: «سأعود في الحال!»

تركها على عجل واندفع خلف روبي التي ركضت عندما أدركها بكل ما تبقى لديها من قوة، وهي تبكي ولا ترى الطريق، وتشعر بقلبها يكاد ينفجر مجددًا.

ترجاها أن تتوقف خشية أن تتأذى، ولكنها لم تفعل، حتى انتهى الطريق ووصلت إلى البحيرة التي عكست نور البدر في مشهد ساحر، جعل مشاعرها تتصادم مع الخوف والإرهاق.

لهثت أنفاسها بعنف وهي تتأمل القمر، ثم صرخت بصوت مبحـــوح



دون أن تنظر إلى الخلف: «لا تقترب!»

زفر مارسيل أنفاسه بهدوء، ثم قال: «روبي...»

صرخت وهي تسد أذنيها: «ولا تتكلم!»

لكن مارسيل لم يستمع. اقترب خطوة، ثم وقف أمامها، وقال بنظرات قلقة: «هل أنتِ بخير؟ ما الذي حدث؟»

رفعت عينيها الدامعتين ورمقته بغضب: «ماذا حدث؟ ولديك الجرأة لتسأل، أيها الوغد؟!» ثم صرخت: «كيف يمكنك فعل هذا بي؟»

هز رأسه بارتباك؛ لم يفهم ما خطبها بالضبط، وماذا يقول أمام نظرات العتب والغضب التي رمقته بها، ومع ذلك شرح بحذر، وكأنه يمشي فوق زجاج.

«كنا نهم بالرحيل بعد انتهاء الاجتماع، ولكننا سمعنا صوت الرصاص. اشتبك دييغو مع عمه وقتله، وأصيب بسبب ذلك، فحاولت إسعافه مع لورينزو، لذا هذه دماؤه وليست دمائي... إن كان هذا ما يقلقك.»

صرخت: «سحقًا لك، وسحقًا لدييغو، وسحقًا لكل شيء!»

تراجعت خطوتين إلى الخلف وحاولت التوقف عن البكاء ومسح دموعها، ولكن دون فائدة؛ لقد انفجرت، ولا تستطيع احتواء مشاعرها بعد الآن.

تدافعت كلماتها، وكأنَّ سدًّا قد انهار بداخلها: «لقد تخطيتك! فلماذا عدت الآن وجرَّدت قلبك لي على الورق، ثم تركتني لأتخذ القرار؟ لماذا تجعلني أقلق عليك بعد كل هذه السنوات؟ لماذا تجعلني لا أستطيع التنفس!»



أشرق الأمل في عينيه، فاقترب منها خطوة أخرى وقال: «هل قرأت المذكرات حقًّا؟»

زفرت نفسًا مرتعشًا وهمست: «أجل.»

«تعرفين كل شيء إذًا يا روبي. تعرفين من أنت بالنسبة إليَّ، وكم أنا متأسف.»

هزت رأسها وكأنها تتألم: «أتمنى لو أني لم أقرأها ورميتها!»

سأل بوجع حقيقي في قلبه: «لماذا تقولين ذلك؟»

ردت بانفعال: «لأني كنت أعلم أني سأكون في هذه الحالة، وأنا متيقنة أنك كنت تعلم أيضًا، ولهذا أعطيتني المذكرات! لأنك وغد متلاعب تريد أن تعذبني وتجعلني أعاني مثلك! وأنا بالكاد أتمالك نفسي، لذا سحقًا لك يا مارسيل.» تلفتت حولها، ثم قالت بقهر: «وسحقًا، المكان مظلم!»

أخرج مارسيل هاتفه وأضاء كشافه، ثم تركه على الأرض بينهما، وانتظرها حتى هدأت قليلًا، ليقول: «أنا آسف... لم أقصد إيذاءك. أردت أن أشرح مشاعري، وأخبرك بالحقيقة فقط.»

حدقت به للحظة طويلة، ثم همست: «لا أريد هذه المشاعر، فلا أستطيع أن أكون معك.»

اضطرب مارسيل أخيرًا، واتضح ذلك في صوته عندما قال: «ما الذي تعنينه؟ ألم يكن ما كتبته كافيًا؟ إن لم يكن كذلك فأخبريني ماذا يجب أن أفعل لأثبت لك صدقي، وسأفعل. لن أستسلم عنك يا روبي!»

قالت بغصة: «يجب أن تستسلم.»

رد بانفعال: «أخبريني لماذا إذًا؟ لماذا تفعلين كل هــذا لو كنت تريدين



مني الاستسلام؟»

شعرت بأنفاسه الحارة على وجهها. كان قريبًا جدًّا، وبعيدًا في الوقت ذاته... مثل أمنية مستحيلة.

اعترفت أخيرًا: «لأنني مكسورة...»

تنهدت تنهيدة مرتجفة، ثم وقفت قرب الضوء وقالت بصوت حزين: «انظر إليَّ، أنا مكسورة لألف قطعة، وأمومتي هي الجزء الوحيد المتبقي. هذا ما تريده ميا، وهذا كل ما أستطيع منحه.»

ازدادت دموعها وهي تتابع: «لكن أنت تريدني أن أسامحك وأن أكون بخير، تريدني عشيقة وزوجة، تريد روبي القديمة وحبها، وأنا لا أستطيع أن أمنحك كل ذلك يا مارسيل... ليس بعد ما حدث قبل خمس سنوات، أو ما حدث في السفينة.»

انحلت كل الخيوط المتشابكة في عقل مارسيل بعد اعترافها الصادق، ورأى اللوحة كاملة أخيرًا. أدرك عمق مخاوفها، وفهم أسباب ترددها.

قال بنبرة هادئة: «ليس واجبك أن تسامحيني، ولا أن تصبحي بخير من أجلي، بل أنا من يجب عليه السعي وتقديم كل شيء من أجل ذلك... لذا لا تشعري بالضغط يا روبي، ولا تجبري نفسك وتحمليها فوق طاقتها.»

همست بصوت باكٍ: «أنا...»

قاطعها قبل أن تبدأ بصده مجددًا: «دعيني أسألك سؤالًا، وأجيبيني بصدق... هل ترين أملًا لنا في نهاية الطريق المظلم؟»

رأى التردد يمر من عينيها، فاستطرد مؤكدًا على كل كلمة: «لو لم يكن هناك أمل، فسأفعل المستحيل حتى أجده وأريك إياه.»



اقترب خطوة أخرى، وغرق في عينيها وكأنه لا يرى سواهما في العالم: «وإن كنت ترينه، فيجب أن تعرفي أنني سأتمسك به من أجلنا، وسأنتظرك حتى تستطيعي لمسه معي. سأنتظر أيامًا وشهورًا وسنوات إن لزم الأمر، وخلال هذا الوقت سأحرص على أن تشعري بالأمان حولي كل يوم وكل ثانية، ولن أقدم على فعل لا يجعلك مرتاحة.»

ثم قال بصوت أكثر صدقًا: «سأجمع كل أجزائك المكسورة ولو بلغ عددها المليون أو استغرقتني دهرًا، لأنك كنت تفعلين المثل من أجلي... أنتِ أنقذتني وأعدتني إلى الحياة، وأنا أريدك! لن أكون 005، ولن أكون مثل أبطال رواياتك، بل سأكون رجلًا جديرًا بك، ويستحق حبك مجددًا.»

انخفض صوته، وجاءت كلماته التالية كطرقات خافتة على قلبها المغلق: «أنا أتنفسك يا روبي سميث، وأختنق حين أكون بعيدًا عنك، لذا لا تبعديني. دعيني أكن بجانبك ونمضي في هذه الرحلة معًا خطوة بخطوة... كعائلة واحدة.»

انهمرت الدموع على خديها، ثم أجهشت بالبكاء مجددًا، وقالت من بين شهقاتها: «ماذا لو...»

سبقها مجيبًا: «لن أستسلم مهما كان السبب.» ثم كرر على مسامعها بنظرات صادقة: «أنا باقٍ هنا. لن أتركك أو أترك ميا، وسأعمل بجد حتى أثبت لك كل كلمة قلتها.»

زفرت نفسًا عميقًا، وكان أخف على صدرها هذه المرة. شعرت أن جزءًا من الحياة قد عاد إليها، وليس بفضله وحده، بل لأنها امتلكت القوة الكافية لتسمح لكلماته أن تصل إليها.

اختارت أن تمنحه فرصة، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك من دون أن تضع بين يديه حقيقة أخيرة...

قالت بنبرة هادئة: «الثقة هي أصعب مهمة ستواجهها يا مارسيل، وستستغرق سنوات، وربما العمر كله حتى أمنحك إياها مرّة أخرى.»

أومأ بفهم: «حسنًا.»

أضافت بنظرات أكثر جدية: «وشيء آخر، إن رحلت مجددًا، إن استسلمت وقررت الانسحاب...»

قاطعها فورًا: «لن أفعل.»

رمقته بحدة ورفعت يدها بسرعة، ثم أشارت بسبابتها: «دعني أنهي كلامي، أيها الوغد.»

خرس مارسيل، وقاوم ابتسامة كادت تظهر على شفتيه؛ كان يعلم أنها رفعت يدها لتضربه، ولكنها تمالكت أعصابها في آخر ثانية.

«إن رحلت مجددًا، فسألحق بك وأقتلك.»

كان التهديد بسيطًا في ظاهره، ولكن نظرة عينيها ونبرة صوتها جعلتاه يسري في عروقه كتيار كهربائي، أخافه، وأثاره في آن واحد.

أدرك في تلك اللحظة أن هذه المرأة قد تمكنت من ترويضه وترويض 005 حتى، وأسرتهما في سجن لا ينويان الهروب منه.

رمشت باضطراب عندما ابتسم ابتسامة أظهرت غمازته، ثم أشاحت ببصرها عنه إلى الأرض وهي تشعر بالحيرة؛ لا تعلم ماذا تقول أو تفعل بعد كشف كل شيء.

«أظن أنه دوري للحديث الآن، ولدي طلب... هل تسمحين لي أن أعانقك للحظة قبل أن نعود؟»



نظرت إليه بتفاجؤ وتجمدت فقط، لا تعلم إن كانت قد أومأت أو رفضت، فقد اقترب وضمها بلطف على أي حال.

كانت رائحة الدماء تفوح منه، ولكن رائحته كانت طاغية أكثر، تسللت إلى رئتيها واستقرت هناك. احتضنها وكأنه درعها، وكأنه الوطن الذي تنتمي إليه، فاستسلمت مغمضة عينيها، وتمنت لو تطول هذه اللحظة قليلًا.

«شيء آخر يا روبي... ميلاد سعيد.»

29: من مذكرات مارسيل

«أنا كتلة من الفوضى... أحترق بين نارها، ونار 005.

كنت عازمًا على العودة بعد أن أتماثل للشفاء، ولهذا لم أبحث عنها في تلك الشهور رغم أني أردت وجودها حولي، ولم أعلم إن كانت سترغب بي وأنا على هذه الحال.

ويومًا ما هي من وجدتني، عادت إليَّ، وشعرت فجأة أنني حي. أدركت كم اشتقت إليها، وكم كان غيابها ينهشني، ورأيت أملًا في تغيّري وترك 005خلفي...

لكن عاد جاريد ليطاردني، وكان يختفي في كل مرّة تقترب فيها مني، وكأنه يخشاها. كان ذلك يثير غضبي؛ فكيف لها أن تدفع رجلًا مثله إلى الهرب هكذا؟

كنت غاضبًا وممتنًّا في الوقت نفسه، ولم أعرف كيف أفهم هذه المشاعر، لكني أدمنت وجودها بقربي، لما شعرت به من أمان وقوة.

خفت أن تزول تلك المشاعر عندما تعلم أني عدت إلى العمل، وأن تنظر إليَّ كما تنظر إلى وحش، لا كما تريد أن تراني. خفت أن تسحب يدها مني، وتتركني في الظلام الذي ولدت فيه، ولهذا كذبت، وتلاعبت، وراوغت، وهي لم تعلم بشيء بعد.

كنت أعيش حياة مزدوجة دون أن أشعر بالذنب تجاهها، ودون أن أراعي مشاعرها؛ أقول لنفسي إنها ستبقى مهما فعلت بها، فليس لها مكان

تذهب إليه، وأنها متعلقة بي لأنها ترغب في أن تكون مع شخص بمثل قوتي.

تقول إنها تحبني، ومن يحب يبقَ... هكذا قرأت، أو هكذا فهمت.

كنت الحبيب كما لقبتني، أقدم لها كل ما تريده دون أن أفهم أن الصدق هو الشيء الوحيد الذي احتاجته مني... كنت أؤذيها دون أن أعلم، ولم أتوقف عن ذلك.»



«كان هناك جزءٌ مني يتألّم في كلّ مرّة أخدّرها، وأجعلها تغرق في النوم كي أخرج وأنهي مهمتي. ظننت أنه الجزء المتعلق بها، الجزء الذي أدمنها، ولهذا كان الصراع بيني وبينه يطول أكثر مما ينبغي، حتى كدت أفقد عقلي!

كان تأثيرها عليَّ قويًّا إلى درجة أني لم أعد أستطيع التخلص منها، والأسوأ هو أني لم أكن أريد ذلك أصلًا.

وكان هذا يُغضب جاريد كثيرًا. كنت أراه في أحلامي وهو يعذبها، فأستيقظ فزعًا لأتفقدها وأتأكد من أنها ما تزال في مكانها، وأنه لم يظهر فعلًا ويسرقها مني... لكني لا أستطيع نسيان صورها الدموية أبدًا.»



«سألتني كيف بدأ الأمر يا تود، والحقيقة أني لا أعرف كيف بالضبط. ظننت أن قلبي ميت، ولكن ذلك تغير عندما التقيت بها واقتربت منها أكثر.

تهاونت معها، فتسللت إليَّ شيئًا فشيئًا... وقبل أن أدرك ما يجري حولي، وجدت نفسي أقع في حبها. كان الأوان قد فات على المقاومة؛ إذ استقرت في قلبي كطفيلي عنيد، ولم أستطع طردها.»

«كانت علاقتنا تأخذ منحًى أعمق يومًا بعد يوم. ذكرت الزواج، ولمحت إلى الأطفال كذلك، فتظاهرت أني لم أسمعها، وأني لم أكترث. خشيت أن ترحل إن أخبرتها أن هذا مستحيل، وأني لا أرغب بأيٍّ من ذلك.

لم تذكر الأمر مجددًا بعدها؛ فلا بد أنها لاحظت تصرفاتي، لكنها مع ذلك لم تتوقف عن التخطيط لمستقبلنا.

تركتها تتابع تلك الأحلام لأني كنت مستمرًّا في كذبتي. كنت أظن أن بإمكاني أن أعيش حياتين معها إلى الأبد، لكني كنت أقتلها بأفعالي، وبالحياة التي كنت مصرًّا على عيشها كـ 005.»

«كانت تستاء حين أرفض الرقص معها، أو أتهرب من النظر إليها طويلًا وهي تتحدث، وحتى عندما أمنعها من التقرب مني في العلن.

كان ذلك يجرحها، ولم أعرف كيف أشرح لها أنني لا أستطيع، فما أزال 005! لا أستطيع إظهار هذا السلوك وفضح نفسي أمام الملأ، وستكون هدفًا واضحًا لهم أيضًا، وقد يفكرون بسلبها مني... وتلك الفكرة وحدها كانت كفيلة بدفعي نحو الجنون.»

«حاولت إبعادها عن أعين الناس من عالمي قدر الإمكان، وكاد السخط يفجرني عندما اضطررنا للذهاب معًا إلى حفلة ماتيو. كنت أخطط للذهاب وحدي لإنهاء هدفي والعودة... ولكن سحقًا له.



جلبتها معي وأنا في أقصى درجات التحفظ، أتمنى ألا يحدث شيء، ولكن حدث. جرحت مشاعرها في رقصة كانت متحمسة لها؛ لم أنظر إليها كما أرادت، لأني أعلم أنهم سيلحظون نظراتي، وسيلحظون تأثيرها عليَّ، ويستغلون ذلك ضدي.

ثم لفتت هي الأنظار إليها أكثر بعراك مع امرأة أخرى. كانوا يتراهنون عليها، ويتحدثون عنها، مما زاد سخطي إلى حد فكرت فيه بخطط محكمة لقتلهم جميعًا.

تمنيت أن أخفيها عن أعينهم، ولكني كنت 005 وهو لا يكترث، لذا أشرت لها بالرحيل فقط، وظننت أن غضبها سيزول مثل كل مرّة عندما تفضفض أو تحتج، ولكننا عدنا إلى الفندق، وخضنا شجارًا جادًّا لأول مرّة منذ عودتنا إلى بعضنا.

زدت ألمها عندما ألقيت بغضبي المكبوت عليها وانفعلت، بينما كان يجب أن أستمع، وأن أواسيها وأخبرها عن مخاوفي، حتى نحل الأمر بيننا بود... ولكني لم أفعل.

أخذها دييغو ريفيرا في اليوم التالي. ذهبت معه دفاعًا عني! ضربت غضبها وكرامتها عرض الحائط لتحميني وهي لا تدرك الحقيقة... تستمر بكونها روبي حتى بعدما آذيت مشاعرها، وهذا جعلني أوقن أكثر أنها لن ترحل مهما فعلت.

لحقت بهما بعد بضع ساعات قضيتها في التفكير والتحدث مع امرأة عن هدف جديد. كان الجزء الذي يدمنها يصرخ داخلي لقلقه عليها، ولكني قمعته وتابعت عملي متجاهلًا رسالتها، ثم علقت وسط صراع مارسيل و005 مجددًا، ووجدت نفسي أذهب إلى الموقع لأتأكد أنها بخير فقط، واتفقت مع المرأة أن تقابلني هناك لتخبرني المزيد عن الهدف.

لم أعلم أنها رأتني، وربما لهذا السبب كانت مضطربة بعد أن اجتمعنا. لم أكلف نفسي عناء السؤال، وعدت لأقنع عقلي أنها ستغضب، وستحزن، ثم تعود لتحدثني وتبتسم لي كما اعتادت... لكنها لم تفعل تلك المرة، بل آثرت الصمت فقط. نامت على الأريكة عوضًا عن جانبي، ولم تخاطبني أبدًا.



«كان صمتها موحشًا وقاتلًا، وعذبني بطريقة لم أتوقعها، فغضبت، وقررت أن أكابر وأرد بالمثل كي نرى من ينتصر في النهاية... ولم أدرك مرّة أخرى أنني كنت أؤذيها.

لم تتحدث معي لأيام! لم تستجب لي لا بالطعام، ولا بالأفلام، ولا بالروايات حتى، فألقيت بسوارها العزيز؛ كنت مستاءً من عجزي، ومن فشلي في جعلها تستجيب وتكسر صمتها.

كان ما فعلته كفيلًا بجعلها تتحدث أخيرًا، ولكن ليس كما كنت أتوقع. انفجرت في وجهي وصدمتني بحقائق كثيرة، وجعلتني أرى كيف كنت أؤذيها، ثم رحلت قائلة إنها تحتاج إلى مساحة، وشعرت بالقلق حينها، لكني طمأنت نفسي أنها ستعود، فهي لم تنفصل عني، بل تريد مساحة وحسب.

كان يجب عليَّ اللحاق بها ذلك اليوم، لأخبرها أني آسف وأنها مرغوبة عكس ما تظن. أرادت أن أشرح وأبرر، ولكني لم أفهم نفسي حينها...»



«استغليت المساحة التي طلبتها في التفكير، وأشغلت نفسي بهدف قريب، ثم عدت ورأيت اتصالًا منها، فخفق قلبي بقوة؛ ظننتها ستطلب

العودة إلى المنزل، وأنها تريدني أن أقلها، لذا ذهبت إلى مطعم هيغنز، متظاهرًا بجهلي بعملها هناك.

كانت معاملتها لي رسمية جدًّا، لكني انتظرتها أن تخبرني لماذا اتصلت بي الليلة السابقة، وانتظرتها أن تبدأ الحديث، لأني جبان ومتكبر.

قالت إن اتصالها كان عن طريق الخطأ، وسألتني إن كنت قد فكرت بمعاودة الاتصال، فبقيت صامتًا، ولم أجبها. تركتها تحلل صمتي كما تشاء، ثم بدأت تروي لي ما حدث معها في البقالة ببرود، بينما دمي يغلي!

خرجت بعدها لأحقق عن الرجل الذي لاحقها حتى وجدته، وجعلته يندم على ما فعله... لن أخوض في التفاصيل، لكنه استيقظ في اليوم التالي وهو لا يملك يده اليمنى.»



«حبست نفسي في المنزل بدونها مجددًا، وعانيت من كوابيسي وجاريد، ولم يكن لدي متنفس سوى العمل، لذا قبلت هدفًا جديدًا، وجهزت نفسي؛ كنت عازمًا على الرحيل كي أنسى التفكير بها ولو قليلًا، لكنها أتت، وظننت أنها عادت إليَّ أخيرًا.

طلبت مني الخروج معها، وقالت إن حضوري يعني أني أهتم، ثم رحلت بعد وضع وردة في يدي لأهديها لها لاحقًا.

ظللت أدور حول نفسي تلك الليلة، فقد كان مارسيل يتصارع بعنف مع 005، ولم أعد أحتمل! اتخذت عدة قرارات حتى راودني الصوت الذي أخبرني أنها يائسة، وتحبني، وتهتم لأمري، وعادت إليَّ بعد أن كانت غاضبة لتمنحني فرصة أخرى... فماذا قد يحدث لو خذلتها مجددًا؟ لا شيء بالطبع.

وهكذا قمعت مارسيل ورحلت، وليتني لم أفعل؛ عدت إلى المنزل الزجاجي وشعرت بشيء مختلف. كان هناك فراغ وسكون غريب. اكتشفت أنها مسحت آثارها تمامًا وكأنها لم تكن موجودة أبدًا...

وما كسرني حقًّا، كان رسالتها الصوتية، والطريقة التي قالت بها إني خيبت أملها... أدركت حينها أنني ارتكبت خطأً عظيمًا وخسرتها.»



«قابلتُها لاحقًا في مزاد فرانسيسكو، وكنتُ متخوّفًا. قالت إنها تأمل ألّا تكون قد نسيت شيئًا في المنزل، وكنتُ أريد أن أصرخ، وأن أخبرها أنها أخذت كل شيء ونسيتني.

أردتُ الاعتذار والتوسل، ولكن الكلمات أبت أن تغادر فمي، وكان طلبها ألّا نتحدث مجددًا، وأن أتصرف كأني لا أعرفها، مؤلمًا إلى حدٍّ لم أستطع احتماله.

لذا عدتُ إلى المنزل وأخفيت السوارين، وكانت الوردة لا تزال فوق الطاولة، ذابلة وميتة، فوضعتها في صندوق معهما؛ أبقيتها هناك لأتذكر ما اقترفته يداي دائمًا، ولأتذكر كيف كانت روبي مثل الزهرة التي سقيتها سمًّا حتى ذبلت وماتت.»

«أتت تلك الليلة بعد المزاد، وقتلت كل الآمال في عودتها عندما رأيت وجهها؛ علمتُ أنّها اكتشفت الحقيقة وقد جاءت لتحاسبني. كانت تبكي، فانفجرت وأخبرتها أني لا أستطيع التوقف، وأنني أريد أن أكون 005.

بكت أكثر، وكانت محقّة عندما قالت إني عاجز عن التوقف لأني لا أريد أن أخيب ظن جاريد بي. جعلتني أرى الحقيقة كلها، وصدمتني بأخرى عن حملها.

شعرتُ بصفعة قوية حينها، وبدأ عقلي يعمل بسرعة مرعبة، ويستبق كل الاحتمالات؛ قرأت عن سلوك الأمهات من قبل، وكيف أن منهن من قد تضحي بحياتها من أجل طفلها، وأنه محور كل شيء، وهذا أخافني.

خفت لأنها باتت تملك سببًا يتيح لها أن تتركني إلى الأبد. ستحبه، وتتعلق به، وربما تضحي بحياتها من أجله. لن أكون في الصورة، ولن تهتم، ولن ترغب بي بعد الآن، ولهذا توسلت إليها أن تتخلّص منه... كنتُ يائسًا جدًا، وهي كتبت نهاية كل شيء ورحلت.»



«عدتُ إلى اصطياد أهدافي لأنساها، وانغمست في تلك الحياة من جديد، وعشت في الجحيم...»



«أنا رجل يعاني من متلازمة تمنعني من النسيان، ولكني رغم ذلك نسيت كيف كنت أعيش حياتي قبل مجيئها...

لم أعد أستطيع متابعة العيش كما في السابق. لا أستطيع أن آكل، أو أشرب، أو أنام، أو أعمل، أو حتى أتنفس دون أن أعاني. قاومت كثيرًا حتى تعبت، وأدركت أنني لا أستطيع المتابعة بدونها.

ولهذا جئتُ إليك يا تود. تعبت من هذه الحياة، ومن كوني 005. أريدك أن تصلحني حتى أتغير، فأنا لا أستطيع العودة إليها والمطالبة بها وأنا هكذا. أنا مستعد لكل شيء يتطلبه ذلك. سأتغير، وسأكون رجلًا جديرًا بها.»



«سألتني أن أصف لك روبي، فكن مستعدًّا لأنني سأكتب كثيرًا، فهي ليست امرأة عادية، بل معجزة. أروع، وأنقى، وأقوى شخص قابلته في كل حياتي.

تفيض بالأمل والحب، ولم تستسلم رغم تخبطات الحياة، وتجد طريقة للتبسم دائمًا. لديها حس فكاهي فريد من نوعه أيضًا، وطاقة حيوية لا تنتهي. تعجبني تقلباتها المزاجية، وتفاجئني دائمًا، وأحب مراقبتها تفعل أي شيء، وحتى النوم.

إنها تملك عينين زرقاوين، وتكره زرقتهما، ولم أخبرها يومًا أنهما أوّل ما شدّني إليها، وأنّي أشعر أن الأمواج الدافئة تلتف حولي كلما نظرت فيهما، وتغرقني برقة لا أريد مقاومتها...

كنتُ أغرق بإرادتي؛ فقد كان الموت في بحر عينيها أفضل من حياتي البائسة.»



«إنّ روبي رائعة جدًا، ويصيبني الإحباط كلما حطّت من قدر نفسها، أو من شكلها. إنها أجمل امرأة عرفتها، وأول امرأة رغبت بها حقًا؛ رائحتها، لون شعرها، ابتسامتها، صوتها، لمستها، حضنها، ضحكتها، وروحها... كل شيء فيها مذهل! وأتمنى لو تمنحني فرصة ثانية لأقدّس ذلك كما ينبغي.»



«سأعترف لها يومًا أنني لا أفكّر على نحو طبيعي عندما أكون بقربها، ولا أستطيع الاستمرار بالعيش من دونها، فهي الهواء الذي ينعشني، والماء الذي يرويني، والطعام الذي يمدني بالطاقة، هي شمسي وقمري، وملاذي وخلاصي... وكل شيء.



ولو كان بإمكاني أن أحصل على أمنية واحدة في حياتي البائسة، فسأتمنى أن يتوقف الوقت عندما أكون معها.»



«أتمنى لو أنها ترى ما أشعر به، لأنني حقًا لا أعرف كيف أصف مشاعري تجاهها. إن كانت كلمة «أحبك» كافية، فنعم، أنا أحبها، وإن كانت «أعشقك» أقوى، فأنا أعشقها، وإن كان الحب جنونًا، فأنا مجنون بها. إدمانًا؟ أنا مدمن منذ زمن. هوسًا؟ أنا مهووس...

تتعدد الكلمات، ولا أظنها كافية لوصف ما أشعر به، لذا سأكتفي بقول إنني أتنفسها حتى أجد تعبيرًا يليق بها.»



30: هدية سيزة

«مذكرتي العزيزة...

أنا متوترة منذ استيقاظي هذا الصباح، فلا يزال ما حدث البارحة يبدو كالحلم، وخائفة من الخروج الآن... لا أعلم ماذا سأفعل لو رأيته أمامي، ولا يعجبني هذا الوضع على الإطلاق!»

أغلقت روبي مذكرتها بعنف وتركتها جانبًا، ثم أخذت شهيقًا وزفيرًا متتاليين وهي تتذكر ما فعله مارسيل ليلة البارحة، إلى آخر جملة قالها، حتى هدأت أخيرًا.

خرجت من غرفتها لتراه يجهز طاولة إفطار متأخر، وما إن وقعت عيناه عليها، حتى لانت ملامحه وقال: «صباح الخير... حضرت لك الإفطار.»

نظرت حولها أولًا: «وأين ميا؟»

«إنها تحضّر مفاجأة لك.»

«فهمت.»

سأل بفضول: «ألستِ جائعة؟ هل يمكننا تناول الطعام معًا؟»

حدقت به لثوانٍ وصدى كلماته يتكرر في رأسها، ثم أومأت بهدوء، ولاحظت الراحة التي مرت على وجهه.

جلست على المقعد المقابل له، فقال وهو يشير إلى الأطباق أمامها: «أعددت البيض كما تحبّينه، وهذا عصير البرتقال مع الجزر. خبز محمّص



بالزبدة، ولحم مقدّد، والجبن الذي تحبينه.»

نظرت إلى الطاولة وهي تشعر بدفء غريب ومربك: «لا يمكنني تناول كل هذا وحدي.»

رد بعفوية: «إنه لنا.»

عقدت حاجبيها: «هل ستتناول هذا معي؟»

ابتسم ابتسامة لينة: «أجل يا روبي، سأتناول هذا الطعام معك.»

«ولكن أنت لا تأكل هذا الطعام.»

«أنا أعرف كيف أتناول طعامي بذكاء، وأريد أن آكل ما تأكلينه. حتى السكر، مثل الكعك والشوكولا، وخاصة الحلوى المضغية.»

أخفت روبي دهشتها بالنظر إلى طعامها، والاكتفاء بإيماءة بسيطة، لكن مارسيل لمح طيف ابتسامة على شفتيها.

بدأت بتناول طعامها في صمت، لكنه قطعه قائلًا: «هل يمكنني سؤالك شيئًا؟»

ابتلعت لقمتها ونظرت إليه بفضول بريء، فسرح في عينيها للحظة قبل أن يقول: «هل نمتِ ليلة البارحة؟»

أجابت بتردد: «لا.»

أومأ، ثم قال بصراحة أربكتها: «وأنا أيضًا... فالبارحة اتخذت خطوة أردت اتخاذها منذ وقت طويل، ولكني كنت أجبن من أن أتقدم.»

انحبست أنفاس روبي فجأة، ليطبق مارسيل شفتيه لثانية وقد شعر أنه ضغط عليها أكثر مما ينبغي.



«إن كانت صراحتي، أو طريقتي في التعبير عن مشاعري لا تريحك، فسأحاول أن أخفف من ذلك... لدي الكثير لأقوله، ولكني سأنتظر كما وعدتك.»

هزت رأسها بنعومة وقالت: «ليس الأمر كذلك... أنا متوترة فقط، وأحاول أن أعتاد على هذا التغيير.»

أومأ بابتسامة صغيرة لم تطل روبي تأملها، وبعد لحظات طرقت ميا الباب، ثم دخلت وهي تحمل كعكة صغيرة، وخلفها روكو الذي بدا مستعدًا للانقضاض على الكعكة.

ابتسمت روبي بتفاجؤ، ثم وضعت الكعكة جانبًا، قبل أن تعانق ابنتها وتقبلها.

قالت ميا بفخر: «لقد ساعدتني العمة فاليريا في صنعها... ستعجبك!»

لمست وجنتها برفق: «سيعجبني أي شيء من صنع يديك يا حبيبتي.»

اتسعت ابتسامة ميا أكثر، بينما حمل مارسيل الجرو بعيدًا عن الكعكة، ووضع له شرائح اللحم المتبقية، لينشغل بها.

رفعت ميا هدية صغيرة: «وهذه هدية مني ومن بابا.»

تنقلت نظرات روبي بينهما، ثم أزالت التغليف لترى علبة هاتف جديد؛ فقد كانت تستعمل هاتفًا قديمًا بعد أن فقدت خاصتها أثناء الاختطاف.

«يجب أن نخرج في نزهة اليوم لهذه المناسبة السعيدة! ما رأيكما؟»

قال مارسيل وهو ينظر إلى روبي: «تبدو فكرة جيدة... ثلاثتنا في نزهة.»

شهقت ميا باستياء: «بابا؟ لقد نسيت روكو وميليسا مجددًا!»

تنهد باستسلام واعتذر، فسامحته ميا بسرعة، ثم نظرت إلى روبي التي قالت: «لقد تناولت الإفطار للتو، فهل يمكننا الذهاب بعد ساعة أو ساعتين؟»

«حسنًا. سألعب مع أندريه إلى ذلك الحين.»

عانقتها مجددًا، ثم قالت بابتسامة عريضة: «أحبك يا ماما، وستكونين فتاة العشرين في نظري دائمًا.»

كتم مارسيل ضحكته، بينما سخرت روبي بخفة: «من علّمك هذا الكلام؟»

«العم أندرياس يقول ذلك للعمة لورينا.»

شردت روبي بذهنها للحظات، ثم أومأت بابتسامة صغيرة قبل أن تشاهد ميا تأخذ روكو معها إلى الخارج.

تأملت الهاتف وقالت بحرج: «شكرًا.»

«بل شكرًا لك.»

وقفت أمام المرآة بعد أن ارتدت ثيابها، وتأملت انعكاسها قليلًا. تردّدت بشأن شعرها، ثم تركته منسدلًا على غير عادتها، ووضعت المرطّب، لعلّها تخفف شيئًا من الشحوب الذي استوطن ملامحها الفترة الماضية.

هبطت مع مارسيل إلى الأسفل وهي تشعر بتوتر خفيف، وعدم ارتياح لمواجهة الآخرين بعد، لكنها ارتاحت عندما انعطف نحو المطبخ ليخرجا من الباب الخلفي.

نظرت باستغراب إلى السلة التي التقطها قبل خروجه، ثم سألت: «هل

جهزوا سلة لك؟»

«بل أنا من جهزها.»

همت أن تعلّق، لولا هتاف ميا التي تركت أندريه وركضت نحوهما بحماس مع روكو.

تأمل مارسيل ابتسامتها العريضة، والفرح المتدفق من عينيها، ثم أخبرهما أنه يعرف بقعة ممتازة لا تبعد سوى بضع دقائق سيرًا.

مشت روبي إلى جواره وهي تستمع إلى ابنتها تدندن بلحن لطيف، حتى وصلوا إلى مرتفع واسع، يطل على جزء من البحيرة، وراح روكو يركض في الأرجاء بسعادة.

«العبي معه بالكرة ريثما أحضر مكان جلوسنا يا ميا.»

«حاضر يا بابا!»

أشار لروبي أن تجلس، ثم جلس إلى جوارها على بعد مسافة مريحة، وبقيت تحدق في ما يخرجه من السلة بفضول.

«بداية، لم أعرف كيف أحضّر هذه السلة، لذا بحثت في الإنترنت ووجدت الكثير من الأشكال. لم يكن لدي وقت لأحضر وسادات أو طاولة أرضية وما إلى ذلك، فجمعت ما استطعت بمساعدة فيرونيكا.»

سألت بهدوء: «وماذا أحضرت؟»

«شطائر، عصائر، فواكه مقطعة، شوكولا، ورقائق البطاطا المقلية و...»

أخرج مجموعة زهور مقطوفة، ووضعها على طرف المفرش.



«كانت الزهور موجودة في كل الصور تقريبًا، لذا قطفت هذه من الأرجاء.»

تأملت الزهور للحظة، ثم نظرت إلى روكو الذي ركض نحوهما بعدما لمح كيس بسكويته الخاص، وقفز عند ركبة مارسيل، حتى أطعمه قطعة، فيما لعبت ميا بدميتها ميليسا وعربتها الصغيرة...

ملأت صدرها بالهواء العليل، وتركت ذهنها يصفو تدريجيًا، بينما راقبها مارسيل بنظرات حالمة، إلى أن التفتت إليه أخيرًا.

«لماذا اخترت هذا المكان عوضًا عن الجلوس قرب البحيرة؟»

«لأنه أجمل، وشعرت أنه سيكون أكثر راحة لك.»

حدقت به قليلًا، ثم نظرت إلى الأفق، ولم يرد مارسيل أن تعود إلى السكوت، فبدأ محادثة أخرى...

«هل فتحت هاتفك الجديد؟»

«أجل، وغيرت رقم هاتفي.»

أطبق شفتيه محاولًا منع ابتسامة ساخرة، فعقدت حاجبيها باستغراب.

«ما الأمر؟»

«لم أفعل هذا من قبل... لكن هل يمكنني الحصول على رقمك؟»

قالت بنبرة متهكمة خفيفة: «لم تطلب رقم امرأة أبدًا؟»

«لم تستهوِني امرأة لأطلب رقمها.»



لم تستطع روبي أن تحبس ضحكتها الرقيقة، ثم التفتت إلى الأمام وهي تهز رأسها، بينما ظل مارسيل يتأملها بقلب يكاد يحطم ضلوعه.

همس بعد لحظة مرّة أخرى...

نظرت إليه: «ماذا؟»

«ابتسمي واضحكي مرّة أخرى.»

ابتلعت توترها، ثم قالت: «أنت تتقدم بسرعة لا أستطيع استيعابها.»

تدارك نفسه وقال: «أنا آسف. لم أقصد مضايقتك.»

لاحظت ارتباكه، فغيرت الموضوع: «لماذا تريد رقم هاتفي؟»

«إلى جانب الاتصال بكِ، فأنا أودّ مراسلتك. يقولون إن المحادثات النصية رومنسية ولطيفة.»

فرت ضحكة مكتومة رغمًا عنها، فعقد حاجبيه: «ما الأمر؟»

هزت رأسها باستنكار طريف: «لا أصدق أنك قلت كلمة رومنسية ولطيفة في جملة واحدة.»

أشاح ببصره وقد بدا عليه الحرج: «حسنًا، يبدو أنني سأتعرض للكثير من السخرية مستقبلًا، كلما عبّرت عن رغباتي.»

اتسعت عيناها: «هل كنت جادًّا؟»

«أنا جاد في كل شيء يتعلق بكِ.»

أشاحت بوجهها إلى ميا وهي تشعر بحرارة في وجنتيها، لكنها لم تدم طويلًا؛ إذ عادت الأفكار التي تؤرقها للسطح، وشردت بذهنها بعيدًا عنه حتى سحبها مجددًا.



«لنلعب لعبة.»

نظرت إليه باستغراب: «لعبة؟»

أومأ بابتسامة صغيرة، ثم نادى ابنته، فركضت نحوه، وألقت بجسدها عليه في عناق كاد يوقعه لولا أن ثبت نفسه.

جلست مقابلتهما بحماس لطيف، بينما اقترب روكو من مارسيل، وأسند رأسه فوق فخذه بعفوية.

«سأسأل سؤالًا وسيجيب كل واحد منا عليه.»

هتفت ميا: «أنا مستعدة!»

«أول سؤال: لو كان بإمكانك أن تصبحي مشهورة على شرط أن تظلي فقيرة إلى الأبد، فهل سترغبين بذلك؟ أجيبي أولًا يا ميا.»

احتجت ببراءة: «لا يوجد مشهور فقير! سؤالك خاطئ يا بابا. غيّره.»

غيّر السؤال دون جدال: «لو وجدتِ حقيبة بها الكثير من المال، فماذا ستفعلين؟»

لمعت عينا ميا: «سأشتري منزلًا كبيرًا يكون تصميمه مثل الحلوى، وسيكون خاصًّا بالألعاب!»

تنهد مارسيل: «لن ننتهي من الألعاب أبدًا.»

ضحكت ميا، ثم التفتت هي ووالدها معًا نحو روبي التي أجابت بملامح لينة: «سأكمل تعليمي، وأشتري كوخًا دافئًا في إحدى الأرياف الجميلة.»

احتجت ميا: «لا يا ماما، نريد منزلًا بجانب الشاطئ.»

هزت روبي كتفها، ثم نظرتا إلى مارسيل الذي أجاب ببساطة: «سأستثمره وأضاعفه.»

قالت ميا بسخرية: «أنت رجل أعمال مثل جدي.»

استمرت لعبة الأسئلة، وكانت روبي تلين وتندمج أكثر، تبتسم أحيانًا، ثم تعود إلى التحفظ كلما انتبهت إلى نظرات مارسيل نحوها.

خفت صوت ميا مع كل سؤال حتى غلبها النعاس، فقال بصوت منخفض: «كانت ستحب سؤالي الأخير، ولكنها نامت.»

مسحت روبي على رأس ابنتهما بحنان، ثم سألت: «وما هو؟»

«لو أتيح لك أن تتمني ثلاث أمنيات، فماذا ستكون؟»

سرحت في عينيه للحظات وهي تفكر: «أختار ألّا أجيب.»

أومأ بتفهم، ولم يلح، ثم سأل: «هل أنت مهتمة بإجابتي؟»

هزت كتفها بنعومة دون أن تعطي إجابة مباشرة؛ لا تريد أن تقول نعم، فتبدو فضولية، أو لا، فيصمت. تركت له الخيار فاختار أن يبوح بما لديه...

قال وعيناه على البحيرة: «أتمنى لو كان بإمكاني أن أغسل يدي من دماء كل الذين قتلتهم، لتكون بدايتي نظيفة. أتمنى أن أكون أبًا جيدًا لميا، وأتمنى أن أجعلك سعيدة دائمًا.» ثم نظر إلى عينيها مباشرة: «قد لا أستطيع تحقيق الأمنية الأولى، ولكني سأفعل ما بوسعي لتحقيق الثانية والثالثة.»

حدقا ببعضهما للحظة طويلة، ثم التفت مارسيل إلى الجرو النائم فوق فخذه، ومسح على جسده الصغير برفق، فسألت بهمس: «هل الاعتناء بالجرو صعب؟»

أجابها وقد فهم عمق سؤالها: «أحيانًا... ولكني سأعتاد، كما أن روكو يساعدني في ذلك، فهو يتقرب مني أكثر مما أتقرب أنا منه.»

أومأت بفهم، ثم تأملت الأفق لبضع دقائق، وقالت: «لم أتخيل أني سأقضي يوم ميلادي في مكان جميل كهذا، فشكرًا لك.»

«بل شكرًا لكِ... ولم ينته اليوم بعد. ما تزال هناك هدية تنتظرك في الشقة عندما نعود.»

«هل سنعود اليوم؟»

«أجل. حجزت طائرة لثلاثتنا... عفوًا، أربعتنا، ستوبخني ميا كلما نسيت روكو.»

أضافت روبي بتهكم: «نسيت ميليسا.»

ضحك ضحكة خافتة: «نعم نعم، حفيدتنا.»

كان لوقع الكلمة أثر غريب، لكن روبي لم تعلّق أو تبدِ شيئًا على ملامحها. ظلت تنظر إلى ميا النائمة، بينما مارسيل يتأملهما معًا؛ يحفظ تفاصيل الصورة في ذاكرته على أمل ألّا ينساها في المستقبل.



عادوا إلى البيت بعد النزهة الجميلة ليجدوا الخدم في الفناء، يجهزون عدة الشواء وينصبون الطاولات وفق أوامر فيرونيكا التي ما إن رأتهم حتى ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة.

«سمعتُ أن اليوم يوم ميلادك.»

أومأت روبي بأدب: «أجل.»

«يا له من يوم سعيد حقًّا! نحن نجهز وليمة على شرف أندرياس وإيزابيل. لقد ذهبا إلى القرية وتزوجا.»

أومأت روبي مجاملة، وفكرت للحظة سريعة في ردّة فعل إيزابيل عندما تعلم أن زواجهما يوافق ميلادها، ثم نظرت إلى فيرونيكا التي دعتها لعشاء الليلة، لكن مارسيل تدخل وأخبرها أنهم سيغادرون مبكرًا.

«ولم العجلة؟ نريد أن نحتفل بكِ أيضًا. لقد طلبت أن يعدوا كعكتين.»

ردت بأدب: «ممتنة لك جدًا، ولكني أريد العودة مبكرًا.»

تفهمت فيرونيكا الأمر، ولم تجادل أكثر: «حسنًا... رافقتكم السلامة.»



حطّت الطائرة بسلام، وعادوا إلى المجمع في وقت متأخر. ما إن دخلت روبي إلى الفناء حتى شعرت بأعين السكان تتبعها، لكنها تجاهلتها هذه المرة، وصعدت إلى شقتها دون أن تلتفت.

طلب مارسيل من ابنته أن تدخل معه إلى شقته أولًا، فاستغربت، وارتسمت الريبة على وجهها، لكنها لم تعترض ولحقت به.

أغلق الباب خلفه وأطلق روكو، ثم التفتت إليه، وسألته: «ما الأمر يا بابا؟»

أشار إلى الأريكة: «أريد التحدث إليك، فاجلسي من فضلك.»

أومأت ميا ببراءة وجلست كما طلب، فجلس بقربها، ثم احتضن يدها الصغيرة بين يديه، وانتقى كلماته بعناية.



«ما سأقوله قد يكون صادمًا لكِ... لكن أمك ترغب في تبني روبن، فأحضرته، وهو في شقتها الآن.»

اتسعت عيناها، وانعقد لسانها لوقت طويل، فانتظرها مارسيل بصبر؛ يترك لعقلها الصغير المجال ليستوعب الفكرة.

همست بقلق: «لكنه شرير.»

«لقد كنتُ مثله، لكنّي ندمت وحصلت على فرصة ثانية. أليس من العدل أن يحصل على فرصته أيضًا؟ لقد عبّر عن أسفه، ولم أكن لأجد والدتك وأنقذها لولاه.»

أخفضت عينيها، وبدا الارتباك واضحًا على وجهها. لم تعرف ماذا تفعل؛ محاصرة بين ثقتها بوالدها، وخوفها القديم من روبن وما فعله بهم.

لمس مارسيل كتفها: «سنحتاج إلى الوقت كي نثق به، ونعتاد على وجوده يا ميا.»

«وهل... يجب أن أتحدث إليه وألعب معه؟»

«لن يجبرك أحد على شيء لا تريدينه.»

تابع الحديث والإجابة على أسئلتها باهتمام حتى يطمئنها أكثر، لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة إليه؛ لا يتوقع أن يتقبل وجود روبن بسهولة، وربما لن يتقبله أبدًا، فما زالت هناك شكوك ومخاطر تحيط به.

لا يمكنه قول ذلك لها أو لوالدتها، كل ما يستطيع فعله هو البقاء إلى جوارهما، ليراقبه، ويتأكد في كل لحظة أنهما في أمان منه.





تجمّدت روبي عندما دخلت إلى الشقة ووجدت روبن بانتظارها. بدا أفضل حالًا من المرّة السابقة؛ لم يعد وجهه شاحبًا، ولا جسده هزيلًا، ولم تكن هناك آثار ضرب أو تعذيب، مما زاد من ارتباكها وتساؤلاتها.

اقترب منها بتردد بينما هي تحاول أن ترتب أفكارها، وتتغلب على صدمتها في وقت واحد، ثم سألها بصوت منخفض: «مرحبًا... كيف حالك؟»

أفاقت من صدمتها قليلًا، لكنها قالت بتشتت: «من... كيف؟»

شرح ليخفف عنها ارتباكها: «لقد زارني مارسيل مطلع الشهر الماضي، وأخبرني أنه سيخرجني لأنك تريدين ذلك، فانتظرته.»

التفتت روبي جانبًا ومسحت على شعرها باضطراب؛ لم تعرف ماذا تقول، مشاعرها متشابكة إلى درجة أخرستها.

«سأعود إلى المستودع إن غيّرتِ رأيك، وأنا مستعد للعقاب في أي وقت أيضًا.»

همست: «لن أعاقبك... ولم أكن لأعاقبك.»

بدت الحيرة في وجهه: «ما الذي أفعله هنا إذًا؟»

احتضنت روبي نفسها، وصمتت طويلًا هذه المرة؛ تحاول انتزاع الكلمات من مكان عميق ومؤلم داخل قلبها.

ثم قالت أخيرًا: «لأن مارسيل يعلم أني ما أزال أكترث لأمرك. يعلم أني أريد أن أكون أمًّا لك، وأنقذك مثلما أنقذني أبي من قبل.»

دمعت عينا روبن فورًا، وقال بصوت مرتجف: «أنا مجرم... ولا أستحق ذلك.»



«ألم تقل إنك تريد أن تكون روبن؟ كن روبن إذًا.»

ارتعشت شفتاه وخرجت كلماته بصعوبة: «أتسمحين لي؟»

لمعت عيناها بالدموع، ولكنها تماسكت قدر المستطاع، وقالت بوجه جاد امتزج بحرقتها القديمة: «سأسمح لك بذلك، ولكن يجب أن تعمل بجد لتستحق هذا الاسم. لا مزيد من الأكاذيب أو الخيانات!»

أومأ بسرعة وكأنه لم يصدق الفرصة التي منحت له: «أعدك أني سأكون جديرًا بهذا الاسم، وسأعمل بجد حتى تسامحيني!»

مسحت دموعها قبل أن تهرب، ثم طلبت منه أن يستعد للنوم؛ كان ذلك كلّ ما استطاعت فعله في حالتها تلك.

تحركت قدماها بعد ذلك من دون تفكير، واتجهت إلى شقة مارسيل. شعرت بارتياح عندما رأت ميا نائمة؛ فلم تكن مستعدة، ولم تملك الطاقة لخوض حديث روبن معها.

وقف مارسيل أمامها دون قول شيء، وانتظرها أن تبدأ، لكنها لم تستطع من بين عشرات الأسئلة، والمشاعر العاصفة، سوى أن تهمس: «لماذا...؟»

«أخبرتك من قبل أني سأفعل كلّ ما يجعلك سعيدة ومرتاحة.»

«ولكن ماذا سيقولون؟»

تبدلت ملامحه للجدية أكثر: «تجاهليهم. سأقف في وجه أي أحد يتعرض لك بكلمة أو بنظرة.»

هزت رأسها بأسى وهمست: «لم يقتل بنيتو.»



«أعلم، لكنهم سيجدون ذلك صعب التصديق، وسيعاني وقتًا عصيبًا هنا بالتأكيد. لا خيار سوى التحمل حتى ننتقل إلى مكان آخر، وهذا أنسب حل في رأيي.»

حدقت به وهي تفكر، ووجدت أن الانتقال هو أنسب حل بالفعل، لكنها ستؤجل التفكير فيه إلى وقت لاحق، وستركز على هذه اللحظة...

«أصل...»

أجاب قبل أن تكمل وكأنه يعرف سؤالها: «أخبرت ميا بالأمر، وسنعمل أنا وهي على احترام رغبتك. ستحتاج إلى الوقت فقط، وآمل أنها فهمت ما قلته.»

همست بامتنان عميق: «شكرًا لك.»

«بل شكرًا لك.»

التفتت إلى الباب وهمت بالخروج، لكنها توقفت حين ناداها ونظرت إليه.

«نعم؟»

«أنا أتنفسك... وتصبحين على خير.»

تعثرت أنفاسها، ولم تعرف كيف خرج صوتها خافتًا: «تصبح على خير.»



31: مراسلة ليلية

«لقد ركض إليّ مثلما ركضتُ إليه حين علمت أنه حي وفي المنزل الزجاجي. وجدته في الماضي، ووجدني الآن، ثم قال تلك الكلمات التي جعلتني أبكي، ولا أزال عاجزة عن التصديق حتى بعدما قرأت مذكراته كلها.. لن أنسى ذلك أبدًا، وسيكون يومًا مميزًا للأبد».

ابتسمت كارمن ابتسامة صغيرة: «حدث الكثير بالفعل».

تنهدت روبي تنهيدة عميقة: «ولم يخلُ هذا الأسبوع من الأحداث أيضًا».

رفعت كارمن حاجبها وقالت بمزاح لطيف: «هل هذه تنهيدة الحب يا ترى؟»

ابتسمت روبي بانكسار: «بالطبع لا.. فما أزال خائفة».

«من ماذا بالضبط يا روبي؟»

أجابت بتردد: «من أن يكون كل ما حدث مجرد حلم، وأن يرحل مجددًا بعد أن يعلقني به. أخشى من أن يكسرني أو يكسر ميا مجددًا، وأخشى أن أسمح له بالاقتراب أكثر».

«هل أخبرته أنك تحتاجين إلى الوقت؟»

«أجل، ولكنني أقلق من نفسي أكثر مما أقلق منه. أعرف أنه يحاول، وأرى ذلك في كل شيء يفعله، لكنني لا أريد أن أركض نحوه وكأنني تجاوزت

الماضي».

وضعت يدها على قلبها، وأكملت: «لا أريد أن أعود إلى روبي القديمة التي كانت تظن أن الحب وحده كافٍ للتغيير والتغاضي عن أشياء كثيرة. أريد أن أكون أقوى هذه المرة، وأن أختاره بإرادتي، لا بمشاعري فقط.. وأريد أن أكون بخير، سواء بقي أم رحل».

أومأت كارمن بابتسامة ناعمة: «هذا تحسن كبير، وأنا فخورة بك حقًّا».

هزت روبي كتفها وقالت بتهكم: «انتظري دقيقة أخرى وسأبدأ بالهلع والتفكير الزائد».

«لا بأس، سأذكرك ألّا ترهقي نفسك بالتفكير، أو تستعجلي في اتخاذ قراراتك».

فرت ضحكة خافتة من روبي، ثم انتقلت كارمن إلى موضوع روبن، وكيف مر أسبوعه الأول هنا.

«لا تزال ميا متحفظة تجاهه، ويبدو مارسيل كطرف محايد. أخذه معه من أجل استخراج هويته، وسيكون مكسيكيًّا مزيفًا مثلي». أضافت: «سألته عن تاريخ الميلاد الذي يريده لأنه لا يعرف الأصلي، فاختار تاريخ اليوم الذي وجدناه فيه على الشاطئ».

أكملت بشفقة: «لن يكون مرتاحًا هنا، فالأنظار الحاقدة تتبعه من كل اتجاه، أما أنا فيتحاشون النظر إليّ. ربما بسبب الدون أو مارسيل، لا أعلم، ولكنهم لا يتعرضون لي».

رفعت كارمن قلمها قليلًا وسألت: «وكيف معاملتك معه؟ كيف تشعرين؟»

«أنا آخذ الأمور بروية.. لست مندفعة نحوه، ولا أريد أن أضغط على نفسي أكثر من اللازم».

ارتشفت من الشاي، ثم أضافت: «لم نجلس ونتحدث حديثًا طويلًا بعد. لا أقبله قبل النوم، ولا أحتضنه كما أفعل مع ميا، وهو لا يطلب شيئًا أيضًا.. وبالمناسبة، ينام على أرضية غرفتها، ويرفض أن ينام على فراشها. يقول إنها قد تنزعج، وهذا يجعلني أشفق عليه».

«وهل يناديك بأمي؟»

اتسعت عينا روبي سريعًا: «أوه، لا لا لا! لم يقلها، ولا أظن أن أيًّا منا مستعد لهذه الخطوة الكبيرة بعد».

أومأت كارمن وسجلت ذلك: «حسنًا، ماذا عن أندرياس ولورينا؟»

«لم أقابل أندرياس، فهو على حد علمي يقضي شهر العسل في مكان ما، ولم أملك الجرأة لأقترب من لورينا».

شردت بذهنها، فرفعت كارمن يدها مشيرة: «لا ترهقي نفسك بالتفكير».

ضحكت روبي أخيرًا: «حسنًا حسنًا، سأعمل على ذلك».

ودّعت روبي طبيبتها، ثم اتجهت إلى شقة مارسيل لتحضر روبن. وجدته جالسًا على الأريكة، يقرأ كتابًا في هدوء شديد بينما ميا تلعب في الفناء مع أندريه، ويراقبهما مارسيل بتركيز، لكنه في الحقيقة يفكر بخطوته التالية بعد سماع ما قالته لكارمن.

«يمكنك العودة الآن».

أغلق روبن الكتاب ونهض، فتأملته روبي بشفقة خفية، ثم سألت: «كم مرّة قرأته؟»

«مرتان».

«مع الأسف، إنه الكتاب العلمي الوحيد الذي أملكه».

«لا بأس. لا تشعري بالذنب من فضلك، فأنا لا أمانع».

ظلت تنظر إليه للحظة، ثم أخرجت هاتفها وتفقدت حسابها البنكي بسرعة، قبل أن تقول: «ما رأيك أن نذهب للتسوق؟»

«لا داعي لأن تهدري المال عليّ».

ردت بنبرة حازمة: «أنت روبن سميث الآن، وهذا يعني أنك مسؤوليتي. لا يمكنني تركك تعيش بالملابس نفسها لبقية حياتك. سنذهب إلى المجمع التجاري ونشتري ما ينقصك، فهيا بنا».

أومأ روبن وارتدى حذاءه، ثم فتحت روبي الباب لتجد مارسيل أمامها مباشرة، على وشك الدخول.

بادر بالكلام بعفوية: «هل تريدين الذهاب إلى السوق؟»

«كنت على وشك أن أطلب منك توصيلة لهذا السبب. تلزمني بعض الأغراض لروبن».

«وميا تريد فستانًا جديدًا لحفلة التخرج».

عقدت حاجبيها: «ظننت أنها سترتدي الوردي».

هز كتفه: «قالت إنها تريد واحدًا جديدًا.. فما رأيك؟ يمكننا أن نذهب جميعًا».



«حسنًا».

أفسح لها الطريق لتخرج أولًا، وبينما كانت تمر، تبادل هو وروبن نظرة قصيرة ومشحونة، قبل أن يتبعهما إلى الخارج.

امتعض وجه أندريه حين رآه، أما ميا، فلم تعرف كيف تتصرف في حضوره بعد، ولا يتوقف أندريه عن تحذيرها منه كلما لاحظ أنها بدأت تلين قليلًا. لا تريد أن تخسر صداقته، وباتت في موقف صعب يرهق عقلها الصغير.

همس لها أن تكون حذرة، فأومأت فقط، ثم ودعته واتجهت مع والدها إلى السيارة، وحينها فقط تجمد تفكير روبي للحظة؛ المقاعد الخلفية لن تسع لثلاثتهم، وستضطر للجلوس في المقدمة إلى جواره.

استرق مارسيل نظرةً إليها، ثم خلق مسافة بسيطة بينه وبين الطفلين، وقال بصوت منخفض: «أيًّا كان ما ترتاحين له...»

نظرت إليه مليًّا، وشعرت بشيء من الامتنان، لكنها رفضت أن تترك خوفها يقرر عنها.

«لا بأس. سأجلس في الأمام».

رأت البهجة في عينيه، ثم تابعت طريقها بسرعة دون أن ترى ابتسامته، وما إن غادرت السيارة المجمع حتى خف عنها التوتر قليلًا.

التفتت إلى ميا المنشغلة بلعبتها، ثم إلى روبن الذي كان يراقب الطريق، وراحت تفكر في طريقة تقرّبهما من بعضهما، من غير أن تثقل على أحدهما أو تدفعه إلى النفور.



مشت برفقة روبن داخل أحد المتاجر، وانتقت له بعض القطع الجيدة، ثم سلّمتها إليه، وأخبرته أن يختار ما يحتاجه بنفسه أيضًا؛ إذ لم ترغب أن تفرض ذوقها عليه.

قالت وهي تشير إلى غرفة القياس: «ادخل وجرّب الملابس. سأنتظرك هنا».

«حاضر».

التفتت بعد دخوله لتبحث عن أي أثر لميا أو مارسيل، ثم وقعت عيناها على انعكاسها في المرآة الكبيرة، وهمست لنفسها:

«سحقًا، لماذا لم أضع مرهمًا لوجهي قبل أن أخرج؟ أو شيئًا من المساحيق؟»

فتحت حقيبتها بسرعة، وأخرجت منها علبة بودرة ومرطب شفاه لتضعهما، ثم شعرت بالإحراج عندما التفتت لتجد روبن ينتظرها بصبر.

«لم أرد أن أقاطعك».

تداركت نفسها سريعًا، ونظرت إلى ما يرتديه، ثم قالت بنبرة هادئة: «تناسبك كثيرًا».

«شكرًا، ولا داعي أن أجرّب البقية».

«كما تشاء. هيا بنا».

جمعت روبي القطع واتجهت إلى منضدة الدفع، وهناك صادفت مارسيل وميا التي كانت تقف أمامه بوجه متجهم، عاقدة ذراعيها.

«ما بها حبيبتي ميا؟»

«لم تجد فستانها المنشود».

هتفت بانزعاج: «لا تسخر مني!»

رد بهدوء: «آسف».

«سنرى متجرًا آخر، فلا تقلقي يا عزيزتي».

وفي تلك اللحظة، ابتسمت المحاسبة فجأة وقالت: «مبارك يا سيدتي، أنت الزبونة رقم ألف لهذا الشهر».

«وماذا يعني ذلك؟»

«يعني أن كل مشترياتك اليوم مجانية».

أجفلت روبي وحدقت بدهشة: «هل أنت جادة؟»

«بالطبع. لقد أطلقنا هذا العرض لأهداف تسويقية.. هل هذه كل مشترياتك؟» تلفتت المحاسبة في الأرجاء بسرعة، ثم انحنت قليلًا وهمست: «يمكنك إضافة المزيد، ولكن أسرعي قبل أن يلاحظ المدير».

«حسنًا حسنًا...»



انتقلوا بعدها إلى متجر آخر، أقرب إلى صيدلية واسعة، تكدست رفوفه بمنتجات العناية والتنظيف. توقفت روبي عند مدخله، ثم نظرت إلى روبن وقالت بنبرة هادئة: «اختر ما تحتاج إليه».

نظر إليها بعدم فهم، فارتبكت لثانية، ثم طلبت منه الانتظار، وأشارت إلى مارسيل أن يقترب.

قالت بصوت منخفض، بعيدًا عن الطفلين: «ماذا قد يحتاج صبي في عمره؟»

رفع حاجبه: «هل تسألينني أنا؟»

زفرت بخفة: «لا أعرف ماذا أفعل، فلم أُربِّ صبيًّا من قبل. سنشتري مزيل عرق، وفرشاة أسنان، ومعجونًا، ومنتجات للشعر والاستحمام، فماذا قد يحتاج أيضًا؟»

«هل تريدين أن أسأله؟»

اكتفت بإيماءة قصيرة، فاتجه مارسيل إلى روبن وتبادل معه بضع كلمات، قبل أن يعود إليها.

«سيحضر ما يحتاج إليه ويعود».

زفرت روبي بارتياح، ثم اقتربت ميا وهي تحمل مرطب شفاه بنكهة الشوكولا، ترفعه وكأنه كنز صغير، فأخذ والدها بيدها وذهب ليدفع ثمنه.

راقبتهما روبي بابتسامة خفيفة، ثم أشغلت نفسها بتجربة مجموعة طلاء الأظافر الحصرية، حتى انتهى روبن، واتجه معها إلى المحاسب.

«هل لديك اشتراك معنا؟»

«كان لدي اشتراك، ولكني غيرت رقمي».

«هل يمكنك تزويدنا برقم الهاتف الجديد؟»

زودتهم بالرقم، وما إن أدخله الموظف حتى ابتسم قائلًا إنها حصلت على قسيمة شراء بمناسبة الاشتراك الجديد، تغطي قيمة مشترياتها.

«يمكننا تحويل بقية مبلغ القسيمة إلى نقاط في حسابك معنا».

«لا تحوّل شيئًا.. سأستغل حظي للنهاية وأشتري بعض ألوان طلاء الأظافر».





أسرعت ميا إلى متجر الفساتين، وتنقلت بين صفوفه، تلمس وتفكر، حتى اختارت ثلاثة، ثم ذهبت لتجربها بمساعدة والدتها، فيما وقف مارسيل إلى جانب حقائب التسوق مع روبن الذي قال فجأة: «هل يجب أن أردّ لك المال الذي صرفته؟»

رد مارسيل بنبرة قاطعة: «لا، ولا تقل كلمة».

وبعد دقائق، خرجت ميا تعرض الفساتين واحدًا تلو الآخر، وكلها لاقت إعجابهم، فقررت شراءها دون تفكير طويل. ليتقدم مارسيل نحو طاولة الحساب، لكن روبي اعترضت طريقه وأخذته جانبًا.

قالت بصوت خافت وصارم: «لن تشتريها».

«ولم لا؟ يمكنني أن أدفع».

«ليست مسألة مال. هي لا تحتاج إلى ثلاثة فساتين، وأنت تدللها بشراء كل شيء تريده دفعة واحدة. يجب أن يكون هناك انضباط، وأنتَ من ينبغي أن يحرص عليه، أما أنا فمن المفترض أن أكون الأم اللطيفة».

أمال رأسه منصتًا إلى بقية كلامها، وظل ينظر إليها بطريقة جعلتها ترتبك لوهلة وتنسى ما كانت تقوله.

«حسنًا.. سأكون الأب الصارم، ولكن على شرط».

ابتلعت ارتباكها وسألت: «وما هو؟»

«هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك الآن؟ كنت أنتظره منذ مدة،



وليس من العدل أن تعطيه لذلك المتجر قبلي».

حدقت في عينيه، ثم رفعت ذقنها وقالت بتكبر مصطنع: «لا بد أنك سمعته حينها».

«صحيح».

هزت كتفها: «لا داعي لأذكرك به إذًا».

أشاحت بنظرها عنه إلى ميا التي ارتمت على الأريكة الصغيرة، ودفنت وجهها بين كفيها بإحباط.

«لا تحتاجين إليها كلها يا ميا، فخذي واحدًا فقط».

رفعت رأسها معترضة: «ولكنني شعرت بارتباط مع الثلاثة يا ماما».

«هذا الارتباط قد يخدعك أحيانًا حتى تصبحي فتاة مبذرة. فكري مليًّا واختاري، ويمكننا أن نصوّت».

«ولكنني محتارة!»

نظرت إلى الفساتين، ثم إلى والدها بنظرة حزينة، فكاد يستسلم، لكنّ روبي رمقته بنظرة واحدة منعته.

قال روبن بتردد: «الفستان الأزرق أجملها».

«لم أقتنع! وأنت لا تفقه شيئًا في فساتين الفتيات يا روبن».

هز كتفه وعاد إلى الصمت، ثم استحضرت ميا دموعها كما لو أنها ممثلة محترفة، ونظرت إلى والدها بعينين مبللتين.

«لماذا لا تشتريها لي؟ ألم تعد تحبني؟»

تنهد مارسيل بعجز، ثم همس لروبي: «دعيني أشتري لها الفساتين قبل

أن تكرهني».

«سأتصرف».

عقدت روبي ذراعيها، ثم قالت بحزم: «يقول والدك إنّ لديك عشر ثوانٍ لتختاري فستانك وإلّا سنرحل، وهي تبدأ الآن.. تسعة، ثمانية».

شهقت ميا: «بابا!»

نظر مارسيل إلى روبي بصدمة واضحة، لكنها تابعت العد دون اكتراث، حتى رضخت ابنتهما أخيرًا واختارت الفستان الأزرق، وهي في قمة الإحباط.



كانت المكتبة هي المحطة الأخيرة؛ حيث خف صخب المجمع التجاري، وامتدت رفوف الكتب لتمنح المكان رهبة لطيفة، جعلت قلب روبي يتلهف، لكنها ركزت على روبن وما يريده فقط.

«اذهب واختر ما تشاء».

أومأ روبن بامتنان وانطلق، فيما وقف مارسيل إلى جوار روبي، يراقبان ميا تتنقل بين الكتب المصورة.

«ألّا تريدين شراء الروايات؟»

أجابت دون النظر إليه: «لا».

«هذا غريب».

«لدي روايات لم أنتهِ من قراءتها بعد، كما أن شراء الكتب الورقية بات مكلفًا، ومكتبتنا صغيرة».

أومأ بفهم، ثم انتقل إلى سؤال آخر: «هل ستحضرين حفلة ميا؟»

شردت بذهنها للحظة، ثم أجابت: «أجل...»

«سعيد لسماع ذلك».

ظل يحدق بها حتى عندما ابتعدت عنه قليلًا وانشغلت بتصفح بعض الكتب، وتصادفت ميا مع روبن في الممر ذاته، فتبادلا النظرات لبرهة طويلة، حتى همت بالعودة، لكنه اتخذ الخطوة الأولى وناداها.

قالت بارتباك: «ما الأمر؟»

رفع الكتب التي اختارها، وسأل: «هل يمكنك مساعدتي في الاختيار بينها من فضلك؟»

تنقلت عيناها بينه وبين الكتب، وكأنها تشاور نفسها، ثم اقتربت أخيرًا، وتأملت الأغلفة حتى اشمأز وجهها.

«لا توجد صور».

«لأنها كتب علمية».

نظرت إليه بشفقة: «تبدو مملة جدًا. هل أنت متأكد من اختيارك؟»

حاول مجاراتها في الحديث: «ما رأيك أن أختار واحدًا إذًا، ثم يمكنك أن تقترحي لي كتبًا تفضلينها؟ لا بد أنها أروع من هذه».

رفعت ذقنها بفخر: «أروع بكثير».

اختار كتابًا وقال بابتسامة خفيفة: «هذا كتاب عن علوم البحار».

«ولماذا تحتاجه؟»

«أصبحت مهتمًا بالبحر بسببك».



أخرج شيئًا من جيبه، ثم فتح كفه لترى ميا الصدفة التي أهدته إياها من قبل.

قالت بذهول: «هل كنت تحتفظ بها طوال الوقت؟»

«لم ألقِ بها قط. أخفيتها في فتحة التهوية قبل...» أكمل بندم: «كل ما حدث».

ظلت ميا تنظر إليه ببراءة طفلة، ومشاعر لا تعرف كيف ترتبها. كان يستطيع رؤية ترددها، وأراد فعل أي شيء ليقلل من ذلك.

«أنا آسف على كل شيء يا ميا.. سأبذل جهدي حتى أكفّر عن ذنبي، وأثبت أنني أستحق البقاء معكم، وآمل أن تقبلي بي حينها».

تأثرت ميا بكلماته الصادقة، ثم ابتسمت وقادته معها إلى قسم كتب الأطفال، بينما روبي تراقبهما خلسة.

تأمل روبن الأغلفة الوردية والحمراء بوجه خالٍ من التعبير، ثم قالت ميا بحماسة: «هذه الكتب رائعة جدًا، كلماتها قصيرة وسهلة وبها صور تعينك على الفهم».

«لكن.. أليست هذه للفتيات فقط؟»

وضعت يدها على خصرها: «كتب الفتيان تعلمك القتال والهمجية، أما نحن الفتيات فنعلمك عن سحر الصداقة، وكذلك الصدق والطيبة، والكثير من الأمور بالطبع».

ناولته كتابًا مبهرجًا فانكمشت ملامحه قليلًا، وأشار إلى كتاب عن حرب الآليين، لترمقه بنظرة حادة جعلته يخضع لاختياراتها، ويأخذ كتابًا آخر عن الحوريات، بما أنه بات مهتمًّا بعلوم البحار...

ابتسمت روبي وهي تراقبهما، وتمنت أن يستمر هذا التقارب بلا انتكاسات قاسية، ثم اقترب منها مارسيل وقال: «هل يمكنني دعوتك إلى العشاء؟»

«الآن؟»

«أجل. يمكننا تناول العشاء في مطعم تعرفينه. أترك لك الاختيار، فأنا لا أعرف فيراكروز جيدًا».

حولت نظرها إلى الطفلين من جديد، ثم قالت: «لا بد أنهما جائعان أيضًا، لذا تبدو فكرة جيدة. ما رأيك بالسمك؟»

«موافق».

قالت بنبرة متهكمة: «أعرف مطعمًا، ولكنه ليس بتلك الفخامة أو النظافة».

«سأجازف، وإذا مرضت فستكونين ممرضتي».

أشاحت بوجهها وقد تسلل إليها الحرج، لكنه ظل يتأملها، ويفكر باعترافاتها الأخيرة، وبطرق جديدة يقترب فيها دون تدمير ما بناه.

جلس الأربعة على طاولة صغيرة في مطعم يعج بالزبائن، تتداخل فيه الأصوات مع رائحة السمك القوية التي لم ترق لمارسيل أبدًا، واستطاعت روبي تخمين ذلك من برودة في تفقد قائمة الطعام.

طلب قطعة سلمون مشوية كما توقعت، وما إن تناول أوّل لقمة، حتى تغير وجهه بشكل طفيف، لكنه تمالك نفسه بسرعة وتابع الأكل وكأن شيئًا لم يكن.



كادت تبتسم، لكنها قاومت وركزت على طعامها مثله، حتى توقفت ميا عن الأكل فجأة ولمست بطنها.

«ما الأمر يا ميا؟»

«ماما..؟ أظن أنني حبلى».

اختنق مارسيل بطعامه وأنقذ نفسه بالماء، بينما توقف روبن عن الأكل، وحدق بها مصدومًا.

سألتها روبي وهي تحاول الحفاظ على هدوئها: «ما الذي يدفعك لقول ذلك؟»

«أشعر بحركة في بطني كلما أكلت. هل تعتقدين أن الطفل يأكل؟»

انفلتت من روبي ضحكة قصيرة، ثم قالت بلطف: «هذه حركة الأمعاء فقط. لستِ حبلى يا عزيزتي».

زفرت ميا بارتياح: «هذا جيد. لقد اشتريت الفستان للتو، ولم أرد أن أصبح بدينة».

وحينها فقط، انفجر روبن ضاحكًا وفاجأ الجميع.. كانت ضحكته لطيفة وحقيقية، ذكرت روبي باللحظات الجميلة التي عاشوها معًا قبل انهيار كل شيء.

مسح دمعة علقت بطرف عينه، ثم أخفض نظره إلى طبقه وقال بصوت خافت: «آسف. كان الأمر مضحكًا».

اكتفت روبي بابتسامة، بينما ضحكت ميا وسخرت منه، أما مارسيل، فظل جادًّا بسبب الأعين التي تراقبهم منذ دخولهم إلى المطعم.

وعندما حان وقت التحلية، أتى النادل بأطباق الكعك ووضعها أمام كل

واحد منهم بعناية أكثر من اللازم، ثم انسحب وتظاهر بالحديث مع زميله، لكن تركيزه كان نحو طاولتهم.

مرر مارسيل نظره على قطع الكعك، كلها متساوية الحجم، عدا قطعة روبن؛ كانت أكبر، وغارقة في الشوكولا على نحو مريب.

راقب ميا تتلذذ بأول قضمة، ونظر إلى حشوة الكعكة الإسفنجية جيدًا، ثم إلى روبي، وأخيرًا إلى روبن الذي كان يفعل المثل، فعلم أنه اكتشف الأمر أيضًا.

رفع روبن شوكته واخترق الكعكة بحذر ليرى حبيبات صغيرة وصلبة، تشبه سم القوارض إلى حد كبير، أخفيت بعناية تحت الشوكولا.

نظر إلى مارسيل للحظة قصيرة فقط، فأومأ بخفة وقال: «لا تبدو جائعًا».

«أجل». ثم نظر إلى روبي وقال بصوت منخفض: «هل يمكنني تناولها في المنزل؟»

«بالطبع. سأنادي النادل ليغلفها».

«سأتولى الأمر».

أشار مارسيل إلى النادل، ثم رمقه بعينين جعلتاه يشحب على الفور، بينما كانت روبي منشغلة بمسح الشوكولا عن فم ميا.

وما إن حمل النادل الطبق وابتعد حتى تحرك أحد الحراس نحو المطبخ، ليحقق بالأمر أكثر، ويلقنهم درسًا لو أمره بذلك...

عادوا جميعًا إلى المجمع بعد العشاء، وقامت روبي بترتيب ملابس روبن وأغراضه في رفٍّ من رفوف ميا، وهي تفكر بضرورة الانتقال والتوسع.

اندفعت ابنتها إلى الداخل وهي ترتدي ملابس النوم: «ماما! سأنام هنا الليلة».

احتضنتها بحنان، ثم جهز روبن مكان نومه على الأريكة وهو يخفي سعادته؛ فميا لم تأتِ للمبيت هنا منذ مجيئه، وهذه خطوة إيجابية.

اقتربت منه وهي تحمل ميليسا، ثم قالت بغرور مصطنع: «لم تتعرف عليها جيدًا يا روبن.. هذه ابنتي. أنت خالها الآن، سأعلمك كيف تلعب معها وتغيّر لها الحفاظات».

أطلق روبن تنهيدة طويلة ومتعبة، ثم قال باستسلام: «حسنًا. علميني كل شيء».



سكن الليل البارد المجمع، واستقر كل شيء أخيرًا بعد يوم طويل...

نام روبن على الأريكة بعدما أتعبت أخته وابنتها دماغه، ونامت ميا بجوار والدتها التي قصت عليها قصة قصيرة، قبل البدء في كتابة مذكرتها.

ثم طنّ هاتفها فجأة، فتفقدته لترى رسالة من رقم مجهول، تقول: «مرحبًا، هل هذا رقم روبي سميث؟»

كتبت: «أجل. من معي؟»

سرعان ما بدأ صاحب الرقم بالكتابة مجددًا، وأرسل: «رأيتك اليوم في المجمع التجاري، وخطفت أنفاسي من أول نظرة. تحتم علي الحصول على رقمك بأي طريقة، ومن حسن الحظ أنني أحفظ بسرعة».

عقدت حاجبيها وهي تحدق بالشاشة، ثم كتبت: «مارسيل؟ هل هذا أنت؟»



«أجل».

ضحكت بصوت خافت قبل أن تكتب: «كانت هذه مغازلة رخيصة جدًا، فلا تفعلها مجددًا».

ابتسم وهو يستلقي على فراشه، ثم كتب: «آسف، وجدت هذا في الإنترنت وظننته رديئًا أيضًا، ولكن قلت لنفسي أن أجرب».

«هل يمكنني أن أقول كلماتي فقط؟»

«حسنًا».

«لا تسخري مني وامسحي ما كتبته. سوف أبدأ من جديد».

كتبت مرّة أخرى: «حسنًا...»

«لقد حظيت بوقت ممتع اليوم. رغبت بالخروج معك ومع ميا بشدة بعد آخر نزهة. أردت أن أمسك بيدك أيضًا، ولكني شعرت أنني أخطو بسرعة...»

«؟»

«هل كنت ستقبلين لو طلبت ذلك؟»

حدقت في السؤال قليلًا، ثم كتبت: «ربما...»

«تبًّا، كان علي أن أطلب».

ابتسمت للشاشة، ثم كتبت: «كيف وجدت الطعام اليوم؟»

«لقد اضطررت لتناول ما هو أسوأ من ذلك».

«لاحظت اشمئزازك بعد أول لقمة».

جاءها ردّه فورًا: «هل كنت تراقبينني يا روبي سميث؟»



اضطربت ضربات قلبها وتأخرت بالرد لثوانٍ، ثم كتبت: «لا تغير الموضوع.. ركز».

كتب: «آسف😐».

شهقت بصدمة وكتبت: «هل استعملت صورة رمزية لتوك؟»

«ألا يذكرك بميا؟»

«لا أصدق أنك فعلت ذلك».

«ولم لا؟»

«هذا غريب!»

«صحيح، ولكنّها وسيلة مساعدة للناس كما قرأت، كي يشرحوا أنفسهم، وبعضهم يستعملها عوضًا عن الأسماء، وأحيانًا بجانبها. فماذا ستضعين بجانب اسمي؟»

«لا أعلم بعد. ماذا عنك؟»

«وضعت هذه 🦁📱 بجانب اسمك، وأشعر أنني أرغب في إضافة المزيد».

«لماذا النمر؟»

ابتسم بسخرية وكتب: «غررر».

شهقت شهقة قصيرة، ثم كتبت بحرج: «لست جادًّا!»

«أنا جاد في كل شيء يتعلق بكِ».

لم تكتب شيئًا، وظلت تحدق بالشاشة لوقت طويل؛ غارقة في بحر مشاعرها.



«هل نمت؟»

«أوشك على ذلك».

«يجب أن أتركك لترتاحي إذًا. سوف نتراسل في وقت لاحق. حسنًا؟»

«حسنًا».

«سجلي رقمي من فضلك».

«لديك أسماء كثيرة، فماذا قررت أن يكون اسمك النهائي؟»

«لقد استخرجت هويتي الجديدة مؤخرًا، وكنت أنتظر اللحظة المناسبة لأريها لك».

أرسل لها صورة هويته المكسيكية، ورأت أنه اتخذ اسم مارسيل وجعل اسم بيدرو اسمه الأوسط.

«لقد استقررت على اسم مارسيل إذًا».

«إنه الاسم الذي تناديني به، ولا أنوي تغييره».

حدقت بالشاشة للحظة، ثم كتبت: «فهمت».

مرت دقيقة كاملة دون أن يكتب أحدهما شيئًا، ولم تشعر روبي برغبة في ترك الهاتف، بل وجدت أن محادثته هكذا أسهل؛ لا يستطيع رؤية ارتباكها، أو سماع التردد في صوتها.

«هل نمت؟»

كتب مارسيل: «لا. أنتظرك أن تنهي المحادثة لأنني لا أستطيع. سأبقى مستيقظًا حتى تفعلي ذلك».

«حسنًا.. تصبح على خير».



«تصبحين على خير.. أنا أتنفّسك».

32: كاسرة الأنوف

«مذكّرتي العزيزة، ثلاثة أيام من المراسلة الليلية مع مارسيل، ولا أستطيع أن أصف كم الأمر مريح جدًا.. لكن اليوم الذي يلي ذلك يتحوّل إلى صراع صعب؛ فما إن تلتقي نظراتنا، أو يبتسم لي، أو يلمح إلى شيء قلناه في الرسائل، حتّى أصمت فجأة وأتجمد مكاني!

هذه الرسائل النصية تساعدني كثيرًا على التقدم بهدوء، وربما تساعده أيضًا.. لا أعرف، ولكنني ممتنة لها.

على كل حال، اليوم هو حفل تخرج ميا من الروضة، ومشاعر أمومتي فائضة إلى حد لا يوصف. لا أصدق كيف مر الوقت بهذه السرعة. ستذهب إلى المدرسة، ثُمّ سأغمض عيني وأفتحهما لأراها تتخرج من الجامعة.

إنها متحمسة جدًا لهذه الحفلة وكأنها زفافها، لم تستطع النوم عند والدها أو عندي، وظلت تتفقد الفستان عدة مرات، وتذكرني بالحذاء والإكسسوارات وكذلك طلاء الأظافر، وكل التفاصيل الأخرى.»

«وبالنسبة لي، فقد أعدت صبغ الجذور السوداء التي نمت وقصصت الأطراف. لا أعلم كيف اتخذت هذا القرار فجأة، لكني استيقظت البارحة وأنا أشعر برغبة قوية في إحداث تغيير ما في شكلي، ولم أرد أن أذهب إلى حفلة ابنتي وأنا أبدو.. هشة!

قالت لي كارمن عندما استشرتها إن هذه فكرة ممتازة، وإنه لا يوجـــد

سبب يدعوني إلى القلق. أخبرتني أن أتأنق، لذا سأفعل ذلك من أجل نفسي.

شيء آخر، كنت أود أن أحضر روبن إلى الحفلة بشدة، لكن الدون وزوجته سيحضران من أجل ميا، وعندما سمع بالأمر منها أخبرني أن أجعله يبقى في الشقة وحده.

أحزنني ذلك كثيرًا، فقد أردته أن يكون جزءًا من فرحتها، ولكنه يشعر أن الوقت ليس مناسبًا للظهور بشكل علني هكذا، وحول الدون، وجزء مني يتفق معه.. نحتاج إلى الوقت في كثير من الأمور.»



خرجت روبي من غرفتها وهي ترتدي فستانًا كحليًا بسيطًا وطويلًا، ومعه سترة جينز بأكمام طويلة تخفي ذراعيها. كان مظهرها أنيقًا، وفيه شيء من التحفظ الذي زادها نعومة وجمالًا.

تبدين جميلة يا ماما!

لستُ أجمل منك! استديري ودعيني أراك مرّة أخرى.

دارت ميا بفستانها بحماس، ثُمّ أسرعت إلى الباب، ولوحت لروبن وهي تقول إنها ستسبق والدتها إلى الخارج، حيث قام بعضهم بتهنئتها والإطراء على فستانها اللطيف.

ابتسمت لهم بخجل، ثُمّ أسرعت إلى أندريه الذي يجلس في زاوية بعيدة وحده، متجهمًا، ويعبث بورقة أوريغامي على شكل جرو يشبه روكو إلى حد كبير.

أندريه! ما رأيك بشكلي والفستان؟

نظر إليها، وقال ببرود: «بشعة».

شهقت بصدمة: «لماذا تقول ذلك؟ أبدو جميلة، والفستان جميل جدًا!».

رد بامتعاض وقال: «لأن روبن اختاره».

لقد أعجبني أيضًا. لماذا أنت مستاء؟

شد أندريه على ورقة الأوريغامي بين يديه: «لأني لا أصدق أنك تصادقينه مجددًا بعد كل ما حدث! سامحته بسهولة يا ميا، ونسيت أننا كدنا نموت بسببه!».

ردت بوجه حزين: «ولكنه اعتذر، ووعدني ألا يؤذينا مجددًا».

وصدّقته بسهولة أيضًا.. أنتِ طفلة غبية، ولا أود أن أكون صديقك إن كان موجودًا، لذا اختاري، إما أنا أو هو!

شدت ميا على قبضتها وانطفأت بهجتها تدريجيًا: «ما الذي تفعله؟ هذا يوم سعيد لي، وأنت تجعلني حزينة، والأصدقاء لا يحزنون أصدقاءهم».

ارتفع صوت أندريه: «أنت أحزنتني أولًا! أخبرتك ألا تقتربي منه، فأنا قلق من أن يؤذيك ولكنك لا تستمعين إلي».

زفر بضيق وأشاح بوجهه عنها: «اذهبي، فأنا غاضب منك».

التفتت ميا وتركته، ثُمّ التقت بوالدها الذي تنهد تنهيدة قصيرة، وقال: «لا بد أنه أندريه.. صحيح؟».

لا أريد التحدث عنه!

نقر على أنفها بنعومة: «ابتهجي إذًا، فاليوم حفلتك. لا تسمحي لأحد أن يجعلك حزينة. اتفقنا؟».

زفرت محاولة الهدوء: «اتفقنا».

وبالمناسبة، أنت جميلة جدًا.

ابتسمت ميا بخجل، وذاب بعض استيائها، ثُمّ أمسكت بيده وانتظرا روبي التي فتحت الباب والتفتت تحادث روبن، بينما مارسيل يدرس كل تفصيل فيها.

قالت بقلق أمومي: «أبقِ الهاتف قريبًا منك. سأتصل وأتفقدك كل دقيقة، اتفقنا؟ وأوصد الباب أيضًا».

أومأ روبن: «سأكون بخير، فلا تقلقي».

لمست كتفه: «لا يسعني سوى أن أقلق.. اهتم بنفسك، وهناك طعام في الثلاجة. لن نتأخر، واتصل بي لو طرأ أي شيء».

أومأ مرّة أخرى، وفي عينيه امتنان لم يعد يعرف كيف يخفيه، ثُمّ ودعهم جميعًا وأغلق الباب بإحكام.

وبعد لحظة، نبح روكو واقترب منه وهو يحمل كرته في فمه ويهز ذيله، فابتسم روبن ابتسامة صغيرة، وقال: «حسنًا، ملعب».



كان حفل تخرج ميا مبهجًا وظريفًا؛ تزين بالألوان، وصور الأطفال، ورسوماتهم، وأعمالهم الفنية، وكان يعج بالأهالي الذين شعرت روبي بالتوتر لرؤيتهم فجأة على الرغم من أنها هيأت نفسها جيدًا.

روبي! إنها أنت فعلًا!

التفتت لترى إحدى الأمهات تقترب منها، وخلفها أخريات وقعت نظراتهن على مارسيل، وبدأن يتهامسن فيما بينهن.

سألتها الأم عن أحوالها، وسبب اختفائها المفاجئ، فاكتفت روبي بابتسامة مهذبة، واختلقت كذبة سريعة عن استقالتها وسفرها لفترة.

لاحظ مارسيل رعشة يدها الخفيفة، وعدم ارتياحها الواضح، وحين سألت الأم سؤالًا آخر، تقدم خطوة وقال بأدب: «اعذرينا من فضلك، يجب أن نجد مقاعدنا، فالحفل على وشك البدء».

زفرت روبي بارتياح ما إن ابتعدا عنها، وكأنها كانت تحبس أنفاسها طوال المحادثة القصيرة، ثُمّ التفتت إلى مارسيل، فقال لها: «لا تقلقي.. لن أدعك تواجهين الأهالي بمفردك».

شعرت بالامتنان، ثُمّ سألت: «أين مقاعدنا؟».

في الصف الأول.

حقًا؟ هذا ممتاز.

امتيازات بالطبع، فالعجوز هو الراعي لهذا الحفل.

أجفلت روبي باستغراب، وظلت تنظر إليه للحظة طويلة حتّى عقد حاجبيه وقال: «ألم يكن لديك علم أنه يملك هذا المجمع؟ الروضة والحضانة التي كنت تعملين فيها».

همست بذهن شارد: «لا».

بماذا تفكرين؟

هزت رأسها: «لا شيء مهم».

واصلا سيرهما إلى الصف الأول، وعاد التوتر لينهشها بسبب نظرات الأهالي نحوهما، ثُمّ جلست في مقعدها، وحاولت تجاهل همساتهم، بينما مارسيل يتأملها.



قالت بصوت خافت: «المسرح أمامك».

همس لها: «أعرف».

حاربت ابتسامتها الخجولة، ثُمّ التقطت هاتفها: «يجب أن أتصل بروبن وأتفقده».

راقبها وهي تفعل ذلك، ثُمّ زفرت باطمئنان بعد انتهاء المكالمة، ولاحظت أنه ينظر إلى شاشة هاتفها.

سألت وهي تشعر بالريبة: «ما الأمر؟».

ما هو اسمي في هاتفك؟ ماذا كتبت؟

لم أسجل رقمك بعد.

قال بإحباط خفيف: «حسنًا.. سأنتظر ذلك إذًا».

عدلت جلستها جيدًا والتفتت للمسرح، ولم تمضِ لحظات حتّى وصل الدون فيرناندو واستقبلته مديرة الروضة والمعلمون بحرارة، بينما ظل هو رسميًا كعادته، إلى جانبه فيرونيكا بابتسامتها الناعمة، وأناقتها المعتادة.

سكنت ملامح روبي عندما اقتربا، ثُمّ رحبت بفيرونيكا، بينما تبادل مارسيل ووالده التحية بإيماءة فقط.

بدأ الحفل بعرض صور وذكريات الأطفال، وظهرت ميا في التسجيل وهي تشرح رسمة لعائلتها الكبيرة، ورسمت كلبًا، وقطة، وحصانًا، وأفعى، وقالت إنها ستشتريهم يومًا ما وتربيهم.

مال مارسيل برأسه نحو روبي وهمس: «يجب أن نناقش هوسها الغريب بالأفاعي لاحقًا».



كتمت ضحكتها وأومأت فقط، ثُمّ بدأت الموسيقى، وانتشر الأطفال في مواقعهم ليؤدوا رقصة مميزة، جعلت القاعة كلها تبتسم، وكانت ميا أفضل راقصة بينهم، تتحرك بخفة وحرية وكأنها فراشة صغيرة.

ثُمّ بدأت فقرة جديدة بعنوان: «من هو بطلك؟»، وأخذ كل طفل يعبر عن بطله في الحياة، وبعضهم اختار شخصيات خيالية، فضحك الجميع ببهجة.

ابتسمت روبي حين جاء دور ابنتها، وتساءلت ماذا ستقول وكيف ستصف والدها، بطلها الأبدي، لكن ميا فاجأتها عندما قالت:

«بطلتي هي ماما.. لأنها قوية، ورائعة، ومرحة. تعلمت منها ألا أستسلم أبدًا وأن أثق بنفسي دائمًا. أنا أحبها كثيرًا وأريد أن أقول لها شكرًا لتعليمي الرقص والغناء، وأنا أحبك للأبد!».

لمعت عينا روبي بالدموع على الفور، ولم تدرك أنها لمست يد مارسيل وسط خطاب ابنتها وشدت عليها حتّى ناولها منديلًا بيده الأخرى.

أفلتت يده بسرعة ومسحت دموعها، ثُمّ صفقت لميا مثل الجميع، وأرسلت لها قبلات في الهواء، لتردها بحماس أكبر.

اختتم الحفل لاحقًا بمسيرة الخريجين، وتسليمهم شهاداتهم وهداياهم كما لو كانوا بالغين، وانتشر الجميع في أرجاء القاعة ليلتقطوا الصور، ويباركوا لأطفالهم.

ركضت ميا إلى عائلتها وعانقت جدها أولًا، فربت على رأسها وبارك لها، ثُمّ نظر إلى زوجته وأخبرها أنه سيسبقها إلى الخارج، بينما روبي تتحاشى النظر إليه حتّى غادر.

لقد أعجبني فستانك كثيرًا.



ابتسمت ميا بخجل وشكرته، ثُمّ نظرت إلى والديها وقالت: «أريد أن ألقي التحية على والدة صديقتي! سأعود في الحال».

تبعتها أنظارهم حتّى اجتمعت بصديقتها، ثُمّ أخرجت فيرونيكا بطاقتي دعوة من حقيبتها وقالت: «أنا آسفة، فزوجي مشغول وإلا كنا تناولنا العشاء سويًا. على كل، هذه دعوة لحفلة ميلاد التوأم الخامس عشر، وسيتم تقديم حبيبتي فاليريا للمجتمع أيضًا، لذا ستكون هناك رقصة مع الأب ثُمّ الأخ الأكبر، أي أنت يا مارسيل. سأرسل لك التفاصيل الأخرى».

ثُمّ نظرت إلى روبي وأضافت: «يجب أن تأتي. أحتاج تعويضًا للكعكة التي لم تأكليها، وسنكون سعداء بقدومك».

لوحت لهما بنعومة قبل أن يقودها أحد الحراس إلى الخارج، ثُمّ قلب مارسيل الدعوة في يده وقال: «تقديم للمجتمع؟ يمكنها ببساطة أن تقول إن العجوز ينوي عقد صفقات وتزويج فاليريا».

سيكون ذلك سوداويا.

سأل بريبة: «وماذا قصدت بالتفاصيل الأخرى؟».

أعتقد أنها تقصد نوع الرقصة، ولون البدلة، والتوقيت، وربما خطابًا لتقوله أو هدية وما إلى ذلك.

تنهد مغمضًا عينيه: «لماذا يصعبون الأمر علي أكثر؟».

ردت بنبرة هادئة: «ضريبة كونك من آل كورتيز».

وضعت روبي بطاقة الدعوة في حقيبتها، بينما ظل مارسيل يحدق بها مفكرًا، ثُمّ قال: «ما رأيك أن نتناول العشاء معًا؟ يمكننا إحضار الصبي والذهاب».

حدقت به بامتنان مجددًا؛ فمنذ أن استقر روبن وهو يحرص على أن يضمه معهم، حتّى إن لم يرغب في ذلك.

همست: «حسنًا».

طال الاتصال بين أعينهما، حتّى عادت ميا وقاطعتها، ثُمّ استقلوا السيارة، وبدأت تعبر عن مدى سعادتها بالحفل، والهدايا، وكل الفقرات.

هل يمكننا مشاهدة تسجيل الحفلة مع روبن بعد العشاء؟

بالطبع يا عزيزتي. سأتصل به وأخبره أن يجهز نفسه ريثما نصل.

اتصلت بهاتف الشقة وانتظرت حتّى أجاب روبن اتصالها.

سألته ما إن كان كل شيء على ما يرام، فتأخر عن الإجابة لثانية واحدة فقط كانت كافية لتقذف الشك والقلق في قلبها.

لم تصدقه حين قال إنه بخير، ولم تُخبره عن العشاء أو أي شيء آخر، بل أنهت المكالمة فقط، وظلت تحدق بشاشة الهاتف.

استرق مارسيل نظرة إليها وهمس: «ماذا حدث؟».

أجابت وهي تشد على هاتفها: «لا أعرف.. هناك خطب ما».

سرّعت روبي خطواتها حتّى كادت تركض. دخلت إلى الفناء، ولم تلتفت إلى الأعين التي تراقبها وتتهامس عليها؛ كانت تركز على الوصول إلى روبن فقط.

لمحت أندريه يراقب من نافذة شقة والدته، وما إن التقت نظراتهما حتّى أسدل الستارة بسرعة، فاشتعل الخوف داخلها أكثر، واندفعت إلى شقتها باحثة عن روبن.



وجدته جالسًا على الأرض، يداوي نفسه، وإلى جواره روكو الذي نبح لروبي مرارًا، وكأنه يحاول أن يشرح ما حدث بطريقته، قبل أن يركض إلى ميا المصدومة.

رفض عقل روبي استيعاب المشهد للحظة، ثُمّ جثت أمامه ورفعت وجهه لترى الكدمات، والتورم حول عينه اليسرى، وكانت متيقنة أنها ستجد المزيد لو رفعت قميصه.

سألت بنبرة حادة: «من فعل هذا؟».

قال بسرعة، كأنه يريد تهدئتها: «أنا بخير. لا بأس».

ارتفع صوتها أكثر: «أخبرني من قام بضربك هكذا؟».

أجاب بتردد: «لا أعرف اسمه. أتى وقال إنه سيضع صندوق مشتريات لك، فسمحت له بالدخول».

رفعت روبي عينيها إلى مارسيل. لم تقل شيئًا، لكن الحزن في عينيها كان كافيًا ليوقظ رغبة القتل فيه، فقال بنبرة باردة: «سأعثر عليه».

شردت بذهنها قليلًا، ثُمّ التفتت إلى ابنتها وأوصتها بالبقاء إلى جوار روبن، فجلست ميا على الفور، ونظرت إليه بحزن زاده ضيقًا.

آسف يا ميا. لم أرد أن أفسد يومك.. سامحيني.

لا بأس.. هل تؤلمك؟

قليلًا.

شدت قبضتها الصغيرة وقالت بثقة طفولية: «لا تقلق. سيضربه بابا من أجلك!».



طرقت روبي باب شقة لورينا، ثُمّ دخلت حين فتحته، وسألتها باستغراب: «ما الذي يجري يا روبي؟».

نظرت إلى أندريه المتحفظ أولًا، وحاولت أن تهدأ، ثُمّ قالت: «لقد ضرب أحدهم روبن وأنا هنا لأحقق بالأمر. هل تعرفان شيئًا بخصوص ذلك؟ هل رأيتما أحدًا؟».

لم تستطع لورينا ألا تشعر بضيق، لكنّها انتقت كلماتها قدر استطاعتها: «تعرض الصبي للضرب، فتأتين للتحقيق معنا على وجه التحديد؟ ما الذي ترمين إليه؟».

أنا لست هنا لأتهم أحدًا، وقدمت إليك أولًا لأني لاحظت تحفظ أندريه، وبدا لي أنه يعلم شيئًا، لذلك أسأل فقط.

هتف أندريه بغضب: «إنه يستحق ذلك!».

نظرت إليه لورينا بصدمة: «هل تعلم من ضربه يا أندريه؟».

أعرف، ويستحق ذلك! إنه خطير، وهو السبب في موت بينيتو. أتمنى لو قتلوه لنرتاح منه!

أندريه!

انفعل أكثر: «ماذا يا أمي؟ أنا أقول الحقيقة، وأنت تعرفين ذلك. أنا لا أريده هنا، ولا أحد يريده، هو غير مرحب به.. لكنّها أخرجته وأعادته. لماذا علينا أن نتحمل؟ هذا ليس عدلًا!».

هذا يكفي يا أندريه.

تدخلت روبي وقالت بهدوء يخفي الوجع الذي تشعر به: «دعيه، فهو محق. أنا من أعاد روبن إلى هنا مجددًا، أنا من أخطأ ويجب أن أصـــلح



ذلك.. أجلت موضوع الانتقال أكثر من اللازم».

أجفل أندريه بعدم تصديق: «ما الذي تقولينه؟».

تفاجأت لورينا: «هل أنت جادة؟».

أجل.

تقدم أندريه خطوة وقد بدا الاضطراب على وجهه: «لا يمكنك! هذا منزلك!».

لا.. هذا ليس منزلي، وكنت مجبرة على المجيء إلى هنا يا عزيزي.

قال بسرعة: «إنه منزل ميا وهي تحبه! لا يمكنك أن تقرري الانتقال فجأة بسببه!».

تنهدت روبي، ثُمّ قالت بنبرة ثابتة: «أعرف كم تحب ميا هذا المكان. هي ابنتي وروبن ابني أيضًا، وهو لا يستحق هذه المعاملة».

ثُمّ نظرت إلى لورينا وأكملت: «أعرف أنني قد لا أساوي شيئًا بدون ميا، ولست ابنة لعائلة قوية مثلك يا لورينا، ولكنني رغم ذلك أرى أنني أستحق معاملة أفضل. أستحق أن أكون سعيدة وبأمان، وكذلك عائلتي! وما حدث اليوم انتهاك لكل ذلك، لذا سآخذهم وأبتعد».

عادت إلى أندريه وسألته من جديد عن اسم الفاعل. كان مضطربًا من فكرة رحيلهم، لكنه نطق باسم برونو فقط، فعرفته روبي فورًا.

غادرت الشقة وهي تسمع صوت دقات العد التنازلي للقنبلة داخلها. بحثت عنه حتّى وجدته في الفناء، يقف أمام مارسيل الذي يرمقه ببرود أخافه، فاندفعت نحوهما بسرعة، والتحمت قبضتها بأنفه وفمه.

رمش مارسيل وتراجع خطوة إلى الخلف، بينما انقضت روبي على برونو بلكمة ثانية، وهي تصرخ: «أيها الحقير! كيف تجرؤ على ضرب ابني؟ سأجعلك تدفع الثمن!».

تذكرت في وسط غضبها القانون الذي يمنع الرجال من ضرب النساء، فخلعت حذاءها، وانهالت عليه بالضرب حتّى طرحته أرضًا وهو يحاول حماية نفسه من ضرباتها.

فليبعد أحدكم هذه المجنونة عني!

وحينها هتف مارسيل في الرجال بصوت جهوري ونظرات تحذيرية: «لا أحد يتحرك!».

لانت ملامحه عندما أعاد النظر إلى روبي، وارتفعت زاوية فمه في ابتسامة صغيرة عندما وجهت ضربة أخيرة بكوعها لأنف برونو وكسرته!

ابتعدت عنه وهي تلهث، ثُمّ هددته مجددًا، قبل أن تلتقط حذاءها وتعود إلى الشقة، وحين ابتعدت بما يكفي، قام مارسيل بتوجيه لكمة أخيرة إلى بطن برونو، جعلته ينطوي على نفسه ويتأوه بألم.

«هذه لأنك نعتها بالمجنونة.»

كانت يدها لا تزال ترتجف، وأنفاسها لم تستعد انتظامها بعد. وقد طلبت من ميا وروبن أن يذهبا إلى شقة مارسيل وينشغلا قليلًا ريثما تهدأ، لكنّها لم تستطع أن تهدئ نفسها وحدها.

التفتت عندما دخل مارسيل، ولم تقل شيئًا مجددًا. نظر إلى قبضتها المشدودة، ومفاصل أصابعها التي جُرحت حين اصطدمت بأسنان برونو.

أستطيع أن أرى أنك لست بخير كليًا.. لذا لن أسألك.

وحينها فقط انكمش وجهها، والتفتت حتّى لا يرى دموعها وهي تنهمر من جديد، فاقترب منها حتّى شعرت بوجوده خلفها.

لم تبتعد، وظلت صامتة، تنتظر منه شيئًا، طلبًا تحتاجه بشدة الآن.. ولم يخيب ظنها.

هل يمكنني معانقتك؟

زفرت نفسًا عميقًا، لكنّها لم تعطه إجابة، ولم ترفع عينيها عن الأرض حتّى بعد أن امتثل أمامها؛ انتظرته أن يضمها فقط، وما إن فعل ذلك حتّى غاصت في حضنه، وتركت دموعها تنهمر.

لا تبكي بسبب ذلك السافل.

ابتعدت عنه وقالت بانفعال درامي: «أنا لا أبكي بسببه، بل لأن يدي تؤلمني جدًا!».

اجلسي ودعيني ألقي نظرة إذًا.. لنأمل أنها ليست مكسورة، لأنني سأكسر عنقه حينها.

ضمت روبي يدها إليها عندما جلست وجلس هو أمامها ومعه عدة الإسعافات، ثُمّ انتابها التوتر فجأة.

يمكنني تفقدها بنفسي.

يجب أن أتأكد أنها بخير.

أشاحت بعينيها: «سأهتم بالأمر، فلا تقلق».

عقد حاجبيه ودرس ملامحها: «هل أنت لا ترغبين في مساعدتي، أم أنك متوترة فقط؟».

تبعثرت كلماتها: «لا.. أنا.. كنت فقط...».

فرت ضحكة خافتة منه، فرفعت عينيها وتأملت ابتسامته النادرة قليلًا.

هل يمكنني تفقد يدك يا روبي؟

ازدردت بخفة، ثُمّ استسلمت ومدت يدها، فاحتضنها بين كفيه بحذر شديد، وراح يضغط على مواضع معينة، ويحركها قليلًا.

هل يؤلمك عندما أضغط هنا؟ وهنا؟

لا.

ثُمّ جفلت حين حرك معصمها قليلًا: «هذا يؤلم».

اعتذر على الفور، ثُمّ قال: «ليست مكسورة، لكنّها ستؤلمك قليلًا، لذا سأضمدها لك».

أخذ المطهر والمرهم بيده الأخرى، دون أن يترك يدها، ثُمّ صرت على أسنانها عندما شعرت بلسعة المطهر، فاعتذر مجددًا، وضحك بعد لحظات.

لماذا تضحك؟

قال بتهكم: «كنت أفكر في إضافة رمز أنف مكسور إلى جانب اسمك، ولكنهم لا يملكونه. ربما قبضة وأنف يفيان بالغرض.. ألا تظنين ذلك يا كاسرة الأنوف؟».

رمشت باستنكار: «كاسرة الأنوف؟».

ألستِ كذلك؟ كدت تكسرين أنفي مرة، وكسرت أنف رفيقة دييغو، وأخيرًا برونو، وربما آخرين خلال السنوات السابقة».



احمر وجهها من شدة الإحراج، وهمت بسحب يدها، لكنه منعها، وابتسم لها بدفء واضح في عينيه.

لم أنته بعد.

أنت تسخر مني.

لست كذلك، وأنا آسف إن كنت تظنين ذلك، ولكني منبهر.

أعاد تركيزه على يدها، وأخذ وقته أكثر مما يلزم وهو يوزع المرهم، ثُمّ قال: «أتعلمين؟ لقد أمسكت بيدي اليوم عندما ألقت ميا خطابها».

ارتبكت وقالت بسرعة: «أعرف. لم أدرك ذلك. آسفة».

لا تعتذري. شعرت أنك لم تكوني مدركة، ولم أشأ أن أضغط على يدك كي لا تسحبيها فجأة.

اشتد توترها من جديد، وكادت تسحب يدها، لكنه أبقاها كما هي دون أن يشد عليها.

لم أنته يا روبي.

أنت تستغرق وقتًا طويلًا!

أعرف.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثُمّ أحضر مارسيل الضماد ولفه حول معصمها بعناية. انتظرته أن يترك يدها بعد أن انتهى، لكنه لم يفعل.

لم تسحب يدها هذه المرة، وظلت تراقبه يتأمل كفها وهو غارق في فكرة ما.

همس بصوت زاد اضطرابها: «هل يمكنني تقبيل يدك؟».

انحبست كلماتها مثل أنفاسها، فاتخذ صمتها إذنًا. كانت تظن أنه سيطبع قبلة خفيفة فوق الضماد، لكنه رفع يدها إلى وجهه، وقبل باطن كفها، دون أن يشيح بنظره عنها في الثواني الأولى التي بدت وكأنها دهر، ثُمّ أغمض عينيه قليلًا، ومال بوجهه كما لو أنه يريد أن يدفنه في كفها.

وكان رقيقًا في ابتعاده؛ لم يترك يدها تسقط حين انتهى، بل أخفضها على مهل، فشعرت أنها تستطيع التنفس بحرية من جديد.

سأتولى تنظيف الطاولة.

تخلص من المخلفات، وأعاد صندوق الإسعافات إلى مكانه، متجنبًا النظر إليها حتّى تهدأ العاصفة التي تعصف بروحه.

مقلوب رأسًا على عقب.

رد دون إدراك: «ومربك أيضًا».

فرت منها ضحكة رقيقة، ثُمّ أشارت إلى الخزانة: «لم أقصدك، بل قصدت الصندوق».

نظر إلى صندوق الإسعافات المقلوب، ثُمّ أسند جبهته إلى الدولاب: «سحقًا، هذا محرج جدًا».

ضحكت ضحكة مكتومة، فنظر إليها وقال: «ولكن أضحكتك على الأقل».

حدقت به حتّى تلاشت ابتسامتها، وتنهدت تنهيدة طويلة، فاقترب منها أكثر وقد ساوره بعض القلق.

ما الأمر؟

يجب أن ننتقل من هنا، فهذا المكان ليس مناسبًا لروبن، ولا حتّى لي.



اختاري مدينة إذًا.

يجب أن نكون داخل المكسيك، فهذا موطن ميا، وموطنك أيضًا.

هز رأسه مرّة واحدة: «موطني حيث تكونين، سواء كانت المكسيك أو القطب المتجمد.. أنت وطني يا روبي سميث وسأتبعك إلى أي مكان».

انتابتها رغبة بالبكاء فجأة، ولكنّها كبحتها وهي لا تزال تشعر بدفء كلماته، ثُمّ سألت: «ماذا تقترح إذًا؟».

ما رأيك أن ننتقل إلى العاصمة حيث العجوز، ونجرب العيش هناك؟ إنها أكثر أمانًا، وأكثر تحضرًا من هذه المدينة.

قالت بنبرة متهكمة: «من الواضح أنك لا تحب ڤيراكروز».

هز كتفه: «لا، ولكني سأتقبل الأمر لو كنت تريدين البقاء داخلها».

فكرت قليلًا، ثُمّ همست: «شكرًا».

بل شكرًا لك.. والآن ما رأيك أن نطلب العشاء؟

فتحت فمها لتجيب، لكن ميا دخلت في تلك اللحظة تخبرهما أنها جائعة وتريد أن تغير ملابسها، فتبادلا نظرة قصيرة وابتسامة ساخرة أثارت استغرابها، ثُمّ أخذتها روبي إلى غرفتها لتساعدها في خلع الفستان، بينما عاد مارسيل إلى شقته.

وجد روبن جالسًا على الأريكة، يمسح على رأس روكو المستلقي بجانبه، ثُمّ قال: «سيفيدك الثلج».

أعرف.

بالطبع تعرف.

تبادلا النظرات للحظة، ثُمّ عقد مارسيل ذراعيه وسأل: «لماذا لم تدافع عن نفسك؟».

رد روبن بنبرة هادئة: «خفت أن أقتله وأسبب مشكلة أكبر...».

وأنت؟ لماذا لم تجعل أحد الحراس يتدخل؟ هل كنت تختبرني؟

رمقه مارسيل ببرود: «بل استعملتك لتسريع عملية الانتقال من هنا، وهذا شيء آخر لا يجب أن تعرف روبي عنه. مفهوم؟».

حدق به روبن، ثُمّ قال: «وهل أداة التنصت التي تخبئها من الأمور التي نخفيها عن روبي أيضًا؟».

رد من غير أن تتبدل ملامحه: «أجل يا متطفل.. هيا تحرك».

هزَّ كتفه: «لا، ولكني سأتقبّل الأمر لو كنتِ تريدين البقاء داخلها».

فكرت قليلًا، ثُمّ همست: «شكرًا».

«بل شكرًا لكِ... والآن، ما رأيكِ أن نطلب العشاء؟»

فتحت فمها لتجيب، لكن ميا دخلت في تلك اللحظة تخبرهما أنها جائعة وتريد أن تغيّر ملابسها، فتبادلا نظرة قصيرة وابتسامة ساخرة أثارت استغرابها، ثُمّ أخذتها روبي إلى غرفتها لتساعدها في خلع الفستان، بينما عاد مارسيل إلى شقته.

وجد روبن جالسًا على الأريكة، يمسح على رأس روكو المستلقي بجانبه، ثُمّ قال: «سيفيدك الثلج».

«أعرف».

«بالطبع تعرف».



تبادلا النظرات للحظة، ثُمّ عقد مارسيل ذراعيه وسأل: «لماذا لم تدافع عن نفسك؟»

ردَّ روبن بنبرة هادئة: «خفت أن أقتله وأسبّب مشكلة أكبر... وأنت؟ لماذا لم تجعل أحد الحراس يتدخل؟ هل كنت تختبرني؟»

رمقه مارسيل ببرود: «بل استعملتك لتسريع عملية الانتقال من هنا، وهذا شيء آخر لا يجب أن تعرف روبي عنه. مفهوم؟»

حدّق به روبن، ثُمّ قال: «وهل أداة التنصّت التي تخبئها من الأمور التي نخفيها عن روبي أيضًا؟»

ردّ من غير أن تتبدل ملامحه: «أجل يا متطفّل... هيا، تحرّك».

33: أخ و أخت

«مذكّرتي العزيزة.. بدأتُ بحزم أغراضي في الصناديق التي أحضرها لي مارسيل. أخبرته أنني أريد توضيبها بنفسي، وعلى مهل، قبل أن يتواصل مع شركة الشحن، وقد مرّت تسعة أيام منذ ذلك الحين.

تقاعستُ في بعض الأيام، واستغرقتُ وقتًا في إقناع ميا، التي عبس وجهها وأصابها الإحباط، ثم روبن الذي شعر بالذّنب ولامَ نفسه على كلّ شيء.. وهكذا مرّ الوقت، إلى أن تمكّنا في النهاية من حلّ الأمور كعائلة.

يا إلهي.. كلمة «عائلة» تمنحني شعورًا غريبًا حقًا. كانت عائلتي تتمحور حول ميا فقط، أما الآن، فهناك روبن الذي بتّ أشعر براحة أكبر تجاهه، ومارسيل الذي ما يزال يقلب عالمي رأسًا على عقب ويوترني!

لا أزال أحتفظ بمذكّراته، أقرأ أجزاءً منها بين الحين والآخر وأتأثّر كأنني أقرأها للمرّة الأولى. أعجز عن تصديق ما كتبه أحيانًا؛ مثل اعترافه بأنّ قلبه يتوتّر حين يطيل النظر في عينيّ، وكم يحبّ أن أستلقي واضعةً رأسي على صدره، وأنّ ذلك راق له منذ الجزيرة، وكيف أنّه لا يتخيّل عالمًا من دوني.

ثم أنظر إليه، فأصدّق كلماته، وأصدّق أنه تغيّر.. لكني لاأ ستطيع الوثوق به، لكن هناك جزءًا مني سيبقى مستعدًّا دائمًا، إن اختار تركنا مجددًا.»



ملأت الصناديق شقة روبي، التي ارتشفت من قهوتها الباردة وهي تحزم آخر ما تبقى من أغراضها بمساعدة مارسيل، بينما كان روبن وميا يشاهدان فيلمًا في شقته.

«لدى والدك مجموعة تحف مميزة».

«صحيح، لذا كن حذرًا وغلّفها جيدًا».

قال بتهكّم خفيف: «وإلّا؟»

ألهت نفسها بالتغليف قائلة: «لم أهدد... ركّز».

ابتسم مارسيل محدّقًا بها، ثُمّ التقط مجسّم الجندول وتأمله لثوانٍ قبل أن يغلّفه بعناية ويضعه في الصندوق.

«لنسافر معًا في الإجازة القادمة... دعينا نبدأ بسويسرا، أو كوستاريكا. ستعجبكِ، وستعجب ميا».

أومأت بابتسامة صغيرة: «حسنًا».

طالت النظرات بينهما مجددًا، فالتفتت إلى الصناديق لتشغل نفسها، وانهمكت في إغلاق بعضها، خصوصًا تلك المليئة بأغراض ميا.

توقفت عند أحدها، وتأملت محتوياته بحنين، فاقترب مارسيل ليرى ما بداخل الصندوق، فوجد زوجًا صغيرًا من حذاء وردي.

«كانت هذه أول هدية لها... آه، كم هما صغيران وظريفان. لقد كبرت بسرعة حقًا».

لم يجد مارسيل حاجة إلى سؤالها عن صاحب الهدية؛ إذ كان يعرف الجواب، ويعرف أن ما في ابتسامتها من حزن لا يعود إلى كِبَر ميا وحده، بل إلى حنينها لتلك الذكرى أيضًا.



«وانظر... هذا أول ثوب سباحة لها. اشتريته قبل أن تولد حتّى».

عقد مارسيل ذراعيه قائلًا: «بالحديث عن ثياب السباحة، ألا ترين أن ملابسها تحتاج إلى تغيير؟»

«لا... لماذا؟»

«أقترح ألّا ترتدي قطعتين أبدًا. قطعة واحدة تكفي، ويُفضّل أن تغطي نصف فخذها على الأقل، حتّى لا تلفت الكثير من الأنظار. رأيتُ عدة ألوان وتصاميم مناسبة، وأخطط لشراء مجموعة لها».

ضحكت روبي رغمًا عنها، فعقد مارسيل حاجبيه: «ماذا قلت؟»

«هل تغار عليها؟»

«بل منزعج... لم تذهبي معنا إلى الشاطئ في الآونة الأخيرة، وترَي نظرات الصبية المزعجين».

تأملته بابتسامة حتّى أشاح بعينيه وهو محرج: «لا تخبريها...»

«لن أخبرها بالطبع، ومن الطبيعي أن تشعر برغبة في حمايتها».

ثُمّ رفعت سبابتها محذرة: «ولكن لا تكن متشدّدًا جدًّا، فهي ستكبر وستبدأ في الاهتمام بالصبية والمواعدة».

«ومتى من المفترض أن يكون ذلك؟ عندما تبلغ الثامنة عشرة؟»

شهقت شهقة قصيرة: «ما خطبك؟ ستذهب إلى المدرسة، وقد تحظى برفيق حينها».

رفع حاجبًا: «هل أنتِ جادة؟»

«أجل. قد تحظى بواحد أو اثنين في المرحلة الابتدائية فقط. لا أعلم

كم سيكون العدد في الإعدادية، أما الثانوية فستكون ملحمة حتمًا! ثُمّ الجامعة و... ما بك تنظر إليّ هكذا؟»

«أنتظر أن تقولي إنك تمزحين. لن تحظى برفيق، أو تواعد، حتّى تبلغ الحادية والعشرين على الأقل». أضاف وهو مشوّش: «وهل يُسمح لطفلة في عامها الدراسي الأول بأن يكون لها رفيق؟ من وضع هذا القانون؟ لأنه غير مقبول على الإطلاق».

ضحكت روبي مجددًا وهي تمسك بطنها، فيما زفر مارسيل بحرج.

«لا تضحكي، فأنا جاد».

لكنّها لم تتوقف، بل وضعت يدها على فمها وتابعت الضحك، حتّى ابتسم هو بسخرية وانشغل في إغلاق الصندوق بالشريط اللاصق.

تمتم وهو يهز رأسه: «رفيق ومواعدة في أحلامها».

«ستُظهر اهتمامًا بصبيٍّ ما حتمًا، والمواعدة في صغرها ستكون تحت إشرافنا بالطبع».

رمقها بنظرة جعلتها تطبق شفتيها وتنظر إلى الجهة الأخرى، ثُمّ أغلقت صندوقًا آخر كي تتحاشاه، وكتمت ضحكاتها قدر المستطاع، قبل أن يخطر على بالها روبن فجأة.

«أتساءل إن كان روبن سيواعد فتاة أيضًا... يجب أن أقدم له بعض النصائح عن معاملة الفتيات قريبًا».



وقفت روبي وسط الشقة بعد الانتهاء من حزم كل شيء، وتأملت كل زاوية بحزن وراحة في آنٍ واحد؛ ستفارق مكانًا عاشت فيه الكثير من

الذكريات، لكنّها كانت تعلم في أعماق قلبها أن وقت الوداع قد حان، لبدء فصل جديد.

عادت من شرود ذهنها عندما طرق أحدهم الباب، فتوجهت إليه وفتحته لتجد لورينا تقف أمامها، وهي تحمل صينية فوقها إبريق قهوة وكوبان.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة يغلبها الحزن: «إنها ليلتك الأخيرة هنا، وفكرت أن آتي لنشرب القهوة كما اعتدنا. ما رأيكِ؟»

تأثرت روبي وسمحت لها بالدخول، لتجلسا معًا وتحتسيا القهوة اللذيذة.

«إلى أين ستنتقلون بالضبط في العاصمة؟»

هزّت روبي كتفيها بخفة: «لا أعلم. تركت الأمر لمارسيل».

أومأت لورينا بفهم، وارتشفت من قهوتها، ثُمّ قالت بنبرة أكثر هدوءًا: «إن أندريه حزين لرحيل ميا، ولكنه يكابر. إنها حزينة أيضًا، ولكنهما سيفهمان يومًا ما».

ساد بينهما صمت خفيف، لم يكن مزعجًا بقدر ما كان مثقلًا بما لا يُقال. أخفضت لورينا بصرها إلى قهوتها للحظات، ثُمّ انتقلت عمدًا إلى موضوع آخر.

«لقد زرتُ دييغو في المستشفى».

«هل سمحوا لكِ؟»

«أجل. إنه بخير، وقابل والدته».

شعرت روبي بالشفقة، ثُمّ قالت بهمس: «لا بد أنه فرح بذلك كثيرًا».



«لا أظن أنه فرح بذلك بقدر فرحه بقرار الدون فيرناندو».

«ماذا تعنين؟»

«لقد سمح له بالعودة إلى المكسيك، لكن والدته ستبقى في ضيافته، ويمكنه رؤيتها وفق شروط معينة، كما أمره بترك تجارة الحشيش».

رمشت روبي باستغراب، وشرد ذهنها إلى الدون وقراراته التي باتت أكثر غموضًا في الآونة الأخيرة.

سألت بنبرة متهكمة: «هل سيصبح فقيرًا؟»

ضحكت لورينا برقة قبل أن تقول: «بالطبع لا، فعائلته تملك عقارات كثيرة».

أومأت بفهم، ثُمّ سألت: «وما الذي ستفعلينه حيال وجوده؟»

أسندت لورينا ظهرها إلى الخلف كأنها تحاول أن تبدو غير مبالية: «لا شيء بالطبع، فهو من الماضي مثل أندرياس».

تأملتها روبي قليلًا: «هل تريدين الحديث عنه؟»

رسمت ابتسامة مزيفة: «لا، فأنا بخير».

احترمت روبي عدم رغبتها في الحديث، وانتقلت إلى موضوع آخر، تفرع لاحقًا إلى عدة مواضيع، بعضها عابر وبعضها مضحك.

كان مارسيل على وشك أن يدخل ليتفقدها، إلا أنه ما إن سمع ضحكتها مع لورينا حتّى عدل عن الدخول، تاركًا لهما الفرصة لتوديع بعضهما جيدًا.

خفَّ الحديث شيئًا فشيئًا مع اقتراب الليل، ولم يبقَ بينهما سوى السكون ونظرات الوداع.

قالت لورينا بصوت خنقه الحزن: «أنا آسفة».

ارتجفت ابتسامة روبي وردّت بالنبرة نفسها: «وأنا أيضًا... سأشتاق إليكِ كثيرًا».

لمعت عينا لورينا بالدموع: «هذا ليس الوداع. سنلتقي بين حين وآخر بالتأكيد!»

رمشت روبي عدة مرات لتمنع دموعها من الهرب، ثُمّ وضعت كوبها جانبًا ونهضت من مكانها، ففعلت لورينا المثل، وتبادلتا عناقًا طويلًا امتزج فيه الامتنان بالأسف؛ كلتاهما تحفظ ذكرى الأخرى قبل أن تفترق الطرق.



وبعد وجبة عشاء خفيفة من الشطائر في شقة مارسيل، جلست ميا تراقب الفناء عبر النافذة؛ لعلها تلمح أندريه ليأتي ويودعها على الأقل، ولكنه لم يفعل، وهذا جعلها تتأكد أنه ليس صديقًا حقيقيًا كما كانت تظن.

نامت في غرفتها لآخر مرة، بينما نام روبن في شقة والدها بسبب الصناديق التي احتلت المكان. أما روبي، فاستلقت على فراشها لتجيب على رسائل مارسيل الذي يسحبها كل ليلة إلى الحديث؛ إذ كان هو المبادر دائمًا، وكأنه لا يطيق أن تنتهي ليلته من دون أن يتحدث إليها.

«كيف تشعرين؟»

«متوترة قليلًا، وربما متخوفة. لا أعلم».

«هل آتي؟ هل ترغبين بالتحدث؟»

ابتسمت بدفء وكتبت: «لا. يجب أن تنام أيضًا».

«هل تنهين محادثتنا بطريقة غير مباشرة؟🤔»



كتبت وهي تكتم ضحكتها: «ماذا تظن؟🙂»

«سأتركك لتنامي إذًا. أنا آسف حقًا، وكوني مرتاحة لإخباري بذلك في المرّة القادمة».

«😂»

«لماذا تضحكين؟»

عضت شفتها وهي تكتب: «بات التلاعب بك سهلًا جدًّا».

تأخر ردّه هذه المرّة لبضع ثوانٍ، ثُمّ كتب: «لا أحد يستطيع التلاعب بي سواكِ يا روبي سميث».

سكنت ابتسامتها قليلًا وهي تتأمل الكلمات على الشاشة، ثُمّ كتبت: «هل هذا إطراء؟»

«ماذا تظنين؟🙂»

ضحكت روبي بخفوت، ثُمّ تأملت الشاشة لوقت طويل قبل أن تكتب: «هل يمكنني سؤالك شيئًا؟»

عدّل مارسيل جلسته وتبدلت ملامحه إلى الجدية، ثُمّ كتب: «بالطبع».

ترددت روبي قبل الكتابة؛ كتبت ومسحت، ثُمّ تنهدت وأرسلت رسالتها كما هي.

«لو حدث وتغيرت الأمور، وقلت لك إنني لا أحتاجك كشريك... فما الذي ستفعله؟ هل ستكون موافقًا على أن يكون الرابط بيننا ميا فقط، ولا شيء آخر؟»



شعرت بالندم عندما طال سكون مارسيل أكثر من المعتاد، فحاولت التفكير في كتابة شيء آخر، لكن قاطعها صوت طرق خافت على بابها.

«هذا أنا...»

نهضت من الفراش بسرعة، ثُمّ اقتربت من الباب من دون أن تفتحه.

قال بصوت منخفض: «هل يمكنك سماعي؟»

أجابت بتردد: «أجل».

تنهد تنهيدة طويلة، ثُمّ أسند جبهته إلى الباب، وكأنه يقاوم شيئًا.

«لا تعذبيني هكذا... أعلم أنني أستحق ذلك، ولكن أرجوكِ لا تعاقبيني بكِ، فأنا لا أستطيع التحمّل».

وضعت يدها على قلبها المضطرب: «كان مجرد سؤال».

«أعرف، ولكنه كان كفيلًا ببعثرتي».

«أت...»

رد بارتباك: «لا، لا، لا تعتذري، أنا لم أقصد... سحقًا. لا أريد أن أفسد ما بيننا. أنا آسف، سأذهب».

سمعت وقع خطواته، ففتحت الباب بسرعة قبل أن يبتعد أكثر، ونادت اسمه بهدوء كي لا توقظ ابنتها.

سألت بقلق: «ما بك؟»

«كان عليّ أن أجيبك عبر الهاتف عوضًا عن المجيء».

«كان مجرد سؤال، فلا تشغل بالك».



«أعرف، لكنك اعتذرتِ وأنتِ لم تفعلي شيئًا خاطئًا، ولا أريدك أن تشعري بهذه الطريقة».

أخذ نفسًا عميقًا، محاولًا استعادة توازنه: «أنتِ تعرفين موقفي، وأعرف كيف هي شخصيتك. لا أريدك أن تشعري بالسوء حين أستاء، أو حين أقول شيئًا مثل الذي قلته للتو، فتضطري إلى مراعاتي على حساب مشاعرك».

«ما الذي تحاول قوله؟»

اقترب منها، ثُمّ قال محدقًا في عينيها: «لا أريدك أن تشعري بالذنب لو استيقظتِ يومًا ما وقد اتخذتِ قرارًا بشأني ولم تريدي حبي... لأني سأظل أنتظر حتّى تغيّري رأيك، مهما دفعتِني بعيدًا. سأنتظر حتّى نفسي الأخير يا روبي».

حدقت به للحظة طويلة، وقد استقرت كلماته في أعماق قلبها، ثُمّ قالت بنبرة متهكمة: «أعلم... لقد كنتُ أتلاعب بك مجددًا، ولكن على مستوى آخر».

تجمد لثانية، ثُمّ أفلتت منه ضحكة خافتة رغمًا عنه، تبعتها ابتسامة قصيرة، وقد أدرك أن هذه المرأة خطيرة، ولا يمانع تلاعبها به.

هز رأسه: «لا أستطيع ردّها».

ابتسمت بغرور: «ولِمَ لا؟»

«لأنني لم أعد ندًّا لكِ. أنتِ ملكة اللعبة».

«فهمت».

لم تكن تدرك أنها ما تزال تبتسم، حتّى قال بنبرة عميقة: «جميلة».

تسارعت ضربات قلبها على نحو مربك، ثُمّ تنحنحت وقالت: «يجب أن تنام».

«سأفعل، فشكرًا لقلقكِ عليّ».

«لم أكن...» ثُمّ توقفت: «مهلًا، هل أنت تتلاعب بي الآن؟»

هز كتفه وقال بنبرة ساخرة: «لا أجرؤ على ذلك».

ضيقت عينيها بشك، فيما وقف هو يتأملها بابتسامة هائمة، يقدّس اللحظة وهذه المحادثة التي تجذبهما إلى بعضهما أكثر.

«يجب أن أذهب وأنام... أراك غدًا».

أومأت بخفة وهمست: «تصبح على خير».

«وأنتِ أيضًا».

انتظرت قليلًا، وكأنها توقعت شيئًا آخر، ثُمّ انسحبت إلى غرفتها، وما إن أغلقت الباب حتّى اقترب مارسيل بابتسامة وقال: «أنا أتنفسكِ يا روبي سميث».

عضت على شفتها، ثُمّ تمتمت: «هذا الخسيس يتلاعب بي حقًا».

في صباح اليوم التالي، وقفت روبي في الفناء تحت مرأى الجميع، تمسك بيد ميا من جهة، وبيد روبن من جهة أخرى. لم تكترث لأولئك الذين يرمقونها، أو يرمقون روبن بنظرات حاقدة؛ بل أرادتهم أن ينظروا أكثر، وأن يروها شامخة بين طفليها.

امتنت لأولئك الذين قدّروا الذكريات التي جمعتهم بها؛ مثل دانتي،



وخوليو، وترياكي، ولورينا التي حضرت لتوديعها من دون أندريه.

«لقد انتهوا من تحميل كل شيء. هل ننطلق؟»

انتشلها سؤال مارسيل من شرودها. التفتت في الأرجاء كأنها تبحث عن وجه أخير بين الواقفين، لكن لم يكن له أثر...

أمسكت ميا بيد والدها، فانحنى قليلًا وحاول أن يخفف عنها، لكنّها ابتسمت بمرارة فقط، ثُمّ غادروا المجمع معًا إلى مواقف السيارات.

لم تلتفت روبي إلى الخلف أبدًا، حتّى ناداها صوت مألوف، بثَّ في قلبها شعورًا لم تكن مستعدة له.

«آي آي، هل كنتِ تنوين الرحيل دون توديعي يا سنيوريتا؟»

ثُمّ نظر إلى ميا: «وأنتِ أيضًا؟»

هتفت بفرح، ثُمّ ركضت إليه، فانحنى ليحملها بين ذراعيه ويدور بها في الهواء وسط ضحكتها، قبل أن يعيدها إلى الأرض برفق ويجثو أمامها مبتسمًا.

أما روبي، فبقيت في مكانها لثوانٍ، كما لو أن قدميها لم تعودا قادرتين على الحراك، إلى أن قال مارسيل: «سننتظركِ هنا».

أخرج أندرياس علبة صغيرة من جيبه: «أحضرت لكِ هدية السفر... أقراطًا متنوعة الأشكال!»

شهقت ميا حين فتحت العلبة ورأت ما بداخلها: «إنها جميلة جدًّا يا عم أندرياس... شكرًا!»

عانقته مجددًا، فأطال العناق هذه المرة، محاولًا التماسك ومنع مشاعره من الطفو على السطح، ثُمّ ابتعد ومسح على وجنتها.



«سأشتاق إليكِ كثيرًا يا ميا».

أمسكت بيده وقالت بابتسامة بريئة: «وأنا أيضًا! لكننا سنرى بعضنا مجددًا، صحيح؟ ولن تنساني أبدًا، صحيح؟ حتّى عندما يصبح لديك ابنة، صحيح؟ وستظل تحضر لي الهدايا؟»

ضحك ضحكة قصيرة: «آي آي، صحيح، صحيح، صحيح، وصحيح!»

ابتسمت بسعادة، ثُمّ قبّلت خده وقالت: «أحبك يا عم أندرياس».

أمسك بيديها وقبلهما، ثُمّ قال بصوت خافت: «وأنا أيضًا».

رفعت ذقنها بغرور طفولي: «آي آي، أعرف!»

ضحك مجددًا، ثُمّ نهض حين وقفت روبي أمامه، وأخبر ميا أن تعتني بنفسها، فأومأت ولوحت بيدها قبل أن تعود إلى والدها.

تأملت وجهه للحظة طويلة، ثُمّ سألت: «متى عدت؟»

«للتو... هبطت طائرتي وأتيت إلى هنا مباشرة».

ابتلعت غصتها: «لماذا؟»

«لأودعكِ بالطبع، ولأعتذر منكِ عن الصفعة والمشكلة الأخيرة... ظننت أنني قد لا أعود حيًّا بعد الاجتماع، وحين فكرت في الأمر أدركت أن اعتذاري كان عابرًا».

ثُمّ أضاف بنظرات مطمئنة: «وأريد أن أقول لكِ إنني حزين لرحيلك، لكنني أحترم قرارك بشأن الصبي... وأتفهم، يا روبي».

«أتفهم»... كلــمة جعلت الدموع تترقرق في عينيها؛ كانت تخشى أن



تسمع منه عتابًا أو لومًا، لكنه يتفهم، وسيسمح لها بالرحيل دون أن يثقل قلبها أكثر.

أضافت بصوت متحشرج: «بقلب رحيم، وعطاء ليس له حدود».

وضعت يدها على قلبها وانهمرت دموعها. لقد كانت تتمسك بمشاعرها أمام كل من ودعها، ولكنّها لم تستطع الآن؛ فأندرياس مختلف.

«استقبلتني في بيتك رغم أنك لم تكن مضطرًّا لذلك. ساعدتني على الاستقرار واعتنيت بكل مطالبي. قمت بتجهيز استقبال ميا وغرفتها الجميلة، وكنت معي وقت ولادتها رغم أنني لم أكن مسؤوليتك. اعتنيت بها ليالي كثيرة عندما كنتُ مرهقة، وحرصت على إسعادها وإسعادي.

كنت الأب لها رغم أنها لم تكن ابنتك، ولم تكن صديقًا لي، بل الأخ الذي أُسنِد رأسي على كتفه ليسمعني وأسمعه، ولا أستطيع أن أعبّر لك عن امتناني بما يكفي...

ويجب أن تعلم أنني لا أستطيع أن أغضب منك أبدًا يا أندرياس! وأنني سأظل ممتنة لك إلى الأبد على كل ما فعلته من أجلنا، وأتمنى أن تحظى بحياة سعيدة مع أناس يقدّرونك، لأنك نعمة تستحق أن تُقدَّر ويُعتز بها».

مسحت دموعها بيد مرتجفة، بينما رمش أندرياس عدة مرات حتّى منع دموعه من الظهور في عينيه.

ثُمّ قال بصوت مثقل بالمشاعر، امتزجت به خفته المعتادة بينهما: «إن كنتُ أخًا، فأنتِ أختي مهما اختلفت طباعكِ الأجنبية عني، ومهما كنتِ أجمل مني!»

«أنت امرأة رائعة يا روبي، وتستحقين الأفضل، وأتمنى أن تجدي السعادة والراحة في رحـــلتك الجديدة، ويجب أن تعرفي أن بابي سيبقى

مفتوحًا لكِ متى احتجتِ إليّ».

انهمرت دموعها أكثر، فمد أندرياس يده ليصافحها، لكنّها تجاهلتها وعانقته بدلًا من ذلك، وحين ابتعدت عنه، أمسك بيدها وشدّ عليها برفق.

«هل تذكرين نصيحتي عندما ودعتكِ في المرّة السابقة؟»

أومأت بابتسامة: «أجل... لكنه يسعى إلى الآن، ويحارب شياطينه من أجلنا».

«جيد. لو أحزنكِ فأخبريني وسآتي لضربه، ويمكنكِ التلاسن مع إيزابيل عندما تغضبني».

فرت منها ضحكة، ثُمّ شدّت على يده وودعته، قبل أن تستدير وتنطلق نحو عائلتها الصغيرة.

ظل أندرياس مكانه حتّى اختفت سيارتهم عن ناظريه، ثُمّ قصد الشقة الفارغة، وتأمل غرفة ميا للمرّة الأخيرة قبل أن يغلق بابها ويطوي فصلًا من حياته.

التفت إلى الخلف ورأى أندريه وسط غرفة المعيشة. لم يحتج إلى سؤاله؛ كان كل شيء واضحًا على وجهه.

اقترب منه وضمه بحنان، فبكى أندريه وقال: «لم أقل لها وداعًا. رحلت وهي مستاءة مني! لماذا كنت غبيًّا ولم أتحدث معها؟ لماذا لم تأتِ هي؟ لماذا اختارت روبن؟ لماذا كان علينا أن نفترق؟»

ربّت أندرياس على ظهر ابنه، وتركه يبكي، ثُمّ قال: «يبدو أن قلبك سبق عمرك يا بني... هيا، لنخرج ونتحدث كرجلين».



تكون البدايات صعبة دائمًا، لكنّها تفقد حدتها مع الوقت... كانت روبي تؤمن بذلك، وهكذا علّمها والدها، ولكنّها ما تزال عاجزة عن إسكات الأسئلة في رأسها؛ كيف سيكون المكان الذي سينتقلون إليه؟ هل هو آمن؟ قريب من الدون فيرناندو أكثر مما يجب؟ هل سيكون مناسبًا لهم جميعًا؟

ظلت تراقب الطريق بتركيز مشدود، وعيناها تتنقلان بين الشوارع والمباني والسيارات، وكأنها تحاول أن تتخيل مستقبلها من وراء الزجاج، حتّى وصلوا إلى وجهتهم أخيرًا.

كان المبنى الذي ارتفع أمامهم فخمًا جدًّا، واجهته الزجاجية تلمع تحت ضوء النهار، وكأنه فندق لا يسكنه إلا الأثرياء.

كانت الردهة واسعة، مضاءة بعناية، وتفوح منها رائحة النظافة، عكس مدخل المجمع الذي كانوا يعيشون فيه.

تبعوا مارسيل إلى المصعد، حيث مرر بطاقة ذكية، وصعد بهم إلى الطابق الأخير، وهناك بدأت الدهشة الحقيقية؛ كانت الشقة تمتد على طابقين، وسقفها العالي جعل ميا تشهق بصوت مسموع وهي تدور حول نفسها بانبهار.

«هذا منزل في شقة يا بابا!» هتفت وهي تشير إلى النوافذ الواسعة: «والنوافذ كأنها جدران، مثل منزل جدي! انظر يا روبن إلى الإطلالة!»

أخبرها مارسيل أن تأخذ جولة مع روبن وتختار غرفة، فأمسكت بيده فورًا وسحبته معها نحو الدرج، ولحق بهما روكو وكأنه يريد أن يشارك في اكتشاف منزله الجديد أيضًا.

أما روبي، فقد بقيت في الأسفل، تتأمل المطبخ الواسع وصالة المعيشة والتلفاز المسطح الكبير وطاولة الطعام الطويلة.

«ما رأيكِ؟»

«إنه... مترف جدًّا».

«اقترح العجوز عدة أماكن، واخترت هذا المبنى. المنطقة آمنة جدًّا، ونظام المراقبة قوي. هناك حديقة داخلية فيها ألعاب ومسبح خارجي وآخر داخلي، والعديد من الخدمات الأخرى. يوجد نظام تدفئة وتكييف، وخمس حمامات، أحدها حمام بخار، وأربع غرف مجهزة... وما ترينه أمامكِ».

مشت روبي بخطوات بطيئة نحو الواجهة الزجاجية الكبيرة، ثُمّ نظرت إلى الشوارع والمباني الأخرى تحتها برهبة.

«هل هناك مدرسة قريبة؟ من أجل ميا وروبن؟»

«أجل، وهناك مجمع تجاري قريب أيضًا».

طال الصمت وهي تتأمل الإطلالة، وحينها قال مارسيل بإحباط خفيف: «لم تعجبكِ».

«بلى، أعجبتني، لكنني متفاجئة من حجم التغيير... سأعتاد».

قال بملامح لينة: «لا تعتادي عليه كثيرًا، فسنمكث هنا مؤقتًا».

«مؤقتًا؟ ماذا تقصد؟»

«ستعرفين في الوقت المناسب. انتظريني قليلًا فقط».

زادت عبارته من ازدحام الأفكار داخل رأسها بدلًا من أن تهدئها. أرادت التحقيق معه أكثر، لكن ميا نادتها، فصعدا معًا وتفقدت الغرف المريحة

والحمامات الذكية والمكتبة والتفاصيل الأخرى التي جعلت المكان يبدو كحلم فاخر.

اختارت ميا غرفة ذات إطلالة رائعة دون تردد، بينما انتظر روبن أن يتم توجيهه إلى واحدة، حتّى منحته روبي حق الاختيار، فاختار الغرفة المجاورة لأخته بالضبط.

«لقد وصلت شركة الشحن. سأتأكد من إحضارهم كل صناديقكم أولًا، ثُمّ أجتمع بكم بعد أن أضع أغراضي».

عقدت روبي حاجبيها بعدم فهم: «أين سيضعونها؟»

أجاب ببساطة: «في شقتي، إنها تحتكم مباشرة».

طال تحديقها فيه، وكأنها احتاجت لحظة لتستوعب ما يعنيه ذلك. عجزت عن قول شيء، واكتفت بإيماءة فقط.



أفرغت روبي الصناديق بمساعدة العمال وعائلتها، وقامت بتنظيم تحف والدها في مكان آمن، مثل ميا التي رتبت ألعابها وهي تغني بمرح، أما روبن فقد نظم ملابسه في الخزانة وجهز غرفته وفق ما يناسبه.

وفي المكتبة، انشغل مارسيل بترتيب كتب روبي بالطريقة التي تفضلها، ثُمّ علا صوت ميا وهي تنادي: «روبن؟ تعال وساعدني! أنا أعمل، وميليسا جائعة، وكذلك روكو!»

ابتسمت روبي وهي تراه يترك ما بيده ويتوجه إليها من دون تذمر أو سخرية، ثُمّ اقتربت من مارسيل لتجده يتصفح إحدى رواياتها.

«ما الأمر؟»

قال بتهكم: «أتصفح المقاطع التي أشرتِ عليها. هناك الكثير من اللون الوردي والتعليقات».

انتشلت الكتاب من يده بحرج وأعادته إلى الرف، لكنه التقطه مجددًا بهدوء، ووضعه وفق الترتيب الصحيح.

«لقد كنتِ تملكين كتبًا أكثر من هذه، فما الذي حدث؟»

أجابت بنبرة هادئة تخللها الحزن: «تبرعت بها كي يخف الحمل».

نظر إليها مليًّا: «هكذا إذًا...»

وبعد أن رتبوا الأساسيات واستقروا قليلًا، أخذهم مارسيل في جولة ليروا الحديقة. ركض روكو فوق العشب كالمجنون، ثُمّ أخذ ينبح في وجه أحد التماثيل ويحاول مهاجمته، فانفجرت ميا بالضحك وهي تتأرجح إلى جانب روبن.

ثُمّ أوقفت أرجوحتها وقالت: «خذني إلى الزحلوقة يا بابا!»

حاضر.

تسلقت ميا الدرجات الصغيرة، وانزلقت داخل الزحلوقة وخلفها روكو، ثُمّ التفتت روبي إلى روبن الصامت، وسألت:

«هل تجيد التسلق؟»

أجاب بخجل: «أجل.. وأنا جيد في الباركور أيضًا.»

رفعت حاجبيها بإعجاب: «حقًا؟ هل يمكنك أن تريني بعض الحركات؟»

«أجل.»



خلع معطفه واتجه نحو ألعاب التسلق. راقبته روبي باهتمام وهو ينتقل من نقطة إلى أخرى بانسيابية ومرونة مذهلة. تأرجح حول القضيب المعدني، ثُمّ اندفع نحو الآخر بخفة، وشق طريقه حتّى بلغ القمة، ووقف على زاوية خطيرة بكل توازن وثبات، قبل أن يهبط مجددًا إلى الأرض.

صفقت بإبهار، فابتسم بفخر مكتوم، بينما هتفت ميا: «كان هذا مذهلًا يا روبن!»

ثُمّ التفتت إلى والدها على الفور: «بابا؟ احملني هناك، سأتأرجح مثله.»

لا، فلا أريدك أن تكسري شيئًا في جسدك الضئيل.

مدت شفتيها بانزعاج وهبطت عن الزحلوقة: «أستطيع فعلها! ساعدني وسترى.»

ربتت روبي على كتف روبن: «يجب ألا تتوقف عن ممارسة هذه الرياضة. يمكنك التدرب في الحديقة أو في الصالة الرياضية.»

أومأ بابتسامة صغيرة: «حسنًا..»

التفتا معًا إلى ميا التي تعلقت بالقضيب المعدني بكلتا يديها، لكنّها لم تستطع الثبات عليه طويلًا، فالتقطها مارسيل قبل أن تقع، ثُمّ رفعها لتتمسك به من جديد وهي تتذمر بضيق.

«ادفع بجسدي يا بابا! دعني أتأرجح حوله مثل روبن.»

«أنتِ تفلتين يدك، فكيف لي أن أدفع جسدك؟»

«أنت الذكي، فكر قليلًا!»

ضحك روبن بصوت خافت، ثُمّ هبطت ميا على الأرض بعد محاولات فاشلة رفضت الاعتراف بها، وألقت باللوم على بطنها الجائعة...



وبعد يوم طويل ومرهق، جلست روبي فوق فراشها الجديد أخيرًا، وفتحت مذكرتها لتدوّن تفاصيل اليوم المميزة، وكيف تتخيل أيامهم القادمة، ثُمّ تسلل مارسيل إلى أفكارها، فكتبت عنه أيضًا، وعن فضولها حين قال إنهم سيمكثون هنا مؤقتًا، وتساءلت ماذا يفعل في شقته.

قاطعها طرق خفيف على الباب، فنهضت لتفتحه وترى روبن.

«ما الأمر؟»

«إن ميا تبكي. تقول إنها خائفة وتريدك.»

«حسنًا، سأذهب إليها، فعُد إلى غرفتك.»

مسحت على رأسه بحنان قبل أن تتجه إلى غرفة ميا، فتجدها منكمشة فوق فراشها، تحتمي بالغطاء، وتذرف الدموع الصغيرة.

سحبتها إلى حضنها، ثُمّ مسحت على ظهرها وقالت: «ما بك يا ميا؟ كنت قد نمت.»

همست بصوت خافت: «أنا خائفة.»

«لأن الغرفة جديدة فقط. لا بأس يا حبيبتي، ستعتادين عليها عما قريب.»

أومأت ميا وهي ما تزال في حضن أمها، ثُمّ رفعت رأسها قليلًا وقالت: «هل يمكنكِ أنتِ وبابا أن تبقيا معي حتّى أنام؟»



طبعت روبي قبلة على رأسها، ثُمّ أرسلت إليه رسالة من جهاز ميا اللوحي، ولم تمضِ سوى بضع دقائق حتّى جاء، وقد بدا على وجهه القلق، لكنّها طمأنته وشرحت الأمر.

جلس إلى جانب ميا، فارتمت في حضنه، وراحت تخبره عما يخيفها بالتفصيل، بينما ظلت روبي تراقبه وهو يصغي إليها باهتمام.

«سنذهب غدًا لشراء بعض الأشياء لغرفتك، وسأدعك تختارين ما تريدينه بنفسك، لتضعي لمستك فيها وتشعري بالراحة. اتفقنا؟»

همست: «اتفقنا.»

«اطمئني، وعودي إلى النوم الآن.»

«هل يمكنك أن تستلقي بجانبي حتّى أنام؟»

مسح على رأسها: «بالطبع.»

«وأنت أيضًا يا ماما.»

تبادلت نظرة مع مارسيل، ثُمّ أومأت واتخذت مكانها بجانب ابنتها التي استلقت على ظهرها بينهما، وطلبت قصة قصيرة.

بدأ مارسيل يسرد لها واحدة من القصص التي قرأها لها ذات مرة، لكنه رواها من دون أي محاولة لتغيير النبرة أو تقليد الشخصيات، مما جعل ميا توقفه، وتسخر منه ببراءة.

«ماما؟ أنت أبرع منه في القصص.»

اعتذر والدها بأسلوب ساخر، بينما ابتسمت روبي وبدأت بسرد قصة، فاستمعا إليها، واندمجا في أحداثها حتّى نامت ميا، وسرت طمأنينة ساكنة في الغرفة.

ظل مارسيل يحدق بروبي مثلما تحدق به، ثُمّ همس: «بماذا تفكرين؟»

«في بعض الأمور.. ماذا عنك؟»

«أفكر بك.»

أطلقت همهمة خافتة: «حسنًا..»

«هل تقترحين أن أبقى بجانبها في حال استيقظت مجددًا؟»

نظرت روبي إلى ابنتهما طويلًا، ثُمّ همست: «يمكنك البقاء..»

حدق بها مارسيل لحظة أطول، شعر بأن إجابتها مبهمة، فانتظر أن تكمل.

«يمكنك البقاء بجانب ميا، ويمكنك البقاء هنا عوضًا عن العيش في قصر كهذا وحدك.» أكملت بارتباك: «هناك غرفة شاغرة لو أردت الانتقال معنا.»

تنفس نفسه التالي وكأنه يتنفس عبير الزهور؛ فكلماتها لم تكن مجرد اقتراح، بل باب فتح له أخيرًا بعد انتظار طويل.

ظل يحدق بها حتّى أشاحت بعينيها وهمست: «ربما تفضل البقاء وحدك. لا بأس إن كانت تلك رغبتك.»

«روبي..»

نظرت إلى وجهه المبتسم: «نعم؟»

«يسرني أن أنتقل للعيش معكم.. كنت أفكر في ذلك قبل أن آتي، لكنني خشيت أن أجعلك غير مرتاحة.»



«شكرًا لأنك تفكر في راحتي.»

«بل شكرًا لك.»

عقدت حاجبيها قليلًا، قبل أن تسأل بهمس: «لماذا تقول ذلك كلما شكرتك؟»

«لأنك منحتني أكثر مما أستحق، ولن أعرف كيف أرد لك ذلك مهما حاولت، لذا سأظل أشكرك دائمًا.»

شعرت بغصة ترتفع في حلقها، لكنّها قاومتها، واكتفت بالنظر إليه، ثُمّ سألت لتبدل مسار الحديث: «كيف تسير الأمور مع طبيبك؟»

«جيدة. نعقد جلسة كل أسبوع.»

«لا بد أنه طبيب صبور ما دام يساعدك.»

«لقد ساعدني في إيجاد طريقي، ولم يستطع أن يمنع نفسه من السخرية مني.. الوغد.»

«لا يمكنك أن تلومه، فمن كان يظن أنك ستتغير هكذا؟»

أجاب دون تردد: «أنتِ من آمنت بي، وصدقت أن بإمكاني أن أتغير. فعلت ما كنت أظنه مستحيلًا يا روبي.»

شعرت بضغط الدموع خلف عينيها، لكنّها رمشت وهمست بأحد مخاوفها: «هل سترحل مجددًا يومًا ما؟»

أجاب بثبات: «لا.»

أغمضت عينيها: «وعد؟»

«وعد.» ثُمّ ابتسم بسحرية وهمس: «مع أن جزءًا مني يريد أن يعرف



كيف ستقتلينني لو أخلفت وعدي.»

«ستتفاجأ.»

«ليس لدي أدنى شك في ذلك.»



34: سر ليلة النجوم

مذكرتي العزيزة، بت أستيقظ كل صباح على إطلالة السَّماء الصافية، وأنام كل ليلة على النجوم وأضواء المباني الساحرة في العاصمة، أتناول وجباتي مع ابنتي وابني، ومع مارسيل الذي ما زلت لا أملك له مسمى خاصًا بعد..

لقد انتقل للعيش معنا، وأنا مرتاحة لوجوده حولنا، وممتنة لمساندته، والمحادثات الليلية التي نجريها عبر هواتفنا حتّى وقت متأخر، أو أحاديث الصباح بعد الفطور، حين يعد لي الشاي أو القهوة كعادته كل يوم.

إنه يحرز تقدمًا معي، ومع ابنتنا، لكن الأمر مختلف قليلًا مع روبن. لا توجد علاقة حقيقية بينهما، ولا عداوة كذلك. أراهما متشابهين في الطباع، لكن كليهما يحسب خطواته جيدًا، ولا يعرف كيف يقترب من الآخر.

على كل حال.. اليوم هو يوم ميلاد التوأم، ولم أكن أخطط للحضور، ولكن فيرونيكا اتصلت وأصرت علي كثيرًا، كما أن مارسيل يريدني أن أرافقه، فقد بدا متوترًا قليلًا، لكنه لم يشأ أن يجبرني.

سأذهب معه، وستقوم إحدى خادمات الدون بمجالسة روبن وميا، التي لا أعلم بعد كيف تمكن والدها من إقناعها بالبقاء في المنزل، ولكنني ممتنة على أي حال، فقد سمعت أن الحضور سيكون كبيرًا، ولا أريد أن يتشتت تركيزي بين عائلتي، وما ينتظرنا هناك.



ارتدت روبي فستانًا أسود أنيقًا، بأكمام طويلة وفتحة عنق دائرية، وتركت شعرها ينسدل على كتفيها بلا تموج، ثُمّ جلست لبضع دقائق أمام المرآة؛ كان هناك شيء في داخلها يشدها إلى الخلف كلما حاولت إقناع نفسها بأنها قادرة على حضور أمسية مجرمين أخرى.

همست: «أستطيع فعلها.. سأكون بخير. سأتحسن.»

ارتدت حذاءها، ثُمّ خرجت من غرفتها وهبطت الدرجات على مهل، بينما كان مارسيل يتأمل كل تفاصيلها دون أن يرمش، ولم يدرك أنه كان يحبس أنفاسه إلا حين وقفت أمامه.

دارت ميا حول والدتها بانبهار، وأثنت على شكلها، ثُمّ التفتت إلى والدها الذي لم يقل شيئًا، حتّى شعرت روبي بالقلق.

«هل أبدو سيئة؟»

فتح فمه ليرد، لكن ميا وكزت ساقه، وقالت بنبرة مؤنبة: «بابا؟ ما بك لا تقول شيئًا؟ إن ماما تبدو جميلة جدًا.»

«أعرف، ولهذا السبب أعجز عن إيجاد كلمات مناسبة.»

«كان يجب أن تأتي إليَّ إذًا، ولكن لا بأس! سأعلمك عندما تعود.»

ابتسمت روبي بسحرية، ثُمّ أوصت روبن وميا بعدة أمور، قبل مرافقة مارسيل إلى موقف السيارة، حيث استطاع أن يقول شيئًا أخيرًا.

«لم أقصد أن أبقى صامتًا، فلا تفهميني على نحو خاطئ. أنت تبدين..» هز رأسه وتنهد باستسلام: «أنت روبي.»

«وماذا يعني ذلك؟»

مالت على شفتيه ابتسامة خفيفة: «يعني أن الكلمات لا تكفي لوصف جمالك.»

ازدردت بتوتر والتفتت نحو السيارة، ففتح لها الباب واضعًا يده على سقفه كي يحمي رأسها عندما تدخل، ثُمّ قاد في هدوء لم يكن مريحًا؛ إذ لاحظ تشابك أصابعها فوق حجرها، ونظراتها إلى الطريق.

«ما الذي يقلقك؟»

«هل أنت واثق من أن المكان آمن؟»

«المكان آمن، وحراسي حولها، فلا تقلقي.»

أومأت بتردد: «حسنًا، سأحاول.»



مشت روبي جنبًا إلى جنب مع مارسيل داخل قصر الدون فيرناندو، سلمت معطفها في المكان المخصص، ثُمّ تفقدت مظهرها مرّة أخيرة قبل أن يدخلا إلى قاعة الاحتفال.

تفاجأت بكثافة الحضور، وبحثت عيناها عن الوجوه المألوفة؛ رأت أندرياس وزوجته إيزابيل، وكذلك لورينا الجالسة إلى جانب والدتها وجدتها، وكان هناك عدد كبير من رجال المافيا الإيطالية، على رأسهم مورينو، وابنه ماتيو.

لم تطل النظر نحوهم عندما أتت فيرونيكا للترحيب بهما. بدت أنيقة كعادتها، ومشتتة في الوقت ذاته بترتيبات الحفل وضيوفهم، بالكاد رحبت بهما قبل أن تنتقل إلى غيرهما بسرعة.

ابتسمت روبي بلين حين لوحت لها لورينا، وكذلك حين التقت عيناها



بعيني أندرياس، أما إيزابيل، فاكتفت لها بإيماءة خفيفة فقط، ثُمّ رأت ماتيو يتقدم نحوهما، فصرت على أسنانها، واستعدت لما هو آت.

ابتسم لمارسيل أولًا، ثُمّ نظر إليها وقال: «تسرني رؤيتك دائمًا يا روبي.»

أجابت بنبرة هادئة: «شكرًا لك.»

«العفو.. أراك لاحقًا.»

عقدت حاجبيها عندما رحل ببساطة، ثُمّ نظرت إلى مارسيل، فوجدت ملامحه منغلقة؛ عيناه تعاينان القاعة والوجوه بحذر، لكن وجهه كان يلين قليلًا كلما نظر إليها.

«لو شعرت برغبة في الخروج فأعلميني وسأخرجك من هنا. تهمني راحتك أكثر من هذه الحفلة.»

«لا بأس، سأكون على ما يرام.»

مد ذراعه لها، فأخذتها ومشت حتّى وصلا إلى طاولتهما، ثُمّ جلست إلى جانبه بعد أن ألقت نظرة سريعة على المقاعد الشاغرة الأخرى.

«هل تشعرين بالعطش؟ هل أحضر لك شيئًا؟»

«الماء فقط.»

أشار إلى المضيف، فحضر سريعًا وخدمهما، ثُمّ عادت عيناها تتنقلان بين وجوه الضيوف من جديد، حتّى استقرتا على الدون. كان يتحدث مع بعض الرجال الذين بدوا من كبار الشخصيات، بوجه لا يميل إلى ابتسامة ولا عبوس، فيصعب على المرء أن يعرف ما يدور في رأسه.

«هناك الكثير من الفتيان والفتيات القادمين من إيطاليا. أظنه ينوي تأمين عروض زواج لكلا التوأم.»

مالت نحوه وهمست: «وهل هما موافقان؟ أم أنه يجبرهما؟»

«لا علم لي.»

«يا للعجب، وكأننا في فيلم كلاسيكي عن المافيا.» ثُمّ سألت بقلق: «هل ستواجه ميا هذا المصير في المستقبل؟»

تبدلت ملامحه إلى الحدة فورًا: «بالطبع لا. لن أسمح لأحد أن يجبرها على الزواج رغمًا عنها.»

«حقًا؟ وماذا قد يقول والدك؟»

رد بنبرة متهكمة: «هل تظنين أن ذلك العجوز سيعيش خمسة وعشرين عامًا أخرى؟»

شهقت: «خمسة وعشرون؟»

«أجل. سأجعل ميا توقع على عقد ينص على ألا تتزوج حتّى تبلغ الثلاثين على الأقل.»

كانت تعرف أنه يمزح، لكنّها لم تستطع أن تمنع ضحكتها الخافتة، ثُمّ تلاقت نظراتهما مجددًا، ولم تنتبه إلى قصر المسافة بين وجهيهما إلا حين انخفضت عيناه إلى شفتيها، ثُمّ عادتا إلى عينيها.

التفتت إلى الأمام، وارتشفت من كأس الماء بتوتر، كأن شيئًا لم يحدث، ثُمّ انصرف انتباهها إلى لورينزو الذي قاد امرأة شقراء حبلى إلى الطاولة وساعدها على الجلوس.

«أريد الوقوف بجانبك وبجانب أبي. أنا بخير ولا أشعر بتعب على الإطلاق!»

رمقها بنظرة حادة: «إلزمي مكانك يا إيلينا.»

تجمدت روبي لوهلة بسبب نظرته المرعبة، لكن إيلينا ابتسمت وكأنه أغراها، ثُمّ نظرت إليهما بعد رحيله، وقالت بابتسامة عريضة وهي تمد يدها: «مرحبًا، أنا إيلينا أورتيغا. زوجة لورينزو، وأنتِ..؟»

صافحتها روبي أولًا وعرفتها بنفسها، ثُمّ فعل مارسيل الشيء ذاته، فشهقت إيلينا: «أنت بيدرو إذًا، وأنت روبي سميث! لقد حدثني لورينزو عنكما.» ثُمّ أضافت باستياء: «يا للعار، كان يجب أن يعرفني عليكما! سأنهض الآن وأعاتبه.»

همت بالنهوض، لكن بطنها المكورة منعتها، فزفرت باستسلام.

«سأؤجل الأمر حتّى أستعيد طاقتي قليلًا.»

أخذت شهيقًا وزفيرًا متتاليين، ثُمّ ابتسمت لهما مجددًا.

«ما أخباركما؟ سمعت أن لديكما ابنة.. ميا، صحيح؟ هل أحضرتماها؟»

أجابت روبي بعد ترتيب أفكارها: «صحيح، وتركتها في المنزل مع أخيها.»

اتسعت عينا إيلينا: «أوه، أنجبتما ابنًا آخر؟ هل تزوجتها إذًا؟»

رمشت روبي بارتباك: «لا.. لم أتزوج، ولقد تبنيت ابني مؤخرًا.»

تعجبت إيلينا أكثر: «هل أنتما معًا؟ أعني كثنائي؟ أم أنكما لستما معًا تمامًا، لكن بينكما احترام متبادل وما إلى ذلك؟»

توترت روبي وانتظرت أن ينقذها مارسيل، لكنه التزم الصمت مترقبًا إجابتها.

«نحن.. ثنائي.»



ابتسم بخفوت، وارتشف الماء بهدوء، رغم أن قلبه كان يخفق بسرعة، أما إيلينا، فقد اضطربت ملامحها على الفور.

«هذا رائع. أشعر برغبة في البكاء.. مهلاً، إنني أبكي!»

رمش مارسيل باستغراب، بينما ناولتها روبي بعض المحارم، فأخذتها ومسحت دموعها وهي تحاول أن تهدأ.

«هرمونات الحمل.. أنا في أسبوعي الأخير، وقد ألد في أي لحظة. لم يرغب زوجي في أن آتي، لكنني احتجت إلى أن أكون في مكان آخر غير الفراش والأريكة، وبعيدًا عن ابنتي اللتين لا تنفكان تسألان عن موعد الولادة، وما زلت لم أقرر اسم الصبي بعد!»

زفرت نفسًا عميقًا، وتبادلت روبي النظرات مع مارسيل الذي اكتفى بهز كتفه، ثُمّ أخرجت إيلينا مرآة صغيرة من حقيبتها وتفقدت مساحيقها.

«هذه الشركة مذهلة. لقد بكيت ولم تتأثر الماسكارا. يستحقون كل فلس.» ثُمّ تنهدت: «سحقًا، أحتاج إلى الحمام.»

نادت أحد أبناء عمومتها، فاقترب وسخر منها بالإيطالية: «تبدين مثل الكرة يا إيلينا.»

«هذا ما ستبدو عليه زوجتك في المستقبل القريب، فاستعد.»

راقبتها روبي وهي تبتعد، ثُمّ قالت: «إنها حيوية جدًا.»

«توقعتها أن تكون مثل لورينزو.»

«لا أحد مثل لورينزو.»

ضحكت ضحكة خافتة: «محق.»

عادت روبي إلى التركيز على الموسيقى والحضور، وسرعان ما جلس

الجميع في أماكنهم، ثُمّ انضم الدون إلى طاولتهم، وراح يت هامس مع زوجته في أمر لم تستطع سماعه بوضوح، ولم تشأ أن تبدو متطفلة، فتظاهرت بتفقد هاتفها.

ارتفع صوت الموسيقى أكثر، ووقف التوأم جنبًا إلى جنب وسط التصفيق والمباركات. بدت فاليريا متوترة قليلًا، على عكس ريكاردو، الذي وقف بثبات، كأنه نسخة مصغرة من أبيه.

نهض الدون وأخذ بيد ابنته ليراقصها أولًا، بينما وقف ريكاردو جانبًا، ولم تمضِ لحظات حتّى تجمعت حوله فتيات في سنه، لكنه اعتذر إليهن، وانتظر دوره ليراقص أخته بعد مارسيل.

«استرخي، فعضلاتك مشدودة.»

همست فاليريا بابتسامة متوترة: «الكل ينظر إليّ.. وأخشى أن أدوس على قدمك، وأفسد الرقصة.»

رد مارسيل: «تجاهليهم، ولا بأس لو دست على قدمي.»

«شكرًا يا بيدرو.»

أومأ بعفوية، ثُمّ قال: «هل ترغبين في أن أنهي الرقصة الآن؟»

«لا. أطلها قليلًا حتّى أهدأ تمامًا.»

«حسنًا.»

وبعد رقصتها مع أخيها الأكبر، رقصت مع توأمها أخيرًا، وبدأ آخرون في الرقص كذلك، من بينهم أندرياس وخوليو، وكذلك لورينا التي رقصت مع رجل لم تعرفه روبي، لكنّها ستخبرها عنه لاحقًا بالتأكيد.



نهضت بهدوء، ثُمّ غادرت قاعة الاحتفال قاصدة دورة المياه، فصادفت ماتيو في الممر، يقف أمام إحدى اللوحات الفنية في القصر.

نقل عينيه نحوها وابتسم: «مرحبًا.. لا أرى سبيلًا حولك.»

ردت روبي بتهكم: «ولا أرى نساء حولك.»

ضحك ضحكة أقل حيوية من المعتاد، ثُمّ قال: «أتراقبين حياتي العاطفية يا روبي؟ سيغضب سييل من ذلك كثيرًا، وقد يقتلني ويقول: "حذرتك!"»

«ماذا تقصد؟»

«تلقيت تحذيرًا قبل قدومي بأن أبقي مسافة بيننا، وأن أتأكد من ألا يتعرض لكِ أحد منا أيضًا.» أردف بابتسامة غزلية: «ولكن اعترفي! تجدينني مسليًا، صحيح؟ وتتمنين لو أنني أقترب أكثر ونصبح صديقين.»

نظرت إليه مليًا، ثُمّ قالت: «أجدك مسليًا، ولكنك لست كذلك اليوم. هناك شيء مختلف.»

«لا شيء مختلف. أنا أقضي وقتًا ممتعًا، ولا أفكر بشيء سوى المتعة، وهناك نساء حولي بالمناسبة، لكننا في حفلة محترمة، وقد أوصاني أبي أن أُحسن السلوك. وهذا غريب. ضحك ضحكة قصيرة: «لا يوجد شيء غريب.»

أطالت النظر إليه مجددًا، ثُمّ سألت بصوت ناعم: «من تكون؟»

ومن ملامحه التي تغيّرت لثانية، وعادت لما كانت عليه بسرعة، تيقنت أن سؤالها أصاب وترًا داخل قلبه.

«من تقصدين؟»



«المرأة التي تشغل بالك وتجعلك تتصرف هكذا.»

تبادلا النظرات لثوانٍ، ثُمّ ابتسم ماتيو وقال: «أراك لاحقًا يا روبي سميث.»

تجاوزها عائدًا إلى الحفل، فتشجعت وقالت من دون أن تلتفت إليه: «شكرًا على مساعدتك لمارسيل.»

جاءها صوته من آخر الممر: «لا تشكريني إن لم تستطيعي رد الجميل بالدم، يا عزيزتي.»

عقدت حاجبيها باستغراب وتمتمت: «ما الذي يثرثر به هذا المجنون؟»

تركت التفكير بالأمر، وتابعت طريقها نحو دورة المياه، فتفاجأت بلورينزو الغاضب، يسند زوجته ويساعدها على المشي.

قالت إيلينا ببساطة: «مرحبًا! لقد انفجر كيس الماء للتو، فاحذري من الانزلاق.»

«يجب أن تسرعي بالمشي، وإلا ستلدين ابننا عند الباب.»

قالت وهي تتحرك بصعوبة: «آسفة لأنني قاطعت اجتماعك مع الدون.»

«لست غاضبًا بسبب ذلك، بل لأنك لم تسمعي كلامي.»

واصل دفعها للأمام باهتمام صارم، ووقفت روبي تراقبهما بفم مفتوح، عاجزة عن استيعاب كل ما شهدته خلال الدقائق الأخيرة.

«ما هذه الليلة؟»

غسلت يديها في الحوض بعد أن انتهت، ثُمّ أعادت وضع أحمر الشفاه بعناية أمام المرآة، متأملة انعكاسها لثوانٍ قصيرة قبل أن تغادر، لكنّها لم ترغب بالعودة إلى الحفل بعد، بل أرادت مكانًا هادئًا لتتفقد طفليها.

ابتعدت عن الصخب والازدحام، ثُمّ أجرت مكالمة فيديو مع ميا وروبن، وارتاحت حين رأتهما بخير، يشاهدان فيلمًا من اختيار ميا بالطبع.

«حسنًا. لا تُفرطا في تناول الحلوى.» ضيقت عينيها: «وأنا أقصدك يا ميا.»

ضحكت ميا ببراءة قبل إنهاء المكالمة، ثُمّ صرفت روبي نظرها إلى الرجال الذين خرجوا من مكتب الدون، وظلت تحدق بالباب وهي تفكر بشيء شغل بالها كثيرًا؛ كانت قد رأت القلق فعلًا على وجهه في تلك الليلة حين حملها مارسيل على كتفه وأخرجها من الغرفة، ولم تكن تتوهم.

تشجعت وطرقت الباب، ثُمّ ارتجف قلبها حين سمعت صوته الحازم يأذن لها بالدخول. رفع عينيه عن الأوراق المبعثرة أمامه، ثُمّ قال بجمود: «إن كنت هنا لتقتليني، فافعلي ذلك بعد منتصف الليل كي لا يوافق مقتلي يوم ميلاد التوأم، وإن كنت هنا للتذمر، فأنا مشغول.»

قالت بنبرة هادئة: «أنا هنا للحديث.»

«بسرعة.»

جلست أمام مكتبه، وفركت يديها ببعضهما وهي تتأمل الأوراق بين يديه، حتّى قال من دون أن ينظر إليها: «ألن تنطقي؟»

«أنتظر أن تنهي عملك.»

«أستطيع سماعك وأنا أعمل، فقولي ما لديك فقط.»

ترددت لوهلة، ثُمّ تنهدت وقالت أخيرًا: «أنا آسفة...»

«لا أسمعك. ارفعي صوتك، فأنا عجوز وسمعي ليس جيدًا.»

قلبت عينيها في ضيق؛ فهي تعلم أنه سمعها من المرّة الأولى.

«أنا آسفة.»

«علام؟»

«لأنني رفعت السلاح عليك، وتلفظت بكلمات قاسية.»

نظر إليها: «هل هذا كل شيء؟»

«لا.»

حدقا ببعضهما قليلًا، ثُمّ استرخى الدون في مقعده ليستمع لما لديها، ولأول مرّة لم تكن روبي خائفة من إجراء محادثة معه أو النظر إلى عينيه لأكثر من ثانية.

«أريد أن أعرف لماذا تعاملني بسوء.»

«سوء؟»

«وقسوة، وفظاظة أيضًا.»

رفع حاجبًا في ردة فعل سريعة، ولاحظت طيف ابتسامة على شفتيه، لكنه لم يدم طويلًا.

«لماذا اشتريت الحضانة، وسحبت مارسيل من محبته في تمثيلية خطبتي من أندرياس؟ ولماذا وضعت اسمك بجانب اسمه في قائمة ميزان الجمجمة؟» سكتت قليلًا، ثُمّ أضافت: «لماذا أنا الوحيدة التي أراك سيئًا، ويعاتبني الآخرون؟»

رد ببرود: «لا أدين لك بإجابات.»

«أجب عن سؤال واحد على الأقل.»

طال صمته حتّى ظنت أنه لن يجيبها، فاستسلمت ونهضت لتغادر، وحينها اعترف أخيرًا: «لم أعاملك بقسوة لأنك أجنبية أو لأننا لا نريدك بيننا، بل فعلتها لأنك تذكرينني بنفسي القديمة.»

رمشت بتعجب، فأكمل الدون: «كنتُ مثلك تمامًا، وظننت أنني ما دمت أملك المال، والعائلة، والحب، فأنا سعيد، ولم أدرك أني كنت أكشف نفسي للملأ حولي كثيرًا حتّى سلبوا مني كل شيء.»

ساد الصمت لحظة، ثُمّ قال: «يجب أن تكوني قوية لتعيشي في هذا العالم يا سميث. لا تظهري ضعفك، واحفظي مشاعرك لمن يستحقها. دعي الآخرين يرون منك صورة يصعب كسرها.»

تأملته لبرهة طويلة، ثُمّ قالت: «ألا تظن أن طريقتك في التعليم سيئة؟»

ابتسم بخفوت: «لقد رفعتِ السلاح في وجهي، وهذه بداية مبشرة. ستتعلمين في النهاية.. وهناك من يؤمن بك أيضًا، مثل ابني الذي هددني بسببك.»

«ماذا؟»

«أرسل لي رسالة بعد ليلة السلاح، تضمنت خبرًا من إحدى البلدان عن ابن قتل أباه، وكتب أن الخبر يبدو مثيرًا للاهتمام، ومغريًا. رسالة بسيطة، ولكنّها مفهومة.»

اتسعت عيناها: «هل فعل هذا حقًّا؟»

أومأ الدون، ثُمّ قال: «أنت مهمة بالنسبة إليه، وهو يحميك بطريقته وبذكاء. يعلم أنه لو فعل ذلك في العلن فسيضعك في خطر، وأنا أحيي حذره.»

سكتت روبي لحظة طويلة، ولكنّها لم تتخبط بمشاعرها وأفكارها، بل كانت هادئة، وكأن اعترافات الدون أراحتها.

«لدي عمل أريد إنهاءه بسرعة قبل العودة إلى الحفل، فهل لديك شيء آخر؟»

«لا.. شكرًا.»

اتجهت نحو الباب، لكنه استوقفها حين قال: «أنتِ فرد منا، ومرحب بك بيننا دائمًا.»

ثُمّ عاد القناع الصارم إلى وجهه سريعًا، وأضاف: «ليس على الأوراق الرسمية بالطبع، لذا وافقي على الزواج من ابني في أقرب وقت. أعلنا الخطوبة على الأقل، وتزوجا خلال عام أو عامين، فهناك حدود لصبري على كون حفيدتي الأولى ابنة غير شرعية.. يجب أن تخجلا من نفسيكما.»

حدقت به لثانية، ثُمّ أغلقت الباب خلفها وهمست: «حين ظننت أنه تغير.. صدمني من جديد.»

ابتعدت بخطوات بطيئة، سارحة في أفكارها، تبتسم من غير أن تدري حتّى رفعت عينيها إلى الرجل الواقف أمامها.

«كنت أبحث عنك، فأين كنت؟»

حدقت في عينيه، وفي القلق الذي حاول دفنه تحت هدوئه. أراد جوابًا، وكان واضحًا أنه مستعد لمحاسبة أي شخص قد يكون آذاها.



«كنتُ أتجول، وأطمئن على روبن وميا.»

أومأ دارسًا ملامحها، وكأنه يبحث عن أي شيء آخر قد تخفيه، ثُمّ قال: «هل نعود إلى الحفل؟»

«ليس بعد. أريد استنشاق الهواء في مكان هادئ.»

اقترح مارسيل الصعود إلى السطح، فتبعته دون تردد، حتّى خرجت وشعرت بنسمة الهواء تلامس وجهها. كانت الإضاءة خافتة، وصوت الموسيقى يصل إليهما قليلًا، فابتسمت وهي تتأمل السَّماء وأضواء المدينة، وتمايل رأسها بنعومة مع اللحن البعيد.

«هل تشعرين بالبرد؟»

«لا. لا تبرد المكسيك كثيرًا، ولا حتّى في الشتاء.. لا تقارن بشتاء أوروبا.»

«وهل تشتاقين إلى ذلك؟»

«بالطبع، وأشتاق إلى هطول الثلج أيضًا.»

واصلت التأمل، حتّى اقترب منها مارسيل، وقال: «هلّا رقصت معي؟»

نظرت إليه، ثُمّ إلى يده الممتدة. لم تراودها فكرة، ولم ترغب في شيء آخر سوى الرقص معه هنا والآن، وهذا ما اجتمع عليه عقلها وقلبها.

وضعت يدها في يده، فقربها منه حتّى باتت تستنشق عطره وتشعر بدفئه، ثُمّ تركته يقود الرقصة، وتحركت معه على الأنغام بنعومة.. ولم تكن عيناه تفارقانها هذه المرة.

رفع يديها برفق حتّى استقرتا على كتفيه، وشعر باضطراب أنفاسها لثانية عندما استقرت يداه على خصرها، لكن جسدها استرخى تدريجيًا، واستسلم له.

تحركا ببطء، حتّى بعد توقف الموسيقى، وكأنهما يرقصان على لحن لا يسمعه سواهما، ثُمّ حرّك مارسيل يدها اليمنى من كتفه إلى صدره وهمس: «هل تشعرين بقلبي ينبض تحت كفك؟ يكاد يحطم عظامي، ولكني رغم ذلك أدمن هذا الألم بسببك.»

لم تقل روبي شيئًا، لكنّها توقفت عن الحركة، وتأملت عينيه الخضراوين، وكيف انخفضتا إلى شفتيها لوقت طويل.

امتزج ارتباكها بمشاعر أخرى، وهمست: «هل هناك شيء تريده؟»

رفع عينيه إليها مباشرة: «لو أخبرتك، فهل تسمحين لي؟»

ازدردت ريقها بخفة، ثُمّ همست بصعوبة: «ربما.»

لم تصدق الكلمة التي نطقت بها لوهلة، لكنّها تركت التفكير ونسيت الخوف والتردد، وجعلت مشاعرها تقودها فقط.

«هل يمكنني تقبيلك يا روبي سميث؟»

شعرت بأن قلبها أصبح أثقل من أن يحتمله جسدها، واندفعت مشاعرها إلى السطح دفعة واحدة. أغمضت عينيها حين لمس عنقها، وشدت قبضتها المرتعشة، ثُمّ انتظرت فقط، حتّى طبع مارسيل قبلة رقيقة على كلتا عينيها.

فتحتهما ونظرت إليه باستغراب خافت، فابتسم وقال بصوت غمره الحنان: «إلى أن تكوني مستعدة، ولا توجد في قلبك ذرة خوف أو شك.»

زفرت بعمق، مستسلمة لدفء كلماته، وامتنّت لتلك القبلة، ولما حملته من طمأنينة وأمان واحتواء كانت في أمس الحاجة إليه.

همّت بقول شيء، ولكن رن هاتفه فجأة، فتراجعت إلى الخلف، فيما شتم هو بضيق، لكن ملامحه سكنت حين رأى المتصل؛ كانت شارلوت 013 سابقًا، ولم تكن لتتصل لو لم يكن الأمر مهمًا.

اعتذر لروبي وابتعد بضع خطوات فقط، ثُمّ أجاب الاتصال ببرود: «نعم؟»

قالت بصوت مرح: «فزاعة! كيف حالك؟»

«لماذا تتصلين يا شارلوت؟»

«لأن لدي أخبارًا مهمة.. لقد قتلت كل الناجين من مشروع تشرشل، عدا نايت؛ لأنني لم أستطع إيجاده بعد، ولكني حققت عنه كما طلبت، ووجدت شيئًا مثيرًا للاهتمام، فكم ستدفع لقاء ذلك؟»

قال مارسيل بجفاء: «ماذا وجدت؟»

«على رسلك، وأجبني أولًا. بماذا شعرت عندما رأيته لأول مرة؟ ما هي الشكوك التي ساورتك حياله؟»

لاحظت روبي كيف احتدت ملامح مارسيل، وشد على هاتفه، فتحركت دون تفكير، ووقفت بقربه.

أخذ نفسًا خفيفًا، ثُمّ قال بصوت منخفض: «لقد ذكرني به للحظة..»

طال صمت شارلوت، ثُمّ قالت وقد تبدلت نبرتها من المرح إلى الجد: «وجدت وصية تشرشل في أحد المنازل التي يملكها، وكتب هذا السر.. نايت هو ابن جاريد إيمان.»

أغمض مارسيل عينيه، وتمالك أعصابه، ثُمّ قال: «فهمت.»

«ألست متفاجئًا؟»

تجاهل سؤالها: «هل هذا كل شيء؟»

«لا، فلقد كتب تشرشل المزيد.»

اتسعت عينا مارسيل حين استمع إلى كلماتها التالية، وتسللت كل كلمة إليه كالجذور الشوكية التي نمت من عمق الماضي المدفون، والتفت حوله لتقيده من جديد.

ما إن أنهى المكالمة، حتّى اندفعت روبي القلقة وسألته: «ما الأمر؟» أضافت عندما طال سكوته: «لا يعجبني وجهك، فما الذي حدث؟»

تنهد تنهيدة طويلة، ثُمّ رفع عينيه نحوها وقال بنبرة حاول إبقاءها هادئة: «كانت هذه شارلوت 013.»

أومأت روبي سريعًا: «وما الذي قالته لك؟»

تردد مارسيل قليلًا، لكنه رأى القلق في عينيها، ولم يشأ أن يخفي عنها شيئًا ويجعلها تغرق في دوامة التفكير.

«هل أخبرك روبن من قبل عن صبي يدعى نايت؟»

عقدت حاجبيها وهي مشوشة: «ذكره لي مرّة أو مرتين عندما تحدثنا عن حياته في المقر، وأنت قلت إنك رأيته في جزيرة تشرشل ليلة الهجوم، صحيح؟»

«صحيح، ولكني لم أخبرك بالتفاصيل.»

عادت صورة نايت إلى ذهنه؛ على الفراش، تغطيه دماء متناثرة حوله، وتعلو وجهه نظرة تمكنت من التأثير عليه.



«شعرت بشيء غريب عندما رأيته في الجزيرة. لقد ذكرني بجاريد، لذا طلبت من شارلوت أن تتحرى عنه، واتضح أنه ابنه، وكان تشرشل يعلم بذلك، وذكر هذا السر في وصيته.»

همست بصدمة: «جاريد لديه ابن؟»

تأمل عينيها بوجع؛ كانت الحقيقة الكاملة مؤلمة له، لكنّها ستؤلمها أكثر لا محالة.

قال بهدوء أشد: «هذا ليس كل شيء يا روبي.»

نظرت إليه بقلق متصاعد: «ما الذي تقصده؟»

خفض عينيه للحظة احتاجها لينتزع الكلمات من داخله، ثُمّ قال: «قالت إنه حتّى لو أحرقت القصر، وكل ذكريات الماضي، فسأظل عالقًا مع لوحة ليلة النجوم إلى الأبد. سأراقبها تكبر وتنمو أمام عيني.. في منزلنا.»

ارتعشت روبي لثانية قبل أن تصدمها الحقيقة وتشهق شهقة عالية. سدت فمها وهي تنظر إليه بفزع، فأضاف: «روبن ونايت توأم، ويجهلان ذلك.»

هزت رأسها باستنكار، وخرجت كلماتها بصعوبة: «لا.. لا! هذا.. مستحيل! لا بد أنها تكذب!»

«إنها لا تكذب.»

«يا إلهي.. يا إلهي!»

تراجعت إلى الخلف واحتضنت جسدها المرتجف، محاولة منعه من الانهيار تحت وقع الصدمة، بينما أسند مارسيل يديه على السور، وحدق

في السَّماء التي بدأت تتعرج فجأة، وتمتزج مع أضواء النجوم، والمدينة، وتتحول إلى اللوحة التي لن ينساها أبدًا.

أغمض عينيه، وتنفس بانتظام، رافضًا أن يضعف، وأن يعود إلى نقطة البداية بعد أن قطع الكثير. لن يسمح بذلك، بل سيصمد، ويستمر بالمضي قدمًا.

«سأتفهم..»

التفت إليها فورًا، فمسحت دموعها، وتلطخت المساحيق تحت عينيها، ثُمّ اقترب منها وسأل: «ما الذي تقصدينه؟»

أجبرت الكلمات على الخروج رغمًا عنها: «سأتفهم لو أردت الرحيل وتركنا.»

أجفل: «ماذا؟» ثُمّ هز رأسه بحيرة: «ما الذي تتحدثين عنه؟ لن أرحل وأترككم.»

لمست يده وشدت عليها: «لا أريدك أن تعاني يا مارسيل. لا بأس. يمكننا ترتيب..»

قاطعها بانفعال: «لا تكملي!» لمس كتفيها، ثُمّ قال بنبرة جادة: «أنا بخير، ولن أرحل لأي سبب كان، لذا توقفي عن التفكير في ذلك.»

«ولكنك ستعيش في عذاب ستتذكره كلما نظرت إلى روبن.»

«وماذا لو تذكرته؟ لا أكترث. لم يعد جاريد يملك سلطة علي. سأعتاد على وجود روبن، وكلنا سنعتاد على هذه الحقيقة، وستمضي الحياة شئنا أم أبينا.»



نشجت روبي، ثُمّ اندفعت وعانقته بقوة، فطوق ذراعيه حولها وضمها إليه أكثر؛ كلاهما يحاول تخفيف ثقل الحقيقة على الآخر، ومداواة جرح لم يسبباه، لكنهما مضطران إلى حمله معًا.

وبعد لحظات، ابتعدت عنه ونظرت إليه بوجه جاد، وكأنها قد فكرت، وداست على مشاعرها، ثُمّ اتخذت القرار الأخير!

«لا يمكن لروبن أن يعرف أي شيء عن هذا.»

نظر إليها مليًا: «ماذا لو ظهر توأمه في المستقبل؟»

ردت دون أن تتبدل ملامحها: «سنتصرف حينها كما ينبغي. لن نخبره بأي شيء، وسنحمل عبء هذا السر معنا إلى القبر.»

أومأ مارسيل فقط، ثُمّ اتجهت روبي إلى الحمامات وعدلت مساحيقها وشعرها قبل العودة معه إلى الحفل وكأن أي شيء لم يكن، وكأنهما لا يحملان سرًا خطيرًا جدًا.

وجدا القوة لتزييف الابتسامات، وبدء المحادثات، والاستماع إلى الآخرين. وجدا القوة لتناول العشاء مع الدون فيرناندو وعائلته على طاولة واحدة، ثُمّ انسحبا بهدوء حين سنحت الفرصة، وعادا إلى المنزل.

وقفا بعد مغادرة الخادمة، وتأملا ميا وروبن؛ كانا يتشاركان بطانية واحدة، وكانت ميا تسند رأسها على كتفه، بينما هو يسند رأسه إلى الخلف، وفي يده كتاب مفتوح عن عالم البحار.

بددت براءة المشهد جزءًا من العبء الذي يحملانه، ثُمّ نبح روكو وأيقظهما، ففركت ميا عينيها بنعاس، ومدد روبن ذراعيه بتعب.

ابتسمت روبي بصدق وانحنت لتحتضنهما معًا، بقلب أثقل وأكثر حنانًا من ذي قبل، ثُمّ حمل مارسيل ابنته التي تشبثت به وقبّلت خده، وأخذها إلى غرفتها.

سألت روبن بلطف: «هل حظيتما بوقت ممتع؟»

أجابها بابتسامة صغيرة: «أجل.»

مسحت على وجنته: «هذا جيد.» ثُمّ أمسكت بيده: «هيا، فلقد حان وقت النوم.»



استلقت روبي على فراشها، وتأملت السقف لساعات دون أن يباغتها النوم؛ تدور الأفكار داخل رأسها دون استراحة، ولا تستطيع إنكار حاجتها إلى مارسيل أن يأتي ويضع حدًا لذلك.

التقطت هاتفها وحدقت في الشاشة. لم يتراسلا هذه الليلة، وتساءلت ما الذي يفعله حاليًا؛ تريده أن يتحدث إليها بشدة، كي تتوقف عن التفكير قليلًا.

تنهدت تنهيدة عميقة، ثُمّ بادرت بمراسلته لأول مرة، وكتبت: «هل أنت نائم؟»

جاءها رده خلال ثوانٍ: «أنا في المطبخ.»

نهضت بعد قراءة الرسالة، ولفت رداء نومها حولها، ثُمّ هبطت إلى الأسفل، واجتمعت به في المطبخ.

سألت بصوت منخفض: «ما الذي تفعله هنا؟»

«لم أستطع النوم، لذا أحضر شاي البابونج، وأنت؟»



تنهدت بتعب: «لم أستطع النوم أيضًا. عقلي لا يتوقف عن التفكير.»

نظر إليها لحظة: «ولكن..؟»

أدركت ما يقصده، فأومأت قائلة: «سنعتاد.»

سكب لها كوبًا، فجلست على الكرسي، وجلس إلى جوارها، يحتسيان الشاي، ويأملان أن يساعدهما على الاسترخاء.

دفنت روبي السر في باطن عقلها، وحاولت إبقاءه هناك، ثُمّ قالت: «أريد الحديث معك عن شيء.»

امتثل لمبادرتها، وترك التفكير بدوره أيضًا: «أنا أستمع..»

«أريد البحث عن عمل في روضة قريبة أو ما شابه. أحتاج إلى المال من أجل مصاريفي، وكذلك لروبن وميا أيضًا.»

وضع كوبه برفق، ثُمّ استدار إليها بالكامل ومد يده: «هل تسمحين لي؟»

أومأت ومدت يدها إليه، فاحتضنها بين كفيه وقال: «أعلم أنك ستعترضين على ما سأقوله، ولكن اسمعيني إلى النهاية. لا أريدك أن تقلقي بشأن المال أو أي مصاريف أخرى، لأني سأتكفل بها كلها.»

«لا. لا أستطيع الاتكال عليك، وروبن ليس ابنك و...»

أغمضت عينيها وكررت بهمس: «سنعتاد، سنعتاد، سأتوقف عن التفكير.»

استمد منها القوة وركز في الحاضر، ثُمّ قال: «قد لا يكون ابني، ولكنه ابنك، وأنت عائلتي. أنا من سيعمل ويعيل هذه العائلة.. لأنك ستنشغلين بالدراسة.»

ترك يدها بلطف وابتسم، فعقدت حاجبيها وهي تشاهده ينهض ليحضر البريد، ثُمّ يعود إليها وفي يده منشور خاص بإحدى الجامعات.

«تواصلت معهم وقمت بإرسال أوراقك، وقبل أن تسألي، ليس صعبًا أن أحصل على أوراقك وشهاداتك. على كل، لم أرد أن أخبرك إلا بعد أن يتم قبولك، ولكننا نحتاج أن ننشغل عما حدث اليوم.»

رمشت بعدم تصديق: «هل أنت جاد؟»

«بالطبع يا روبي.»

تصفحت المنشور بدهشة: «هذه أفضل جامعة في العاصمة. هل سيقبلونني؟»

«لدي يقين بذلك، وإن رفضوا، فسنجرب مكانًا آخر.»

غمرتها مشاعر الفرح، ثُمّ قالت بابتسامة ممتنة: «شكرًا لك. هذا يعني الكثير لي.»

«بل شكرًا لك، وأنا أريد مقابلًا هذه المرة، من فضلك.»

«ما هو؟»

مال نحوها قليلًا، ثُمّ قال متأملًا عينيها: «اخرجي معي.. في موعد.»



35: موعد

«سحقًا، سحقًا، سحقًا.. ماذا أرتدي؟ آه، وما الذي قصده بشيء بسيط ومريح؟ وماذا سأفعل بشعري؟ وإلى أين سيأخذني أصلًا؟»

تأففت روبي للمرّة الألف وهي تبعثر الملابس فوق فراشها، حتّى تقرر المناسب لموعدها الأول مع مارسيل.

مضى أسبوع منذ أن طلب منها الخروج معه، وبدا منشغلًا بالتخطيط أو العمل. لم تعرف السبب بالضبط، ولكنه حدد اليوم، وأخبرها أن ترتدي ملابس بسيطة ومريحة فقط، مما جعلها تشعر بالهلع، وتغرق في بحر من الخيارات.

وفي النهاية، وبعد صراع طويل مع خزانتها ونفاد صبرها، ارتدت قميصًا قطنيًا بأكمام طويلة، وبنطال جينز. تركت شعرها منسدلًا، واكتفت بمساحيق تجميل خفيفة، ولم ترتدِ الكعب العالي لأنه أوصاها أن ترتدي حذاءً رياضيًا مريحًا أيضًا.

هبطت إلى الطابق السفلي، لتراه يقف وسط صالة المعيشة، يرتدي قميصًا زيتي اللون يرسم جذعه، وبنطالًا أسود.

وقفت ميا أمامه وذراعاها معقودتان أمام صدرها في احتجاج درامي، ثُمّ هتفت: «لماذا لا يحق لي الانضمام إليكما في الموعد؟ أشعر بالملل وأريد الخروج!»

«ستذهبين مع روبن وروكو إلى جدك.»

تبدل احتجاجها إلى فرح بسرعة: «حقًا؟ لقد اشتقت إلى جدي كثيرًا! وعمتي وعمي وكذلك فيرونيكا، فهي تخبز أطعم مادلين في الحياة. سوف تحبها يا روبن.»

عادت تلك الفكرة لتطرق رأس روبي؛ ستقلّهما الجليسة إلى منزل الدون فيرناندو، لأنه لم ير حفيدته منذ قدومهم إلى العاصمة بسبب انشغاله، كما أنه طلب حضور روبن أيضًا، ولم تستطع ألا تغرق مرّة أخرى في القلق والتفكير حتّى بعد أن طمأنها مارسيل بأن كل شيء على ما يرام، وأن والده يريد أن يتعرف إلى روبن عن قرب فقط.

«ستأخذني في موعد لاحقًا يا بابا. هذا اليوم لك ولماما، اتفقنا؟ خصص يومًا لي.»

نقر على أنفها بنعومة: «حاضر.»



وصلت الجليسة بعد لحظات، قامت روبي بتوديع ميا أولًا، ثُمّ روبن الذي حمل حقيبته الصغيرة وكتابه، ولم تستطع أن تعرف إن كان متوترًا أم لا؛ إذ كان بارعًا في إخفاء مشاعره عندما رغب في ذلك.

«إن حدث شيء وأردت الرحيل، فاتصل بي. حسنًا؟»

أجابها بهدوئه المعتاد: «حسنًا. لا تقلقي، واحظي بوقت ممتع يا روبي.»

قبّلت رأسه واحتضنته: «اعتنِ بنفسك، وبميا.»

«حاضر.»

لوحت ميا بحماس وهي تبتعد مع الجليسة، ثُمّ هتفت: «استمتعا

بوقتكما! أحبكما.. وتزوجا، سيكون ذلك رائعًا.»

أجفل روبن واسترق نظرة إلى روبي التي أشاحت بوجهها في حرج، ثُمّ لوحت بتوتر خفيف حتّى أُغلق الباب وبقيا وحدهما.

«هل سيكون روبن بخير حقًا؟»

«أجل.»

عقدت ذراعيها، ولم يبد عليها الاقتناع الكامل: «لماذا يريد التعرف إليه؟ ما غايته؟ هل أخبرك بشيء؟ هل يعقل أنه عرف؟ أو شك بشيء؟»

قال: «إنه يريد التحدث معه لا أكثر، وأن يرسم حدودًا واضحة لآل غارسيا، بما أنه ابنك رسميًا.»

صمتت روبي محدقة في الفراغ؛ تتوالد أفكارها من جديد، فتقدم مارسيل أكثر.

«هل يمكنني لمس كتفيك؟»

أومأت باستغراب، فوضع يديه على كتفيها، وأخذ يمرر إبهاميه برفق عليهما حتّى شعر بعضلاتها المشدودة تسترخي.

«هذا اليوم لنا، وكل شيء سيكون على ما يرام. أريدك أن تسترخي فقط، فهل يمكنك فعل ذلك؟»

صحبت نفسًا عميقًا، ثُمّ زفرته ببطء، فقال بابتسامة: «بالمناسبة، أحسنت اختيار الملابس.»

هزت كتفها بخجل خفيف: «لم أعرف ماذا أرتدي، فلم تقل أي شيء عن وجهتنا.»

«أريد أن أفاجئك.»

ردت بتهكم: «بدأت أتفق مع لورينزو في كره المفاجآت.»

«إن أردتني أن أخبرك حتّى ترتاحي..»

قاطعته وهي تهز رأسها: «لا بأس. لنذهب.»

رافقته حتّى موقف السيارة وهي تستحضر الهدوء، ثُمّ صعدت بعد أن فتح لها الباب وحمى رأسها كالعادة.

أحكمت حزام أمانها، واسترخت في مقعدها جيدًا، ثُمّ قالت: «متشوقة لمفاجآتك.»

«آمل أن تعجبك خطتي المتواضعة لليوم. سنتوجه الآن إلى المحطة الأولى.»

اكتفت بإيماءة وراقبت الطريق بلهفة خفية، تتساءل عن أول وجهة، وماذا سيفعلان فيها. تتأمل المباني والطرقات بابتسامة صغيرة حتّى ركن مارسيل سيارته أمام متجر كتب وقعت في حبه حالما دخلته.

أغراها تصميمه المعماري؛ رفوف الكتب الخشبية التي ترتفع حتّى السقف، وأكوام الروايات في كل زاوية، ورائحة الورق، وعبير المسك الخفيف الذي فاح في الأرجاء، وحتّى الإضاءة التي جاءت على هيئة أوراق مبعثرة كأنها معلقة في الهواء.

«ما رأيك؟»

أجابت بدهشة: «كيف وجدت هذا المكان؟»

أجاب ببساطة: «الإنترنت.. هيا انطلقي.»

قال بملامح لينة: «لدينا ساعتان قبل الذهاب إلى وجهتنا التالية. اشتري قدر ما تشائين من الروايات، فلدينا مساحة كبيرة في الشقة، وأريدك



أن تملئيها.»

«هل أنت جاد؟ لأنني لن أتراجع!»

«لا تتراجعي، واشتري كل ما تريدينه.. متلهف لمشاركتك القراءة.»

شعرت بحرارة في وجنتيها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة، أربكته تمامًا، فتنهد تنهيدة عميقة، ثُمّ تبعها وهو يدفع عربة متوسطة الحجم.

كانت تتنقل بين الكتب بحماس حقيقي، تقرأ النبذة، وتناوله الروايات على الفور، ثُمّ توقفت عند سلسلة شهيرة، وحملت كل الأجزاء دفعة واحدة لتضعها في العربة.

نظرت إليه بتردد وسط تصفحها لإحدى الروايات، ثُمّ قالت: «أشعر أنني أستغلك، ولست مرتاحة.. نوعًا ما!»

«أنا مستعد لأن أوقع على عقد لو أردتِ ذلك.»

ضحكت ضحكة خافتة، وعادت إلى الغوص بين الرفوف براحة أكبر، ثُمّ حمل آخر كتاب أضافته باهتمام، وتأمل غلافه الأخضر وجناح الفراشة الجميلة في المنتصف.

«الحب، الخوف والصمت.. اسم مميز. عن ماذا يتحدث؟»

تنهدت بحب وقالت متأملة الكتاب: «وارويك.»

«ومن يكون؟»

«فارس أحلام كل فتاة في هذا العصر، فلا تغر.»

رد بلا مبالاة: «لن أغار من شخصية خيالية.»

وضع الكتاب بعنف خفيف، واستمر بدفع العربة، حتّى ملأتها بسلسلة أخرى لكاتبة تحبها.

«عن ماذا تتحدث سلسلتها الجديدة؟»

شرحت ببساطة: «جنيّ يقع في حب بشرية، تكونت بينهما رابطة سحرية، لكنّها تكرهه لأنه تسبب في دمار قريتها.»

أومأ: «مثير للاهتمام.»

ردت بنبرة ساخرة: «لا تكذب، فأنا أعرف أن هذه القصص لا تروق لك.»

«ولكنّها تصبح ممتعة حين أقرأها معك.»

التفتت إلى الأمام بخجل، ثُمّ وقفت معه في طابور الحساب ومعهما عربة مليئة بالكتب، إلى جانب الفواصل، وملصقات ملونة للملاحظات، لدرجة أن بعض الفتيات شعرن بالغيرة منها.

قال المحاسب بنبرة عفوية: «لا بد أن رفيقك يحبك كثيرًا يا آنسة.»

أخفت اضطرابها خلف ابتسامة مجاملة، ثُمّ قال مارسيل: «هل أوقع أوراقًا أخرى؟»

«لا يا سيدي. ستصلك هذا المساء.»

«جيد. أريد تلك السلسلة معي فقط.»

همست روبي باستغراب: «لماذا؟»

«سترين.»



صعدت معه إلى السيارة وكررت سؤالها بفضول أكبر: «لماذا أخذت السلسلة الأخيرة معك؟»

«ألن تنتظري حتّى نصل إلى وجهتنا التالية وأفاجئك؟»

ردت وهي ترفع ذقنها بتكبر مصطنع: «لا.»

هز رأسه باستسلام، ثُمّ قال: «سأعفيك من التفاصيل، ولكني رتبت لقاءً قصيرًا مع الكاتبة التي تحبينها.»

شهقت بدهشة، ثُمّ قالت: «لن أصدقك حتّى أراها.»

«حسنًا.»

استمر مارسيل بالقيادة حتّى وصلا إلى مقهى لطيف، وشاهدت روبي كاتبتها المفضلة بانتظارها حقًا. غلبها التوتر، ولم تستطع الحراك حتّى دخلت وقدمها إليها.

جلس إلى طاولة قريبة، تاركًا لهما المساحة. ظل يراقب روبي تسترخي تدريجيًا، حتّى بدأت الحديث باندماج عن الكتب والقصص، إلى درجة فاجأت الكاتبة، وجعلتها تغوص في حوار معها لساعتين متواصلتين.

ملّ مارسيل الانتظار، على الرغم من أن الوقت كان يداهمه؛ كان عليه أن يصل إلى وجهتهما الأخيرة قبل غروب الشمس، لكن رؤية الشغف في عيني روبي استحقت الانتظار أكثر.

ودعت كاتبتها بعد أن تبادلتا أرقام الهواتف، ثُمّ حملت الكتب وكأنها كنز وخرجت من المقهى قائلة: «سيصاب زملائي في نادي الكتب بالغيرة. لم أحصل على توقيعها فحسب، بل ألهمتها فكرة لكتابها القادم.»

صعدت إلى السيارة، ثُمّ نظرت إليه بابتسامة ممتنة عنـــدما جلس

وأحكم حزامه: «لقد أخبرتني أنك تواصلت مع شركتها ورتبت لكل شيء.. فشكرًا لك. أسعدني هذا اللقاء حقًا.»

«بل شكرًا لك.. وسعادتك هي ما أسعى إليه.»

حاولت أن تخفي توترها بسؤال: «إلى أين سنذهب الآن؟»

«سترين.»

قالت بتهكم: «يبدو أنني سأسمع هذه الكلمة كثيرًا اليوم.»



قاد مارسيل سيارته بعيدًا عن شوارع العاصمة المزدحمة، حتّى بدأت روبي تلمح بيوتًا باذخة، ذات تصاميم حديثة، لا يملكها سوى الأثرياء.

وصلا إلى أرض واسعة تمتد فوق تل منبسط، ورأت خيمة مجهزة بوسائد ومفرش مريح للجلوس، يتدلى من فوقها سلك صغير من الأضواء، وكان هناك موقد نار متنقل للتدفئة أو الشواء، وحافظات تبدو للمشروبات والطعام، بالإضافة إلى حجرة حمام متنقلة، على بعد مسافة مناسبة.

تأملت ما حولها بانبهار، ثُمّ التفتت عندما قدم لها باقة ورد صغيرة، مع علبة شوكولا فاخرة، وقال: «هدية ترحيب بسيطة.»

أخذت الباقة واستنشقت رائحة الورد، ثُمّ سألت بدهشة: «هل فعلت كل هذا يا مارسيل؟»

«هل أعجبك؟»

أجابت بصدق: «كثيرًا..»

«سعيد لسماع ذلك. هل آخذك في جولة سريعة؟»



«نعم.»

ضمت باقة الورد ومشت إلى جانبه، فأشار إلى المكان وهو يقول: «لدينا ألعاب مثل البوكر والشطرنج وغيرها. جهزت سينما في الهواء الطلق تضم أفلامك المفضلة، وأحضرت روايتين من بين الكتب التي تملكينها في حال رغبت في القراءة. هناك أيضًا بعض الوجبات الخفيفة والمشروبات، وسأعد لنا العشاء لاحقًا.»

«كيف فكرت في كل هذا، ومن ساعدك؟»

«أعلم أنك تحبين الخروج في الهواء الطلق، وأردت فعل شيء مميز، لذا بحثت عن أفكار، وأضفت بعض الأمور، ثُمّ أرسلت التفاصيل إلى شخص أعرفه ليتولى التنفيذ.»

أطبقت على شفتيها لتمنع نفسها من البكاء شدة التأثر، ثُمّ سألته عن شيء آخر لتشغل نفسها: «ماذا ستطبخ؟»

«كنت أفكر في شواء اللحم وإعداد البرجر، مع الذرة المشوية بالبهارات.»

«ومتى ستبدأ؟»

«ليس الآن، فبحسب التعليمات التي قرأتها، يجب أن نجلس أولًا، ونشاهد الغروب، مع تناول وجبة خفيفة.»

ضحكت برقة، ثُمّ جلست بجانبه على المقعدين اللذين وضعهما في المقدمة. كانت الإطلالة ساحرة بحق، والجو منعش بلا ضجيج ليفسد المزاج.

تناولت روبي لوحًا من الشوفان بالشوكولا، فيما أخذ مارسيل لوح البروتين، فقالت بسخرية: «لقد تذكرت الغواصة للتو.»

رد بتهكم: «ذكريات التذمر.»

«هل تعلم أنني لم أتناول هذه الأشياء منذ ذلك الوقت؟»

«هل نسيت أنها أنقذتنا من الجوع المميت؟ يجب أن تكوني ممتنة.» ضيق عينيه، ثُمّ قال: «وعلى ذكر الموضوع.. هل أخبرت ميا أنني من عبث بالبطارية؟»

«حقًا.»

«كنت أحافظ على صورتي، وضياعنا في الجزيرة كان بسببك. كان علي أن أشتري يختًا أو قاربًا، صحيح؟»

رفعت ذقنها بغرور: «صحيح، ولم تقبل أن نسطو على واحد.. آه، كم كنت أرغب في ضربك حينها يا ما غسيل!»

فرك وجهه باستسلام: «يبدو أني سأعيش مع هذا الاسم إلى الأبد. تمنيت لو أنك نسيت.»

«لن أنسى.»

ضحكت بصوت عالٍ وهو يراقبها، ثُمّ رقّت ملامحها وهي تنظر إليه، قبل أن تقول: «لقد كانت تلك الرحلة فريدة من نوعها. عشنا فيها لحظات مميزة رغم الأحزان.»

«وسنعيش ما هو أفضل من تلك اللحظات يا روبي.»

همست: «أجل.. سنفعل.»

التفتت تتأمل السَّماء وقد تلوّنت بلون ناري دافئ، بينما اشتدت أضواء مباني العاصمة شيئًا فشيئًا، حتّى تحول المشهد أمامها إلى لوحة جميلة، جعلتها تتمنى لو أن روبن وميا معهما ليريا المنظر.



أظلم المكان قليلًا بعد الغروب، لكن خيوط الضوء والمصابيح الصغيرة أضاءت الخيمة وما حولها، ومنحتها النار دفئًا جعل كل شيء يبدو أكثر حميمية.

بدأ مارسيل بتحضير العشاء، بينما تولت روبي تجهيز شاشة العرض واختيار الفيلم، ثُمّ بقيت تراقبه للحظات، حتّى قال دون أن يرفع عينيه: «هل يعجبك ما ترينه؟»

أجابت بتهكم: «نعم. يبدو شوي الذرة ممتعًا.»

ضحك، مسترقًا نظرة إليها قبل أن يكمل، وبعد دقائق أخرى، جهز طبقين متكاملين، فجلسا إلى الطاولة وبدآ بتناول الطعام، وسط نسيم رقيق، وصوت نار خافت.

مسحت فمها بالمنديل: «يجب أن تصبح طاهيًا يا مارسيل.»

تظاهر بالتفكير: «طاهٍ وخبير تجميل، وسائق سباق سيارات وعارض أزياء.. لقد احترت.»

«أنت الملام على ذلك. هل يجب أن تتقن كل شيء؟»

وضع يده على قلبه: «أعتذر.»

ساعدته روبي لاحقًا في توضيب الطاولة وتنظيفها، ثُمّ جلست حين رتب مكان جلوسهما أمام الشاشة، وأحضر الحلوى المفضلة لديها.

«هل تشعرين بالبرد؟»

«نوعًا ما.»

دخل إلى الخيمة وأحضر لها بطانية، فلفتها حولها، ثُمّ نظرت إليه ببراءة: «ماذا عنك؟ ألن تشعر بالبرد؟»



«سأتحمل.» ثُمّ حدق في عينيها قليلًا قبل أن يتشجع ويسأل: «إلا لو سمحتِ لي بمشاركتك البطانية.»

التفتت إلى الشاشة لتخفي ارتباكها، ثُمّ هزت كتفها بعفوية: «لا بأس. يمكنك.»

اقتربا من بعضهما أكثر وتقاسما البطانية، ثُمّ بدأ الفيلم الكوميدي الذي اختارته، وأنساها توترها. ضحك مارسيل على بعض المشاهد، ولكن ليس بقدر ما ضحك على تعليقاتها.

«سأذهب إلى الحمام.»

أومأت، وأخذت قطعة حلوى أخرى، ثُمّ تابعت الفيلم، لكن ليس بالحماس ذاته؛ وجدت نفسها تسترق النظر بين الحين والآخر نحو الحجرة البعيدة، ولم تدرك كم كانت محبطة حتّى عاد وجلس بجانبها من جديد.

«ما رأيك أن نوقفه ونلعب؟»

ابتسمت بغرور: «أتَلعب البوكر، وترى ما إن كنت بارعًا كما يقولون؟»

«أنا بارع بالفعل، فاحذري.»

جلسا داخل الخيمة، وبدأت الجولة الأولى بأموال مزيفة. حاولت روبي التركيز، لكنه تغلب عليها في كلا الجولتين، ثُمّ انتصرت في الثالثة، ولم يدم احتفالها طويلًا؛ إذ شعرت بالريبة فجأة.

«أجعلتني أفوز، أليس كذلك؟»

أطبق شفتيه بملامح مذنبة: «هل كان الأمر واضحًا إلى هذه الدرجة؟»

«كيف تجرؤ؟ لا أحتاج إلى شفقتك.»

«خشيت أن تُحبطي إن خسرت مجددًا. هل كان يجب أن أفوز؟»



رفعت ذقنها بتكبر: «كان عليك أن تخسر في كل الجولات.»

«على كل، لنلعب أونو، ليس بها خداع، وأراهن أنك لم تلعبها من قبل، مما يعني نقطة لصالحي.»

قرأ مارسيل التعليمات قراءة سريعة وترسخت في عقله على الفور، ثُمّ وزعت روبي الأوراق وبدأت أول جولة بسلام، حتّى تصاعد حماسها، وعدلت جلستها.

وضعت الأوراق الواحدة تلو الأخرى بسرعة وهي تقول: «عكس الدور، لحظتي، دورك، أونو، واسحب اثنين، وفزت!»

اعترض على الفور: «لا يمكنك إنهاء اللعبة بهذه الورقة.»

«بل يمكنني.»

«ولكن مكتوب هنا أن..»

فقاطعته بنبرة حاسمة: «لا نلعب وفقًا للقوانين المستحدثة. لقد فزت عليك وانتهى الأمر.»

أجفل ورفع يديه باستسلام: «حسنًا، حسنًا، أنا آسف.»

قللت من اندفاعها حتّى هدأت، ثُمّ تنحنحت وقالت: «لنلعب جولة أخرى.»

كتم ضحكته ولعبا جولة أخرى انتهت بفوزه، حتّى عندما حاولت أن تخدعه وتغش فيها.

«فزت بنزاهة.»

«ولكني فزت عليك في جولتين. لا أزال متقدمة عليك.»



«هل نتابع اللعب لنحسم الأمر؟»

تنهدت بتعب: «لا. لقد اكتفيت.»

رتب الألعاب جانبًا، ثُمّ قال: «هل ترغبين في شرب الكاكاو؟ جلبت مكوناته في السلة، وكنت أنوي أن أطلب منك تحضيره.»

«وهه، هذا رائع.»

نهض لتجهيز المكونات، بينما كان هو يرتب المكان، ليتخلص من المهملات في كيس بلاستيكي وضعه جانبًا.

اهتز هاتفه برسالة، فسحبه من جيبه وقرأها، ثُمّ نظر إلى روبي التي تحرك الشوكولا فوق النار بتركيز، وناداها.

«روبي؟»

«لقد تلقيت رسالة من الجامعة.»

شهقت شهقة قصيرة، وتركت ما بيدها فورًا، ثُمّ اقتربت وسألت بتوتر: «وماذا قالوا؟»

لم يرد مارسيل أن يتلاعب بأعصابها، فقال مباشرة: «مبارك، لقد تم قبولك في برنامج الدبلوم.»

هتفت بعدم تصديق: «أتم قبولي؟»

أومأ بابتسامة: «أجل.»

صرخت وقررت أن تحضنه بشدة فرحتها، فشدها إليه، واحتضنها حتّى هدأت، وابتعدت لتنظر إلى وجهه المبتسم.

«سيكونون حفاة لو لم يقبلوا بك يا روبي.»



تأملته بابتسامة، ثُمّ تذكرت الشوكولا وعادت إليها بسرعة، لتشغل وتحتوي مشاعرها.

حضرت له كوبه بعناية، ثُمّ جلسا إلى جوار بعضهما، وتصفحت التخصصات المتاحة من هاتفه.

«يمكنك دراستها عن بُعد لو أردت ذلك أيضًا.»

«أفضل أن أكون منتظمة.»

«حسنًا. ماذا ستختارين؟»

هزت كتفها بحيرة: «لا أعرف، هناك عبارات قليلة ولكنّها معبرة.. أظن أن تخصص إدارة الأعمال جيد.»

قال وهو يطالع الشاشة معها: «هناك التسويق أيضًا، والمحاسبة.»

تابعت التصفح حتّى توقفت فجأة: «مهلًا.. كلها برسوم باهظة.»

نظرت إليه، فإذا به يعقد حاجبيه بشكل طفيف.

«لا يا مارسيل!»

تنهد بخفة: «لقد تحدثنا عن هذا الأمر.»

«أعرف، ولكني لا أستطيع أن أجعلك تتحمل كل هذه التكاليف.»

«هذا أقل ما أستطيع فعله من أجلك يا روي.»

همست باضطراب: «ولكن هذا كثير..»

«لا تستخفي أكثر، وإياك أن تشكي في ذلك يومًا.»

كانت كلماته دافئة على قلبها، مما جعل الدموع تسيل إلى عينيها رغمًا عنها، لكنّها رمشت لتجففها ونظرت إلى الشاشة مجددًا.



«أتعرفين فكرة قد تريحك؟ ما رأيك أن تسددي الرسوم بالعمل معي؟»

«بالعمل معك؟»

قال بهمس: «أنا المدير التنفيذي الجديد لمزارع كورتيز.»

شهقت بتعجب: «حقًّا؟»

هز رأسه وقال بنبرة متفاخرة: «لقد جعلني العجوز مسؤولًا عن أساس الإمبراطورية.»

«يا إلهي.. ستكون موظفًا حقيقيًّا؟»

رد بسخرية: «كنت أعمل في بنك إن كنتِ قد نسيتِ، ولكن نعم، سأعمل هنا، وأدفع عجلة التنمية.»

«أنت تملك عجلة تنمية خاصة بك، يا ابن الدون.»

ضحك على تعليقها، ثُمّ لاحظ نظرتها التي طالت قليلًا، وكأنها تتخيله في عمله الجديد.

«ولماذا تحتاجني؟»

«ستدرسين في مجالات تفيد عملنا، كما أن لديكِ ناقلة ممتازة وأفكارًا قد تساعدنا على التطور، أو حتّى إطلاق مشروع خاص.» ثُمّ ابتسم: «ما رأيك يا شريكتي؟»

أخفضت عينيها بخجل: «انتظر حتّى أبدأ دراستي، ثُمّ أقرر بعد.»

«سأظل بانتظارك دائمًا يا روي.»

لامست جلسته روحها، ورغم كل ما قاله وفعله هذا اليوم، وكل الدفء الذي أحاطها به، فإنها ما زالت تتعجب من قدرته على جعل قلبها يرفرف



وكأنها المرّة الأولى.

«اشربي الكاكاو قبل أن يبرد.»

أومأت بابتسامة صغيرة وارتشف من كوبه. مرت بضع دقائق لم يقولا فيها شيئًا، يتأملان الأفق، ويمتعان بدفء النار.

«هذا المكان مذهل..»

سأل بفضول: «هل يعجبك حقًّا؟»

«أجل.»

زفر بارتياح: «أتعرفين اعترافًا إذًا؟»

«ما هو؟»

«اشتريت هذه الأرض مؤخرًا.»

سألت باستغراب: «ولماذا؟»

«أنت تفضلين الأجواء الريفية، لذا أردت مكانًا مشابهًا، مميزًا وليس بعيدًا عن المدينة.» ثُمّ أضاف بصراحة: «كنت مترددًا في إخبارك، قريبًا تريدين الانتقال خارج المكسيك والعودة إلى بلاكبول بعد الدراسة، حتّى لو أعجبك. يريدنا العجوز أن نبقى هنا، ولكنني قلتها من قبل وسأقولها مجددًا.. سأتبعك إلى أي مكان يا روي.»

لمعت عيناها بالدموع مرّة أخرى، ثُمّ ابتسمت بمشاعر مختلطة: «أخبرني أنت برغبتك يا مارسيل.»

أطال النظر إليها، ثُمّ قال: «لم أملك منزلًا حقيقيًّا من قبل، وحتّى البيت الزجاجي لم يكن كذلك، لذا أريد أن نبني واحدًا معًا.. أريده أن يكون دافئًا، وآمنًا، ومجنونًا.. أريد منزلًا لا أكون فيه وحيدًا.»

انفجرت دموعها حين رأت عينيه تلمعان أيضًا، ثُمّ مالت نحوه، فبادلها حنانًا فيه من المواساة والرحمة ما عجزت الكلمات عن حمله.

«هذا ما أريده أيضًا، وسنبنيه هنا معًا.»

همست: «شكرًا لك.»

«بل شكرًا لك على اختيار هذا المكان.»

ابتعدت عنه قليلًا، فرمَش مجففًا دموعه قبل أن تسقط، وكأنه متعجب من نفسه: «لم أتوقع أن أتأثر إلى هذه الدرجة.»

مسحت دموعها، وقالت بسخرية: «وأنا لا يجب أن أبكي في أول موعد لنا، لكن ما باليد حيلة.»

غصّت ضحكاتها القصيرة، ثُمّ عادت روي تتأمل المكان بمنظور جديد؛ فيومًا ما، ستصبح هذه إطلالة منزلهم، وستحرص أن يكون كما تمنت ذاتها.

همست بعد لحظات: «لدي سؤال.»

«بالطبع لديك سؤال.. وبالطبع سأستمع.»

وكنزت كفه، ثُمّ قالت: «كنت أنوي سؤالك منذ متى.. ما الذي تنوي فعله بالمذكرات التي أهديها إليك؟ أعلم أنك تذكر كل حرف فيها بسبب قدرتك الخارقة، لكنني فضولية لأعرف ما الذي ستفعله بها.»

أشاح بوجهه نحو الأفق: «لم أقرر شيئًا بعد.. وشكرًا على وصف مرضي بالقدرة الخارقة، ولكنه قد لا يكون كذلك في المستقبل.»

«لماذا تقول ذلك؟»

هزّ رأسه بتنهيدة وكأنه ارتبك: «لا عليك. انسي الأمر.»



أطالت التحديق فيه، ثُمّ نظر إليها عندما لمست يده، وقالت: «أخبرني بما يجول في رأسك.»

«ليس بالأمر المهم، ولو أخبرتك فسوف تقلقين، ولا أريد أن أفسد موعدنا.»

«ستفسده لو أخفيت الأسرار عني.»

تمكنت منه، فتنهد باستسلام، ثُمّ قال: «عديني أنك لن تقلقي، ولن تفكري بالأمر كثيرًا.»

ردت بملامح ساكنة: «لا أستطيع أن أعدك بذلك، ولكنني أستطيع المحاولة.»

تأمل عينيها لحظة طويلة، ثُمّ قال: «اقترح عليّ قبل عامين أن أزور عددًا من الأطباء المتخصصين في علم النفس العصبي، وأتعمق في فهم حالتي أكثر.»

«و؟»

«تعرفين مسبقًا أنه مرض نادر، ولا يوجد له علاج جذري حتّى الآن، لكن أحد الباحثين أخبرني أن هناك احتمالًا أن تتراجع وظائف دماغي، وتقتل قدرتي على التذكر أسرع من الإنسان الطبيعي مع التقدم في العمر.»

رفعت حاجبيها: «لم أفهم.»

حاول تبسيط الأمر لها: «دماغي يتذكر على الدوام، وذاكرتي نشطة إلى حد غير طبيعي، ولكنني عندما أصل إلى الشيخوخة، قد تتدهور هذه الإمكانيات بقوة، وأسرع من عجوز سليم.»

اتسعت عيناها وانقبض قلبها بألم: «سوف.. تنسى.»

رد بسرعة: «إنه مجرد احتمال، وهو ضئيل جدًا، وما تزال الدراسات جارية، والنسيان مصير معظم الطاعنين في السن، لذا لا تقلقي، وآسف أنني أخبرتك بذلك، اتفقنا؟»

التفتت إلى الأمام محاولة ضبط أنفاسها، ثُمّ أغمضت عينيها وشبكت يديها، تفكر في المستقبل، وفي الحياة وتقلباتها، وكيف أن الوقت يغفل عنه الكثيرون، ولا يستغلونه كما ينبغي.

تنهد مارسيل وهو يشعر بالذنب: «آسف لأنني أخبرتك.»

هزت رأسها: «لا بأس.. قلت إنه احتمال ضئيل.»

«أجل، فلا تقلقي أبدًا.»

نظرت إليه بملامح مرتعبة، ثُمّ قالت: «لدي طلب.»

«ما هو؟»

لمست يده وشدت عليها، وكأنها تحاول أن تمده بالقوة: «أريدك أن تكتب كل شيء عن حياتك القديمة، ولا تخفي المذكرات، وتقرأها فيما بعد عندما يحين الوقت المناسب.»

خفض عينيه وقد بدا عليه التردد، فشدت على يده أكثر حتّى نظر إليها مجددًا.

«أعرف أنه أمر صعب، ولكنه ضروري يا مارسيل.»

أخذ نفسًا عميقًا، ثُمّ همس: «حسنًا.»

فتحت فمها لتقول شيئًا آخر، لكن الكلمات علقت، فشد هو يدها هذه المرة، وأمدها بالقوة لتكمل.



قالت رغم رجفة صوتها: «في المقابل.. سأوافق على أن.. يعلن الدون فيرناندو خبر خطوبتنا.»

اتسعت عيناه بدهشة واضحة، لكنه لم يقاطعها، بل انتظرها حتّى زفرت نفسًا طويلًا بعد معركة داخلية انتصرت فيها، وحسمت كل شيء.

«سأكف عن جلسات مع كارمن ولن أهدر الوقت.. لأستعيد قوتي، وسأكون بخير، لذا في مثل هذا اليوم من العام القادم.. لنعقد حفل زفافنا.»

لم يستطع أن يخفي دهشته في الثانية الأولى، ثُمّ ابتسم بدفء: «هل أنت واثقة؟»

سحبت يدها وقالت باندفاع: «لا تسأل كثيرًا ولا تتردد!»

«حسنًا، لن أسأل.» ثُمّ مد يده نحوها مجددًا، وقال: «هل يمكنني أن أمسك يدك مرّة أخرى، من فضلك؟»

وضعت يدها في يده، وتأملت أصابعها المتشابكة، ثُمّ قالت بصوت خافت: «أي طلبات أخرى يا سيد كورتيز؟»

سكت قليلًا، ثُمّ همست: «يمكنك أن تطلب ذلك الطلب مجددًا.»

اقترب منها أكثر، ثُمّ همس: «هل ما زالت في قلبك ذرة خوف أو شك؟»

تأملت عينيه، ثُمّ أجابت بصدق: «هناك القليل.»

طبع قبلة على يدها: «سأظل أنتظرك إذًا.. أمامك عام كامل.»

ترددت للحظة، ثُمّ أجفلت: «يا إلهي، عام واحد يبدو قصيرًا جدًا!»

هزّ يدها وقال بسرعة: «لا تبدئي بالتفكير الآن! لنشاهد فيلمًا آخر أو نقرأ رواية معًا.»

انفجرت ضاحكة: «عجيب أن ترى وجهك في المرآة! ما بك ارتبكت هكذا؟»

هزّ رأسه بسخرية: «لا أعرف. شعرت بالخطر فجأة، فاندفعت على الفور.»

«من الجيد أن بعض سلوكيات 005 ما تزال فيك.»

سأل باهتمام: «هل تريدين أن أتخلص منها؟ وأن أقمعه نهائيًا؟»

هزت رأسها: «لا.. إنه جزء منك وأريده أن يبقى، فأنت بشر ولست رجلًا مثاليًا خاليًا من العيوب. لست بالغة، وحتّى هي تلك العيوب. لا يوجد بشري كامل.»

نظر إليها مليًا، ثُمّ قال: «لا أريد جرح مشاعرك، ولكني لم أفهم ما قلتِه.»

ضحكت مجددًا: «ولا أنا! أقسم أنني أردت قول شيء حكيم، لكن الكلمات خانتني، وكنت آمل أن تتجاهل الأمر.»

ارتفع صوت ضحكته هذه المرة: «جزء 005 لا يستطيع فعل ذلك.»

قالت وهي تمسح دموعها: «يا إلهي.»

نظر إلى كوبه بتعجب: «أقسم أنني اشتريت مكونات الكاكاو بنفسي، فماذا وضعتِ فيه؟»

هتفت بصوت رفيع من شدة الضحك: «لا أعرف!»



استمرت ضحكاتهما المعدية، وخففت عنهما الكثير، ولم يتوقفا إلا بصعوبة، ثُمّ شربت روي الماء وهدأت، بينما هو يتأملها.

«شكرًا على الموعد الرائع. سأخطط لموعدنا الخامس.»

رمش باستغراب: «ولماذا الخامس؟»

رفعت ذقنها بتكبر: «هذه قاعدتي الخاصة. يجب على رفيقي أن يخطط ويأخذني في خمسة مواعيد رائعة قبل أن يحين دوري، لذا ابدأ من الآن وتجنب التكرار.»

تقبل التحدي بثقة: «ترقبي القادم.»

رقت ملامحها وسألته: «هل نعود إلى منزلنا المؤقت؟»

«أجل.. هيا بنا.»

36: ألعاب نارية

«مذكّرتي العزيزة..

انتهى أسبوعي الأول في الجامعة، وما زلت عاجزة عن التصديق! أذهب إلى المحاضرات، وأحمل دفاتري وجهازي اللوحي، وأشتري قهوتي وأجلس بين الطلاب، كما كنت أتخيل دائمًا.

اخترت تخصص إدارة الأعمال بعد تفكير طويل ونصائح من مارسيل، وأمامي طريق مليء بالتحديات والمحاضرات المعقدة، لكنني متحمسة جدًا؛ لأنني أتعلم أخيرًا، وأبني مستقبلًا مهنيًا يخصني، وأمضي في طريق اخترته بنفسي، لا طريقًا فُرض عليّ!

كارمن فخورة بالتطور الذي أحرزه، وأخبرتني أن أحوّل كل الحماس والاندفاع إلى وقود يساعدني على التقدم، وعيش حلمي الذي نسيته لسنوات.

أنا ممتنة، ومتفائلة بالمستقبل، وأشعر أن القادم أجمل...»



أطلقت روبي تنهيدة مرهقة بعد الانتهاء من كتابة مقال اعتكفت عليه لساعات طويلة داخل المكتب، وكانت ممتنة لأن مارسيل اصطحب الجميع إلى الخارج، حتّى تتمكن من التركيز بهدوء، ومن دون أي مشتتات.



مدّت جسدها بتعب، ثُمّ غادرت الغرفة ونادت الصغيرين، لكنّها لم تسمع أي رد. لا شيء سوى السكون الذي جعلها تشعر بالريبة.

هل يُعقل أنهم لا يزالون في الخارج؟

هبطت إلى الطابق السفلي، فتفاجأت برؤية باقة كبيرة من الورد الأحمر والأبيض فوق الطاولة، ومعها بطاقة تقول:

«ارتدي ملابس مريحة ودافئة، ثُمّ اذهبي إلى موقف السيارة. سيكون هناك رجل عجوز بشامة على وجهه وأخرى على عنقه، يُدعى سيرجي، وسيقلك إلى مكان ما.

ملاحظة: لا تهلعي، فميا وروبن وروكو وكذلك ميليسا كلنا بانتظارك، ونأمل ألا تتأخري إلى منتصف الليل.»

فرت منها ضحكة ناعمة، ثُمّ سحبت هاتفها واتصلت به، فأجاب على الفور:

«مرحبًا.»

«أولًا، شكرًا على الباقة. ثانيًا، الرحمة يا مارسيل!»

«هل هناك مشكلة؟»

«ملابس مريحة ودافئة؟ هل يمكنك أن تكون أوضح هذه المرة، وتذكر تفاصيل أكثر فائدة؟»

«مثل ماذا؟»

زفرت بانزعاج:

«هل هو موعد فاخر أم بسيط؟ هل هناك أنشطة عنيفة؟ هل يوجد جمهور؟ هل سنذهب إلى حفلة في دار أوبرا أو شيء مشابه؟ لا أريـــد أن

أكرر ما حدث في موعدنا الثالث!»

«ارتدي ما ترتاحين له يا روبي.»

«هذا ليس جوابًا! ماذا ترتدي أنت؟ وماذا ارتدى روبن وميا؟ وإلى أين أذهب؟ وماذا سنفعل؟ ما الذي تخططون له؟»

سمعت ضحكته الخافتة التي جعلت قلبها يرفرف، ثُمّ قال:

«استرخي. لن يكون هناك جمهور، وستكون أمسية خاصة بنا كعائلة.»

قالت ببرود:

«سآتي بملابس النوم إذًا.»

رد بنبرة متهكمة:

«لن أتفاجأ.»

شهقت بخفة:

«وتسخر أيضًا؟ حسنًا. ألغِ كل شيء. سأبقى في غرفتي.»

«ستحبطين ميا كثيرًا، فقد كانت العقل المدبر، وسأصاب بالحزن أيضًا.»

«حسنًا، سآتي من أجل ميا إذًا.»

«من أجلها فقط؟»

قاومت ضحكتها:

«وروبن أيضًا.»

«و..؟»



«روكو وميليسا.»

«ممتاز. أنا منبهر لأنك لم تنسي أحدًا.»

ابتسمت، ثُمّ همست:

«إلى اللقاء يا مارسيل.»

«سأنتظرك على أحرّ من الجمر.»



وبعد إعصار صغير في الغرفة، اتجهت روبي إلى موقف السيارة وهي ترتدي ثوبًا بلون برغندي يصل إلى ما فوق كاحليها، مع وشاح أبيض. تأملت ألا تكون قد أفرطت في التأنق، أو قصّرت فيه، ولم يتوقف عقلها عن التفكير ومحاولة توقع ما ينتظرها في هذه الأمسية الغريبة.

اطمأنت عندما طابق السائق العجوز المواصفات وعرّف عن نفسه بأدب. جلست في المقعد الخلفي، وأخذت تراقب الشوارع من النافذة، حتّى تسللت الشكوك إليها؛ إذ بدا الطريق مألوفًا جدًا.

وصلت إلى منزلهم المستقبلي، فرأت ممرًا ممهّدًا بالإضاءات، وفي نهايته مجسمًا كبيرًا من الورود على هيئة قلب، وطاولة طعام فاخرة، وفريقًا من الطهاة. كانت ميا متأنقة، وروبن كذلك، أما مارسيل فبدا كعارض أزياء، كالعادة...

شهقت بخفة عندما أدركت ما يجري، وأن مارسيل ينوي طلب يدها للزواج. لم تكن مستعدة، ولا ترتدي ما يليق بلحظة كهذه!

راودتها رغبة عارمة في الهرب، لكن ميا ركضت نحو السيارة بابتسامة عريضة قبل أن تمنحها فرصة للتراجع.



«سيدة سميث؟»

تنهدت روبي:

«أظن أنك يجب أن تناديني بالعميلة إكس إكس مربع مثلث، لأن مهاراتي في التحليل واستباق الأحداث تتطور بشكل مخيف.»

عقد العجوز حاجبيه:

«المعذرة؟»

ابتسمت وهي تفتح الباب:

«لا عليك. شكرًا على التوصيلة.»

ترجلت من السيارة واحتضنت ابنتها التي كادت تطير من الفرح، ثُمّ نظرت إلى ملابسها:

«اختيار موفق يا ماما.»

«ما الذي خططت له أنت ووالدك؟»

«مفاجأة! لن أخبرك حتّى لو عرضتِ عليّ الحلوى أو أفضل هدية في العالم كله.»

«لقد دربك جيدًا.»

ردت بفخر:

«ودربت روبن أيضًا. لقد وعدني ألا يقول شيئًا.»

أومأت روبي باستسلام:

«حسنًا..»



قادتها ميا عبر الممر وهي تتحدث بحماس عن غرفتها المستقبلية، بينما كانت روبي تنظر إلى مارسيل الواقف في النهاية باضطراب ازداد مع كل خطوة؛ لا تعرف بأي كلمات سيبدأ، ولا كيف ستتمالك نفسها حين يفعل.

مرّر عينيه عليها، ثُمّ قال:

«كنت آمل أن تأتي بثياب النوم.»

«كدت أفعلها، ولكن ربما في يوم آخر.»

حدّقا ببعضهما قليلًا، ثُمّ صرفت انتباهها إلى المكان حولهما وسألت بارتباك خفيف:

«ما مناسبة هذا العشاء؟»

«مجرد عشاء أولي قبل أن يبدأوا البناء.. تفضلي بالجلوس.»

جلست إلى الطاولة، فيما ذهب هو ليتحدث مع الطاهي وفريقه برفقة ميا، فاغتنمت الفرصة ونظرت إلى روبن.

تنهد فورًا:

«أقسمت ألا أقول شيئًا.»

«هل غسلوا دماغك أيضًا؟ هل هددك مارسيل؟»

هزّ كتفه بطريقة غير مباشرة.

«متى خططتم لكل هذا؟»

«لا يُسمح لي بإخبارك.»

ضيقت عينيها:



«من المفترض أن تخبر الأم بكل شيء.»

«لا أظن أن ذلك صحيح دائمًا حسب ما قرأت.. كما أنني أريدك أن تسعدي بالمفاجأة، مهما كانت.»

«ماذا تقرأ؟ أرجوك لا تخبرني أن العنوان: "دليلك لتصبح ابنًا ناجحًا".»

«لم أجد كتابًا بهذا العنوان مع الأسف، لكنني أقرأ كتبًا أخرى عن الحياة الاجتماعية والعائلية.»

ضحكت برقة:

«هذا لطيف جدًا يا روبن. ما هي المفاجأة؟»

ابتسم:

«أنا آسف، ولكن لا يمكن أن تخدعيني.»

تنهدت باستسلام وعبثت بشعره قبل أن تصرف نظرها إلى مارسيل وميا اللذين اتخذا مقعديهما على الطاولة.

«المقبلات في الطريق، لكن قبلها لدي هدايا للجميع.»

اشتدت أعصاب روبي وترقبت القادم، ثُمّ قال مارسيل وهو يمد علبة صغيرة نحو ميا:

«هدية لحورية البحر المستقبلية.»

شهقت ميا بفرح حين فتحتها ورأت قلادة ذهبية على هيئة قوقعة، تشبه التي ترتديها شخصيتها المفضلة، ثُمّ مدّ مارسيل علبة سوداء إلى روبن الذي بدا متفاجئًا ومتحفظًا في الوقت نفسه، لكنه أخذها على أي حال.



«شكرًا.»

التفتت روبي نحوه بترقب وتوتر، لكنه ناولها علبة أكبر بكثير من أن تكون الخاتم. فتحتها، فوجدت عقدًا ساحرًا من أحجار ياقوت متعددة الألوان، وقد نُقشت على بطانة العلبة المخملية جملة قصيرة:

«أنت كل الألوان.»

شكرته بابتسامة صادقة، وارتاحت للحظة حين أدركت أن الهدية ليست خاتم الزواج، لكن ذلك لم يبدد توترها؛ فما يزال مارسيل ينوي فعلها، ولا تعرف متى وكيف بعد..



انتهى العشاء من دون مفاجآت، لكن روبي لم تستطع تناول التحلية؛ كانت تراقب مارسيل في كل حركة، متأهبة للحظة التي سيباغتها فيها.

استأذنت للذهاب إلى الحمام، لكنّها اختبأت خلف الحجرة، وراقبتهما خلسة، حتّى رأت روبن يقترب من مارسيل.

«لست مجبرًا على إحضار هدية لي.»

«أعرف، ولكنك ابنها.»

قال روبن بتهكم:

«هل عليّ أن أناديك بأبي في المستقبل؟»

رمقه بنظرة جافة:

«لا.»

ابتسم روبن بتكلف:



«جيد، فلم أكن أنوي ذلك.»

تأففت روبي في سرها، ثُمّ خرجت من مخبئها ما إن لمحها مارسيل، وحاولت أن تبدو طبيعية قدر الإمكان.

«لماذا نحن واقفون؟ لنجلس.»

وقف أمامها، ثُمّ قال:

«في الواقع، نحن..»

انخفض فجأة، وبدا لها أنه سيجثو على ركبته، فأوقفته على الفور، ثُمّ اندفعت الكلمات من فمها بلا ترتيب:

«لا تفعلها! نحن أعلنا خطوبتنا، لذا لا داعي لطلب يدي ومفاجأتي! وبعد التفكير مليًا، اكتشفت أنني من قوم لورينزو ولا أحب المفاجآت، وليس لأنني لا أريد ذلك، بل لأنني لا أستطيع تخيل ردة فعلي وأنت راكع أمامي، مع أنني تخيلت هذا المشهد ألف مرّة في الروايات، لكنني في حالة هلع الآن و...»

سكنت عندما تبدلت ملامحه، وبدت الصدمة واضحة على وجهه.

هتفت وهي تدرك الحقيقة:

«يا إلهي.. لم تكن تنوي أن تطلب يدي.»

ارتبك مارسيل:

«هل كنت تتوقعين أن أطلب يدك؟ أعني لقد أعلنا خطوبتنا، لذا لم أتوقع أن...» زفر بقهر: «سحقًا، لقد خيبت ظنك. أليس كذلك؟»

حاولت تمالك أعصابها:



«لقد استبقت الأمور. انسَ ما قلته، وأنا لست محبطة.. نوعًا ما، لكنني أريد حقًا أن أعرف الآن ما مناسبة هذا العشاء.»

«لأفاجئك بالهدية وشيء آخر.»

سألت بانفعال:

«وما هو؟»

«انظري إلى السَّماء.»

فعلت روبي ذلك، وكادت تعترض حين لم يحدث شيء في اللحظة الأولى، ثُمّ انطلقت أولى الألعاب النارية نحو الأعلى، وتبعتها أخرى، ثُمّ أخرى، حتّى امتلأت السَّماء بألوانها وأشكالها المتفجرة.

انعكست الأضواء في عينيها وهي تتأمل المشهد بفم مفتوح من الدهشة، ثُمّ التفتت عندما نادتها ميا، لتجدها جاثية على ركبة واحدة، تمسك وردة بيضاء، وتبتسم بحماسة.

«هل تقبلين الزواج ببابا؟»

اتسعت عيناها أكثر. نظرت إلى روبن فوجدته يبتسم بلطف وهو يحمل روكو، ثُمّ إلى مارسيل الذي لم يكن مبتسمًا، لكن نظراته حكت كل شيء.

تذكرت حينها، قبل سنوات، أنها أخبرته على سبيل الدعابة أن يطلب يدها للزواج في الليل مع وجود الألعاب النارية، وتذكرت أنه كان حينها منشغلًا بالطبخ.. لكنّها علمت الآن أنه كان يصغي.

وقف إلى جوار ابنته ومعه العلبة المخملية المنشودة. فتحها، وكشف عن خاتم ألماسي بتصميم غير مألوف.



«ما إجابتك يا ماما؟»

لمعت دموع الفرح في عينيها، ثُمّ رمشت وقالت بابتسامة ناعمة:

«سأتزوج والدك يا ميا.»

قفزت بسعادة مفرطة وعانقتها، ثُمّ وقفت مع روبن وهي تبتسم بفخر، بينما أمسك مارسيل يد روبي وألبسها الخاتم برفق.

انتظرت ميا لحظة، ثُمّ هتفت باحتجاج:

«أين القبلة؟»

أشاح روبن وجهه بحرج، مثل روبي التي توترت فجأة، ثُمّ همس مارسيل:

«على الخد.»

لم تملك وقتًا للرد، فقد اقترب وطبع قبلة خفيفة على خدها، فاحتجت ميا إلى درجة جعلت روبن يحدق بها مصدومًا، ويلوم في سره أفلام الأميرات التي أفسدت عقلها.

«هذا يكفي يا ميا!»

استسلمت ميا وتركتهما بعد أن سحبها روبن ليشغلها بروكو واللعب، ثُمّ التفتت روبي وبررت:

«يجب أن ننتبه إلى تأثير الأفلام عليها.»

أومأ بسخرية:

«أجل. أنا أقرأ الكثير من الروايات وأشاهد العديد من الأفلام. لا بد أنها ورثت ذلك مني.»



ضيقت عينيها، فهزّ كتفه بابتسامة خفيفة، ثُمّ عادت لتتأمل الخاتم وتفاصيله بافتتان.

«لم أرَ مثله من قبل. يبدو التصميم غريبًا ولكن جميلًا في الوقت نفسه، وكأنه..» فكرت قليلًا: «وكأنه موجات صوتية!»

«صحيح، لقد صُمم بناءً على ترددات تسجيلك الصوتي وأنا أقول كلمة معينة.»

«حقًا؟ وما هي الكلمة؟»

رد بابتسامة:

«لن أخبرك حتّى موعد الزفاف.»

«ولكن سيقتلني الفضول!»

«سأحميك.»

نظرت إليه بابتسامة، ثُمّ عادت إلى الخاتم وأدركت شيئًا، فرمقته بنظرة منزعجة:

«تظاهرت بأنك ستجثو على ركبتك، ثُمّ ادعيت الارتباك.. كنت تردّ لي ما فعلته بك في المكالمة. اعترف يا مارسيل، لقد كشفتك!»

«لا أعرف عمّا تتحدثين.»

«أنت مكشوف، وأنا عميلة بارعة!»

أومأ:

«أنت بارعة في كل شيء.»

«سريعة البديهة؟»



«وسريعة البديهة.»

«ذكية جدًا؟»

«وذكية جدًا.»

«ما الكلمة؟»

«لن أخبرك.»

انكسرت ابتسامتها، ثُمّ تنهدت وخلعت الخاتم لتعيده إليه:

«كنت أعلم أن علاقتنا ستفشل. استعد خاتمك ودعني أرحل.»

أخذ بيدها وأعاد الخاتم إلى إصبعها فورًا:

«ليس وقت التلاعب المضاد. لن تخلعي هذا الخاتم حتّى نهاية حياتك. مفهوم؟»

رفعت ذقنها:

«إلى من توجه الأوامر؟ تظاهر أن تلاعبي انطلى عليك على الأقل، وأين خاتمك؟»

«لم ينتهوا منه بعد.»

«هل يمكنهم تصميم واحد بترددات صوتي؟ لدي كلمة مثالية لوصفك.»

سأل بفضول:

«حقًا؟ وما هي؟»

ابتسمت ببرود:



«حقير.»

ضحكت بسخرية عندما انمحت ابتسامته، وتأكد مارسيل أن سلسلة التلاعب هذه لن تنتهي أبدًا.

«ما الذي يضحككما؟»

«لا شيء يا ميا. لقد كنا ...»

نظرت إلى مارسيل، فأكمل عنها:

«على وشك أن نبدأ رحلة جديدة.»

قالت ببراءة:

«هل يمكنني المجيء؟ وروبن وروكو وميليسا؟ هل هذه رحلة جماعية؟»

ابتسمت روبي، ثُمّ أجابت وهي تنظر إليهم:

«أجل. هذه رحلتنا جميعًا.. كعائلة واحدة.»



37: الزفاف

مذكرتي العزيزة، التي لا أكتبها على ورق، وإنما داخل عقلي وفي توقيت حرج، فأنا الآن داخل قاعة الاختبار، أنظر إلى السؤال الأخير، وأنتظر أن يهبط الإلهام، لأتذكر إجابته بسرعة.. فهذا ليس آخر امتحان لي هذا الشهر فحسب، بل لأن اليوم هو يوم زفافي. مضحك، صحيح؟

من بين كل التواريخ الممكنة، قرر البروفيسور أن يكون امتحانه اليوم، ورفضت اقتراح مارسيل بتقديم أو تأخير الموعد، وها أنذا أحصد ثمار ذلك.. تبًا، كان عليّ أن أجعله بعد عامين من موعدنا!

تنهدت روبي بصوت مسموع، ثُمّ اعتذرت بإيماءة سريعة للطلاب من حولها، وعادت لتحدق في السؤال من جديد، متجاهلة التفكير بالفستان الأبيض، والحفل، والشعر، وفستان ميا، وبدلة روبن، ومارسيل الذي شغل أكبر حيز من أفكارها.

صفعت وجنتها بلطف كي تعود إلى تركيزها، ثُمّ تأملت الخاتم لثانية، وكتبت إجابة في اللحظة التي أعلن فيها البروفيسور انتهاء الوقت، وطلب تسليم الأوراق.

سلمت أوراقها، وخرجت من البوابة لتجد لورينا على وشك الانفجار. هتفت وهي تكاد تفقد أعصابها:

«لا أصدق أنك أمضيت الفترة كلها! هل تدركين كم تأخرنا؟ ليس لدينا وقت، الفريق بانتظارنا، ويجب أن نتجنب الزحام!»



«حسنًا، حسنًا، اهدئي.»

«آه يا روبي، كم تصعّبين مهمتي كإشبينة! هيا!»

سحبتها لورينا معها، وأسرعتا إلى السيارة التي انطلقت على الفور، وظلت روبي تستمع إلى قائمة طويلة من الملاحظات والتعليمات طوال الطريق.

ثُمّ ضيقت لورينا عينيها فجأة:

«أنت عروس، وليس من المفترض أن تكوني هادئة. أريد أن أرى هلعًا كي أقوم بتهدئتك!»

ابتلعت روبي ريقها:

«هذا نوع جديد من التوتر، حيث أبقى ساكنة.»

«تريدين الهرب، أليس كذلك؟ لقد كشفتك!»

فركت روبي يديها ببعضهما:

«لا يمكنني الهرب حتّى لو أردت، وهلعك يجعلني متوترة أكثر. دعينا نهدأ ونترك الأمور تجري بسلاسة.»

«سأوبخ طبيبتك على كلمة "سلاسة" هذه! فقد جعلتني أعاني وقتًا عصيبًا في كل شيء. أنا من يحتاج إلى علاج نفسي مع دراما الزفاف والتحضيرات، وأندريه وأندرياس! سأجن!»

قالت روبي بخوف:

«استرخي.»

«لا وقت لذلك! اقتربنا من منزلك، لذا ارتدي هذه الكنزة وغطي

وجهك، فلا نريد من أحد أن يراك، وخاصة مارسيل.»

«ولماذا؟»

زفرت لورينا بإرهاق:

«آه، لا تزالين أجنبية.. هذا يجلب الحظ السيئ. هيا تحركي الآن ولا تناقشي.»

نفذت ما طلب منها، وراقبت الطريق من خلف الزجاج، حتّى عبرت السيارة بوابة المنزل، أو تحفة ميكي الفنية.

لقد صمم منزل أحلامها؛ جمع بين أصالة الماضي وأناقة العصر الحديث ليبني منزلًا رحبًا، بحديقة ذات مساحة واسعة، ومسبح لميا، والمنطقة الخاصة بالتكنولوجيا..

توترت روبي عندما رأت بعض الضيوف قد وصلوا مسبقًا، ولمحت مارسيل يتحدث مع والده. لم يكن قد ارتدى بدلته بعد.

نظر نحو السيارة، ثُمّ استأذن واتجه إليها، لكن لورينا لوحت له بعنف، ودفعت بالعروس إلى الداخل بسرعة، حيث انتفض الفريق، وبدأوا العمل حولها، بينما هي تراقب وتشرف وكأنها قائدة عسكرية.

شعرت روبي أنها وسط عاصفة بسببها، ولكنّها مع ذلك ممتنة لكل ما فعلته بدلًا منها، حين كانت غارقة في الدراسة والامتحانات.

تركت مارسيل العاصفة عندما طرق باب الغرفة وطلب رؤيتها، لكن لورينا لم تسمح له حتّى أصر بنبرة أخافتها قليلًا، فسمحت لهما بالكلام من خلف الباب.

سألت روبي:



«ما الأمر؟»

رد باطمئنان:

«كنت آمل الاطمئنان عليك. كيف كان امتحانك؟»

«مرهق.»

«وكيف حالك الآن؟»

أسندت كتفها إلى الباب وأجابت:

«أنا بخير. توتر الزفاف فقط، وأنت؟»

«مشغول البال بك، وبالحفل، وكل شيء.»

قالت بتهكم خفيف:

«هل تريد الهرب يا ترى؟»

همس:

«أنا لا أهرب منك، بل إليك يا روبي.»

ابتسمت بخجل، ولم تعلق على كلامه.

ثُمّ جاءها سؤاله:

«ماذا عنك؟ هل ستهربين؟ هل يجب أن أقلق؟»

«لا أستطيع الهرب منك يا مارسيل، لأنك ستجدني دائمًا.»

«صحيح.»

قاطعتهما لورينا، فكبح شوقه لرؤيتها إلى وقت لاحق، وعاد إلى الخارج ليتابع الترتيبات ويتفقد الحراس بعينين يقظتين، مستعدًا لأي خطر قــد

يعكر صفو هذه الليلة.

«بابا! يقول جدي إنه يجب أن تأتي وتأخذ مكانك، فستبدأ مراسم الزفاف الآن!»

ومع افتتاحية موسيقية ناعمة، بدأ الضيوف بالجلوس في مقاعدهم ليشهدوا زفافًا عريقًا، وفق التقاليد المكسيكية، وبعض عادات آل كورتيز التي لا يوافق عليها مارسيل، لكنه لم يملك خيارًا أمام والده.

ثُمّ تغيرت الموسيقى، وأعطت المنسقة إشارتها، فمشى مارسيل فوق البساط الأبيض بهدوء يليق به، حتّى بلغ مكانه ووقف وحده، بلا إشبين؛ إذ لم يرَ حاجة إلى ذلك، ولم يكن في حياته صديق مقرب يقف خلفه في لحظة كهذه.

ولكن كان لوالده رأي آخر؛ وقف خلفه بثبات، وسرعان ما تبعه ريكاردو المبتسم، ثُمّ اتجهت الأنظار إلى لورينا، الوصيفة المتألقة بفستانها الوردي، وميا التي تنثر الورد على الطريق وتبتسم للجميع عدا أندريه الذي تجاهلها تمامًا.

وبعد لحظات، نهض الضيوف والتفتوا إلى الخلف، فظهرت روبي بثوب أبيض، ملكي في نعومته، وامتدت طرحتها خلفها برقة.

كانت الطرحة تغطي وجهها، لكنّها استطاعت أن ترى الوجوه المألوفة من خلالها؛ أندرياس المبتسم، وإيزابيل بفستان جميل يبرز حملها الأول، وهيغنز الذي قطع مسافة طويلة من أجلها، ولورينزو وإيلينا التي تحمل طفلها بين ذراعيها، وسكارليت أيضًا.

كان توترها قد بلغ ذروته، لكنه خف مع كل خطوة قربتها من مارسيل الذي بدا كتمثال لا يرمش، ولم تكن تعلم أنه لا يستطيع؛ كأن رمشة واحدة

قد تخطفها من أمامه، أو توقظه من هذا الحلم.

فهكذا كانت روبي في حياته؛ بدأت بمهمة، وتحولت إلى رغبة واحتياج، ثُمّ حلم مستحيل، وأخيرًا.. واقع يقف أمامه.

ازدرد ريقه بخفة وأوقف رعشة يديه مستعيرًا هدوءه في لحظة سريعة، ثُمّ رفع الطرحة عن وجهها، وتأملها طويلًا.

«مذهلة.»

ابتسمت بخجل وهمست:

«عارض أزياء.. واللون الرمادي يليق بك حقًا.»

أمسك بيديها، والتفتا إلى المسؤول الذي بدأ يرحب بالحضور، ويلقنهما نذور الزواج. كانا يرددان الكلمات خلفه، بينما اشتدت قبضتهما على بعضهما مع كل وعد.

وعندما أعلن زواجهما رسميًا، انهمرت دموع ميا، وراحت تمسحها بسرعة، فسألتها لورينا ما خطبها، لتجيب:

«إن ماما وبابا يبدوان رائعين. أنا سعيدة من أجلهما وكأنني أشاهد فيلمًا!»

ربتت على رأسها بحنان، ثُمّ اقترب الجميع لالتقاط صورة عائلية، وأخرى خاصة بعائلة روبي الصغيرة، لتكون ذكرى تزين جدار منزلها دائمًا.



انتقل الضيوف إلى طاولاتهم، واستمرت الفرقة بالعزف، وفيها حظي العروسان برقصة أولى قصيرة، قبل أن تبدأ التقاليد وتفرقهما!

كانت هناك رقصة جماعية على الموسيقى التقليدية، ثُمّ أُحضِر كرسيان، وأمرت لورينا مارسيل أن يصعد ويقف على أحدهما وهو يمسك بطرف طرحة روبي، وأن تفعل هي المثل في الجهة المقابلة، فنفذت من دون أن تفهم شيئًا، وبدأ الجميع بالعبور والرقص من تحت الطرحة في صفوف متتالية.

نظرت إلى لورينا وهتفت كي تسمعها:

«ماذا يعني هذا؟»

أجابتها بحماس:

«لنختبر توازنكما ونرى إن كان الزواج يستمر أم لا! حذارِ أن تقعي.»

شهقت روبي:

«يا إلهي، ما هذا الهراء؟»

«تقاليد!»

هتفت بضحكة:

«أنهيها بسرعة، فلا أظن أن مارسيل سيتحمل كثيرًا. يبدو على وشك قتل أحدهم!»

«آه، أنت محقة!»

أشارت لورينا إلى الفرقة الذين غيروا الموسيقى بسرعة، وهبطت روبي عن الكرسي، لكنّها لم تستطع الاجتماع بمارسيل؛ ظهر أندرياس ليراقصها، في الوقت الذي سرقت فيه فاليريا أخاها أيضًا.

«مبارك يا عروس!»

قالت وهي تسترق نظرة من فوق كتفه نحو مارسيل:

«شكرًا يا أندرياس.»

وفي الجهة الأخرى، قالت فاليريا لأخيها بابتسامة مشفقة:

«آسفة لأننا سنسرقك قليلًا. يقولون إن ذلك يجعلك تشتاق إليها أكثر، فلا تكرهني.»

قال ببرود يخفي ضيقه:

«هل هذا تقليد آخر؟»

«هناك الكثير من التقاليد، لكن هذه من عاداتنا الخاصة.»

«وماذا تبقى بعد؟»

«سترى!»



استمر العزف حتّى بعد غروب الشمس، وكانت روبي تشعر وكأنها على أرجوحة لا تهدأ؛ تدفعها لورينا من رقصة إلى أخرى، ومن ضيف إلى آخر.

رقصت مع هيغنز، ومع الدون كذلك، ثُمّ رقصت ابنتها معها، قبل أن ترقص مع روبن الذي ظل يراقب أندريه حتّى رآه يبتعد عن الجموع، فانتهز الفرصة ولحق به خلف البيت.

رمقه أندريه بامتعاض:

«ما الذي تريده؟»

أجاب روبن:

«التحدث إليك.»



«ابتعد.»

اعترض طريقه قائلًا:

«اكرهني كما تشاء، ولكن لا تصب غضبك على ميا، فهي تشتاق إلى صداقتك.»

«وما شأنك؟»

رد روبن بنظرات جادة:

«إنها أختي، ولن أسمح لك بإحزانها. أنت تريد مصادقتها مجددًا، ولكن كبرياءك يمنعك، فتميل إلى أذيتها.»

شد أندريه على قبضته:

«كفّ عن الهراء واغرب عن وجهي!»

اندفع ولكمه، لكن روبن تجنب الضربة في آخر لحظة وردها دون تفكير، فتراجع أندريه إلى الخلف ولمس شفته ليرى الدم قد سال من جرح صغير.

تجمد روبن مكانه، ثُمّ سارع بالاعتذار:

«آسف، لقد كانت ردة فعل سريعة فقط. لم أقصد!»

لهث أندريه أنفاسه، ثُمّ رمق روبن بنظرة مظلمة بدت أكبر من عمره، قبل أن يرحل وهو يتوعده بصمت.

وفي تلك الأثناء، أخذ مارسيل استراحة قصيرة، ثُمّ جلس الدون فيرناندو إلى جانبه، وقال بتهكم:

«هل تعبت؟ ما زلنا في البداية.»



رد ببرود:

«لا مزيد من التقاليد. هذا يكفي.»

«ستموت المتعة إذًا.»

ابتسم الدون بسخرية، ثُمّ حوّل نظره إلى فيرونيكا التي تحمل ابن لورينزو بين ذراعيها، بينما كانت زوجته ترتاح من الرقص.

قاطعه مارسيل بسؤال مفاجئ:

«لماذا وقفت خلفي؟»

أجاب الدون وهو يتأمل زوجته:

«كي يعلم الجميع أنك لست وحيدًا، وأن لديك عائلة. أنت ابني، ومن آل كورتيز، ونحن نساند بعضنا.»

ظل مارسيل يحدق فيه، ثُمّ قال:

«هكذا إذًا.»

تغيرت الموسيقى إلى أخرى أهدأ، وبحثت روبي عنه، فربت والده على كتفه وأمره أن يذهب إليها.

لمس ظهرها برفق وقال:

«تبدين مرهقة.»

زفرت بتعب وهي تضع يديها على كتفيه:

«يحق لي بعد كل هذا الرقص والتقاليد. آمل أن تستمر الموسيقى التي لا أقفز فيها..»

«وأنا آمل ألا يقاطعنا أحدهم مجددًا.»

ضحكت:

«لا أظن أن أمنيتك ستتحقق، فأنا أرى ريكاردو قادمًا نحوي، ولم أرقص معه بعد.»

أغمض عينيه لثانية كبح فيها استياءه:

«الرحمة..»



وبعد العشاء والرقص، والحب والغزل، خفتت الموسيقى وودّع الضيوف العروسين، متمنين لهما السعادة والحياة الطويلة، وكانت روبي المرهقة تجلس بين صغيريها، تكتفي بالابتسامات والمصافحات السريعة فقط.

«هل تعبت يا ميا؟»

«أجل، ولكن كان هذا أفضل يوم في حياتي! هل يمكننا إقامة زفاف كل عام؟»

ضحكت روبي وكذلك روبن، ثُمّ قالت:

«لا أظنني قادرة على الجمع بين العادات والتقاليد المكسيكية والإنجليزية مجددًا.»

ضحكت ميا، ثُمّ أشار روبن:

«يجب أن نذهب، فجدك بانتظارنا.»

«أجل. نراكما غدًا أو بعد غد يا ماما. أظن أنني سأنام يومًا كاملًا!» التفتت إلى أخيها: «هيا بنا، ولا تنسَ روكو.»



«اعتنيا بنفسيكما ولا تسببا المشاكل، اتفقنا؟»

ابتسم روبن بأدب ولوّح لها قبل أن يرحل مع أخته، ثُمّ نهضت روبي وودّعت لورينا بعناق طويل.

«شكرًا لك على كل شيء. لم يكن لينجح هذا الزفاف من دونك يا لورينا.. أحبك..»

أمسكت لورينا بيديها وقالت بعينين لامعتين:

«وأنا أيضًا أحبك، وهذا أقل ما يمكنني فعله يا صديقتي!»

تعانقتا مجددًا، ثُمّ رحلت مع البقية، ووقفت روبي إلى جوار مارسيل حتّى غادر الجميع، ولم يبقَ سواهما.

رفع يدها إلى شفتيه، وطبع قبلة على كفها، ثُمّ قال:

«تعالي معي.»

أحكمت على يده، وسارت معه داخل منزلهما، إلى الجزء الوحيد الذي طلبت من ميكي أن تكون جدرانه زجاجية من الداخل والخارج، مثل بيت الشاطئ الذي كان يملكه على الساحل.

كانت الأضواء الخافتة تنعكس على الزجاج، والشموع موزعة في الزوايا، وفوق البيانو الأبيض الذي توسط الغرفة.

ابتسمت روبي بانبهار، فيما اقترب مارسيل من مشغل الأسطوانات وفتحه، لتبدأ الموسيقى الناعمة بالانسياب حولهما.

«متى خططتم لهذا؟»

«بعد أن أنزلوني من كرسي التقاليد. أردت وقتًا لنا وحدنا دون مقاطعة.»



مد يده نحوها، فوضعت يدها في يده، وبدأ يتمايل معها على وقع الأنغام، يتأمل عينيها، ويقدس تفاصيلها بعيدًا عن أعين الناس.

رقصت معه حتّى مالت إلى حضنه، وظلا يتحركان على وقع الموسيقى، لا يفكران بشيء آخر سوى هذه اللحظة.

«جنتي.»

رفعت رأسها ونظرت إليه:

«ماذا؟»

«الكلمة التي صمموا منها الخاتم.»

ابتسمت بتأثر:

«أنا جنتك؟»

«أجل.. أنت جنتي على الأرض يا روبي، وأريدك أن تعلمي أن الوعود التي رددتها أمام الجميع لم تكن إلا جزءًا صغيرًا مما أحمله لك.»

ثُمّ لمس وجهها:

«أنا لا أعرف ما قد يواجهنا في المستقبل، لكني أريدك أن تعلمي أنه مهما حدث فسأحميك بحياتي، وسأكون درعك حتّى يفرقنا الموت ونلتقي من جديد.»

أسندت رأسها إلى كتفه واحتضنته أكثر، ثُمّ قالت:

«لم أقلها حتّى الآن، لكنني أحبك يا مارسيل. سأحميك بحياتي أيضًا، ولن أتخلى عنك أبدًا.. حتّى يفرقنا الموت ونلتقي من جديد.»



وهكذا تنتهي حكاية وُلدت من المعاناة، وعاشت بين الألم والسلام، حتّى وجدت النور، وجمعت بين قلبين أنهكتهما الحروب، فوجد كل منهما وطنه في الآخر.

وحين تنتهي حكاية، تبدأ أخرى؛ فلكل حياة فصولها، ولكل قلب رحلة لا تكشف نهايتها إلا عند آخر سطر..

النهاية



شكرًا لكل قارئ رافقني في رحلة 005 ، ولكل من أحبّ الشخصيات، وتأثر بها، ووجد جزءًا من نفسه بين سطورها. شكرًا لدعمكم، لانتظار كم، ولقلوبكم التي منحت هذه الرواية نجاحا أكبر مما حلمت به. وداعا على أمل أن نلتقي في رحلة أخرى..

محبتكم، شهد قربان



الباقوت

بعد اختطاف روبي، ينطلق مارسيل في طريق محفوف بالمخاطر، الخيانات، والدم، ليدمّر البارون، ويواجه ماضيه، وشياطينه، في مهمة أخيرة لا تنتهي إلا بالموت أو الحياة.

شهد قربان

shahdqurban

9 786038 622094

adabarabic7

services_book

servicesbook1

www.adab-book.com

t.me/twinklings

تصميم الغلاف @BOOK.COVERS